

# تَارِيخُ اِسْتِبْأَانِ تِلْكَ اِسْلَامِيَّةِ

او

كِتَابُ اَعْمَالِ الْاَعْلَامِ  
فِي مَنْ بُويعَ قَبْلَ الْاِحْتِلَامِ مِنْ مُلُوكِ الْاِسْلَامِ

لِلْهَيْزَلِيِّ الْوَزَرَئِينَ لِسُلْطَانِ الْوَلَدِيَّةِ الْخَطِيبِ السُّلْمَانِيِّ

تَحْقِيقُهُ وَتَعْلِيلُهُ

ا. لِيْفِي بْرُوفَنْسِيَال

اَسْتَاذُ اِلْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالسُّرْبُونِ  
مُديرَ مَعْهَدِ الْاَسَاتِ اِلْاِسْلَامِيَّةِ بِجَامِعَةِ بَارِيسِ

دارُ الْمَكْشُوفِ 2

## محتويات الكتاب

ز	مقدمة المحقق
٤	فصل في الإلمام بشيء من إطرء الأندلس . . . . .
٧	دولة عبد الرحمن بن معاوية أوّل من ملك الأندلس من بني أميّة
١١	دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية . . . . .
١٤	دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية . . . . .
١٨	دولة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية . . . . .
٢٠	دولة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم . . . . .
٢٣	دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم . . . . .
٢٦	دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم . . . . .
٢٨	دولة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله . . . . .
٣١	إيجاز خبر عمر بن حفصون . . . . .
٣٤	ذكر شيء من أخبار بني حجاج . . . . .
٤١	دولة المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر . . . . .
٤٣	دولة هشام المؤيد بالله بن الحكم . . . . .
٥٩	أيام المنصور محمد بن أبي عامر . . . . .
٨٣	دولة المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر . . . . .
٨٩	دولة عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر . . . . .
١٠٩	دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر . . . . .
١١٤	أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . . . . .
١١٥	أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية . . . . .
١١٦	أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في المرة الثانية . . . . .

١٧٢	دولة المستعين أحمد بن محمد بن سليمان بن هود
١٧٥	أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود عماد الدولة
١٧٥	أيام أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود
١٧٦	دولة بني دنون بطليطة وما إليها
١٧٧	أيام إسماعيل بن دنون بطليطة وما إليها
١٧٧	أيام يحيى بن إسماعيل بن دنون بطليطة وما إليها
١٧٩	أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن دنون
١٨٠	أيام المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس بطليطة
١٨١	عودة يحيى بن دنون إلى طليطة
١٨٢	ذكر مدة بني مَسْلَمَة المعروفين ببني الأفطس
١٨٣	دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس
١٨٣	دولة مظفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مَسْلَمَة بن الأفطس
١٨٥	دولة المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس
١٨٦	أيام المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس بحصن شانجش
١٨٩	ذكر مدة بني صَاح الأُمراء بالمرية
١٩٠	أيام معن بن صَاح
١٩٠	أيام محمد بن صَاح المعتصم بالله
١٩٢	أيام معز الدولة بن المعتصم بالله أبي يحيى بن صَاح
١٩٣	ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر
١٩٣	دولة محمد بن مظفر عبد الملك بن محمد المنصور الملقب بالمُعْتَصِم
	أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور
١٩٤	ابن أبي عامر
١٩٥	أيام عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر
١٩٦	ذكر أيام الدولة المنذرية
٢٠١	ذكر شيء من حديث بني طاهر بمرسية

١١٩	أيام سليمان بن الحكم بن سليمان في المرة الثانية
١٢٨	دولة علي بن حمود بقرطبة
١٣٠	دولة القاسم بن حمود بقرطبة
١٣٠	بيعة المرتضى من بني أمية
١٣٢	دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني بقرطبة
١٣٣	دولة القاسم بن حمود الحسني بقرطبة في كرّته الثانية
١٣٤	دولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
١٣٥	بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن
١٣٦	دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة كرّته الثانية
١٣٨	دولة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر
١٤٠	ذكر تلخيص الكلام في الأُمراء من بني حمود
١٤٤	ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الخلائف
١٤٥	ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها
١٤٨	أيام أبي الوليد محمد بن جهور
١٤٩	أيام عبد الملك بن محمد بن جهور
١٥٢	ذكر أيام بني عباد بإشبيلية وغيرها
١٥٣	ذكر أيام القاضي محمد بن عباد أوّل ملوكهم بإشبيلية
١٥٥	أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد
١٥٧	دولة المعتمد على الله محمد بن عباد
١٥٩	خبر المعتمد بن عباد مع ابن عمار
١٦٣	بقية أخبار المعتمد بن عباد
١٧٠	ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما إليها
١٧٠	أيام سليمان بن هود
١٧١	أيام المقتر بالله أحمد بن سليمان بن هود
١٧٢	أيام المؤتمن محمد بن المقتر أحمد بن سليمان بن هود

ذكر شيء من حديث ابن عبد العزيز ببلنسية  
 أيام القاضي أبي أحمد بن جحاف رئيس بلنسية  
 ذكر شيء من أخبار بني رزين  
 ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البت  
 ذكر بعض صغار الرؤساء بالأندلس  
 ذكر من تيسر من ملوك الموالي الأمويين والعمريين  
 أيام الفتى خيران العمري  
 أيام الفتى زهير العمري  
 أيام أبي الجيش مجاهد العمري  
 أيام علي بن مجاهد إقبال الدولة  
 أيام الأميرين مبارك ومظفر العمريين وخبر خيرة الصيقل العمري  
 ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية  
 دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي  
 أيام زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي  
 دولة حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد  
 دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها  
 دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس  
 أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس  
 أيام شيخ زنادة محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي  
 أيام إسحاق بن محمد بن عبد الله بقرمونة  
 خبر سائر رؤساء الطائفة البربرية  
 ذكر تصيير أمر الأندلس إلى ملوك لمتونة المدعويين بالمرايطين  
 دولة الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس  
 دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بالأندلس  
 دولة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بالأندلس

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطيين اللتونيين من الملوك

والرؤساء والثوار  
 أيام أبي القاسم بن قسي مدعي الهداية  
 أيام أحمد بن حمدين الأمير القاضي بقرطبة  
 أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بمالقة  
 أيام أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية  
 أيام عبد الرحمن بن رشيق بمرسية وما إليها  
 أيام الأمير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر بمرسية  
 أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الأمير القاضي بأربولة  
 أيام القاضي المتأمر يوسف بن عبد الرحمن بن جزري  
 أيام الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي ابن مردنيش  
 أمير شرق الأندلس  
 أيام يوسف بن هلال صهر ابن مردنيش  
 أيام المتأمر إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك  
 أيام أحمد بن ملحان بوادي آش  
 ذكر تصيير أمر الأندلس إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعويين  
 بالموحد بن  
 دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس  
 دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالأندلس  
 دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس  
 دولة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس  
 ذكر الثوار والطوائف والمتملكين من بعد دولة الملوك آل  
 عبد المؤمن بالأندلس  
 بقية أخبار بني مردنيش بشرق الأندلس  
 أيام الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وبنيه



## مقدمة المحقق

نُتِبَ في هذا السفر قسماً كبيراً من كتاب «أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، وهو القسم المتعلق بتاريخ إسبانيا في العهد الإسلامي.

وكتاب «أعمال الأعلام» من آخر التآليف العديدة التي صنفها - طيلة حياة مفعمة بالحوادث - رجل الدولة والأديب الغرناطي الشهير الذي عاش في القرن الرابع عشر المسيحي، أعني لسان الدين محمد بن الخطيب. وقد وصف هذا الكتاب أو نشر منه نبذة عدة مستشرقين وهم: ف. كودرا F. Codera، وفانيان E. Fagnan، وح. ح. عبد الوهاب، وآخرين م. م. أنتونيا M. M. Antuna، فذكر كل بدوره الظروف التي أُلّف فيها. ولنكتفِ - مع إحالة القاريء على دراساتهم - بتذكير موجز لتلك الظروف:

فبعد أن مثل ابن الخطيب - طوال سنين عديدة - دوراً هاماً في البلاط الناصري بغرناطة كوزير للسلطان محمد الخامس، اضطرتته وشايات أعدائه إلى الهجرة من إسبانيا إلى المغرب حيث حلّ بتلمسان لا ئذاً بالسلطان المريني أبي فارس عبد العزيز. فأحسن ذلك الملك ضيافته وأبى تسليمه إلى حكومة غرناطة التي كانت تلح في طلبه. ولكن أباً فارس مات في السنة التالية ( ٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م ) وبويع مكانه ابنه أبو زيان محمد السعيد ولم يبلغ الرابعة من عمره. واجتهد بن الخطيب في كسب عطف الوصي على العرش المريني الوزير أبي بكر بن غازي. وفعلاً تمتع ابن الخطيب في ولاية الملك الطفل القصيرة بالأمن التام. ولكن لم تطل المدة حتى خلع أبو زيان وولي مكانه أبو العباس المستنصر ( ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م ) فاشتد خوف المهاجر المسكين، وحق له الخوف إذ انتهى به الأمر إلى أن سجن بفاس، ثم خنقه بسجنه، في بعض الليالي،

٢٧٤	.	.	أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب بمرسية
٢٧٥	.	.	أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي بمنورة
٢٧٦	.	.	أيام أبي عمر حكم بن سعد بن حكم الأموي بمنورة
٢٧٧	.	.	دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي
٢٨٦	.	.	دولة الأمير محمد بن نصر الغالب بالله ( مبتور )
٢٨٧	.	.	ذكر الخلاف بين ابن نصر وبين بني اسقيلولة
٢٩١	.	.	حديث امتسك بني الحكم برندة
٢٩٢	.	.	خبر انتزاع الرئيس أبي الحجاج بن نصر بوادي آش
٢٩٤	.	.	دولة الأمير أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر
٢٩٥	.	.	دولة محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٤	.	.	دولة يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر
٣٠٦	.	.	دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٧	.	.	دولة إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٨	.	.	دولة محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر
٣٠٩	.	.	دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
			ذكر التعريف بما أمكن من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار
٣٢٢	.	.	الفهرس الأول في أسماء الرجال والنساء
٣٣٩	.	.	الفهرس الثاني في أسماء الأماكن
٣٦١	.	.	الفهرس الثالث في أسماء القبائل والعشائر والأجناس
٣٦٨	.	.	الفهرس الرابع في أسماء الكتب الواقعة في هذا الجزء
٣٧٠	.	.	

رسل' أحد أعدائه الحريصين على هلاكه .

وقد كان تأليف كتاب « أعمال الأعلام » في الفترة القصيرة التي مرت بين تقليد السلطان المريني الطفل أبي زيان وبين خلعه ، أي بين سنتي ٧٧٤ و ٧٧٦ ( ١٣٦٢ - ١٣٧٤ م ) . وعنوان الكتاب نفسه يدل على الغاية التي رمى إليها ابن الخطيب بتأليفه . فقد أراد أن يهديه إلى حاميه ، السلطان ووزيره الوصي . فأحب أن يخصص كتاباً لذكر ولاية جميع ملوك المسلمين الذين بويعوا قبل سن الاحتلال . ولم يكن ذلك ، طبعاً ، إلا مناسبة . فقد تجاوز ابن الخطيب ، من أول وهلة ، ذلك الإطار التاريخي الضيق وأخذ يجمع المواد لتاريخ عام كبير يشمل دول الإسلام ويمكن أن يكون شبه مقابل لتاريخ معاصره ابن خلدون ويحل فيه المغرب وإسبانيا المحلّ الأهم .

\*\*\*

يمكن القاريء أن يجد في « مشاركة » السيد ح. ح. عبد الوهاب في « ذكرى مرور مائة سنة على ميلاد ميشال أماري Centenario de Michele Amari » تفصيل عناوين الأبواب التي اشتمل عليها القسم الأول من كتاب « أعمال الأعلام » وهو المتعلق بالشرق ، والقسم الثالث المتعلق بشمال أفريقية وبصلية . وهذا القسم الأخير يبدو أنه بقي غير تام : فالدولة الموحدية لم تحل فيه بالمكان اللائق بها ولم يُعرض فيه إلى تاريخ بني مرين وبني عبد الوادي وبني حفص . وكل ذلك يدل - كما لاحظ السيد ح. ح. عبد الوهاب - على عجلة المؤلف الذي - إن صدقنا ما جاء في بعض المخطوطات - يكون قد ألف قسماً من كتابه ، إن لم يكن جميعه ، في أربعين يوماً .

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى القسم الثاني الخاص بتاريخ إسبانيا المسلمة ، وهو أهم أقسام الكتاب ، وذلك يتجلى من أول نظرة تلقى على الكتاب . وإذا كان ابن الخطيب يمر سريعاً بما حدث في إسبانيا قبل القرن العاشر المسيحي متبعياً دون كبير اختلاف « كتاب البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ،

ح

فهو يعالج تاريخ ما يلي ذلك باطناب ودقة لا نجدهما عادة في التواريخ المنشورة إلى يومنا هذا .

وقد أثير منذ زمن إلى أهمية القسم « الأندلسي » من كتاب « أعمال الأعلام » . فبند سنة ١٨٩٢ نبه إليها المستشرق ف. كودرا F. Codera وعبر عن رجائه في أن ينشر نص ذلك القسم . وذلك الرجاء هو الذي حرصنا على تحقيقه يوم أمكننا أن نعتد المخطوط الموجود بمكتبة جامع القرويين بفاس وهو ، بلا منازع ، أحسن المخطوطات التي يمكننا أن نتصرف فيها اليوم . وقد تيسر لنا أن نتحقق أن المخطوطات المعروفة لتاريخ ابن الخطيب ( أي مخطوطات القرويين والجزائر وتونس ومجريط ) تنتمي كلها إلى أسرة واحدة وان النقص الموجود فيها لا يختلف بما فيه الانقطاع الفجائي لسياق التاريخ ، ذلك الانقطاع المشار إليه هنا في الصفحة ٢٨٦ . ولذلك السبب لم يسهل لنا تعدد النسخ اثبات النص ، وهو نص يتصف في أكثر الأحيان بإيجاز كبير وبنزعة أدبية ليست نزعاً غالب المؤرخين المنتسبين إلى المغرب .

ولقد نفذت منذ مدة نسخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب . ولذلك قبلت بسرور طلب الشيخ فؤاد حبش مدير دار المكشوف في بيروت عندما رغب الي أن أضع طبعة جديدة لهذا الكتاب تحت تصرف من يهتمون بتاريخ الأندلس . وتمتاز هذه الطبعة الجديدة بأن أكثر الكلمات فيها مشكول . وقد بذلت عناية خاصة بضبط حركات الأعلام التي كثيراً ما لا يحسن قراءتها المشتغلون بالتاريخ في الشرق .

ط

وهذا المؤلف الأخير نفسه في :

Catalogue des Manuscrits Arabes de la Bibliothèque - Musée d'Alger,  
Paris, 1893. p. 449.

— وعن مخطوط مكتبة مجمع التاريخ بجربيط انظر كودرا F. Codera  
المرجع نفسه المذكور سابقاً .

— وعن مخطوطي مكتبة جامع الزيتونة بتونس انظر :

M. Roy, Extrait du Catalogue des manuscrits .... de la Grande  
Mosquée de Tunis, Vol. I, Tunis, 1900, No 4936 et No 4937.

ج — الأقسام المنشورة والمترجمة :

١ ( الأبواب المتعلقة بجاهد أمير دانيه وابنه اقبال الدولة ) في هذه الطبعة  
من ص ٢١٧ إلى ص ٢٢٢ ) انظر :

F. Codera, Mochéhid, conquistador de Cerdana ( Centenario Michele  
Amari, Palerme, 1910, vol. II, pp. 130 - 133 ).

٢ ( قائمة الأبواب : نص الأبواب المتعلقة بالعبيدين وبني زيري من ملوك  
أفريقية ؛ والأبواب المتعلقة بتاريخ أفريقية في :

حسن حسني عبد الوهاب :  
H. H. Abdul - Wahab,  
Contribution à l'Histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile ( Ibid.,  
vol. II, pp. 427 - 482 ).

٣ ( الأبواب المتعلقة بثوار الميردين في آخر أيام دولة المرابطين ) في هذه  
الطبعة ص ٢٤٨ - ٢٥٢ ) في :

David Lopes, Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano,  
Lisbonne, 1911, pp. 130 - 137.

٤ ( الباب الخاص بملوك اسبانيا المسيحيين ) في هذه الطبعة ص ٣٢٢ —  
٣٣٨ ) في :

M. M. Antuna, Una version arabe compendiada de la « Estoria de  
España » de Alfonso el Sabio ( Al-Andalus, vol. I, 1933, Madrid -  
Grenade, pp. 105 - 154 ).

انظر استعراضي لذلك المقال في :  
Hespéris, t. XVIII, 1934, p. 102.

ك

## ثبت المراجع

أ — ذكر « كتاب أعمال الأعلام » المؤلفون المغاربة الآتية أسماؤهم :

— المقرئ في « نفح الطيب » ط . القاهرة ١٣٠٢ — ١٣٠٤ هـ . الجزء  
الرابع ، ص ٢٤٤ .

— والمقرئ أيضاً في « أزهار الرياض » ط . تونس ١٣٢٢ هـ . الجزء  
الأول ، ص ١٧٧ .

— والافرائي في « نزهة الحادي » ط . هوداس Houdas باريس ١٨٨٨ ،  
ص ٢٥٩ .

— والكتّاني في « سلوة الأنفاس » ط . فاس ١٣١٠ هـ . الجزء  
الثالث ، ص ١٨٩ .

— والناصري في « كتاب الاستقصاء » ط . القاهرة ١٣١٢ هـ . الجزء  
الثاني ، ص ١٣٣ .

ب — وصف المخطوطات :

— عن مخطوط مكتبة جامع القرويين أنظر :

أ . بل وعبد الحي الكتّاني ،  
A. Bel et Abdal-Haiy al-Kattânî ,  
Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de la Mosquée d'El -  
Qaraouiyyine à Fès, Fès 1918, p. 101 ( No 1286 ).

— وعن مخطوط المكتبة القومية بالجزائر ( عدد ١٦١٧ ) والنسخة التي  
نسخت لكودرا Codera أنظر :

F. Codera, Mision Historica en Argelia y Tunez, Madrid 1892,  
p. 155 sqq, 177 - 178.

E. Fagnan, dans Revue Africaine, 1890, XXXIV, p. 259 - 262.

ي

د - انظر كذلك : Brockelmann G. AL. II, p. 262 (4).

A. Prieto Vives, Los Reups de taifas, Madrid, 1926.

إن كتاب أعمال الأعلام لم يذكر في المقال المخصص لابن الخطيب بقلم

C. F. Seybold في دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢١ .

كتاب أعمال الأعلام  
فيمَن بُويع قبل الاحتِلام  
مِن ملوكِ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

## قال لسان الدين بن الخطيب

( مفتحاً القسم الثاني من كتابه المسمى بأعمال الأعلام )

( فيمن يبيع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام )

( وهو قسمٌ يتعلق بأخبار الجزيرة الأندلسية )

ويتضمن بالإشارة إلى من دال بالأندلس من جهة المغربية ، واقتطاعها عن الممالك الشرقية ، والدول العباسية ، والشيعية العلوية ؛ وفيهم ملوك بني أمية ، وملوك بني حمود الأدارسة ومن بعدهم من ملوك الطوائف ، والثوار أولي البهرج الزائف .

نقول بعد استعانة الله : قد كان الأولى بنا أن نذكر بعد دول الملوك بالشرق من يتصل بهم من حدود البلاد الغربية ، من الجهات الإفريقية ، وما وراءها غرباً إلى البحر المحيط ؛ وبعد ذلك ، نكرّ على الأندلس بالذكر ، ونصرف القول ، بعد الفراغ من متصل البر ، إلى ذكر ما وراء البحر ؛ لكننا راعينا في ذلك غرضين : أحدهما المناسبة في الأموية ، فإن ملوك الأندلس منهم إنما هم بقايا الدولة بالشرق ، وفروعٌ عن أصولها ، وفلٌ من جمهورها ، ومقتطعٌ من جرثومتها ؛ فقد كان ملكُ الأموية فتحها ، وأمرؤهم ملوكها ، ثم استقرّ بها ذريتهم ، فأقاموا رسماً غير خامل القدر ، ولا مغفل الذكر . والثاني ما بئنا عليه من الحتم بالدولة المرينية ، لنبدأ الكتاب بذكر السلف الواجب الحق ، ونختتمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحق ؛ فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك ، وعقبنا بالملك ، وختمنا منهم بختام المسك . وولينا المعبة ما اعتذرنا عنه من الترتيب ، انبرأ من

التثريب ، وشأننا في هذا القسم قريب ، مما بَنَيْنَا عليه من الاختصار والتثريب ، إلا ما كان المستظهر والغريب ، أو المتأخر القريب ، فقلنا خَلَوْنَا من الإسهاب ، وتزيين الكتاب بالآداب ؛ وحسبنا الله ميسر الآراب ! لا إله إلا هو !

### فصل في الإلمام بشيء من إطرء الأندلس

ليعلم أن وطن الأندلس حظ من المعمور كبير ، وإنما سمّي جزيرة بحكم المجاز لاعتراض البحر الشامي الخارج من دائرة البحر المحيط من قبل الزقاق بطنجة قاطعاً بين هذه الأرض الأندلسية ، وبين ما يجاورها من البر المتصل قبله ، إلى أن يتصل إلى الخليج بأحواز القُسطنطينية . وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطتها ، وأخذها من الأقاليم بمحظوظ ؛ فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل مائلاً إلى البرد . وقد خصها الله من الري ، وعَدَق السقيا ، ولذاذة الآفوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور المياه ، وكثرة الفواكه <sup>١</sup> ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وبيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفاذ الإدراك ، وإحكام التدن والاعتار ، بما حرمه الكثير من الأقطار بما سواها <sup>٢</sup> . حدثني بعض من كنت أردده إلى ملوك النصارى بأعماق أرضها ؛ فقال : مررت في مرحلة واحدة بأزيد من ثلاثمائة بلد في نهاية الأحكام ، وحسن الوضع ، وتشديد البناء ، كأنها سوسان الرياض ، يومض برقها في مدهام الغياض ، لعدم الصحاري والمفاوز بذلك الوطن . وقيل إن ذرعه سنة أشهر . وقال لي بعض الفضلاء من أصحابنا ، الذين جلبوا الأشتار ، وخبروا الأقطار ، وصحبوا الحداة والقطار ، وهو حجة في الأخبار ، ومدرك الأنظار : اعلم أن الأندلس ، بالنسبة إلى ما وراء

١ ق و ج : « ودرور الفواكه وكثرة المياه » .

٢ ذكر المقرئ هذا الوصف في « نفع الطيب » و « أزهار الرياض » ( ج ١ ، ص ٦١ ) .

البحر كَلَّه ، تل وحضارة ؛ والجميع صحراء متفاضلة الأحوال في البداوة . وإن قدرت أن قطرنا من الأقطار التي تقع عليها عينك بعده ، يوازنها أو يشبها في ظرف أو حسن أو زينة أو إحكام صناعة أو فلاحه ، فاعتقد أنك غلظت في الأمر ، وأن الخبر غير الخبر .

قلت : وهذا أيضاً غلط ؛ فإن استحسان الأوطان لا يملك فيه زمام الهوى . وممن فتن بالأندلس فتنة هذا أبو إسحق بن خفاجة في قوله <sup>١</sup> : [البسيط]

ما جنة الخلد إلا في دياركم وهذه كنت لو خيرت أختار  
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

ولما فاض سيل الإسلام ، وبلغ ملك الأمة المحمدية ما زوى لنبيها ( صلى الله عليه وسلم ) من الأرض ، وعبرت سيوف الدعوة العربية البحر إلى الأندلس ، ونظروا إلى ما وراء البحر في خطتها من بلاد طيبة ، وبركات صيبة ، اغتبطوا ، وارتبطوا ، وتمهدوا ، واستقرؤوا ، وتوالدوا ، ونسوا أوطانهم ، وألقوا أعطانهم . واستقام للإسلام بها ملك كبير ، وساطان شهير ، قد انفرد بعموم خيره ، عن غيره ، وغني بما حواه ، عن سواه ؛ ولذلك ما نقل عن منصور بني العباس أو مثله ، أنه قال ، وقد جرى ذكر بعض أزداده من ملوكها : « وما الذي يُقال في رجل يركب من نتاجه ، ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجِه ؟ » قلت : ولو شاء لزاد : ويأكل من علاجه ، ويتقرب إلى الله بجهد أعلاجه ، إلا أنها اليوم لم يبق لها إلا علالة لا تروي غلّة ، ونفاضة مزاد لا يحسن بها قلّة ، لم تحفظ دماءها إلا فتن شعلت العدو ، وشرعت الهدو ، لطف الله بمر بها مرّ النسيم بقدرته !

وحديث الفتح ، وما فتح الله على الإسلام من المنع ، وأخبار ما أفاء

١ راجع مق ( ط بولاق ) ج ٤ ، ص ٦٧٤ : « شعر ابن خفاجة » تحقيق كرم البستاني

ص ٨٦ . والبيتان هما الآخران من قطعة ثلاثة أبيات . ونص الأول :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

الله من خير ، على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ،  
 تملول قصاص وأوراق ، وحديث أفلول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ،  
 وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في حانوت قشتاش . والقصد أنه دخلها  
 من الأمراء ، من لدن افتتاحها على عهد ولد عبد الملك بن مروان ، إلى لحاق  
 عبد الرحمن بن معاوية بجدد الدولة الأموية بها ، نحو من عشرين رجلاً ،  
 منهم طارق بن زياد ، الذي تولى افتتاحها ، وإليه ينسب جبل الفتح  
 المدعو بجبل طارق ، وخبره بها شهير ، مولى موسى بن نصير ، فكانت  
 إمارته فيها سنة ؛ ثم موسى بن نصير البكري ، وإليه ينسب الفتح ، إذ  
 كان طارق من قبله ؛ وهو الذي تم ما بدأه بها ، فملك هو وابنه عبد العزيز  
 ثلاث سنين ، ثم قتل بالغنائم ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان سلطانه  
 الذي ولّاه مريضاً يجود بنفسه ؛ وولي الأمر بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ؛  
 فأشار على موسى بن نصير بالتربص ليكون دخوله في أيامه إذا قضى الوليد  
 نجه ؛ فأبى عليه لصلابة موسى ، ودينه مشهور وفائه ؛ فلما ولي ، آسفه ،  
 ونكبه ، وقتل ولده بما هو معلوم . ثم ولي أيوب بن حبيب اللخمي ابن  
 أخت موسى بن نصير ؛ فملك ستة أشهر ؛ ثم دخلها الحرث بن عبد الرحمن  
 الثقفي ؛ فملك سنة وسبعة أشهر ؛ ثم دخلها السمح بن مالك الخولاني ؛  
 فملك سنتين وسبعة أشهر ؛ ثم دخلها عنبسة بن سحيم الكلبي ؛ فملك  
 أربع سنين وخمسة أشهر ؛ ثم دخل يحيى بن سلامة الكلبي ؛ فملك سنة  
 وستة أشهر ؛ ثم دخل حذيفة بن الأحوص القنسي ؛ فملك ستة أشهر ؛  
 ثم ولي عثمان بن أبي نسعة الحثعمي ؛ فملك ستة أشهر ؛ ثم ملك الهيثم  
 ابن عبيد الكلبي ؛ فملك أربعة أشهر ؛ ثم ولي عبد الرحمن بن عبيد الله  
 الغافقي ؛ فملك سنتين وسبعة أشهر ؛ ثم ولي عبد الملك بن قطن الفهري ؛  
 فملك ثلاث سنين وشهرين ؛ ثم دخل عقبة بن الحجاج السلولي ؛ فملك

١ راجع هذا الكلام منسوباً إلى ابن الخطيب في «التفح» و«أزهار الرياض» (ج ١، ص ٦١)  
 للمقري .

خمس سنين وشهرين ؛ ثم دخل القصر عبد الملك بن قطن مرة ثانية ؛  
 فملك سنة وشهراً ؛ ثم دخل بلنج بن يشر القشيري صاحب الطالعة  
 البلجية من أهل الشام ، مفلولاً قد كسره البربر في خبر مشهور ؛ فملك  
 ستة أشهر ؛ ثم تولى ثعلبة بن سلامة العاملي خمسة أشهر ؛ ثم ولي أبو  
 الخطار حسام بن ضرار الكلبي ؛ فملك سنتين وثمانية أشهر ؛ وكانت في  
 أيامه حروب شهيرة ؛ ثم ولي ثوابة بن سلمة الجذامي ؛ فملك سنتين  
 وشهرين ؛ ثم ولي الأمر يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ فملك تسع  
 سنين وأحد عشر شهراً ؛ واستقر له ملك الأندلس لمصاهرة الصمّل بن  
 حاتم ، إلى أن طرده من قدوم صقر بني أمية عبد الرحمن بن معاوية ما  
 كدر شربه ، وروّع سربه ، عادة الأيام ، والبقاء لمن انفرد بالدوام -  
 سبحانه لا إله إلا هو !

## دولة عبد الرحمن بن معاوية

### أول من ملك الأندلس من بني أمية

قالوا : لما أتيح للعباسية الظفر بمروان بن محمد الجعدي بأحواز مصر ،  
 وانقرضت دولة بني أمية ، وصاحت بهم الأيام ، ووقع الطلب عمّن أفلت  
 منهم ، كاث عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك هذا بمن شرده  
 الخوف ، واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب .

وقال ابن أبي الفياض ، مخبراً عنه عن نفسه ، قال : « سمعت مسئلة  
 ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ( عمّي ) يقول يوماً لجدّي هشام بن  
 عبد الملك ، وهو خليفة ، وقد نظر إليّ : « هذا هو الذي يحيي ملك بني  
 مروان بالمغرب بعد ذهاب ملكنا بالشرق ! » فكان جدّي يفضّلني من  
 حينئذ ؛ وما زالت تلك الكلمة تعمل في قلبي إلى أن انخرم ملكنا بالشرق ؛

فخرجت 'أريد' المغرب ؛ فملك 'الأندلس' .

**قالوا :** واجتاز عبد الرحمن ، وقد لحق به بدر مولاة بشي من الذهب وجوهر بعث به أخته إليه ليعيش به . ونذر به أمير إفريقية عبد الرحمن بن حبيب ؛ فأفله . واستقر بمغيلة ، وكتب من ساحلها إلى من بالأندلس من موالي بني أمية وصنائع دولتها ؛ فاستجابوا له ، واستثري له بساحل 'ندمير' مركب عاد إليه فيه بدر مولاة ، في طائفة من الصنائع ؛ فركب فيه البحر ، واحتل بمرمى المنكب غرة ربيع الأول من سنة ١٣٨ . ثم تحرك إلى البيرة ، واستجاب الناس إلى دعوته . ولما كملت لديه الجيوش ، عقد اللواء ، ونهض نحو قرطبة . وكان الأمير يوسف الفهري يومئذ غائباً عنها ، محاصراً مدينة سرقسطة ؛ فلما بلغه الخبر ، قفل إلى قرطبة ، فنزلها . وأقبل عبد الرحمن ، فنزل بضفة النهر منها . ودارت بين الفريقين محاورة أجلت عن اللقاء يوم الجمعة ، وهو يوم الأضحى من السنة . واستدعى عبد الرحمن من أبي الصباح حي بن يحيى اليحصبي بغلاً أشهب ، يسمى الكوكب ، كان له ؛ فتحول إليه وقال : « إن فرسي قلق ، لا يتمكن معه الرمي ! » فقدمه إليه ؛ فركبه ، واطمأن الناس . وتمت الهزيمة على يوسف الفهري ؛ وتمت البيعة لعبد الرحمن يومه ؛ ودخل قصر الإمارة بقرطبة ، فاستقر به .

وتماذى يوسف الفهري في فراره ، إلى أن استقر بغرناطة . وتحرك عبد الرحمن في أثره ؛ فنازله وحصره ، والتمس من عبد الرحمن الأمان ؛ فبذله له . وخانته بعد ، وفر عن حضرته ؛ ووقع عنه الطلب ؛ فأتي إليه برأسه . وخلاله الجؤ منه .

وانثال بنو أمية من المشرق محتالين مختفين ؛ فليق به عدد منهم تجددت بهم الدولة .

وماج على عبد الرحمن بن معاوية بحر الخلاف والمنازعة ؛ وقارع الكثير

من الثوار ولأ ؛ كالعلاء بن مغيث الجذامي الداعي إلى نفسه بناحية باجة من عمل حيص ؛ وذكر أن المنصور صاحب الدولة العباسية أرسل إليه بولاية الأندلس ؛ فاتبعته الأجناد ، وتطلع إليه العباد ، إلى أن كادت دولة عبد الرحمن أن تنصرم ؛ فخرج إلى قرمونة ، محاذياً له بجاصته ؛ وعاجله العلاء بن مغيث ؛ فحاصره بها أياماً عديدة ؛ فلما طال بالعلاء الأمر ، وعلم عبد الرحمن باختلال محلته ، أمر بنار ، فوقدت ؛ ثم أمر بأجفان السيوف ، فطرحتها بها ، وقال لأصحابه : « اخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع ! » وكانوا سبعائة ؛ فخرجوا إلى عدد لا يحصى ؛ فرزقهم الله النصر ، وزلزل أقدام عدوهم ، لما قضاه الله من إقبال الدولة وتمهيد الأمر ؛ فانهزم القوم ، وقتل العلاء ؛ فطيف للحين برأسه ؛ وأمر به عبد الرحمن ؛ فعولج بما يحفظه ، وجعله مع اللواء المعقود له في سبط ، وأمر قوماً من الحج أن يوصلوه إلى مكة ؛ واتفق أن حج المنصور عامئذ ؛ فجعل القوم السفط بإزاء باب سرادقه ؛ فلما نظر إليه قال : « عرضنا هذا المسكين للقتل ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا ( يعني عبد الرحمن بن معاوية ) بحراً ! » واستنزل الثوار ، وقهر الأعداء ، وجاهد في سبيل الله بما هو معروف في دولته من كتب التاريخ .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قریش من الملوك ؟ » قالوا : « ذلك أمير المؤمنين الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء ! » قال : « ما قلنهم شيئاً ! » قالوا : « فمعاوية ؟ » قال : « لا . » قالوا : « فبعد الملك بن مروان ؟ » قال : « ما قلنهم شيئاً ! » قالوا : « فمن ؟ يا أمير المؤمنين ! » قال : « صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلاد أعجمياً ، منفرداً بنفسه ؛ ففصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، ونال ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدييره ،



وشدة إشكيتته. إن معاوية نهض بمركب حمله عُمر وعثمان عليه، وذلك لا له صعبه؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقد لها، وأمير المؤمنين بطلب عتوته، واجتماع شيعته. وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بأمره، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين !»

وكان عبد الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل. ومن قوله ٢:

أَيُّهَا الرَّائِكِبُ الْمُتَمِّمُ أَرْضِي إِقْرَ بَعْضَ السَّلَامِ عَنِّي لِبَعْضِ  
إِنْ جَسَمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضٍ وَفَوَّادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ  
قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوْنِي عَمَضِي  
قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي

وله من الشعر كثير، وهو معلوم. وكان عبد الرحمن بن معاوية فصيحاً بليغاً، حسن التوقيع، مليح الفصول، مطبوع الشعر، معدوداً من أهل العلم، وعلى سيرة حسنة من العدل. ذكروا أنه، لما نزل بمثية الرضاقة من قرطبة، نظر فيها إلى نخلة هاجت شجته، وتذكر بها وطنه؛ فقال بديهة:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرُّضَاقَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ عَنْ بَلَدِ النُّخْلِ  
فَقُلْتُ: سَيْهِي فِي التَّعَرُّبِ وَالنَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي  
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي

وتوفي عبد الرحمن بن معاوية يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر

١ القصة في «الاخبار المجموعة» و«العقد» لابن عبد ربه و«البيان المغرب» النح...

٢ راجع «نفع الطيب» ج ٢، ص ٢٥ (طبعة ليدن).

سنة ١٧٢؛ ودُفن بالقصر من قرطبة. وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة، وأربعة أشهر؛ وكان عمره يوم دخل الأندلس خمساً وعشرين سنة. وكان قد عقد الخلافة لابنته هشام وسليان؛ فاستحقها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه، إذ كانا غائبين. ولما حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليان بطليطلة، وكل ابنه عبد الملك المعروف بالبلسني، وقال له: «من سبق إليك من إخوتك، فأبرأ إليه بالحق والأمر. فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه، وعفاؤه، واجتماع الكلمة عليه؛ وإن سبق إليك سليان، فله فضل سنه، ونجدته، وحب الناس له.» فقدم هشام قبل سليان؛ فلقاه الأخ عبد الملك، وسلم إليه امرته، وأدخله القصر.

## دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

### ابن هشام بن عبد الملك بن مروان

كنيته: أبو الوليد. ببيع مستهل جمادى الأولى من سنة ١٧٢. ولما اتصل بأخيه الحبر، وهو بطليطلة، حشد الجنود وقصد قرطبة. وبرز إليه هشام. وكان اللقاء بجهة جيان؛ فانهزم سليان، وعادوا للاحتشاد؛ فتكررت الهزيمة. ثم نازعه أخوه عبد الله متخلف أبيه، الذي دفع إليه أمانته، لسبعة أشهر من ولايته، ولحق بأخيها سليان بطليطلة. وتحرك هشام إلى منازلها؛ فأجلت الحال عن لحاق عبد الله بهشام من غير عهد ولا أمان؛ وتقبله، وأجرى مجرى أبيه في الأمن. وصالح سليان بستين ألفاً، على الخروج بأهله وولده عن الأندلس إلى عدوة المغرب. ونازل هشام بعد ذلك مرقسطة؛ وبها مطرئوس بن سليمان الأعرابي؛ فأمكنه الله منه، وخلا له الجوى؛ فغزا بلاد الروم بنفسه وقواده؛ فكان أثره عظيماً؛ فتح

بها مدائن أربونة وحاصر إفرنجية .

وفي سنة ١٧٩ ، أغزى عبد الكريم بن مُغيث بالصائفة التي انتهى بها أسيرة داخل جليقية ، فهزم طاغية الروم ، وقد احتشد له البشكنش ؛ ثم اتبعه في الجبال ، ينسف كل ما مر به ، ويتركه قاعاً صَفْصَفاً . وكانت مقدمة جيش عبد الكريم الحاجب التي قدّمها بين يديه لمناجزة إذقونش ، وصاحبها فرج بن كنانة عشرة آلاف ؛ فكانت غزاة شهيرة .

وكان هشام الرضى من أئمة العدل ، ومنزلة عُمر بن عبد العزيز في قومه بالأندلس . تولّى بناء القنطرة العظمى بقرطبة بنفسه ، وأنفق فيها أموالاً عظيمة . وحكى ابن وضاء أنه ذكر له أن الناس يقولون : إنما بناها لتصيدته ونزهته ؛ فحلف ، لما بلغه ذلك ، أن لا يجوز عليها إلا لغزو في سبيل الله أو مصلحة .

قلت : هكذا شأن الناس مع أبواب الدول : إن بنى القنطرة ، ولازمها على كرسية نفعه الله واختار ما نالها من طيبه ، قيل : بناها للهوى وصيده . ولو كان ذلك ، فلنستشعر أي شيء كان يعوزهم من منفعتهم بها وهلاً دعوا له أن يهنيه الله نزهته وصيده إذ كانا شافعين في بناءها لهم . ولو لم يبنها ، لم يسلم من حملهم لأجل تركها . فانا لله من الناس ! وما أشبه حال صاحب الدولة بجمال الابن والأب والعمار لا فارق : ذكروا أن رجلاً خرج هو وابنه ، ولهما حمار يركبه الرجل [ وابنه ] خلفه ؛ فسمع الناس يقولون : « ما أعظم جفاء هذا الشيخ وأقل حياءه ! ركب هو وابنه حماراً ضعيفاً ؛ فهلاً نزل وخفف عنه ! » فنزل عن الحمار وترك عليه الولد ؛ فسمع الناس يقولون : « أركب ابنك القادر على المشي ، وترك نفسه مع الضعف ! والشيخ يطارح الولد سوء الأدب وسوء المعاملة ! » فأنزل الولد وركب ؛ فسمع الناس يقولون : « ولد صغير أثر نفسه عليه ، وتركه يتعب دونه ، ولم يرحمه ! » فنزل وترك الحمار خالياً ظهره ؛ فسمعهم يقولون : « حمارٌ يسير بطالاً ،

وشيوخٌ وصغيرٌ خلفه ! قد حرم هذا الشيخ نفسه وابنه حرصاً وصوناً للحمار ! فعل الله به وصنع ! » فقال : « يا ولدي ، حرنا مع هؤلاء ! لم نخلصنا معهم شيء . والحق أن نعمل ما يظهر لنا ولا نلتفت إليهم ! »

وفي مثل هذا الحال ، قلت من قصيدة طويلة شرحت فيها حالي فيما بليت به بالأندلس من مكابدة الصم البكم الذين لا يعقلون : [ الخفيف ]

إن تورعت أصبحت حوز المثلد لك ضياعاً لجرأة الفجار  
أو طردت العفا : خفت من الله إذا ما سئلت عن أوزاري  
أو تقاعدت : أصبح الأمر فوضى تلعب الشاة فيه بالجزائر  
أو تعرضت وانتدبت سمعت الله قد حال الإيراد والإصدار  
لا يزال الملام عني بحال حالة الشيخ وابنه والعمار  
قدنهم للجهاد فاشتكوا الضعف فاضجوا لكثرة الأسفار  
ملت للصلح سئوا الصلح شرّاً عكس قول المهين الجبار  
سستهم لست أبغى غير حق الله أو قومي بحق الجار  
فجزوني جزاء من يخدم السد طان فيما مضى من الأعصار  
من ممالك كالسباع ووُصفوا ن وغزى ودبلم وتصار  
لم نجد مسلماً يقوم بحقي ناظراً لي بمقلة استعمار  
أو ولياً يعطي لطوري حقاً ويرى فضله على الأطوار  
غير أعمى يظلل يعلق في رحا لي علوق الكروم في الأشجار  
طالباً كل ما اقتضاه هواه هبه بالريح عاد أو بالحسار

نستغفر الله ( ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نَعْفِرْ لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) والله درء الصوفية إذ يلزمون من جني عليه

الاستغفار والإنصاف من نفسه ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ إِنَّمَا أُوتِيَ مِنْ قَبْلِهَا .

( رجع ) . وكانت أيام هشام خير أيام عافية وهدهوء . وعدّه أبو محمد بن حَزْم ثالث ثلاثة من العدول في بني أُمّية خاصّة . وتوفي لسبع خلون من صفر سنة ١٨٠ . وذكروا أَنَّهُ سَأَلَ مُنْجَمَ زمانه ، وأظنّه العباس بن فِرْنَس ، عن مقدار أيام دولته ؛ فاستغفاه من ذلك ؛ فلم يفعل وعزم عليه ؛ فقال له بعد نظر : « إن صحّ دعوى هذه الصنعة ، فإنك تبقى في الولاية سبع سنين وكذا . » فأطرق وبكى ، وقال : « حسبي الله ! فوالله ! لو كانت في سجدّة لله ، لكانت قليلة قصيرة ! » وصرف وجهه إلى الاجتهاد والجهاد - رحمة الله عليه ورضوانه - . وكانت مدّته سبع سنين وأشهرًا .

## دولة الحكم بن هشام

ابن عبد الرحمن بن معاوية

كُنِيئُهُ : أَبُو العاصي . وكان ملكًا كبيرًا ، شديد الحزم ، ماضي العزيمة ، عظيم الصولة ، حسن التدبير . وكان يُسلِّطُ قضاة وحكّامه على نفسه ، فضلًا عن ولده وخدمه . وكانت له ألف فرس مرتبطة بجانب القصر ؛ فكلّمَا أُنْمِيَ إليه البريد خبرًا بأمر أو خارجيٍّ ، عاجلته قبل أن يعلم ، فلا يشعر إلّا وقد أحيط به .

وفي سنة ١٨١ من أيامه ، كان الإيقاع بأهل طَلَيْطَلَة ، وقد اتخذ قصرًا احتفر ترابُ بناء جدرانِه<sup>١</sup> من صَحْنِه . فلما كمل إلّا ما يخصّ الصحن ، أعمل الخطور على طَلَيْطَلَة ، وعرض واليها عليه أو على ابنه حضور صَنِيعه بالقصر الجديد ؛ واستدعى له وجوه البلد ؛ وأوهمهم أَنَّهُمْ ،

١ في الأصل : احتفر بناء تراب جدرانِه .

إذا طعم منهم قومٌ ، انصرفوا عن بابٍ غير الذي دخلوا منه ، وجعلوا كلّمًا دخلوا قَتَلُوا ، حتّى فطن بعضُ شيوخهم إلى البخار المرتفع من الدُخَانِ ؛ فقال : « هذا والله بخارُ الدماء ، لا بخارُ الطعام ! » وقد خمد الناس . فذكروا أَنَّهُ عَدَدَ القتلى يومئذٍ من وجوه طَلَيْطَلَة وأعيانها خمسة آلاف وثلاثمائة رجل . فلانت بعد ذلك صولة طَلَيْطَلَة .

وفي أيامه ، قتل عمّه أبو أيّوب من المغرب ، وطلب الأمر لنفسه . وكانت حربٌ عظيمة بينهما ، أجلت عن هزيمة أيّ أيّوب وقتله . وكانت للحكم غزوات شهيرة . وأنكر الناس عليه أمورًا ، منها : إطلاق يد ربيع القوميس متولّي المعاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حطيّا في رجاله ، سوءه افتراض المعاون والمغارم على المسلمين . فثار به أهل الرَبَض بقرطبة سنة ٢٠٢ الثورة الشهيرة ، وناذروه ، وجأهروا بخلعه ، ورجعوا إلى باب قصره في السلاح وأحاطوا به في أُمم لا يحصيا إلّا الله ، وفيهم الفقهاء الجلّة وأهل الفتيّا مثل طائوت الفقيه ، ويحيى بن يحيى الراوية عن مالك ، وأخيه ، وأمّالهم . وكان من جملتهم جدّ لنا يعرف بابن وزير ، بمن طرحت النوى بركابه ، واستقرّ بطليطلة ، ومنها تحوّل إلى مستقرّنا بِلَوْشَة ؛ فكان خطيبًا بها ؛ وله ينتسب بيتنا من بعد النسبة الأولى .

وذُعر الحكم لهوّل ما رآه ، وأمر بعض خُدّامه الصّقَالِيَّة أَنْ يَأْتِيَهُ بوعاء الغاليّة ؛ فاستراب الفتي ، وأنكر ذلك ، وقال : « وأيّ وقت غالية هذا ! » فصاح به ، وقال : « انت به وينحك ! وإلّا ، فمن أين يُعرف رأس الحكم ؟ » وجاء بها ؛ فغلف بها رأسه وحيته ، واستبسل للموت . وتوافى إليه كثيرٌ من خُدّامته ، واستركب عبيده وحجّابه ، وأخذوا أعقاب الناس ؛ فدهشوا إذ عدموا من يلتفّ عليه جمعهم . فقد كان من نوادر ذلك اليوم ، المأثورة مثلاً في هيّج الرُعا ، أَنَّهُ حَدَّادٌ كان بين يديه صبيّ يسوق الكير ، وأبصر اجتماع الناس وحضورهم في الأسلحة ؛ فقال : « ومنّ

رئيسهم؟ « قليل : « ليس لهم رئيس . « فقال للصبي : « يا صبي ، حرك الكير واعمل عملك ؛ فإن هؤلاء لا يكون منهم شيء ! « فأعمل السيف يومئذ في أهل الربض ؛ فقتل منهم أزيد من عشرة آلاف رجل . وجلى عن قرطبة أضعاف ذلك . وما استقر منهم طائفة ببلد من البلدان إلا وثاروا ، حتى لقد حكي أن آلافاً منهم استقرت بالإسكندرية ، وأن رجلاً منهم تكلم مع جزّار ؛ فرمى الجزّار بوجهه بكرش كانت في يده ؛ فبطش به وقتله ؛ ونادى مناديه في المدينة ؛ فتألبوا ، وثاروا ، وتغلبوا على المدينة ، حتى صرفوا عنها صلحاً إلى جزيرة إفریطش . وأقسم الحكم بحرّجات الإيمان أن لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكاً ؛ فصوره على عظمه وهوله وأصالة بناءه مزرعة .

قلت : ولقد باشرت بالأندلس أخاً ونظيراً لهذا الموقف الحكمي النكد : أعظم الله به الأجر ، وجعله آخر المواقف الكريمة في الدنيا ! إلا أن الناس اجتمعوا على هذا العهد الذي شهدناه ، والتفثوا على رجل من قرابة السلطان ، ولم يكونوا هملاً ؛ فكان الشقاء بهم أشدّ لولا لطف الله . وذلك أن السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر ، لما عاد إلى الأندلس ، ثمره خدامه إلى طلب الناس بالذنوب ، وكلّهم جانّ بيده ولسانه ؛ واتّفت الكلمة الواحدة على الثورة به ، ولحقت ببابه ، والأمر قد كمل استعدادُهُ للشر ، وأبرمت عقدته ؛ وأخيف الدليل البركي ؛ فشايع هو وطائفة من مثله الرئيس علي بن علي بن نصر من القرابة ، وأنا ذاهل عن الأمر ، إلى أن شئخ التكلف والفتنة والاستغال بما لا يعني من أمر الدنيا والآخرة ، علي بن كُماسة ، عتبي ، مُشفقاً ، في القدوم على الأندلس يومئذ ، وقال لي : « احتل في الانصراف ! فإنما السلطان كالبیضة فوق النار ؛ كأنني بها قد فرقت ، وانثقت فسالّت ! « وهاوتت بقوله ؛ وما راغبي من الغد وأنا بين يدي السلطان ، وقد جلس للناس في قبة الجنان

المحصّل بالقصر ، وأبطأ المبكرون على بابه إلا والنذير العربي يقول : « قد ثار البلد والتداء فيه بدعوة فلان ! « وكثر ذلك . والتفتنا من طيقان القبة ؛ فإذا البلد يموج بأهله خيلاً ورجلاً . فقال لي السلطان : « ما ترى؟ » فقلت : « الصبر والتوكّل على الله تعالى ! « وأشرت عليه بالانصراف إلى منزله وسدّ أبواب القلعة إلا واحداً يُشدّ بالرجال ؛ وأشرت عليه بالدخول إلى منزله ولبس سلاحه ؛ وفتحت خزائن العدة ، وصعد السلطان في موقفٍ مطّل على البلد ونشرت رايته فوق رأسه ، وأسمع النفير ، ونودي على الجند بالعطاء ؛ والحق قد ناصبونا الحرب ، والصياح قد سدّ الآفاق ، والسهام تراشق نحونا ، وصاحب القوم واقف في ربة تجاه القلعة ، ومن انحاز إلينا لا تعرف فينا مذهبهم : وألهم الله الصبر ، وسدّ القول والعمل ؛ فلم يستحكم الزوال إلا وظهر اختلاف مصاف القوم ، ورسائي تُنفذ إلى وجوه الناس . فخذل المكيدون ، وسقط في أيديهم ، وفرّوا على وجوههم ؛ وقبض على الشيخ ، وسكن الله الإرجاف ، وأخمد النائرة ؛ وقد كانت الآزقة التي ليس لها من دون الله كاشفة ، وعظم خوف الناس من السلطان ، واستحكمت صبغة الشر ، وكثر المستريب ؛ فبادرت من الغد يوم الجمعة المسجد الجامع ، وعلوت ذروة المنبر بكتاب أشهدت فيه على السلطان بتوكّ قديم المؤاخذات وحديثها ، ورَفَع الخوف عن الناس ، وبذل الأمن لجميعهم ؛ وارتنت في ضمان ذلك ربة قرنت به العافية إلى ما بعد . والحمد لله !

( رجع الحديث ) وكان الحكم على فظاظته شاعراً مطبوعاً بما يؤثر من شعره قوله في جوارٍ كان مغرمًا بهن : [ الخفيف ]

ظَلَّ مِنْ فَرَطٍ حُبِّهِ مَمْلُوكًا وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَاكَ مَلِكًا  
إِنْ بَكِيَ أَوْ سَكَاهُوى زِيدَ ظُلْمًا وَبِعَادًا يُدْنِي حِمَامًا وَشِيكَ  
تَوَكَّاهُ جَاذِرُ الْقَصْرِ صَبًّا مُسْتَهَامًا عَلَى الصَّعِيدِ تَرِيكَ

يَجْعَلُ الْحَدَّ وَاضِعاً فَوْقَ تَوْبِ الَّذِي يَجْعَلُ الْحَرِيرَ أَرِيكَ  
هَكَذَا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ بِالْحُرِّ إِذَا كَانَ فِي الْمَوَى مَمْلُوكاً  
وتوفيَّ - رحمه الله - يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٢٠٦ .  
وولي الأمر بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم .

## دولة عبد الرحمن بن الحكم

### ابن هشام بن عبد الرحمن معاوية

كنيته : أبو المطرّف ، وكان ملكاً كبيراً ، فارَعَ الثَّوَارَ ، وهزم  
الكفَّارَ ، وأبعد الآثَارَ . ولما صلّى على والده وواراه ، جلس متطأطأً ،  
ليس تحته وطاء ، وفعل من معه كذلك ؛ فافتتح القول فقال : « الحمد  
لله الذي جعل الموت حتماً من حكمه ، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور  
على مشيئته ، واستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذلّ خلقه بالفناء ! تبارك اسمه  
وتعالى جدّه ! وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً ! وقد كان  
مصاب الإمام - رحمه الله - ما جلّت به المصيبة وعظمت به الرزية ؛ فعند  
الله نخسبه وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب في إكمال الأجر والذخر !  
وعهد إلينا بما فيه صلاح أحوالكم . ولستنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لديّنا  
مزيدٌ إن شاء الله ! » ثمّ قام ، وخرجت الكساوي والأموال على أقدارهم .

وفي أيامه ، انتقض المعاهدة بمجزيرة ميُورقة ؛ فغزاهم في ثلاثمائة مرّكب ؛  
فافتتحها ثانية . وغزا بنفسه جليقية ؛ فافتتح حصونها ، وسبى حريمها ، وقتل  
مقاتلها ، وذلك سنة ٢٢٥ ؛ وطالت غيبته في غزاته هذه ؛ وفي ذلك يقول  
شاعره عبد الله بن الشَّير على لسانه ، وقد وصف له أرقاً عراه وتذكراً  
لمن حنّ إلى لقائه :

[ المتقارب ]

عَدَانِي عَتَكَ مَزَارُ الْعِدَى وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لِهَاماً مُهَيِّباً  
فَكَمْ قَدْ تَعَسَّفْتُ عَنْ سَبَبٍ وَلَا قِيْتُ بَعْدَ دُؤُوبٍ دُؤُوباً  
أَلَا قِي بَوْجَهِي سُومَ الْهَجِي رَ وَقَدْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَدُوبَا  
أَنَا ابْنُ الْهَشَامِينَ مَنْ غَالِبٍ أَشْبُ حُرُوباً وَأُطْفِي حُرُوبَا  
وَادْرِعُ النَّقْعَ حَتَّى لَيْسَ تَ مِنْ بَعْدِ نَضْرَةٍ وَجَهِي سُحُوبَا  
سَمَوْتُ إِلَى الشَّرْكَ فِي جَحْفَلٍ مَلَأْتُ الْحَزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

وكان ذا حظٍّ في البلاغة : تردّد عليه بعض مواليه ، يسأله استخدامه  
بلطائف الرغبة وترقيق الملاطفة ؛ فقال له : « لم يتقدّم لك عندنا خبرةٌ نُولِيكَ  
بها ، ولا تجربةٌ تقدّمك بسببها ، غير ما رأينا من بلاغتك وحسن خطابك  
فيما يردّ علينا من كتبك . فإن كنت كاتبها ، فقد جودت وأحسنّت ؛  
وإن كنت تطلّبت بعنايتك ، وتخيّرت بفضل همّتك من حسن ذلك عنك ،  
فقد أحسنّت في العناية ، وفضلت في الهمة ، [ فأنت ] بكليّ الحالين متقدّم !  
وقد رجونا باستلطافك لعلمك وتهذيك لخدمتك ، وقد وليناك على الرجاء  
فيك ؛ فصدّق ما خيّل الظنّ بك . فإنّك إن حافظت على أدبتي حظّك ،  
أدرّكت أقصاه ؛ وإن احسنّت في بدئه ، نلّدت أحسن عقابه ! » وكتب  
إليه بعض عمّاله يسأله عملاً رفيعاً ، ليس من شاكلته ؛ فوقع له في أسفل  
كتابه : « من لم يصب وجهه مطلبه ، كان الحرمان أولى به . »  
ومن شعره :

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها  
والشيخ إن تجوّر النهى بتجارب فشباب رأي القوم عند شبابها

وفي سنة ٢٠٨ ، كانت الغزاة التي عقدها عبد الرحمن على وزيره عبد  
الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث بالصائفة المعروفة بغزوة آلبسة والقلاع ؛  
دخل فيها أرض العدو ، وأمعن بما لا عهد به من الفجّ المعروف بفجّ جرينيو ؛

فأخرب كل ما مر به ، ونازل مدائن ، وفتح معاقل ، وهزم جموعاً كثيرة ، حسباً هو مذكور في كتاب عريب وغيره .

وفي أيامه ، خرجت مراكب المجوس ؛ فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وسذونة وأشبونة ؛ ثم انهزموا ؛ والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة بالأنقليش ، وأهل المشرق بالفرننج وبالأنكثير ، ومستقر ملكهم مجزيرتين عظيمتين ذرع إحداهما سبعمائة ميل ؛ وهم أهل قوة وبأس وشدة . وقد ذكرنا شيئاً من حديثهم عند ذكر أيام صلاح الدين ؛ ونجلب شيئاً منه فيما يأتي بحملته ، إن أعان الله على ذلك وأنساً الأجل إليه .

وفي أيامه ، احتفلت دولة بني أمية بالأندلس ، وعظمت الألقاب ، وشيدت القصور ، وجلبت إليها المياه . وجلبت إليه من المشرق ، بعد أن عاثت الفتنة في قصور الأمير وخزائن بغداد ، الذخيرة الرفيعة كعقد الشفاء ومثله أعلاق زبيدة بنت جعفر ، وفي أيامه ، اتخذ الطراز ، الذي كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق .

وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . وتخلّف من الولد أزيد من ثمانين ، بين ذكر وأنثى ، شطرم ذكور . وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن .

## دولة محمد بن عبد الرحمن

### ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

بويح للأمير محمد بن عبد الرحمن لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . واستعصت عليه طليطلة ؛ فبرز إليها بنفسه ؛ واستجاش أهلها . ملك النصارى بحليقية أردون بن إذفونش ؛ فوجه إليهم أخاه . وكادّه

الأمير محمد ؛ فبث الكمناء وقصد المدينة في جمع غير كثير ؛ فاستبشر الطاغية ، وأيقن أنه يظفر به . فلما خالطه ، برزت الكمناء من الجهات ؛ فهزمه الله شر هزيمة ، وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس . ثم وصل الغزو إلى أرض آلبه والقلاع ؛ فعظم أثره .

وفي سنة ٢٦٢ ، عظم أمر عبد الرحمن بن مروان من المنتوين على الأمير ببطلينوس وماردة ؛ وكان من المستأمنين المستنزلين على الخلاف ، المستقرين بقرطبة ؛ فحصى أنفه ، ولحق بحيث ذكر ؛ وأعضل داؤه . وكان سبب انتقاضه أن الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الأثير لدى الخليفة محمد ، القريب للصوق به ، بجّه ابن مروان من بين الوزراء لحدة كانت في هاشم ، لم يملك معها نفسه أن قال له : « الكلب خير منك ! » وأمر به ؛ فصفع قفاه واستبلغ به ؛ ففر في خبر طويل ، واستكن بسعدون السرتنباقي وقومه ، وهم فرسان العرب بالثغر . وبادر هاشم بن عبد العزيز ؛ فطلب فرصة ينتهزها فيهم ، وأفحص بغرته ، وجاوز الوعر ، وأبعد عن العسكر ؛ فأخذت المضايق عليه ، وناسبوه القتال ، وواقفته الجراح ، وقتل جملة من جماعته ، وأسر . واستقر بيد عدوه الذي صفعه وأهانته ؛ فبرّه وأحسن إليه وحلم عنه عند قدرته . وبلغ ذلك الأمير محمد ؛ فأنهى على هاشم وقال : « هذا أمر جناه على نفسه بعجلته وطيشه ! »

وفي سنة ٢٦٤ ، تم انطلاقه ، بعد أن كان الأمير محمد أقعد ابنه عوضاً عنه بمرتبة الوزارة في حال الصغر ، وحفظ عليه جاهه ونعمه ، إلى أن قرئت بذلك عينه عند خلاصة نكبة أسره .

ولقد أذكرني قضية هاشم ، وأنا قاعد مع الوزير الندب الهمام أبي بكر بن غازي ، المقيّد هذا الكتاب بأمره ، ما حدث من مثلها في شأن الشيخ عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق العسكري المتميّز بنصيحته ، وهو صاحب العلم لبني عسكر ؛ وقد بلغه الخبر بأمره وتحصيله بيد عدوه ، لتجلّده عند

نكبه ، واستدعائه ولده ، وإجلالته بمكانه على صغر سنه ، وعقد الراية فوق رأسه ، وضمّ خدام أبيه إليه ، وانصرافه رافلاً في الخلع السلطانية وراكباً في الخلة الرفيعة إشادة لعزه . ونسبت على ذلك من قرب متي من خواصه تفاؤلاً بخلاصه ؛ فكان كذلك لأقرب مدة ، من غير يد ولا فدية . والحمد لله مبسر السعادة ومبلغ الإرادة !

وفي أيام الأمير محمد ، كان ابتداء أمر ابن حفصون كبير الثوار بالأندلس على عهد الدولة الأموية ، المنسحق الأمد ، المنليس الدولة لباس الكمد ، متصل العناء به أزيد من سبعين سنة ، حسب يأتي عند ذكر الثوار .

وكان الأمير محمد أوحده قومه في البلاغة والرجاحة ، متنزهاً عن الخي والتبجح وعن القبول على السعايات . قال وزيره هاشم بن عبد العزيز ( وكان هاشم من رجال الكمال ، قل أن تأتي الدنيا بمثله من اجتماع خصاله ) : كان الأمير محمد - رحمه الله - فصيحاً بليغاً ، عظيم الأناة ، متنزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ، لا يسمع من ساع ، ولا يلتفت إلى قول رام ؛ وكان عاقلاً ، على أخلاق حميدة ومكارم جميلة ، ذا بديهة وروية ، يرى كل من خدمه وباشره أن له الفضل المستبين في إدراكه وفهمه ، ودقة ذهنه ، ولطف فطنته ، وجزالة رأيه . وكان متى أعطل منها شيء ، رجع إليه فيه ، وإذا أخل أحد من خزانته وأهل خدمته الحساب شيئاً من ذلك ، لم يجز عليه باللحظة والنظرة . ولقد استدرك على بعض خزانته في صك يشتمل على مائة ألف دينار كدراهم خمسة عشر درهماً ؛ فرد الصك ، وأمر بتصحيحه ؛ فتجمع الخدمة والكتاب إليه ؛ فلم يقعوا على ذلك نقصان لقلته وخفائه ؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير ، وأعلوا الرسول ؛ فرد الصك وأعلمه باعترافهم ؛ فعلم على موضع الخطأ ؛ فإذا هو خمسة عشر درهماً .

وخدمته ملوك البلاد المغربية ؛ واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة .

١ ق وج : لهم .

وكان على عهده من ملوك إفريقية أعظمها وأفخمها فخر ذلئله يهاده ويتأخذه على تراميه بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومه . فهذا الملك هو الذي اتخذ مثلاً زنته ثلاثمائة رطل من ذهب خالص وحفه من الباقوت والزبرجد بما لا يدخل تحت القيمة ، واتخذ له كرسيّاً بأعظم من ذلك كله ، وحشد جميع الأمم الفرنجية لرائته ؛ ثم دفعه إلى صاحب كنيسة الذهب .

وكان الأمير محمد يستنفر لغزوه في الصوائف المجردة إلى جليقية مع ولده من كورة النيرة وجيان وقبرة وإسججة وسندونة وموزور خمسة عشر ألف فارس ، ليس فيهم من أهل الأندلس غير من ذكر ؛ وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر . وذكروا أنه خرج متنزهاً يوماً لبعض متنزهاته ، ومعه هاشم بن عبد العزيز ؛ فكان بها صدر نهاره على راحته ؛ فلما أمسى واختلط الظلام ، انصرف إلى القصر ؛ فأخبر من سمع هاشماً يقول : « يا ابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت ! » فقال له : « يا ابن اللخناء ، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا الموت ! ولولا الموت ما كنا نراه أبداً ! »

وكانت وفاته يوم الخميس ليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٧٣ ، وهو ابن خمس وستين سنة . وكانت مدته نحواً من خمس وثلاثين سنة - رحمه الله .

## دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

### ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو الحكم . وتقدم بعهد أبيه ؛ وكان بعيد الهمة ، قوي الشكيلة ، يكرم إخوانه ، ويحبهم ، ويدين بجالسهم ، ويصلهم ، ويحضرهم مجالس أنسه . وكان يجزل العطاء للشعراء ، وينشدونه غزياً وراجعاً . وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربّه ، والعكبي ، وغيرهما من شعراء العرب .

ولم يكن أحدٌ من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ؛ ولقد بلغ ذلك في سنة ما لم يبلغه غيره في الدهر . ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفِئنة يُذْعِنُونَ إليه دون مِحنة ، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها ؛ وإنَّ الحَبْرَ المستفيضَ عن الشيوخ الذين أدركوا ذلك الزمان ، وعن أهل التمييز بالحروب ، أنه ، لو عاش المُنْذِرُ عاماً واحداً زائداً ، لم يَبْقَ بين يديه مُناقٍ . وأخباره تدلُّ على ذلك . وأول أخباره الدالة على ذلك أنه ، لما أتاه خبر موت أبيه ، لم يمنعه ذلك من التعرّيج عن القصد ، واختصار الطريق ، ولا شغله أمرٌ منهم ولا أمرٌ جليل عن آخر ؛ فجعل طريقه على ربه ؛ فهذبُ أمورها ، ونظر في أسبابها ، وولّى عليها سليمان بن عبد الملك ابن أخطل وعبد الرحمن بن حُرَيْش ، وأدخل معها أهلَ المعاقِد من العرب والحشم . ثمَّ جمع في يوم واحد مُبايعيه ، وأعطى عطائين للجند ، وأعمل النظر فيما أسقطَ من الأزمّة عن الرعيّة ؛ وما فعله من الاستعداد إلى أهل قرطبة بإسقاط العُشور عنهم ، والنظر في التدب ، وإخراج القائد ؛ - وهكذا [ كان ] فِعْلُهُ في جميع أسبابه .

وبادَرَ لأوّل أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز الوزير ؛ وسببُ ذلك أن هاشمياً كان يُحسد لمكانه من الأمير محمد ؛ وكان حُسّاده يسعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس . فلما مات الأمير محمد ، أراد المنذر أن يتّبع به فِعْلَ أبيه ؛ فولّاه الحِجَابَة ؛ ثمَّ تمالأ عليه حُسّاده ، وكثروا ، وحرّفوا كلامه ، حتى نفذ قضاء الله ؛ وكان مفخر دولتهم وزينة مُلكهم . ونُسي عنه أنه قال عند مواراة الأمير محمد في قبره :

أُعْزِّي يا مُحَمَّدُ عنكَ نفسي معاذ الله والمِنَن الجسام

فهل مات قومٌ لم يموتوا ودُوِّفِعَ عنكَ لي كأسُ الحِمَام

فأغروا المنذر بكونه قصده . وصدرت عنه في نكته أشعارٌ وملاطفات لم تُعْن عنه . ومن شعره في ذلك ، ما كتب به لجارية له تسمى عَاج :

[الطويل]

وإني عداني أن أزوركِ مَطْبَقٌ وبابٌ مَتَّيْعٌ بالحديدِ مُضَبَّبٌ  
فإنَّ تَعَجُّبِي يا عَاجُ بما أصابني ففي رَيْبِ هذا الدهر ما يُتَعَجَّبُ  
تَرَكْتُ رِشَادَ الأمرِ إذ كنتُ قادراً عليه فلاقيتُ الذي كُنْتُ أَرْهَبُ  
وكم قائلٌ قال : أُنْجِ وَيَحْكَ سالماً ففي الأرض عنهم مُستَرادٌ ومَذْهَبُ  
فَقُلْتُ له : إنَّ الفِرَارَ مَذَلَّةٌ ونفسي على الأسواء أحلى وأطيبُ  
سَأَرَضَى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للعبدِ مَهْرَبُ  
فَمَنْ يَكُ أَمْسَى شامِتاً بي فإنه سينهل في كأسٍ وشيكاً ويشربُ  
إلى أن قتله - رحمه الله .

ثمَّ انصرف إلى محاربة عُمر بن حفصون الثائر بمدينة بُبَشْتَرُ ومُنازلته ؛ فلم تسع أيامه لما وراء ذلك ، بعد أن أحفظه وأضاق صدره وظهر على قوّاده ؛ فتصرّك إليه ، وقد أقسم القسم الغليظ ألا يبرح من حصره حتى يتمكن منه ، أو يموت كَوْنَهُ . وعظم ذلك على الناس ، وشقَّ عليهم الثواء بعسكرهم ظاهرٍ بُبَشْتَرُ . وعيّن القدر الحتم ليمينه أحد الطرفين المقتضى الإملاء لابن حفصون ؛ فزعموا أنَّ المنذر اعتلَّ لأربعين يوماً من مُنازلته ابن حفصون والأخذ بمخنقه ، وبعث إلى قرطبة في إمارة أخيه عبد الله بن الأمير محمد لينوب عنه إن اتّصل مرضه . فلما وصله ، مات المنذر . وتفرّق العسكر ، فلم يَلْتَرِ أحدٌ على أحد ؛ وظهر ابن حفصون ، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه ؛ فلم يَسْعُه إلا أن رفع المنذر فوق جَمَلٍ وانصرف إلى قرطبة . وعظم أمرُ ابن حفصون ؛ فاستولى على معظم البلاد ، ولم يَبْقَ بينه وبين دار الملك إلا مقدار مرحلة قصيرة . فتحصّن بمحصن بُلاي من الكُتُبانيّة .

وكانت وفاةُ المنذر يوم السبت من منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ .



## دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو محمد . كان - رحمه الله - مُقْتَصِدًا في أموره من مطعم وملبس ، شديد التواضع ، متظاهراً بالبرِّ والخشوع .

وذكره الإمام أبو محمد بن حزم ؛ فصرَّح بالحمل عليه ، وقال : كان قتالاً ، تهون عليه الدماء ، مع ما كان يظهره من عفته ؛ فإنه احتال على أخيه المنذر لما قصده بالعسكر ، وواطأ عليه حجاماً سمَّ المِبْضَع الذي فصده به . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد ، وقتل أخاه القاسم ثالثهم ، إلى من قُتل من غيرهم . قلت : والإمام أبو محمد في التجريح والتعديل حجةٌ على قومه ؛ وسوق الملك لا ينكر فيها أمثال هذه البضائع ؛ ومن عوفي ، فليحمد الله !

وكان الأمير عبد الله ذا حظٍّ من الشعر وحسن التوقيع : اعتذر إليه بعضُ مماليكه يوماً ؛ فوقع على عذره : « وَإِنْ مَخَايِلَ الْأُمُورَ لَتَدُلُّ عَلَى خِلَافِ قَوْلِكَ ، وَتُنْبِئُ عَنْ بَاطِلِ تَصَلُّكَ ؛ وَلَوْ بُوَّتْ بِذَنْبِكَ ، وَاسْتَغْفَرْتَ جُرْمَكَ ، لَكَانَ أَحَبَّ لَكَ وَأَسَدَلَ لِسْتِ الْعَفْوِ عَلَيْكَ ! » فكتب إليه : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَمَا يَقُومُ لِي عَذْرٌ . » فقال : « مَهْلًا عَلَيْكَ وَرُؤُودًا بِكَ ! تَقْدَمْتُ لَكَ خِدْمَةً ، وَتَأَخَّرْتُ لَكَ تَوْبَةً ؛ وَمَا لِلذَّنْبِ بِمَجَالٍ بَيْنَهُمَا . وَقد وَسِعَكَ الْعُفْرَانُ ! »

ومن شعره :

[السريع]

يا مُهْجَةَ الْعَشَاقِ مَا أَوْجَعَكَ      ويا أَسِيرَ الْحُبِّ مَا أَخْضَعَكَ !  
ويا رَسُولَ الْعَيْنِ مِنْ لَحْظِهَا      بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِغِ مَا أَسْرَعَكَ

تذهبُ بالسَّرى فتأتي به      في مجلسٍ يخفى على من معَكَ  
كم حاجةٌ أنْجَزْتَ إبرازها      تبارك الرحمن ما أطوَعَكَ

ومن قوله في الزُّهد :

يا مَنْ يراوِغُه الْأَجَلُ      حَتَّى مَ يُلْهِيكَ الْأَمَلُ  
حَتَّى مَ لَا تَخْشَى الرَّدَى      وَكَأَنَّهُ بِكَ قَدْ نَزَلَ  
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النُّجَاةِ      وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ

وتصيرت إليه الخلافة ، وقد تحيَّف النكتُ أطرافها واقتسمها الثوار ، وكلب عليها الأشرار ؛ ولم يبقَ منها إلا الاسم فوق ظهر منبرٍ قرطبة والقليل من غيرها ؛ وساءت الظنون . ولم يذر عبد الله إلى أين يصرف وجهه : إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على أعظم البلاد مثل النسيرة وريته وما إلى ذلك ، أم لابن حجاج ، وقد استقل باشبيلية وقرمونة وما إلى ذلك ، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس ، أم لعبد الملك بن أبي الجواد ببادجة الغرب ، أم لابن السليم بشدونة ، أم لابن إلياس بالقلعة المنسوبة إليه ، أم لحخير بن شاكر بشوذر ، أم لعمر بن مضمٍ الهترولي ، أم لسعيد بن هذيل بحصن المُنْتَلُونَ ، أم لسعيد بن مسننة بباغو ، أم لبني هابيل بحصن جيان ، أم لإسحاق بن عطاف بحصن مُنْتَشَاة ، أم لسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة ، أم لمحمد بن أضحى كبير العرب بالنسيرة ، أم لأبي بكر بن يحيى بشنت مريّة ، أم لسليمان بن محمد الشدوني بشريش ، أم لعبد الوهاب بمورين ، أم ليحيى التيجي الأنقر بسر قسطة .

ولمّا أُلْعِنَا بِذِكْرِ أَسْمَائِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ ، وَهَمَّ بَعْضُ مَنْ كُلِّ وَقِيلَ مِنْ كَثِيرٍ ، لِعَرَضَيْنِ : أَحَدُهَا التَّاسِّيُّ وَالتَّعَزِّيُّ ، حَتَّى لَا يَنْكَرَ مَلِكٌ أَنْ يَنَازِعَ أَوْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ أَوْ تُفْتَقَ ثَعُورُهُ وَتُنْكَثَ عَهْدُهُ ؛ وَإِذَا تَعَيَّنَ الْمُسْتَحَقُّ

لأمر المسلمين ، أين يوجد مثل من خرج عليه هؤلاء نسباً ومذهباً وشروطاً مستوفاه ؟ وقد ساعدتهم رعاياهم وفقهاؤهم وعلمائهم قسراً وطواعية ، وأقطارهم عظيمة ، ومعاصروهم جلّة ، حتى اقتضوا الأيام التي حدّها الله لهم ، منطلقة أيديهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غيٍّ أو رشدٍ . والثاني : الاستراحة إلى حسن العتبي وما أعدّه الله من كفاية من استكفاه .

فخرج بنفسه محتسباً إليها في سبيل الله ، وقصد بُيُوتهم ، وانتسف معايشها ، وقتل . فغلبه ابن حفصون ، واستولى على إسبجة وإسطنبة . وأخرج إليه الجيش ، وألحّ عليه حتى اتقاه ابن حفصون بطلب الأمان . ثم ضيّق على قرطبة ، حتى خرج بنفسه إلى حصن بلّاي ، وكان أخذاً بمخنفها ، فدخله وملكه . واحتشد ابن حفصون ، وأقبل في ثلاثين ألفاً ؛ فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة ؛ وصرف وجهه إلى ابن حجّاج بإشبيلية ؛ فهادنّه وعاقده . وتقاضى العمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومعاقدةً ونكثاً ، إلى أن عاد روثق الخِلافة ، وانتشع كثير من الظلماء .

ونقص عبد الله الدهر بما جرى به القدر من قتل ولديّه حسباً يتقرّر في محلّه ؛ ولا أوحش الله من دنيا تطيب بعد قتل ولده ، ولو أنّ صحبته إلى غير أمد . كانت وفاته في مستهلّ شهر ربيع الأول سنة ٣٠٠ ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . وملك خميساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً .

## دولة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام  
ابن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو المطرف ، ولقبه : الناصر لدين الله . وولي بعد جدّه ، إذ كان أبوه محمد خاف من أبيه ، وأغراه به المطرف أخوه ، حتى سجنه الأب ،

ثم قتله أخوه في السجن ؛ وقتل عبد الله أبوهما المطرف قاتله . وألقى الله على عبد الرحمن هذا الحفيد محبةً من جدّه ، وشفقةً كنفه لها في حجره ، وأسكنه في مسكنه ؛ وكان يحظيه من دون بنيه ، ويومي إليه ، ويرشعه لأمره ، ويقعده في الأعياد والمواسم مقعد نفسه ، ويأمر بالسلام عليه . فتعلقت آمال الدولة به ، ولم يشكوا بمصير الأمر إليه . فلما مات الجدّ ، أقعد على سريره دون ولده وإخوته ، ونهياً له ذلك من دون منازع لسكناء بقصره . وقيل إنه برىء إليه بخاتمه إمارةً على استخلافه ؛ فكان أوّل من بايعه أعمامه أبان ، والعاصي ، وعبد الرحمن ، ومحمد ؛ وتلاهم أخوة جدّه ، ثم من سواهم . والله يؤتي ملكه من يشاء . [الحقيف]

لا يضرّ الصغير حدثان سنّ . إنّما الشأن في سعود الصغير  
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تكله بالركض كفّ مغير

والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بني أمية . طال عمره ، واتسع سعده ، واشهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة العربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته . وهو أوّل من تسمّى منهم بأمير المؤمنين ؛ ثم اقتفاه من جاء بعده ؛ وذلك عندما ضعفت الدولة العباسية ، وظهرت الدّول التركية والدّيلمية ، وكثرت الألقاب ؛ وخطب بذلك خطيبه أحمد بن بقيّ بن مخلّد يوم الجمعة سنة ٣١٦ .

قالوا : وولي الناصر لدين الله الأمر ، والأندلس جيرة تحتدم ، ونار تططم ؛ وقد عظم الشقاق والنفاق ، وارتجّت الآفاق ؛ فسكنها الله بسعده ، وعزّ تقيته . وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل . وهو الذي استنزل الثّوار ، وشيّد القصور ، وغرس الغروس ، وخلّد الآثار ، وأعظم في الكفر النكابة . فلم يبقّ عليه في الأندلس مخالف ، ولا نازعه منازع . ودخل الناس أفواجا في طاعته ، ورغبوا في مسالته . وفي ذلك يقول شاعره ابن عبد ربّه :

[البيسط]

قد أوضح الله للاسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين أفواجا  
وقد تزينت الدنيا لساكنيها كأنما لبست وشياً وديباجاً

وتحرك إلى كورة البيرة ، واستنزل الثوار . ثم كرك على بيشتر ،  
وهي الدار العليا والداية العظمى ، وأقام البناء ، وشرع في السكنى ؛ فأذن  
حفص بن عمر بن حفصون المتصير إليه أمرها بعد أبيه وأخيه ، وألقى بيده ؛  
فتملكها رجاله يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة . وكانت مدة  
بني حفصون أزيد من سبعين سنة .

وخطب الناصر البلاد عندما أراحه الله من الغم القديم اللزيم المتعاقب هم  
ابن حفصون واستغلق قلعة بيشتر عليه ؛ فعين المخاطبة بأمير المؤمنين  
واللقب بناصر الدين ، بما نصه : « أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ،  
وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا  
به ، وأظهر اثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على ايدينا إدراكه ، وسهل  
بنا وبدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن  
من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انخراطهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا ؛  
والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .  
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها  
كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما  
لا يستحقه . وعلمنا أن التادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق ضيعناه ،  
واسم ثابت أسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطباتك  
لنا عليه ، إن شاء الله . »

## إيجاز خبر عمر بن حفصون

وعلى عهد الناصر لدين الله ، كان انقراض أمر عمر بن حفصون وولده .  
وكانت مدة خلافه وفتنته اثنتين وخمسين سنة وستة أشهر . وكان عمر كبير  
الثوار بالأندلس ، وغصص الخلفاء بها . وهو عمر بن حفص بن جعفر الإسلامي ،  
ظهر بنفسه ونجدته وحدان تلقاه في أمره . وتحصن بمدينة بيشتر من كورة  
ريه ، وأطاعه أكثر بلاد الموسطية بين ريه والخضراء والبيرة وأحواز  
قرطبة . وأخرج الأمير محمد إليه الجيش لنظر وزيره هاشم بن عبد العزيز ؛  
فأمنه وأوصله إلى قرطبة مرفهاً عليه ؛ ثم استراب وفر إلى الجبل المذكور  
من المخالفة إلى شأنه سنة ٢٧٢ . وخرج المنذر ابن الأمير محمد إليه بالجيش ،  
وضيق به ؛ واتصل بالمنذر وفاة أبيه ؛ ففعل الرجوع إلى قرطبة . ولما قرر  
أمره ، خرج بنفسه إلى منازل ابن حفصون ؛ فنازله بقامرة من عمل ريه ، وضيق  
حصاره . فلما اشتد عليه الأمر ، طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده  
إلى قرطبة ، وشرط أن يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله وأهله إلى قرطبة ،  
وأن يفرج له ؛ فأسعف في ذلك ؛ فقتل العرفاء الناظرين على البغال ، وأخذها ؛  
وقد انحل العسكر . وانصرف إلى بيشتر ، وقفل المنذر إلى قرطبة ، وشرع  
في الحركة إليه ، وأقسم ألا يفارقه أو يستأصل أثره ، ونازله ببيشتر ، كما  
تقدم ذكره . فكانت وفاة المنذر محاصرة إياها .

وولي بعده الأمير عبد الله أخوه ؛ فعظم أمر ابن حفصون . وتغلب  
عامل عبد الله على كورة ريه ، واشتدت شوكته ، وظهرت على سوار ؛  
وأسر سعيد بن جودي أمير البيرة ، ووقعت المهادنة بينه وبين الأمير عبد  
الله . ثم انتقض ، وتملك حصن بلالي ، وجيش ثلاثين ألفاً من أهل الكور .  
وبرز له إليه الأمير عبد الله بنفسه في نحو شطر ذلك العدد ؛ ففر عنه ابن

حفصون . وفتح عبد الله حصن بلادي في سنة ٢٧٧ ، ونازل مدينة إسنجة ؛ فاستنزل منها رجال عمر . ثم انتقل ؛ فنزل بظاهر بيشتر ؛ ولم يتأت له في ابن حفصون غرض ؛ فقفل إلى قرطبة عن حن كثيرة .

وجرت على ابن حفصون بأحوال النيرة هزيمة أنحن بها جراحاً ، ولحق مفلولاً بيشتر ، ثم قوي أمره بخلاف بني حجاج بإشبيلية ، واتصلت يده بهم ؛ فعظمت غاراته وسراياه إلى مورور وشذونة وقرمونة وغيرها .

ثم كبر أولاد عمر بن حفصون أيوب وجعفر وعبد الرحمن وحفص ؛ واعتل عمر علة شديدة ، اتهم فيها أيوب ولده بالفتك به ؛ فعاجله وقتله . والجيوش في كل حين تتوالى عليه ؛ فتارة يستأمن ، وتارة ينكت ؛ وأهلكت الأندلس فتنه . وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية أصدقاء الأموية ، ووجهوا إليه رجلين ممن يعتقد مذهبهم بخلعات ، وخاطبوه بالحن على التزام طاعتهم وإقامة دعوتهم ؛ وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه ، وصرفهما ؛ ووجه معهما هدية انتخبها إلى صاحبهما . ولما توطد لهذا العهد أمره ، أحضر أصحابه ، وعقد لولده جعفر العهد بعده ؛ وكتب عليهم عقداً استحلفهم فيه . واتصل به مرض الأمير عبد الله ؛ فغلب لذلك على الحصن الذي ابتناه على مدينة بيشتر ، وقتل من به . وبلغ ذلك الأمير عبد الله ؛ فأغراه ابنه أباناً سنة ٢٨٥ ؛ فاستد الأمر عليه ، واستواب بأصحابه ، فحذرهم ، وعول على النصارى ، وتقلد ( زعموا ) دينهم دين آبائه .

ثم ولي الأمر عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، وصرفه إلى استنزال الثوار ؛ فرأى ابن حفصون من إقبال دولته وسعادة حركتها لطلب أمانه ؛ فأسعفه الناصر ، وكتب له عهداً ، أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا ، وارتحن عنده ولده عبد الرحمن بن عمر . وغزا قواد الناصر بلاد النصارى غزوات حضرها ابن حفصون .

ثم توفي عمر في سنة ٣٠٦ ، وولي أمره ولده جعفر بن عمر ؛ وزعموا أنه

شهر دين النصارى ، وانفرد بمواراة أبيه مع القسيسين حتى دفنوه على سنة دينهم .

وذهب جعفر مذهب أبيه في العناد ، ودس الشرار للقطع بالطرقات ؛ فأغزى إليه الناصر ، ثم غزاه بنفسه ؛ فافتتح حصن بلدة عنوة ، وقتل مقدم جعفر ، واستباح أهل الحصن قتلاً وأسراراً . وخالف على جعفر أخواه عبد الرحمن وحفص ، وضاق أمره ، واختلت حاله ؛ وقام عليه طائفة من خاصته ؛ فقتل . فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر . واستدعى قتله أخويه سليمان وحفص ؛ فسبق سليمان إلى بيشتر ، واستولى على أمر والده ، واستأمن إلى الناصر ، وخطب طاعته ؛ فسأله إلى أن تمكن وعلا قدره ؛ فنكت ، وشن الغارات ؛ فأخرج الناصر القواد إلى مضايقته ، وبني على طرش من حصونه قصبات حصينة ؛ فلاذ بالصلح ؛ فقبل منه ، وأخذ رهائنه ، وهدم حصن طرش من حصونه . ولم تطل مدة سلمه إلى أن نكت ودخل مدينة المنكب عنوة ؛ فقتل جميع أهلها ، وسبى نساءهم ؛ فخرج الناصر إلى منازلته ، وضيق به ، وفتح الكثير من جهاته ؛ ثم قفل ، وقد اختلفت كلمة أصحاب سليمان بن عمر بن حفصون ؛ فرصدوه حتى إذا خرج يوماً إلى مطالعة بعض حصونه ، أعلنوا بخلعه ، وخاطبوا القوميس كبير النصارى المعاهدين عامل الناصر بتلك الجهة ؛ فليحق بهم فيينا هو يروض الجملة في استدعاء قائد الناصر ، إذ لحق سليمان مستبلاً ، وقد أضعوا الحزم في ضبط المدينة ؛ فدخلها متكرراً متلثماً يحمل حزمة حطب ؛ وتلاحق به أصحابه ؛ ففر الأسقف وجعل سليمان السيف على من اتهمه . ثم ضاقت حاله ؛ فكتب إلى عبد الرحمن الناصر بطلب الأمان والسلام ؛ فأجابه إلى ذلك ، وكتب له عهده . فلما تأثل ، نكت وعادو الغدر ؛ فوالى عليه عبد الرحمن الجيوش والחסم ، وأردف القواد حتى نالت عليه الوقائع ، وتبين إداره ؛ فأطاع جملة من معاقله ، وقطعت عن بيشتر الميرة والمرافق ، إلى أن وقعت على سليمان الهزيمة

بأحواز سُنْتُ بِجَنْتْ ؛ وكبا به فرسه ؛ فقتل .

وولي بعده أخوه حفص : ملكه أهل القلعة أمرهم . وخرج إليه الناصر سنة ٣١٥ ؛ فافتتح مدينة أنجش من طاعة حفص ، ونازلته ببشتر ، وابنتي بجوارها حصن خلّيدة ، وتخلّف فيه الوزير ابن المُنْذِر ؛ فأذعن إلى السلم ؛ فلم يجب إلا على الخروج . فتمّ ذلك بعد عناء كبير سنة ٣١٦ . ووصلوا بجمعهم إلى قرطبة . وتوسّع إلى حفص في إنزال واسع ، وإلحاق شريف . وغزا مع عبد الرحمن الناصر إلى جليقية ، وأغنى بين يديه إلى أن مات بوادي الحجارة سنة كذا وعشرين وثلاثمائة .

وانقضى أمر بني حفصون إلى هذا الحد . ولا بدّ لكلّ أوّل من آخر ؛ فسبحان من له البقاء !

### ذكر شيء من أخبار بني حجاج

وكان هذا البيت من بني حجاج بنّت رئاسة وظهور بإشبيلية ، وآخر بيوتات النباهة الأربعة : بيت بني حجاج هذا ، وبيت بني عبّاد ، وبيت بني خلدون ، وبيت بني الحكيم المستقرّ عقبهم الآن برنّدة ، حسباً ذكر لي أبو بكر بن الوزير أبي عبد الله منهم . وأدركت من بيوتات بني حجاج بمالقة أمين العطارين بها يخبر بشرف عن هذا البيت ، وأنهم استبدّوا بحضرة إشبيلية عن بني أمية ، بحيث كانوا يقدمون قاضي الجماعة من مدينتهم ، ولا يرجعون في شيء من أمرها إلى صاحب الدعوة المروانية .

وكان إبراهيم كبير هذا البيت ، لما كشف الوجه في الخلاف ، هادن الأمير عبد الله بن محمد على أن يوليّه ببلده ، ولا يعرض له ؛ ففرض منه بذلك ، وفعل . فجبى الأموال ، واصطنع الرجال ، وارتقى في درج الجلال ؛ وكان رئيساً ضخماً ، بعيد الهمة ، حسن الآثار ، جميل الذكر ؛

ولم يزل يتبسط على الأمير عبد الله حتى ساء ما بينهما ؛ فظهر الخلاف ، ومالاً يجاره ابن حفصون ؛ وعظمت نكايتهما إلى أن هلك إبراهيم ، وحالته حال الملوك مصافاً وإنعاماً . وكان يضاوي الملوك ، ويقصده الشعراء ، وتؤمّله الأشراف . وفيه يقول ابن عبد ربّه قصيدته التي أولها : [الوافر]

كِتَابُ الشوقِ يَطْوِيهِ الْفؤَادُ      وَمِنْ فَيْضِ الدَّمْعِ لَهُ مِدَادُ

وكان مهلكه فجأة في عام ٢٨٨ .

وولي بعده ولده عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ فطالت مدته إلى سنة ٣٠١ . وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج بمدينة قرمونة ، قد أقام أيضاً رسماً كبيراً من الفضل ، زاد به على شهرة أبيه وجلالته . ولما توفي عبد الرحمن جعل أهل إشبيلية الأمر لأحمد بن مسلمة من بني حجاج ، وصرفوه عن محمد صاحب قرمونة ؛ فناصرهم الحرب ، وأعطى الناصر الطاعة ، وقد صار إليه الأمر ، وأمدّه بالجيش ؛ فضيق على إشبيلية ، وأقام بإقليم الشرف منها . ولما رأى ابن مسلمة ما لا يطيقه ، داخل الناصر لدين الله في سرّ من الأمر ، ومكّن الناصر من إشبيلية . ولما علم محمد ذلك ، أنكر كتم الأمر عنه ؛ فخالف الناصر ، وأغار على الأحواز القرطبية . وما زال الناصر يؤنّسه ، ويتأنّى له ، إلى أن أجابه إلى سكّني قرطبة حضرتة ، على أن يترك بقرمونة بلكده نائباً عنه ؛ فكان ذلك في رمضان من عام ٣٠١ . ووصل قرطبة في رجاله وقومه ؛ فأجرى الناصر عليه ، وقربه من نفسه ، وولاه الوزارة منوّهاً به رفيع القدر ؛ وخرج للغزاة ؛ فأغزاه معه وزيراً . ثمّ امتنع عليه قرمونة ؛ فحاصرها مع السلطان إلى أن طرقت في أمورها التهمة ؛ فعزل عن الوزارة وحُبس . ثمّ أعتبه . ولم تطل مدته أن هلك في شوال سنة ٣٠٢ . وأنقضت أيام بني حجاج .

والثوار في دُول بني أمية متعدّدون : شقيت بهم الملوك ، وتنغصت

بهم الخلفاء ؛ واضطروا إلى مُسألتهم تارةً ، ومُحاربتهم أخرى . وجعلوا رسم الوفاء لمن عاهدوه منهم سياسةً ، لولاها لجلُّ الخطبُ ، ولم يخلص الملكُ .

والسببُ في كثرة الثوار بالأندلس يومئذٍ ثلاثة وجوه : الأول : منعةُ البلاد وحصانةُ المعاقِل ، وبأسُ أهلها بمُقاربتهم عدوِّ الدين ؛ فهمُ شوكةٌ وحِدٌّ بخلاف سِوَاهُمْ ؛ والثاني علوُّ الهِمَم ، وشموخُ الأنوف ، وقلةُ الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرفاً يَأْتف بعضُهم من الإذعان لبعضٍ ؛ والثالث : الاستناد ، عند الضيقة والاضطرار ، إلى الجبلِ الأشمِّ والمعقلِ الأعظم من مَلِكِ النصارى الحريص على ضَرْب المسلمين بَعْضُهُمْ بَعْضٍ . فكان الأمراءُ من بني أُمَيَّة يرون أنَّ اللجاج في أمورهم يُوْدِي إلى الأضلولة ، وفيها فسادُ الأموال ، وتعذرُ الجباية ، وتعريضُ الجيوش إلى الانتكاب وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحه هذه الأمور . وسياسةُ الثوار والناجمين قد أَكْثَر أربابُ السياسة القولَ فيها من الفُرس واليونان والنُزْك وغيرهم ، حسباً يَنْبِيئُ في « كتاب رسالة الفُلك في سياسة المُلُك » إن شاء الله . فلا يزالون يسيغون في حسن التآني لهم المرءُ ، ويتحملون المشاقَّ .

وكان الأمير عبد الرحمن مبرزاً في ذلك مع معين البخت والإقبال ؛ فهادنَ طائفةً ، وارتهنَ أخرى ، واستنزل إلى حضرته أخرى ، وغلب بالسيف أخرى ؛ فاستأثر من بين قومه بالهدوء وخلو الجهات من الهرج ، وتنهأ بحول الملك .

وهذا الكتابُ كتابُ 'لمع' وإشاراتٍ ، إن أطلَقْنَا فيها العِنانَ ، خَرَجْنَا عن الغَرَضِ .

ثمَّ إنَّ الله ابتلاه ومحصه بالوقعة الشهيرة التي أَوْقَعَهُ بها عدوُّ الله رُذَيمِر ابن أُرْدُون ، يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خَلَّتْ من شِوَال سنة ٣٢٧ ، على باب مدينة سُنَات مَانَكَش من بلاد الرُّوم ، بعد قتال أَيَّام جَالَتْ .

فيه المُغالبة بين الفريقين بأشدَّ ما يكون وأصْعَبِهِ . وكانت للعدوِّ الكرَّةُ ؛ فَانْكَشَف المسلمون انْكَشَافاً لم يَسْمَعْ بمثله . وجرتِ الهزيمةُ على المسلمين طائفةً من جُنْد الناصر لدين الله حَسَدَتْهُ ما هَيَّأَ اللهُ له من الصنع ، ولم تُنَاصِحْهُ في الحرب حقَّ النصيح ؛ فجالَت ثانيةً لِلْأَعْنَةِ ، واختلَّ مصافُّ القتال . وأجأَ العدوُّ المسلمين إلى حُنْدَقٍ بعيدٍ المهوي ، إليه تُنْسَب الوقعة ؛ فتساقط فيه الناسُ حتى سَاوَوْا بين حَافَتَيْهِ . وانكشف الناصِرُ ، وأسلم محلاته ؛ فاستولى عليها العدوُّ بما فيها من عُدَّة وغير ذلك ؛ وضع فيها مُصَنِّعَهُ ودِرْعَهُ ، وكان لا قيمةَ لهما ، إلى أن استردَّ ذلك فيما يَأْتِي .

ولما خلاص من المعركة ، وجَّه طائفةً من أنجاد خَدَمَتِهِ سبقت الناس إلى قرطبة ؛ فبشَّرت بسلامته ، وأنقذت أمرَه باتِّخَاذ الحَشَب والمصَالِب على صَفَةِ نهرها ؛ ولحين وصوله ، تقبَّض على ما يناهزُ ثلاثمائة من الفُرسان ؛ فصلبهم ، وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاءُ من عَشَّ الإسلام ، وكاد أهله ، وأَحَلَّ بِصَافٍ الجهاد ! » فرُفِعوا بها ، وبَادَرَتْهُمْ الرماحُ بِرَأْي من الناس ؛ ودخل إلى قصره . ومن لدن هذه الغزاة ، لم يُبَاشِر الغزو بنفسه . وضع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم ما لم يصنعه لأحدٍ مِمَّن قَبْلَهُ .

وتوالَتْ عليه بعد ذلك المنوح ، وأذعنَت الأعداءُ ، وقدمت عليه رُسُلُ الملوك بالعدوة الغريبة من رَنَاتة والأدارسة والقيرَوان وجزائر بني مَرْعَنَّا . ووصل إليه رسولُ مَلِكِ القُسْطَنْطِينِيَّة العُظْمَى ، راغباً منه في إيتاق المُوَالفة . فَعَدَّ له المَقْعَدَ الشهير ، الذي لم يَتَهِأْ مِثْلُهُ لِمَلِكٍ قَبْلَهُ ؛ فدخل الرسولُ عليه ، وقد بهت لهول ما عَايَنَهُ ، ودفع إليه رسالته مُودَعَةً في دَرَجٍ ذهبٍ كثيرٍ التصاوير ؛ وكان الكتابُ في رَقٍّ سماويٍّ اللون مكتوباً بالذهب ، وعليه طابَعُ ذهبٍ ، في أحد وجهَيْهِ صورةُ المسيح ، وعلى الآخر صورةُ الملكِ قُسْطَنْطِين .

وتعهد مُلْكُ الناصر ، وعظم أمره ، وبلغت الغاية مَبَانِيهِ ؛ فزاد في المسجد الأعظم الزيادة المائلة ، وبنى المنار الأعظم بقرطبة ، وجعل في أعلى ذروته ثلاث رُمَانات تحطف الأبصار بالتباعيا : أنثتان منها ذهب ، وواحدة فضة ، طوق كل رُمانة فيها قطار من الذهب ، ودور إحداها ثلاثة أذرع ونِصف .

وهو الذي ابنتي الزُهراء : ابتدأ بناءها في أوَّل سنة ٣٢٥ . وكان يضرب فيها من الصخر المنجور العريض الضخم كل يوم ستة آلاف صخرة ، سوى صخر التلبيط والتأسيس . وجلب إليها الرُخام حتى من تونس وقرطاجنة إفريقية ؛ وجلب إليها من سواري الرُخام أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وأربعاً وعشرين سارية ؛ وجلب إليها من بلاد الروم على يد ربيع الأسقف حوضاً منقوشاً بالذهب ، يُنقل هويناً من مكان إلى مكان ، حتى وصل إلى البحر ، ورفِعَ منه إلى بلده : فكان عبدةً لمتأمله ؛ وجلب إليه أحمد ابن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً ، فيه تماثيل لا قيمة له ، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام ؛ فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدرّ النفيس الغالي . وذكر المخبر أن قوت الحيتان في بركات قصوره بلغ في كل يوم اثني عشر ألف خبزة . وكانت هيئته في البناء طامحةً فوق هيَم الملوك .

وكانت جبايته مقسومة ثلاثة أقسام : قسم للجند ، وقسم للبناء ، وقسم مدّخر للضائر .

وحكى صاحب « طبقات القضاة » أن الناصر لدين الله اتخذ بسطح القبة المائلة على الصرح الممرّد المشهور شأنه بالزُهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضةً ، أنفق عليها مالا جسيماً ؛ وقرمّد سقفا بها فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعّشة . وجلس فيها ، إثر إتمامها ، لأهل

ملكته ؛ فقال لوزرائه وخاصته ، مفتخراً بما صنعه ، وبما يتّصل به من البدائع : « هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي فعل مثل فعلي هذا أو يقدر عليه ؟ » فقالوا : « لا ، والله ، يا أمير المؤمنين ! وإنك لأوحد في شأنك كلّه ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأينا ولا انتهى إلينا خبره ! » فأبهجه قولهم وسره جداً . وبينما هو كذلك ، تضحك أسارير وجهه ، إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجيئاً ناكساً ؛ فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه . قال : فاقبلت دموع القاضي تنحدر على لحته ، وقال له : « والله يا أمير المؤمنين ! ما ظننت أن الشيطان - لعنه الله - يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أنك تمكّته من قيادك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! » قال : فاقشعرّ عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وقال : « انظر ما تقول ! كيف أنزلتني منازلهم ؟ » فقال : « نعم ! أليس الله تعالى يقول : « وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » الآية . قال : فوجم الناصر لدين الله ، ونكس رأسه ملياً ، ودموعه تنحدر على لحته خشوعاً لله تعالى ، وتذمُّباً بما أجري إليه . ثم أقبل على منذر بن سعيد ، فقال : « جزاك الله عناً وعن نفسك خيراً ، وعن المسلمين والاسلام خيراً جزائه ، وكثر في الناس أمثالك ! فالذي قُلت هو الحق ! » وقام من مجلسه ذلك ، يستغفر الله ؛ وأمر بنقض سقف القبة ، وإعادة قراميدها ثراباً على غير تلك الصفة .

ثم طرّق الناصر ما طرّق جدّه ؛ فأنفذ قتل ولده عبد الله ، وقد بلغه أن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ؛ وكان أهلاً لذلك فضلاً وعِلماً وبَصراً بالفنون ؛ وذلك سنة ٣٣٨ . وكان الناصر شديد الجراءة على الدماء ، مرهوب السطوة ، ثقیل العقاب والسخطة . حدث شريطه أنه استدعي للقصر ليلاً ؛ فأمره بضرب عنق جارية لا نظير لها في الدنيا ، وهي تستوحشه ، فلا يرحمها . قال : وسمعت للسيف في عنقها صوتاً لم أعلم ما هو . فلما صمّت

عليها النطع ، وخرجتُ بها إلى الحفرة ، أَلْفَيْتُ عُقْدًا قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا ؛ ورجعتُ فَأَعْلَمْتُهُ ؛ فقال : « اذهبْ به فهو لك ! »

ومن آثاره التي ضُرِبَتْ بها الأمثال ، وقضيت منها العجائب ، حال الطَّرَازِ ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكسَى وملابس الحَرَم وغير ذلك ؛ فقد كان على عَهْدِه مدينةٌ تشتمل على آلاف من الخلق ، قد اتَّخِذَتْ فيها المرافقُ والمساجِدُ والحَمَّامُ والسوقُ . ولو تتبَّعنا أَصْنَافَهُمْ ، وما كانوا يجاورونه من صناعاتهم ، ويناغون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم ، لضاقَ عنه الكتابُ .

وتوفي - رحمه الله - يوم الأربعاء لِاثْنَيْنِ خَلَّتَا من رمضان سنة ٣٥٠ . فكانت أيامُ ولايته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، وعمره ثلاث وسبعون سنة . وقال ابن الفَرَضِيِّ : « وَجِدَ في تاريخه بخط يده : أيامُ السرور التي صَفَتْ لي من غير تكدير يومٌ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، وكُرِّرَ التواريخ ؛ فَعُدَّتْ ؛ فكلُّ ما وَجِدَ منها أربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف سنة . وكذا حال الدنيا لمن اعتبرها ، وموازينها لمن اختبرها .

ومن شعر كاتبه جعفر بن عثمان المصَّحَفِيِّ في نديته : [الطويل]

أَلَا إِنَّ أَيْامًا هَفَّتْ بِإِمَامِهَا لَجَاوِزَةً مُشْتَطَّةً فِي احْتِكَاكِهَا  
فَلَمْ يُؤْلِمِ الدُّنْيَا عِظَامُهَا خُطُوبِهَا وَأَحْدَاثِهَا إِلَّا قُلُوبَ عِظَامِهَا  
تَأَمَّلْ فَهَلْ مِنْ طَالِعٍ غَيْرِ آفَلٍ لَهْنٌ وَهَلْ مِنْ قَاعِدٍ لِقِيَامِهَا  
وَعَايِنْ فَهَلْ مِنْ عَائِشٍ يَرْضَاعِهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَيِّتٌ بِفِطَامِهَا  
كَأَنَّ نَفُوسَ النَّاسِ كَانَتْ يَنْفُسِهِ فَلَمَّا تَوَارَى أَيْقَنْتُ بِجَاهِمِهَا  
فَطَارَ بِهَا يَأْسُ الْأَمَى وَتَقَاصَرَتْ يَدُ الصَّبْرِ عَنْ أَعْوَالِهَا وَاحْتِدَامِهَا

وكان عددُ الفتيان الصَّقَالِبَةِ بمدينة الزَّهْرَاءِ حين وفاته ٣٧٥٠ ؛ وعددُ

النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، يجري على الجميع اللحم والخبز والطيور والحيتان وغير ذلك من ضروب المؤتمرات وضُرُوريات الديار الجارية .

وقد عهد بالأمر بعده لولده الحَكَم ، وهو طفلٌ صغيرٌ من ثماني سنين أو نحوها ، بحيث لو هلك لَنُصِبَ بعده بمكانه ، حسبما اقتضاه ما أخذه على الناس من العهد بذلك ، واقتضاه من الأيمان الغليظة المخرجة شأن من يأخذُ العهد لولده من الملوك ، إلا أن عمره امتدَّ إلى أن كان يوم تصيير الأمر إليه بعده في سنِّ الكهولة . فالحَكَمُ - رحمه الله - بهذا الاعتبار مُمَّنْ اشترطنا ذكره ممن بُويعَ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وكفى بذلك وبجال ابنه المؤيَّد هشام بعْدَه الايتساء لمن أراد الايتساء بذلك ، واختار الاقتداء به - رحمه الله عليهم اجمعين !

## دولة المستنصر بالله الحكم

ابن عبد الرحمن المستنصر لدين الله

بُويِعَ الحَكَمُ بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بعد موت أبيه ، تجديداً لعَهْدِه ، لثلاثِ خَلَوْنٍ من شهر رمضان سنة ٣٥٠ . وكان - رحمه الله - عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميّزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مضر وأوان ، تجرّد لذلك وتهمُّ به ؛ فكان فيه حُجَّةٌ وقُدوةٌ وأصلٌ يوقف عنده .

وفي أيامه ، سكنت الفتنة لتَوْطِيدِ أبيه الدَّوْلَةَ ، واستظهاره على الثَّوَار بحسن السيرة وطول العُمَر ومُساعدة الأَيَّام . وفي أيامه ، ظهرت المَجُوسُ المُجَلِّبَةُ على المسلمين من بحر الجوف ؛ فتحرك إلى المَرِيَّة ، وقد



حصروا حصن القبيطة من حصونها ؛ فأوقع بهم ، وأنشأ الأسطول لغزوم ؛ فكان عدده ستمائة جفن بين غزوي وغيره . وفي سنة ٣٥٢ ، غزا الروم ؛ ففتح مدناً جليلة .

وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم ، وزينه بالفسيفساء المجتلبة من قبل ملك القسطنطينية مع الصنائع المحكمين لذلك ، محاذياً بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق ؛ ففاق خدمته وبماله في تعلم ذلك ، وبرعوا فيه ، إلى أن كمل ما أراد . وورد عليه إرسال ملوك البلاد ، وجبايرة العباد . وألقت الاقطار إليه بالمقاليذ ، ونجعت بالطاعة . وورد عليه جعفر بن علي وأخوه يحيى ملك الزاب ، الذي مدحه محمد بن هاني الشاعر بالقصيدة الشهيرة التي أولها :

أَلَيْلَتَنَا إِذْ أُرْسِلَتْ وَارْدًا وَحَفَا وَبَيْتَنَا تَرَى الْجَوَازَاءِ فِي أَذْنِهَا شَفَا

فاحتل لتلقيه ، وكان يوماً مشهوراً بالأندلس .

وفي سنة ٣٦٣ ، افتتح غالب بملوكه مدينة البصرة من أحواز آصلا ، وقفل إلى الحضر ، وقد استنزل ملوك الأدارسة الحسنيين .

وأخبار الحكم - رحمه الله - شهيرة ؛ وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية .

وولد له هشام ابنه في سن الكبر ؛ فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه . حدث عبادة بن عبد الله فيه قال : بُشِّرَ الخليفة الحكم يوماً في خلوته بأشمال جاريته صبح على حمل ؛ وكان جعفر بن عثمان المصنف بين يديه ؛ فأنشده بديهة :

هنيئاً للإمام وللأمام كريم يستفيد على كرام  
مرجى للخلافة وهو ماء ومأمول لأمال كرام

أضاء على كريمته ضياء فلم تعلم بغاشية الظلام  
ولم لا يستضاء بجانيها وبين ضلوعها بدر التمام

قال : فولدت صبح من هذا الحمل هشام بن الحكم . واتفق أن حضر جعفر عند الخليفة ساعة أتاه البشير بولادته ؛ فقال في ذلك : [خلع البسيط]

أطلع البدر من سحابه واطرد السيف من قرابه  
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه  
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه  
فلو منحت البشير عمري لكان نورا لمن أتى به

وتوفي الحكم ليلة الأحد لأربع خلون من صفر سنة ٣٦٦ ، وعمره نحو من ثلاث وستين سنة وسبعة أشهر .

## دولة هشام المؤيد بن الحكم

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

ولما توفي الحكم المستنصر بالله ، بويع ولي عهده هشام الملقب بالمؤيد بالله ، بالخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ؛ فكانت كمامة ، ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية . وكان بكرسي العارضة مجلاها ؛ ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحطوط من أعلاها ؛ فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظم من زايده ومزايته ، والملوك تعوذ بالله أن لا يصيبه عاثته الذي يعاينه ، والمباني قد بلغت السماء سموًا ، وزاحمت الكواكب علوًا ؛ والبلاد قد بلغ فيها إلى قاصي الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ؛ والآثار

الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت ؛ ورسمُ الخلاف قد أضحى ، والدولة المروانية قد بركتْ وَسَطَ المَرَعَى ، والدعوة قد انتشرتْ في المغرب الأقصى ؛ والمصرُ قد خرج في العِمارة عن المعتاد ، وظهور الرنى والوهاد ، متزاحماً بجيوش الجهاد ، والصنائع تجلّى ، والفتوحات من فوق المناير تُثلى ، والقراية تضيق عن أعدادهم مجالسُ الملوك ، ويقصر عن انتظام لآلئهم الثمينة ذرع ذلك السلك .

ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول ، وبني الأعمام الفحول ، أسود الهياج وغيوث المحول ؛ وهشامُ يومئذٍ صبيٌ صغيرٌ يناهز عشر سنين ، مع ضعفٍ في الأصل ، وعدوٍ في الحُصْل ، والكلُّ على علم ، من أنه لم يبلغ الحِلْم .

حكى القاضي أبو الفضل عياض - رحمه الله - أن الحَكَمَ أباه ، لما وُضِعَ سريره للصلاة عليه ، قيلَ لجَعْفَر بن عُثْمَانَ : « مَنْ يُصَلِّي على أمير المؤمنين ؟ » فقال : « ومن يُصَلِّي عليه إلا أميرُ المؤمنين ولده ؟ » فتقدم هشامُ ، وتقدم خلفه بارزاً عن صف الناس القاضي أبو العباس بن ذكوان ، نواباً للإمامة لصغر هشام عن هذه الوظائف ؛ وخلفه يومئذٍ ، من أعلام مشيخة العلم والدين والشهرة والصلابة في الحق ، أمةٌ لم يشتمل العراقُ عليها أيام احتفاله ، ووفور رجاله ، ما منهم إلا عالمٌ بسنة ومولده ، ومحله من الاضطلاع بأمورهم والاستقلال بأعباء ما نخلوه . وأعطوه صفقات أيمانهم من بيعته ؛ والقومُ القومُ لا يؤتون من جهل ، ولا يُهدون إلى سلوك سُبُل . فمَ ما أريدَ من ذلك . وأخذ على الناس العقودُ به أياماً تبعاً حتى كمل الغرض ، وتم ذلك الواجبُ المفترض .

وكان الناس يومئذٍ - لا بَلْ وفي كلِّ زمانٍ - أربعة :

فصنّف هَمُّه الدنيا التي ينالها بسبب الولد هَمُّه بالغاً أو مُمْتِئاً ،  
طفلاً في المهد أو جنباً في المسبحة . وهم صنائعُ الحكم وخدّامه

وعُمّاله وفِتْيانه ورجالُه ؛ وكلُّ في علاقة به ، بمن يحسب نفسه أجنبيّاً عن خليفة غيره ، إن لم يعدْ عدوّاً ، تطرّق الظنُّ إلى ماله ونفسه . وهذا الصنفُ بجرّ زاجر ، وللحصى والقطر مكاثر ؛ وينضاف إليه كلُّ ذي علاقة قديمة سالفة أو حديثة ناشئة ، تنتسب إلى النائب عنه ، وهو مستكثرُ من الأولياء لضرورة ما تحمله والاستظهار على ما دخل فيه ؛ وهم أيضاً بجرّ ثانٍ ، وهولٌ لا يثنيه ثانٍ .

وصنّف مُرتّق من الديوان ، مشهور العناية والمكان ، أو مجهول الشأن ، راضٍ بحظّه من الزمان ، لا يتشوّف إلى المزيد ولا يجذر من النقصان ، قد تساوت في الدّول أحواله ، وسكنت إلى الرّزق والمفروض آماله ، فإن تعيّن الطّفل أو الكهل ، لم تلحقه يازاء هذا مزيّة ، ولا فقدَ لأجل هذا حالة سنيّة ؛ فهو هادٍ ساكن ، وإلى فئة العافية راكِن .

وصنّف يؤمّلُ أمراً ، ويشبُّ إن قدّر جَمراً ، ويرجو من القرابة الراجحة زَيْداً وعمراً ، ومُسْتَحَقُّ بَأْسٍ لما خرج عن يده ، أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى تحلٍّ ولده ، مُسْتَوْحِشٌ ببخس حقه ، وجحد سبّقه ، ولا يعلم حال الدنيا فيمن ادّعى الاستحقاق ، وفرض الوفاق . وإنّ هذا قياسُ فضح الأول والآخِر ، والغائب والحاضر ، وقطع الأعناق ، وسحت الأرزاق ، وأكسب النار ، وأعقب الحسار ؛ وما تلبّست الأيدي بشيء ، ولا حصلت إلا على ظِلٍّ وفَيٍّ ؛ وقد جرّت بذلك الأمثالُ المضروبة والأقوالُ المشهورة ، كما قال قيس بن الملوّح ، وقد خسر على لَيْلى حتّى عَقَلَهُ ومَسْكَنَهُ ، وذهب بها إلى رحله ، وتمتّع بها بما حَرَمَ : [الطويل]

قَضَاها لَغَيمٍ ، مَبْلَايَ بَرٍّ ، شَيْءٌ غَيْرُ ذَاكَ ابْتِلَانِيَا

وقال الآخرُ :

رَبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ وَأَسْلَمِي أُمَّ خَالِدٍ

لا بل ، سبحانه الله الذي يقول : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغُيُورُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . » ولا يعلم أن الحُظوظَ قد كُتِبَتْ ، والأمورَ قد أُبْرِمَتْ ، والفلكَ قد سُحِّرَ ، والقدرَ قد قُدِّرَ ، والنجومَ قد أُمِرَتْ ، والأحوالَ قد قُرِّرَتْ ، والمواليدَ قد اتَّسِمَتْ ، والغيوبَ قد أُهْمِتْ .

وهذا الصنفُ المنازعُ المنافسُ بينَ أن يَصُنْتَ فيموتَ بدائه ، أو يَجْهَرَ بالمنازعة فينتهي إلى قَدَرِ الله وقضائه . وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف ، لاستحكام الصبغة الحكيمية التي لا تُبالي بمن تقدم . ولا تظن غيرَ الحكمِ أو الناصرِ كان آدم ؛ فلم تَسْعَهم يومئذٍ إلا المُجاملَة ، وجَرتْ على الرضى المُعاملة ، واسْمَعِ الدعاء والإطراء ، واعمل السكون والإراء !

وصنفٌ من أهل الدنيا والآخرة ، قلّدوا أهلَ الحِلِّ والعقد ، والقبولِ والردِّ اجتهدُهم ؛ وسألوا اللهَ توفيقَهم وسدادَهم ، واستكفوه الشرورَ التي تنالُ النفوسَ والأقوات ، وتُسيءُ المجيا والمات ؛ واعتبروا بمن رَأَسَ الأُمَّةَ المُسلِمةَ في أمّهات البلدان ، من الفُتيان والعِلَمان ، والطَّوَّاسِيةِ والحُصَيان ، والأعجامِ التي تُخاطَبُ بالترنُجان ، والصبية والنِّسوان . وهم أشرفُ أوطاننا ، وأعظمُ سُلطاننا ، وأوفرُ أعلامنا ، وأعزُّ إسلامنا . ورأوا أن الله قد سدَّ ثلهم بمن يُحكِمُ التلْفِيقَ ، ويلتمس التوفيقَ ، وحسَنَ المآبَ ، ويحكمُ السُّنةَ والكِتابَ . وأنه رَأبُ الصَّدْعِ بِرَجُلٍ من أنفُسِهِم يؤثرُ التَّقْوَى ، ويدفعُ عن الجَوْرَةِ بالذراعِ الأقوى ،

١ سورة آل عمران : ٢٥ - ٢٦ .

إلى أن يستقلَّ هِشامٌ بأمرِ الحُكْمِ ، وتفضي المذاهبُ إلى النهجِ الأمِّ . فحمدوا الله على حُسْنِ الكفايةِ واصطناعِ المنَّةِ ، وإقامةِ رَسْمِ الكِتَابِ والسُّنةِ ؛ فاعتبطوا ، وارتبطوا ، ونشطوا ، وانبسطوا ؛ وكلَّما زادت الأحوالُ صلاحاً ، شكروا ، واعتبروا ، وذكروا ، واستبصروا . وهم جُمهورُ الناسِ من الفقهاء والعُلَماء ، والخاصَّةِ والدهماء . فلم تَسْمَعْ عن أحدٍ منهم هِجْرَةً أَعْمَلها ، ولا فِتْنياً سوَّغتِ الخِلافَ لمن سألها ؛ ولم يستجيزوا ذريعةً تؤدِّي إلى سفكِ الدماءِ ، وتغييرِ النعماءِ ، وشياتِ الأعداءِ ؛ فصانوا أديانَهم ، وعرفوا زمانَهم ، واقتصروا على رسولِ الله في الإرشادِ ، وإلهامِ السِّدادِ .

وصنفٌ غارِمٌ ، لا همَّ له إلا فيمن يُخَفِّفُ أَصْرَهُ ، أو يديلُ بالبُسْرِ عِسرَهُ . وأمّا هؤلاء ، فأوباشُ أسواق ، وحمقى ما لهم من أخلاق ؛ ففتح الله على الجميع في هذه الأيامِ الهِشامِيَّةِ العامِريَّةِ أبوابَ النِّعمِ والمنوحِ ، وجلا صُورَ الفتوحِ ، والنصرِ المُنوحِ ، شملت إحكامَ التَّسْهِيدِ ، وكنت الخلقَ وافيةً كواقيةِ الوليدِ ؛ وتملَّأوا العافية التي غَبَطَهم فيها أهلُ الأرضِ بما رَحِبَتْ خمساً وثلاثين سنة ، مدَّةَ الكِفَالَةِ العامِريَّةِ ؛ وتغلَّبَ على الأمرِ رجال ، زعموا أن لهم في السِّدادِ تَجال ، يروْنُ مروان بن الحُكْمِ عجوزاً من عجائزِ البَيْتِ ، وعبدَ الملك ابنه في حَلَبَتِهِمْ بمنزلةِ السَّكَيْتِ ؛ فسام الناسُ دَهْرَهم سَومَ العَذابِ ، وأخذتْهم الرجفاتُ من كلِّ بابٍ ، وتقطَّعتْ بالإسلامِ الأسبابُ ، وزهبت الأموالُ ، وتغيَّرت الأحوالُ ، وسُفِكَتِ الدِّماءُ ، وكتب الجلاءُ ، وطَوَّتْ عِمارةُ الإسلامِ الأعداءُ ، ليعلموا أن الخيرَ والخيرةَ إنما هي لمن بيده مَلَكُوتُ الأرضِ والسماءِ ، ومقاليدُ السُّرِّاءِ والصُّرِّاءِ ؛ وصاروا يُعَلِّلونَ باستخلافِ خِصِيٍّ من فُتيانِ آلِ عامِرٍ ملازماً للسكرِ ، محبوباً للأُنثى والذَّكَرِ ؛ فيَقْنَعُونَ به إماماً ، ويجهرون جَمّاً في طريقه سلاماً ، ويقفُ أعلامُهم ببابه خُذَّاماً ؛ وهذا يُقرَّرُ دِمَاماً ، وهذا يستمطرُ سُحُباً جَهَاماً ، من كلِّ منكوسِ الجِدِّ ، مجهولِ الأبِ والجَدِّ ،

أَشْوَسَ اللَّحْظَ ، أَعْجَبِي اللَّفْظَ ؛ لِأَذْوَانِهِمْ بِأَذْيَالِ لَيْسَبٍ وَزُهَيْرٍ وَفَائِقٍ  
وَوَاضِحٍ ، يَشْتُونُ عَلَيْهِمْ رَاحَةُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَسْتَظِلُّونَ أَيَّامَ  
النَّصْرِ ، وَإِقَامَةَ رَسُومِ الْقَصْرِ ، وَأَوْقَاتِ الْعَافِيَةِ الَّتِي سَمَتْ عَنْ الْحَصْرِ .  
اللَّهُمَّ ! لَا تَوَازِنَا بِبَطَرِ الْعَافِيَةِ الَّتِي مَدَّتْ ظِلَالَهَا ، وَسَوَّغَتْ زِلَالَهَا !  
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

وَصِنْفُ هُمُ الْآخِرَةِ ، بَعِيدٌ مِنْ تَعْرِيجٍ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ، لَا  
يَتَكَلَّمُ فِي مِثْلِ هَذَا ، وَلَا يُتَكَلَّمُ مَعَهُ ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهِ بَابًا ؛ إِنَّمَا هُوَ  
مَشْغُولٌ بِرَبِّهِ خَاصَّةً . وَهَذَا جِيلٌ قَلِيلٌ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرَ مُرَاعَاةً لِلتَّقْسِيمِ .  
وَلَا تَخْلُو الْأَفْطَارَ مِنْهُمْ ؛ فَهُمْ بَرَكَاتُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَوَلِيَاؤُهُ مِنْهُمْ .

\*\*\*

قَالَ ابْنُ حَيَّانَ فِي السُّوَرَةِ النَّعِيرِيَّةِ : رَأَيْتُ رِشَاءُ بْنَ الْحَكَمِ بِحَرَمِهِ  
صَبِيحَةَ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ بَعْدَهُ ، ثَلَاثَ خَلَوْنَ مِنْ جَفَرِ سَنَةِ ٣٦٦ . وَدَعَا النَّاسَ إِلَى  
الْبَيْعَةِ ؛ فَاسْتَوْسَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِيهَا مِنْهُمْ إِثْنَانٌ . وَاتَّضَلَّ أَخَذُهَا عَلَى  
النَّاسِ أَيَّامًا ، وَكُتِبَ بِهَا إِلَى الْأَقْطَارِ ؛ فَلَمْ يَرُدَّهَا أَحَدٌ .

وَكَانَ عَلَى عَهْدِ بَيْعَةِ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ مِنَ الْأَعْلَامِ هَضَابٌ رَاسِيَةٌ ،  
وَبِجَارٍ فِي الْعِلْمِ زَاخِرَةٌ ، وَأَعْلَامٌ قَوْلُهُمْ مَسْمُوعٌ ، وَبِرُّهُمْ مَشْرُوعٌ ، وَأَثَرُهُمْ  
مَتَّبَعٌ ، مِثْلُ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زَرْبٍ ، وَحَسْبُكَ بِهِ  
شَهْرَةٌ وَجَلَالَةٌ ؛

وَالْقَاضِي أَبِي الْمُطَرِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَيْسَى بْنِ فُطَيْسٍ ، قَاضِي  
الْقَضَا بِقَرْطَبَةٍ ؛

وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ السَّلِيمِ ، قَاضِي الْقَضَا عَلَى عَهْدِ الْحَكَمِ  
وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ وَلَدِهِ ؛

وَالْقَاضِي أَبِي عَلِيٍّ حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ ذَكْوَانَ ؛

وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ يَبْقَى بْنِ زَرْبٍ ، قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةٍ ؛  
وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي يَحْيَى زَكْرِيَاءُ بْنُ بُرْطَالٍ ؛

وَقَاضِي الْجَمَاعَةِ سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِرَاجٍ ؛

وَقَاضِي الْقَضَا الرَّئِيسُ الْجَلِيلُ الْمُتَقَدِّمُ عَلَى الْوُزَرَاءِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ  
اللَّهِ بْنِ هَرْثَمَةَ بْنِ ذَكْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ دُوسٍ بْنِ ذَكْوَانَ الْأَمْوِيِّ ،  
وَكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْهَوَادَةِ : ذَكَرُوا أَنَّ الْمَنْصُورَ لَمَّا اتَّخَذَ مَسْجِدَ الْحُطْبَةِ  
بِالزَّاهِرَةِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الصَّلَاةِ فِيهِ ، لَمْ يُصَلِّ مَعَهُ ابْنُ ذَكْوَانَ فِيهِ مَدَّةَ  
أَيَّامِهِ مُرَاعَاةً لِلْخِلَافِ ؛

وَقَاضِي الْقَضَا أَبِي بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَافِدٍ . قَالَ ابْنُ حَيَّانَ :  
كَانَ أَحَدَ كِمَالِ الْقَضَا بِالْأَنْدَلُسِ هَدِيًّا وَعِلْمًا وَرِجَاحَةً ؛

وَأَبِي حَاتِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذَكْوَانَ ؛

وَأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْقَلَالِيِّ ، لَهُ تَوَالِيفٌ  
جَلِيلَةٌ ، سَمِعَ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَحَمَّاسِ بْنِ مَرْوَانَ وَالْمَعْفَايَ ، وَلَهُ كِتَابُ  
جَلِيلٌ فِي الْإِمَامَةِ ، وَلَهُ بَلَاغَةٌ وَشَعْرٌ وَفُصُولٌ وَنَوَادِرٌ ؛

وَقَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ السَّلِيمِ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ عِيَّاضُ : نَالَ  
رِيَاسَةَ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ؛

وَأَخِيهِ مُنْذِرُ بْنُ إِسْحَاقَ أَبِي الْحَكَمِ ، قَدَّمَ لِلشُّورَى بِقَرْطَبَةٍ ؛

وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ يُونُسَ أَبِي مَرْوَانَ الْمُعَيْطِي ،  
سَمِعَ مِنْ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغٍ ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ سَعْدٍ ، وَأَحْمَدَ بْنِ عُبَادَةَ ؛

وَسُلَيْمَانَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ بَلْكَاشِيشِ الْقَوَاطِيَّ أَبِي أَيُّوبَ ، سَمِعَ  
مِنْ ابْنِ لُبَابَةَ وَغَيْرِهِ ؛

وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ هُدَيْلَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ التَّيْمِيِّ أَبِي مَرْوَانَ ، سَمِعَ مِنْ  
أَحْمَدَ بْنِ خَالِدٍ ، وَابْنِ أَصْبَغٍ . قَالَ ابْنُ عَفِيْفٍ : كَانَ وَاحِدَ عَصْرِهِ ؛

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحَّالِ ، مِنْ بَيْتِ النَّبَاهَةِ

والوزارة بقرطبة ؛

وأبي بكر بن القوطية الإمام المصنف ؛  
وإساعيل بن إسحاق بن إبراهيم القيسي المضري بن الطحان ، اختصر  
« المدونة » وكان من كبار العلماء ؛

وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن القيسي ، سمع وهباً وأبا علي النابلي  
وأفتى بجامع الزهراء ؛

وعبد الله بن محمد بن عبد البر التميمي ، والد أبي عمر بن عبد البر ،  
من أصحاب ابن بجامة الإلبيري ؛

وعبد الله بن محمد الصائبوني المعروف بابن بركة ، ولي الشورى بقرطبة ؛

ومحمد بن عبد العزيز بن يحيى . قال : كان من أفضل أهل زمانه ، وله  
تأليف حسن ؛

وأبي عمر أحمد بن عيسى بن المكرم الغافقي ، وأخيه أبي عثمان سعيد بن  
عيسى ، سمع قاسم بن أصبغ ؛ وكان من أصحاب الرأي والتصرف والحفظ ؛

وأحمد بن محمد بن زكرياء بن الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن زيد  
ابن ميكائيل ، مولى عبد العزيز بن مروان ، الرضاقي القرطبي ؛

وأحمد بن قرقمان أبو عمر من العبّاد المتبتلين ؛

والقاضي محمد بن يحيى بن زكرياء التميمي ، سمع بقرطبة من ابن خالد  
وقاسم بن أصبغ وابن رفاعة وابن دحيم ؛

وإبراهيم بن أحمد بن فتح ، المعروف بابن الحداد القرطبي ، روى عن ابن  
أبْنِ وابن مسعود ؛

ومحمد بن الحاج بن عبد الرحمن بن علقه ؛

وأحمد بن محمد بن يوسف المعافري القشيطي ، سمع أبا عيسى  
والدينوري ؛

وسعيد بن حمدون بن محمد القيسي أبي عثمان ، سمع ابن أصبغ وابن

الشامة وابن حزم وابن مطرف ؛

وخطّاب بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بئري الإيادي ، سمع ابن لبابة  
وابن أصبغ ، وحجّ ، فلقني ابن الأعرابي والنحاس ؛

ومسلمة بن محمد بن مسلمة أبي محمد الزاهد ، سمع بمكة من الأجرى  
وغيره ؛

وعتاب بن هارون بن عتاب بن بئش بن عبد الرحيم بن بئش بن الحارث  
ابن سهل بن أيوب ، سمع بمكة من ابن الأناطلي والطوسي والحزاعي ؛

وسعيد بن مرشد العكّي أبي عثمان الشذوني ، سمع وهب بن مسرة ،  
وشوور مع أصحابه ؛

وعثمان بن سعيد بن البئش بن غالب اللخمي الشذوني ، سمع ابن لبابة  
وابن خالد وعمر بن محمد بن إبراهيم بن الرافعي الأبهري ، وروى

« الإشراف » عن مؤلفه ابن المنذر ؛ وكان من أهل العلم والعمل ؛

وأحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف بن موسى بن فهر بن الإمام أبي بكر ؛  
وعبد الله بن محمد بن أزهر بن حريث بن قيس بن أيوب بن جبير

الإسجعي ؛

وأحمد بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم الإسجعي ؛

ومحمد بن عبد الله بن القاسم الإسجعي ، سمع ابن لبابة وابن خالد  
وابن أصبغ ؛

وعبد الله بن عبد الوارث بن منبيل الطلّيطلي ؛

وأبي تمام غالب بن عبد الله بن تمام بن غالب المعافري الطلّيطلي ؛

وعبد الله بن فتح بن فرج بن معروف الحيو الطلّيطلي ، سمع من

ابن الورّذ والسكّري وابن أبي الموت ؛

وعبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة المعروف بالباقي ؛

ومحمد بن عبد الله بن سئبة الإسبيلي ؛

ومحمد بن حسن بن عبد الله بن مَذْحِج الزُّبَيْدِي أَبِي بَكْر . قال ابن  
حيّان : لم يكن له نظيرٌ بالأندلس ؛  
ومحمد بن شَرَّاحِيل أَبِي زَكْرِيَاءَ الْبَلَنْتَسِي ، له كتاب في تَوْجِيهِ حَدِيثِ  
« المَوْطَأ » ؛

وإدريس بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد ،  
كان حافظاً زاهداً ؛

وعيسى بن العلاء أَبِي الْأَصْبَغِ التُّدْمِيرِي ، من أهل الْفَتْيَا بِمَحَلَّة ؛

ومحمد بن عيسى بن حُسَيْن بن أَبِي أَسْعَد بن سَيِّد الدار ؛

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر أَبِي مُحَمَّد الْأَمِينِي ،  
انتهت إليه الرياسة ببلّده ؛

وَأَصْبَغُ بْنُ الْقَرَجِ بْنِ الْفَارِسِ الطَّائِي أَبِي الْقَاسِم ، أَحَدُ أَكْبَرِ الْمُفْتِينَ  
بِقُرْطُبَة ؛

وعبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن صَاعِدِ أَبِي الْمَطْرَف ، سمع الحريري  
وابن جَهْظَمَ وابن رَشِيقَ وَقَدَّمَ للشورى ؛

وَأَبِي الْعَاصِي أُمَيَّةُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حِمَزَة ، ولي الشُّرْطَة والأحكام وأقْبَى ؛

ومحمد بن أحمد بن محمد بن قَادِم بن زيد القرطبي ، سمع من قاسم بن  
أَصْبَغ وابن حمدان والصوّاف وغيرهم ببغداد ؛

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن هَانِيءِ الْعَطَّار ، عُرِفَ بِابْنِ اللَّسَّابِ أَبِي  
عمر ، سمع قاسم بن أَصْبَغ ؛

وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيْسَى بْنِ أَبِي زَمَنِينِ الْمُرِّيّ ، سمع  
من وَهْبِ بْنِ مَسْرُوءَ وابن المشاط وابن عيسى وابن فحلون وابن حَزْم ؛

وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْحَدِيدِيّ الطُّلَيْطُلِيّ ؛

وَأَبِي مُوسَى بْنِ أَبِي الْحَزْمِ بْنِ جَهْوَزِ الْمَرْشَانِي ؛  
وَأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ وَهْبِ التُّجَيْبِي الْحَصَّارِ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْقَبْرِيِّ الْقُرْطُبِيّ ،  
أَخَذَ عَنْ ثَابِتٍ وَابْنِ قَطَنٍ وَأَحْمَدَ بْنِ هَلَالٍ وَالبَّاجِي ، وصحب أَبَا مُحَمَّدٍ بْنِ  
أَبِي زَيْد ؛

وَأَبِي عُمَانَ سَعِيدُ بْنُ مُحْسِنٍ ، تَقَلَّدَ الشُّورَى بِقُرْطُبَة ؛

وَأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَضْرَمِيّ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الشَّرْقِيّ  
مِنَ الْأَيْمَةِ فِي الرِّوَايَةِ ، ولي الصلاة والخطبة بجامع قرطبة ، وسع ابن حَزْم  
وابن مُطَرِّف ؛

وأحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الْكَلَاعِيّ أَبِي عَمْرٍو ، سمع من ابن  
عيسى وَمَسْلَمَةَ بْنِ مُحَمَّد ؛

وأحمد بن سعيد بن محمد بن يَشْر بن الحصار القرطبي أَبِي الْعَبَّاس ؛

وأحمد بن عبد الله بن الحسن أَبِي عَمْرِو الْقُرْطُبِيّ ، سمع قاسم بن أَصْبَغَ وغيره ؛  
وَوَهْبُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى الْأُمَوِيّ أَبِي  
الْحَزْمِ ، سمع من قاسم بن أَصْبَغَ وَوَهْبِ بْنِ مَسْرُوءَ وغيرهما ؛ وكان من  
أهل الرأْي والشورى ؛

وَأَبِي الْمُطَرِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّعَيْنِيّ ابْنَ الْمَشَاطِ الْقُرْطُبِيّ ، ولي الشورى ؛  
وأحمد بن علي بن أحمد الْمُقْرِيّ أَبِي الْعَبَّاسِ الْبَاغَانِيّ . قال ابن حيّان :  
كان رَبَّانِيّاً فِي عُلُومِ الْإِسْلَام ، لم يخلف بعده أحد يعرفه في علوم الْقُرْآن ؛  
وعبد الرحمن بن أحمد بن سعيد الْبَكْرِيّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ عَجَب ؛

وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ حَيٍّ التُّجَيْبِيّ ، سمع الْأَجْرِيّ  
وَتَقَدَّمَ للشورى ؛

وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله التُّرْجَالِيّ ؛

وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الصَّابُونِيُّ بْنُ بَرَكَةٍ مِنْ أَهْلِ الشُّورَى ؛

وعيسى بن العلاء التُّدْمِيرِي ؛

وأبي عبد الله محمد بن قاسم بن الجالطي ، من القراء ، ولي الصلاة  
والخطبة بقرطبة ؛

ويوسف بن محمد بن عمر بن يوسف ، سمع من أصبغ ومحمد بن أبي  
دلهم وابن الأحمر ؛

وأبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي أبي محمد الإشبيلي ؛

وسعيد بن عبد الملك الجذامي الإشبيلي أبي عثمان المعروف بابن الملاح ؛

وسعيد بن موسى بن مهص الغساني ، لقي الأبهري ؛

وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني الطليطي ،

سمع ابن الورذ وابن السكن ؛

وأبي عبد الله محمد بن عيسى المرتلي الطليطي ، الرجل ذي الشجاعة

والعلم والعفة ؛

وأبي حفص عمر بن عباد الرعيثي ؛

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عروس الموزوري الحضرمي ، ولي

الوزارة ؛

ومحمد بن يعيش بن منذر الأسدي ، صدر بلده على عهده ؛

وأبي الحزم خلف بن عيسى بن سعد الخير بن أبي درهم الوشتقي الفقيه ؛

وأبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار الحافظ إمام المالكية

بقرطبة ؛

وأبي بكر عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التيجي ابن حربيل القرطبي ،

سمع مطرفاً وابن الأحمر وابن السليم وابن حارث ؛

وأبي المطرف عبد الرحمن بن هارون المعروف بابن التنازعي ، سمع

ابن بيشر وابن القوطية ، وتفقه بابن المكنوي والأصيلي ؛

وأحمد بن يحيى بن حكيم العاملي ابن اللباق القرطبي ، قاضي طليطلة ؛

وأبي سعيد عمر بن عبد ربه المعافري القرطبي مختصر « الدلائل » ؛

وأبي محمد بن الشاق ؛

وعبد الله بن سعيد بن محمد القرطبي ، شيخ المفتين في وقته ؛

وأبي محمد عبد الله بن يحيى بن دحون ، أحد جلة شيوخ المفتين بقرطبة ؛

وأبي محمد حماد بن عمار الزاهد ؛

وأبي القاسم يحيى بن عمر بن حسين بن نبيل القرطبي ، آخر من حل

عن أصبغ ؛

وأبي عبد الله بن يحيى بن محمد ابن الحذاء ، سمع من أبي دلهم

والأنطاكي وغيرهما ، وألف شرحاً على « الموطأ » ؛

وأبي عامر أحمد بن عفيف القرطبي ، سمع من ابن زرب وابن السليم

والقاضي ابن المطرف بن الحصار ؛

وأبي عبد الله محمد بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري الحمودي

حاكم قرطبة ؛

والليث بن حريش أبي الوليد المفتي ؛

وأبي محمد مكّي بن أبي طالب ، نزيل قرطبة ، إمام القرآن في وقته ؛

وأبي أيوب بن ربيع الكلبي ؛

وقاضي القضاة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصفار ؛

وأبي المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن جرج ، من أهل الشورى ؛

وأبي القاسم بن مختار ؛

وأبي محمد مروان بن عبد الملك بن الأصبغ ، وابنه عبد المهين ؛

وأبي عمرو أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان العافقي ؛

وعبد الرحمن بن أحمد بن نصر بن خالد أبي المطرف من أهل الشورى

بقرطبة ؛

وأبي القاسم خلف بن البهاء الأسي ؛

وحمّام بن أحمد بن عبد الله بن حمّام ؛

وخلف بن مروان الصغري ؛

وأبي محمد بن فيد القرطي ؛

وعبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي ، من بيوتات الشرف والعلم  
بقرطبة ؛

وأحمد بن عمر بن عبد الله بن منظر الحضرمي المعروف بابن خفيف ؛

وأحمد بن محمد بن عبد الله أبي عمر الطلمنكي ؛

والقاضي أبي الوليد إسماعيل بن عبّاد اللخمي ؛

وأبي بكر زهر الإيادي ؛

وأبي الوليد بن مقبل ؛

وهاشم بن يحيى بن حجاج . قال ابن الحذاء : ما رأيت أتم ورعاً منه ؛

وأبي القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة التميمي ؛

وأبي محمد بن أبان الأموي جاور بمكة بضعاً وثلاثين سنة وسمع الشجري

وابن فراس وغيرهما ؛

وأبي العباس أحمد بن أيوب بن أبي الربيع ، من أهل البصرة وسكن

قرطبة ، ومن شيوخه ابن أبي زمن وأبو الحسن القايسي ؛

وأبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش بن منذر الأسدي الطليطلي ؛

وأبي عمرو صعود بن داود بن دلهات ، لقي ابن عباد وغيره ؛

وأبي عمر أحمد بن حسين القاضي الداني ؛

وسعيد بن سهل الشرفي ؛

وأبي بكر عبد الله القرشي التميمي القرطي ؛

وأبي بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله الناجي الإشبلي ؛

وخلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزدي ؛

وأبي بكر محمد بن معاوية بن عبد الملك بن معاوية الإشبلي ؛

وأبي بكر محمد بن قاضي القضاة أبي العباس بن دكوان ؛

وأبي المطرف عبد الرحمن بن مختار القرطي ؛

وأبي الحسن مختار بن عبد الرحمن القرطي ؛

وأبي عمر بن عبد الرحمن القرطبي ؛

والقاضي الشهير أبي الوليد الباجي صاحب « التمهيد والاستذكار » وغير ذلك ،

وأبي عبد الله بن عتاب الفقيه المشهور ؛

والقاضي أبي زيد بن الحشاء ؛

وأبي عيسى يحيى بن عبد الله اللثمي ، سمع ابن عم أبيه ، وابن لبابة ،

وأسلم بن عبد العزيز ؛

ومحمد بن عبدون بن محمد بن فهد ، روى عن ابن وضاح جده .

\*\*\*

وهذه نبذة يسيرة بمن كان على عهد أخذ البيعة لهشام في حياة أبيه ، ثم  
بعدها ، وهو إذ ذاك صبي صغير ، بإجماع من المؤرخين ؛ وأكثرهم من  
أهل قرطبة ، وبعض أعلام بمن شأنه الوفاة بعهد بلده ؛ وكلهم من أصحاب  
إمام دار الهجرة مالك بن أنس - رضي الله عنه . ذكرهم أبو الفضل عياض  
في « مداركه » واستوفى أوصافهم . وجلبنا ذكرهم ليجد فيهم أسوة  
من باشر مثل ما باشره في زماننا ، إن احتاج إلى ذلك ، واختاره ، وأراد ،  
كما عدنا جملة من بويع قبل الاحتلال ، ليتأسى بها من جنح إلى مثل  
ذلك ، مع أن ذكر هؤلاء الفضلاء في هذا المحل مما أشار به الأمر  
بتقييده - أعزه الله بعز طاعته ، وتولى توفيقه بفضله !

ولقد رجح الظن باستبصارهم في صحة هذه البيعة ما كان من انعقاد  
القتل في قضية عبد الملك بن منذر صاحب الرد من خدام الخلافة وطائفة  
من أصحابه ، وقد ذكر عنهم الشروع في خلع هشام وعقد البيعة  
لعبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر ، لما أجروه بحري المحاربين ، وجعلوا  
لهشام خليفتهم التخيير فيه ، حسباً تقرر ذلك في موضعه . فاستقر الأمر



لهشام ، يكتفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم  
 بأساً ونداً ، وأبعدهم في حسن الذكر مدداً ، الحازم العازم ، العظيم  
 السياسة ، الشديد الصلابة ، القوي المنية ، الثبت الموقف ، معود الإقبال  
 ومبلغ الآمال ، الذي صحبته أطفاف الله الحفية في الأزمان ، واطردة  
 له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات ؛ ولم تفارقه السعادة  
 حالتي الحيا والمات . وكان هو وبنوه سترأ على هشام ورعيته ؛ فلما زال ،  
 لم تستتر لهم عورة ، ولا عذمت ثورة ، ولا فقيدت للكروب ولا  
 للحروب فتوة . فأنشبت كل يد ما ملكت ، وفشت الرعايا  
 وهلكت . وانشقت العصا ، وضرب طاغية الروم بمن أطاع وجهه من  
 عصا ؛ وصار كعلم الصبيان في المكاتب ، إذ قعدوا فوق المراتب ،  
 يعرض الحرج ، ويصوب الفرج ، ويكلف الصعب ، وينشيء الرعب ،  
 وينفذ الهول ، ويصيت القول ، ويسمع الوعيد المسوع ، ويطلق  
 الجموع . ويضم الأقطار بكليتي يديه ؛ فلا من يدفعه ، ولا من يعترض  
 عليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور - رحمه الله -  
 بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ،  
 إذ كان في نفسه وأصل تركيبة مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولعب  
 الصبيان والبنات ، وفي الكبر بمجالسة النساء ، ومحادثة الإماء ، يحرص  
 بزعمه على اكتساب البركات ، والآلات المنسوبات : فكم ألفي بجزائره  
 من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح ، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق ،  
 ومن حوافر منسوبة إلى حمار عزيز ، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح ،  
 لم يستتر في تعددها ، ولا فكر في مقدار ما يحتاجه الحيوان منها ، إلى  
 مصليات منسوبة لعباد ، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد : بذل في ذلك  
 من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها ، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطي ،

ملتقاة من أيدي المخابث .

وجب أن نلیم بأحوال الدولة منسوبة إلى المنصور ملك الأندلس  
 وأكثر العدو على الحقيقة ، السالك من الحزم على أقوم الطريقة .

## أيام المنصور محمد بن أبي عامر

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن  
 عبد الملك المعافري ؛ دخل جده عبد الملك مع طارق بن زياد مولى  
 موسى بن نصير ، ونزل بالجزيرة ؛ فساد أهلها ؛ وخدم منهم محمد أبو عامر  
 ابن الوليد ، وابنه عامر في دول الأموية . وكان أبو الحاجب المنصور من  
 أهل الفضل والإقباض ، حج وقفل إلى المغرب ؛ فتوفي بإطربا بلوس المغرب .  
 ونشأ محمد ابنه ظاهر النجابة ، معماً مخولاً في الفضل والنباهة ،  
 تنقّس فيه مخايل الرياسة ، ولا يزال يخبر بذلك عن نفسه ، حسباً هو  
 مشهور . ثم اتصل بالحكم ، وولي له أعمالاً من قضاء وأمانة ، نقله عن  
 طورينها ( وقد بهره مضاؤه ) إلى طور الخدمة والمباشرة والإنتظام  
 في أصحاب السلطان .

وبما ينقل عنه من « الذخيرة » قوله : وقد نقل عن نسط الفقهاء والقضاة  
 إلى نحو أص الدول ؛ ووجوه الخدمة قد قطعت الزئثار ونبتت  
 الرهبانية ؛ وترشح إلى وكالة ولي العهد هشام لسنة ٣٥٩ ؛ ثم أضاف  
 الحكم له الحزاة ؛ ثم قدمه إلى خطة الموارث ؛ ثم استقضاه على كور  
 إسبيلية ؛ ثم رقاؤه إلى الشرطة الوسطى ؛ ثم قدمه إلى الأمانات بالعدوة ؛  
 ثم أضاف إليه النظر في الحشم آخر أيامه . وتنقّى للسيدة أم هشام بما  
 استهواها به من الخدمة والإتحاف والمهاداة ؛ بلغ في ذلك ما لا يهتدى  
 إليه من قصور الفضة والابتها . وصحب لذلك الوقت خواص العسكر ،

واصطنع أهل الخصوصية، فما من يومٍ إلا ويرتقي منزلةً أو يستزيد أثرةً .  
ولما توفي الخليفة، تقلد حجابة هشام بعده جعفر بن عثمان المصحفي؛  
وأنهى في اليوم بعينه أبو عامر للوزارة، وتعيين بسبب الدالة على السيدة  
أم هشام رسولاً فيما بين ولدها وبين الحاجب المذكور؛ فتأكدت المداخلة.  
ولم يكن إلا أن ساع خبر مهلك الحكم، فانتفض الطاغية، وشاع  
كلمته على البلاد؛ فاضطرب الأمر، واستغاث أهل الثغور؛ وكبر  
الأمر على جعفر، وندب الوزراء للذب على الثغور؛ فقصروا عن ذلك،  
وانقبضوا منه. وأشار بعضهم بإزالة الجسر المتخذ على وادي آية بين  
العدو وجنهور البلاد؛ فأنف لذلك محمد بن أبي عامر، وانتدب للقيام  
بالجهاد، وتبرع به، وكفى السلطان مهيبه، وشرع في الحركة، واختار  
الرجال والعدة؛ وخرج أول رجب سنة ٣٦٦؛ فأنزل حصن الحامة من  
عمل جليقية وحاصره، وفتح ربضه، وقفل غانماً إلى قرطبة عن خمسين  
يوماً. فعظم السرور والتيسر بحركته. ونال الجند من سعة درعه  
وكرم لقائه وحسن عيشته وبدخ مائدته ما أحبوه له، واغبطوا به من  
أجله؛ ولما وشجت عروقه، ناصب جعفرًا، وأبتر عزه؛ فما زال يدفعه  
عن مرتبة، ويستأثر بها دونه، إلى أن أسقطه سقطة لم يستقلها عمره.

واستظهر محمد على المصحفي بشت نظام الصياد، سببته الشيرين  
بما خلف حجاب النصر؛ وكانوا ينفون الألف، فيهم الأكابر المستون  
بالخلفاء زهاء عشرين فتى، يجرون دنيا الملوك العظام؛ يتقدم الجماعة  
فاتق وجوذر؛ وتبع هؤلاء طوائف من الحجريّة والفحول. وكان  
غرض رؤساء الصقالبة العدول عن الولد هشام إلى من يضطلع بالأمر من  
القرابة ولهم الحكم في ذلك. وجرت معهم فيه محاوراة ألقت في نفس  
الحاجب المصحفي بئسًا؛ فجاءه ابن أبي عامر باب هواه في حسم دائم؛  
فألفاه شديد الانحطاط في ذلك الشعب؛ فأشير على جملة من معتبريهم

المنافسين لغلبتهم بالرّفْع على أكابرهم، وإعلان الشكوى بهم. فلما اتصل  
ذلك على يد جعفر المصحفي، رأى هشام والسيدة أمه بدسيس المنصور أن  
إصلاح باطنهم أكد في السياسة برّفْع حكم دينيك الكبيرين عنهم.  
فصدر الأمر به، وضاق ذرعهما عن حمله، نعمة وتعرّزا، وعرضا  
بالانصراف عن القصر، فكانت حاجة في النفوس قضيت. فأستغفا  
بالانصراف عن القصر إلى دورهما بالمدينة؛ ولهما أتباع وصنائع يطوقون  
الحاجب المصحفي الموجد.

ثم عرض على جمهورهم المستبقيين بالقصر اختيارهم من يرجعون إليه؛  
وقد تقدم لهم في ذلك بتدبير وإطماع كبير؛ فاختاروا كنف ابن أبي  
عامر. فحصل له بهم جناح كثيف، مباشر للنصر، شديد الثغور عن  
جهة ضده.

ثم سما في المظاهرة عليه إلى أن أجلى من ذلك بمصاهرة كبير بمالك  
الحكم، غالب، ذي السيفين، صاحب الثغر الأعلى، وسيف الدولة  
الحكيمة والناصريّة، وأنف عزها. وقد كانت بينه وبين الحاجب جعفر  
وحشة جرتئها الحساد، وألقحتها الكواشح؛ فمكّن المنصور، وعلت  
يده، وصح بالملك انفراد، وعليه اشتاله، وبغالب وشيعته استظهاره.  
وصبب الشيرين راحة ابن حبه وثقاته ضبطاً أنسى به من سلف من  
الكفلة وأولي السياسة. ثم غزا غزواته الثانية، واجتمع بصهره غالب،  
وأظهر من موافقته والسعي في مرضاته ما استخلص به ضميره، وملك  
به قيادته.

ولما تم له الغرض من نكب جعفر المصحفي، وإسقاط جهة السلطان  
عليه، وغرس صنائعه ورجاله عوضاً عن صنائع جعفر وشيعه، وقدم  
أولياءه لمكراتب الوزارة، ورمى إلى الغرض البعيد من ضبط السلطان،  
والجبر عليه، والاستبداد، وامثال رسم المغلبيين على ملوك المشرق،

وسبأ إلى ما سَمَتَ الملوكُ إليه من الاختصاص بقصر ينزله وبلكد يسكنه ،  
خوفاً بما تجرّه عليه الحيلُ في الدخول إلى قصر السلطان ؛ فابتنى مدينته  
الزاهرة ، وانتقل إليها ، واتخذ فيها الدواوين للأعمال ، والحجر للعلمان ،  
والسقايف للحراس ، والقصور للولد والحاصّة ، والإصطبلات للظهور  
والكرّاع ؛ وعمل داخلها الأهرام الواسعة والخزائن الوثيقة ، وانتقل إليها ،  
ورتب فيها مقاعد الوزراء وسقايف العُبال ، وكتب بأن تجلب إليها  
وظائف الجبايات والأموال . وعطل قصر الخلافة ، وسد بابّه ، ونصب  
رسم الشرطة ليلقاه ، وأدار عليه السور الحريز الوثيق ؛ وأشاع أن  
السلطان فوض إليه النظر في أمر الملك ، وتخلّى بعبادة ربه .

وبث ذلك في الرعيّة ، وأثبتته في النفوس مع قوّة ضبطه وسرعة بطشه .  
فنافسه غالب ، لما رآه يطوي الدولة طياً ، وينشئها خلقاً جديداً ،  
منسوباً إليه ، معروفاً باصطناعه ؛ فأضر له الخديعة ، ورجا منه الإراحة ،  
وصانعه ، ومال في هواه ، ودعاه في إحدى غزواته ، وقد حلّ بظاهر  
مدينته المدعوة بأنثيسة من الثغر إلى وليمة أعدّها . فلما صعد القلعة في  
خفي من أصحابه ، وانفرد به ، شرع في عتابه ؛ ثم كرّ عليه بسيفه ؛ فأصابه  
بجراح أبانت بعض أنامله ، وأثرت أثراً كبيراً بصدغه ؛ وفرّ أمامه ؛  
فأقحم فرسه مهداً من أعلى القاعة ، أصاب عند استغراهِه ساباط بناء نشب  
فيه ؛ وتخلّص جريحاً ، ونجا من ورطة كانت النجاة منها غريبة من  
آيات سعده .

وامتنع غالب بمقله ؛ وبادر المنصور إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب  
وولده ؛ فسبق إليها الحبر ، وقد ضمن له كاتب غالب أمرها ؛ فاستولى  
عليها وعلى جميع ما كان له بها من مال ونعمة ؛ ففرّق ذلك كله في الجيش ،  
ولم يستأثر به ؛ وقفل إلى الحضرة . واستجاش غالب من ملوك النصارى  
ومن يرى رأيه في الخلاف على ابن أبي عامر . وكان غالب فارس الأندلس

من غير مدافع ، وأبا الأبطال ، ومخرج الفرسان والشجعان ، وذمير  
الحروب . وبرز المنصور ؛ فأتيح لغالب الظفر عليه ؛ وكسر جيشه ،  
وأسر وزرائه ؛ وتكرّر ذلك حتى ظنّ ابن أبي عامر الإمداد ، وهو مع ذلك  
جاد في مطالبة غالب ومعاودته ، إلى أن أراه الله ما لم يكن يحتسبه من  
آيات نصره .

قال المؤرخ : نهض ابن أبي عامر في جموعه إلى مدينة سالم للقاء غالب .  
وقد كان غرسية دخل إلى بلده عند حركة ابن أبي عامر ، ليدبّه عنه ،  
وهو يرى أنّه قاصد لغارته ؛ فلما استبان قصده لغالب ، خرج إليه في  
جمع من النصارى ، فيهم طائفة من البشكنش مع ابن ملكهم ردمير  
ابن شانبه المعروف بريّ قرجه . فهد إليهم ابن أبي عامر إلى أنثيسة ،  
حتى نزل حصن شنت يجنت بالقرب من أنثيسة يوم الخميس لليلتين  
خلتا من المحرم سنة ٣٧١ .

وبرز له غالب ، وقد عبأ ابن أبي عامر عسكره أحسن تعبئة ؛ فصار  
في القلب مع العلمان وطرائف جند الحضرة ، وصير الوزير جعفر بن علي  
مع البرابر في الميمنة ، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز الشجيري وحسن  
ابن أحمد بن عبد الودود في معظم أهل الثغور في الميسرة ؛ فأطلقوا عقال  
الحرب يوم الخميس المذكور ويوم الجمعة ، وتواعدوا الصديق في غده يوم  
السبت ؛ وأفترقوا على حاجزة ؛ فأصبحوا يوم السبت لأربع خلون من  
المحرم على تعبئة ؛ ووقعت الحرب في كل جهة ، فاشتدت وحيت ؛  
وأقبل غالب لما متع الضحى من هذا اليوم على فرس له مذكور ، عليه  
درع السابغة ، وعلى رأسه طشتان مذهب مرتفع السمك ، قد عصبه بعصابة  
حمراء أعلم بها ، وسدّ جبينه بعصابة أخرى ؛ وقد قارب في وقته الثمانين سنة ؛  
وحوله كبكبة من أنجاد غلمانة وحماة رجاله ؛ فوقف ينظر في صفوف ابن  
أبي عامر مضعداً أو مضوباً ؛ ثم مال لمن حوله من هؤلاء ، وأشار إلى

المَيْمَنَة ؛ فقليل : « ابن الأندلسي والبرابرة ! » فقال : « الأعداد وراء القابلة ! شدوا عليهم بسم الله ! » فحمل عليهم حملةً فضَّهم فيها ، ولم يثبت قُدَّامه أحدٌ ؛ وانقضَّتْ لجولتهم المَيْمَنَة . ثمَّ عاد غَالِبٌ إلى موقفه ؛ فقال : « مَنْ أولئك ؟ » وأشار إلى المَيْسَرَة ؛ فقليل له : « مَعَن وصَنيعتُك ابنُ عبد الوُدود ، مع الجيران والصحابه ! » فقال : « الغادرُونَ أولو القطيعة ! خضُّوهم على اسم الله بجملة ! » وشدَّ عليهم ثانيةً كاللَّيْثِ العادي ؛ فانقلعوا قُدَّامه طائرين ، لا يلوي أحدٌ منهم على صاحبه . فاستوى له فضُّ الجهتين في وقتٍ ، والقلب قائمٌ مكانه . فضبطه ابنُ أبي عامر بِيَنْبَتِه ، وهو على أحرَّ من الجَسَر ، يصفق بيده دهشاً ، ورجلاه تضطربان في رِكابه ، ينظر من أبْنٍ يحاط به ، ولا يشكُّ في حَتْفِه ؛ وهو مع ذلك يطامنُ نَفْسَه ، ويردُّها على مكروها ، فيسكنُ جأشَه .

وخرج غَالِبٌ من غمرة الشدة الأخرى ؛ فخرج إلى مَوْفِقِه ، وقال لأصحابه : « كيف تَرَوْنَ عاقبةَ الصَّبْر ؛ قد كسرنا جناحي القوم ؛ وبقي القلبُ ؛ وإنما ثبت مَنْ فيه حيَاءٌ من هذا الأحْدَبِ الملعون ( يعني ابن أبي عامر ) ! وليسوا ذوي حِفَاطٍ فما أخلقهم بإسلامه ! فاصدقوا الحيلة عسى الله أن يَمَكِّنَ منهم بقدرته ! » ثمَّ رفع يَدَيْه وقال : « اللّهُمَّ ! إن كنت تعلمُ أن بَقَائِي أَصْلَحُ للمسلمين وأَعُوذُ عليهم من نَقَاءِ مُحَمَّد بن أبي عامر ، فَأَهْلِكْهُ وانصُرْني عليه ! وإن كان هو أَوْلَى بذلك مِنِّي ، فانصُرْهُ عليّ وأَرَحْني ! » فكانت مُباهلةً حَكَمَ اللهُ فيها لمحمَّد . وحمل غَالِبٌ على إثر ذلك ، وخوَّض القلبَ ، وخلَّط بين صفوفه ؛ وثار نَفْعٌ عظيمٌ فُقِدَ فيه شَخْصُه ، وسقط في مجال الحيل ؛ فعار فَرَسُه ، وأصيب مُجْدَلًا لَجْسِيَه ، مَيْتًا ، لا أثرَ لشيءٍ من السِّلاح في جسده . فقليل إنَّ قُرْبُوسَ سَرَجِه الأندلسيَّ - وكان شديدَ الإشراف عند تجافيه عنه بقوةِ ضَرْبِه - أصاب جانبَ قَلْبِيَه . وقالوا غيرَ ذلك ؛ فلم يَتَفَقَّحُوا في سَبَبِ حَتْفِه إلى اليوم .

وقد زعم قومٌ من غِلْمَانِه أنه عدل عنهم في أوَّل هذه الصدمة عقبَ المُباهلة ؛ فأمسكوا عنه ، ورأوا أنه يريد الحاجة ، وتوارى عنهم في وَهْدِيَه ؛ فأبطأ ؛ فاستشرَّفوا حالَه ؛ فوجدوه ساقِطًا مَيْتًا ، لا حراكَ به وفَرَسُه يملك اللِّجام بقرْبِه . فسَقِطَ في أيديهم ، وانحرفوا على وجوههم .

وسبق إلى ابن أبي عامر رَجُلٌ من أصحاب غَالِبٍ يَبْشُرُه بهلاكه ؛ فلم يكن يصدِّقُه حتى جيءَ بِيَدِه ، وفيها خاتمه ؛ ثمَّ جيءَ برأسه . فخرَّ ساجِدًا ؛ وكبَّرَ المسلمون تكبيراً خلع قلوب المُشركين ، وولَّوا على وجوههم طائرين بكلِّ سبيلٍ ؛ ولم يكن لهم معرجٌ على أنْتِيَسَة . وركب المسلمون أذبارهم ؛ فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، فيهم رِيٌّ قَرَجُه ؛ ونجاة غَرْسِيَة ، ولم يكرَّ إلى بلاده . واستضافَ ابنُ أبي عامر جيشه وبلاده وأمواله ليعلم أن الله على كلِّ شيءٍ قدير .

فلما استوسق له الأمرُ ، وتقرَّرت له فوق المنابر الألقاب ، وخضعت الرقاب ، أعمل الحيلة على جَعْفَر بن عليٍّ بأنْ نَادَمَه ليلةً ، وأغصَّ في هواه ، وتنازَلَ إلى ما لم يُعْهَدَ منه ، وسقاه ، وأغرى السُّقَاةَ به ؛ ثمَّ أَرصد له في طريقه إلى منزله من ثار به وقتله ؛ ونادى بترات سالفة منسوبة إلى أيامه بإفريقية . ولم يَغِيبْ ذلك عن أخيه ؛ فصرَّح به بما أوجب إسكانَه وإزعاجَه عن الأندلس إلى المشرق .

وكرَّ من بعد ذلك على ابن عمِّ نفسه ابن أبي عامر . ولم يُبْقِرْ يداً مجذِر بَطْشِهَا إلَّا سَلَّها ، ولا عَيْنًا بريئةً نَظَرَهَا إلَّا فَقَّأها . ولما فرغ من أمر القصر ، سدَّ لأَقْفَالِه ، واستَظَنَّ مع الأنفاس لجريات حركاته ، وإذكاءً بالعيون على مَنْ به ، واستناداً بسقائِه إلى نِقَاتِه ، مع يَرٍ مَنْ به ، وإيجابِ حقِّه ، وإسناء رِزْقِه ، والغيرة على حرَمِه ، والصَّوْنِ لحِشْمَتِه ، وحِفْظِ رُسُومِه ، ومواصلة تَفَقُّدِه ومُطالَعَتِه ( فلم تفقد الحاصَّةُ ولا العامَّةُ ولا الأعلامُ ولا العُمَالُ في نِيَابَتِه شيئاً من وظائف ملوكهم

وأبتمهم ، بل عرفت الزيادة والتوسع ، والاضطلاع بأمر الدين والدنيا ، صرف سعيه إلى الجهاد ، وتمهيد البلاد ؛ فاستظهر بفُرسان الهيجاء ، وأبطال الكربية ، وأعلام السُمرة من فُرسان الغرب وزانة الواردين على بابيه في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم ؛ فارتاش منهم بأجنحة وافر ، لم يستظهر قبلة ملك بثليها ، ومغراوة وأزداجة وزانة وصدحاجة . وانتى الرجال ؛ فكان لا يلحق في ديوانه إلا من تقرر غناؤه ، وتحقق نفعه وكرم موقفيه . ودرت الفتح ؛ فتعددت بماليكه وحشمه . واستكفى أمر العدو المغربي ببي أخيه وولده و كبار تماليكه . فاستنزل حسن بن القاسم ، وجيء به إلى بابيه ، واستد بها سلطانه . وآثاره اليوم بعدوة مدينة فاس ومدينة سبنة شاهدة وبإذعان الأيام ناطقة . والله يؤتي ملكه من يشاء ! والله ذو الفضل العظيم !

وألح على ملوك قشتالة بالغزو والإضافة ، يوالي عليهم الصوائف والشواني ، حتى أذعنوا من خطط الحسف لما لم يدعوا له قبلة ، ولا عرفوه في زمن تقدمه ، حتى لقد تقرب إليه بعضهم بإهداء ابنته ؛ فقبلها المنصور أحسن قبول ، وتزوجها ، وحسن إسلافها ؛ وكانت من خيرات نساءه ديناً متيناً وحسباً أصيلاً . وأولد منها ولده عبد الرحمن الملقب من أجل ذلك سنجول (تصغير سانجو) من أساء خوولته . ولم تول الأيام حتى ورد أبوها الملك على بابيه زائراً ومستصرخاً ؛ فخرج عبد الرحمن بن المنصور حفيد الملك الوارد ، ابن ابنته ، إلى لقائه بالجيش والأهبة المفخمة ، طفلاً يرقد في السرج ؛ فنزل جدّه إليه ، وقبّل رجله ويده ، حسبا بأني إن شاء الله ، حتى كان ذلك مما يتحدّث به في فنون السعد ومؤاتاة الأيام .

وأخبار غزوات ابن أبي عامر وذكرها واحدة واحدة مما يطول الكتاب إن استوفيناه ، ويخرج عن الغرض فيه إن اتبعناه . وحسبه أن

دخل سُمرة سنة ٣٧١ في غزوته الرابعة عنوة ، واستباحها وهدمها ، وهي دار الملك ومحل السلطان ؛ وسى في غزوة سُنّت منكنش بضعة عشر أنماً من مختار السبي ؛ وما سما إليه من غزو مدينة سُنّت ياقب قاصية بلاد غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة .

وكانت على قدم الأيام مكان عزهم ، ومحل جمعهم وحجهم ، ومزارهم ، قد سالتها الأيام منذ ألف عام لحج الروم إلى كنيسها من أقصى بلاد رومة لأجل القديس لقبر ياقب ( وهو تغيير اسم يعقوب ) أحد الحواريين الإثني عشر ؛ وكان هذا الحواري أخص الناس بالمسيح - صلوات الله عليه - والنصارى يسمونه أخاه للزومه إيّاه ولصوفيه . وزعم أهل التاريخ الرومي أنه أسقف بنت المقدس ، وساح في الأرض داعياً لمن فيها ، حتى انتهى إلى هذه القاصية . ولم يطع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لصعوبة مدخلها ، وبعد شقتها ، وخشن طرقها ؛ فخرج إليها المنصور في صائفة ٣٨٧ ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ؛ وأخرج الأسطول يواجهه في عرّضه من بحر المغرب ، وسبقه صاعداً إليه في نهر دويره من برطقال ؛ فعبه به ، وعقد منه الجسر عليه للمحلة ؛ ثم قطع أرضين متباعدة الأقطار ، وعبر جملة من عظام الأنهار ، ووطئ بالحديد والفعلة مسالك جبال شاحجة ارتقاها ، إلى أن بلغ البحر المحيط ، وأفضى إلى كير إبيّا ، وهو آخر مشهد ياقب في الشهرة . وكان نزوله بشنت ياقب يوم الإثنين لليلتين خلّت من شعبان ؛ وقد فر من بها ، وهي خالية ؛ فغم ما بها ، وهدم مبانيها ، وعفى آثارها . وكانت مصانعها آية من آيات الله في الأحكام والإتقان ؛ فتركت كأن لم تغن بالأمس . وأمر بصون القبر ودفع الأذى عنه . ولم يجد بالكنيسة إلا رجلاً واحداً من شيوخ الرهبان جالسا عند القبر ؛ فسأله عن مقامه ؛ فقال : « أوتس ياقب ! »

فأمر بحفظه والكف عنه .

وقفل إلى قرطبة ، وقد استصحب جملة من الملوك وأبنائها ، وبرز الناس إلى لقائه في عالم لا يحصيهم إلا مقدر أرزاقهم وآجالهم . وفي أول شوال من السنة ، عقد لهم مجالس جمّة لإحكام ما وصلوا إليه من السلم على حكمه . ثم أنفذ المنصور قاضيّه محمد بن عمر البكري مع القوم لاستحلاف الملك غرسيّة على ما التزمه من شروط ؛ وشهد عليه أهل ملته وبطانته بإطلاق أسرى المسلمين ؛ فنقذ لذلك واقتضى ما توجبّه إليه .

وبلغت كيسي المنصور في هذه الغزاة إلى ألفي كسوة ؛ وهذا شيء يضيق عنه ساحة الملوك الذين دون ملوك بني مرين - أعزّهم الله بنصره ! - فقد كانت الكيسي لأوّل هذه الدولة ، التي رفع الوزير المعظم ، معتمدنا بهذا الكتاب ، لواء الوفاء لها والذب عنها مذكرة بهذه العهود ومجددة لشأنها ، بحيث تتهم الحكاية ويقصر الوصف : يفاض في كل طبقة ما يناسبها عروضاً ثمينة وأصنافاً غالية ، وتلزم الكثير منها المراكب العتيقة والحلى الثقيلة والأموال المتعددة ، حتى لم يشدّ من أجناسها فرد ، ولا خلا من صلاتها بيت - حفظ الله رسوم المجدد بحفظها ، ولا أخلى صحائف الفخر من آثارها ، بمنّه !

ومن لدن سنة ٣٨٨ ، صدر الأمر من المنصور بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، استغناءً بعدد الجيش ، واستظهاراً بأصيل العز . وأسمعهم الخطباء ذلك بإثر قراءة كتب الفتح ، وعرفهم بأنّ من تطوّع خيراً ، فهو خير ، ومن خفّ إليه ، فيبرور ومأجور ، ومن تناقل ، فيعدور . فتمت على الناس النعمة .

ومن غرائب سعد ابن أبي عامر أنّ صاعداً بن الحسن ، نديم المنصور ، أهدى إليه أيتلاً سنّته على عادة أهل الأندلس ، وسمّاه غرسيّة باسم العليج ملك الروم ، وأنقذه إلى القصر يوم السبت المنتصف من ربيع

الآخر سنة ٣٨٥ ؛ وكتب معه بهذه الأبيات متفائلاً :

[ الكامل ]  
يا حِرْزَ كُلِّ مَخَوْفٍ وَأَمَانٍ كُـ لِّ مُشْرِدٍ وَمُعْزٍ كُلِّ مُذَلِّلٍ  
يا سِلْكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَنِظَامٍ كُـ لِّ جَزِيلَةٍ وَثَرَاءٍ كُلِّ مُعَيِّلٍ  
عبدٌ جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيل  
سميته غرسيّة وبعثته في حبله كيما يتاح تفاؤلي  
فلئن قبلت فتلك أنفُسُ منّة أسدى بها ذو منحة وتطول

فاتفق أنّ خيل المنصور لقيت النصراني جزافاً ، وهو يتصيد ؛ فأسرته ، وجاءت به ؛ فكان من الاتفاق الذي عظم منه العجب .

ولم يباشر المنصور حرباً أشدّ عليه ، ولا أصعب مقاماً وأغلظ كريمة من حربه في غزاته صائفة سنة ٣٩٠ ؛ وقد كانت الهدنة امتدت وفترت خلق الشهامة ؛ وأنس الناس بالجمام . وتعاقدت ملوك النصارى ، واستجمعوا من كلّ أوب . واستقبلهم المنصور كفاعاً لغزوته هذه الصائفة المعروفة بغزوة جربيرة ؛ وذلك أنّ المنصور اقتحم قشتالة من ناحية مدينة سّالم ؛ فوجد شائجه في جمع عظيم ، يبعد عن الظنّ ، فيه سائر ملوك الجلالقة وقادتهم من حيز بنبلونة إلى أسنرفة . ثمّ أقبل بهم شائجه حتى أنزلهم جبل جربيرة بموسطة بلاده ؛ فاتخذهم معسكراً ؛ وكان نعم المراد لامتناعه وحصانه ، ولما وراه من الأعمال الواسعة التي لا تبعد من قبلها الميرة . وقد فوض الجميع تديرو الأمر إلى شائجه ، وتعاطوا على حسن الثبات ، وتحريم الفرار ، أغلظ العهود المؤكدة . فأثرف ابن أبي عامر من عظيم عساكرهم ، ووُفّر أعدادهم ، وحصانة مكانهم ، وإشرافه على من نازل بإزائهم ، وقوة انحدارهم على من دنا من كفاحهم ، واتساع المجال على فرسانهم ، وضيقه على من بإزائهم ، على ما هاله وأهم فيه رأيه ؛ وفزع إلى مشاوره وزرائه القوّاد : فاختلفوا عليه .

وكادَ المسلمين شأْنُه بِتَسَرُّعِه إلى الحرب قَبْلَ استيعابِ النزول وإحكام التدبير ؛ فاشتَبَكَت الحربُ بِكُلِّ جِهَةٍ ، واشتعلت بِكُلِّ نَاحِيَةٍ ؛ وَجَمَعَ عِدَاةُ اللَّهِ مَرَاكِبَهُمْ ؛ فَدَفَعُوا عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَالْمَشْرِعَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَضَوُّوا بِهَا تَعَبَتَهُمْ جَمِيعًا ؛ ثُمَّ تَدَامَرُ حِمَاةُ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَحْسَنُوا الثَّبَاتَ وَالْكَرَّةَ . وَدَارَتِ الْحَرْبُ مَلِيًّا ؛ فَصَعِبَتِ الْوَرُطَةُ . وَنَظَرَ مَنْ خَلْفَ هَؤُلَاءِ الْمُحَامِلِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى ضَنْكِ الْمَقَامِ ؛ فَدَهَشُوا ، وَانْخَلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَقَصُرَ أَكْثَرُهُمْ ، وَعَدِلَ عَلَى الْهَرُوبِ مَعْظَمُهُمْ . وَوَقَعَتْ جَوَالَتُ بَسَائِرِ جِهَاتِهِمْ ، كَادَتْ الْفُضَيْحَةُ تَقَعُ مَعَهَا ، وَالْهَزِيمَةُ تَسْتَمِرُّ بَعْدَهَا ، لَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ ، وَكَرَمُ صَبْرِ الْمَنْصُورِ ، وَجُودَةُ ثَبَاتِهِ ، مَعَ قُوَّةِ رَعْبِهِ ، وَفَرَطِ دَهْشِهِ ، وَتَقْلِيلِ كَفِّهِهِ كَالْمُخْتَضِبِ ، وَشِدَّةِ اسْتِرْجَاعِهِ ، وَتَأَوُّهِهِ كَالْمَسْمُومِ ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَمَدَّهُمْ بِبَنَصْرِهِ وَبِرِجَالِهِ أَحْسَنُوا الثَّبَاتَ ، وَصَلُوا أَوَارِ الْحَرْبِ حَتَّى رَدُّوا مَنْ يَازِئُهُمْ . وَأَنَسَ مَنْ خَلْفَهُمْ مِنَ الْمُتَجَوِّلِينَ بِفَعْلِهِمْ ؛ فَكُرُّوا بَعْدَ الْفَرِّ ؛ وَنَمَحَ اللَّهُ النَّصْرَ . وَكَانَ أَظْهَرَ تِلْكَ الْعَصَابَةِ الْحَامِيَةِ عَنِ الْمِلَّةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ الْمَنْصُورِ إِجْمَاعًا غَيْرَ تَحْلِيَةٍ ، وَإِنْصَافًا لَا مُحَابَاةَ ؛ وَمَعَهُ أَبْطَالٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَالْعِدَوِيِّينَ ، عَامَّتُهُمْ فُرْسَانُ الْبَرَابِرَةِ ، عَلَى أَنَّ الْأَسْمَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ ذَهَبَ إِلَى كَيْدِيئِرِ الدَّمَرِيِّ الْأَبْرَصِ مِنْ كِبَارِ الْقَوَادِ وَأَحَدِ مَلُوكِ بَنِي كَمَرٍ بِالْعِدْوَةِ ، وَكَانَ لَهُ إِقْدَامٌ عَظِيمٌ قَتَلَ فِي احْتِدَامِهِ ذَلِكَ أَحَدَ قَوَامِسِ بَنِي غُومِسَ ، وَجَاءَ بِرَأْسِهِ . فَاسْتَمَرَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى أَثَرِهِ . وَمَا قَصَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمَنْصُورِ فِي شِدَّةِ الْإِقْدَامِ وَثَبَّتِ الْمَقَامَ . وَكَانَتْ حَرْبًا عَظِيمَةً تَعْتَصُصُ عَلَى الصَّفَةِ .

حَدَّثَ حَيَّانُ بْنُ خَلْفِ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ أَبِيهِ كَاتِبِ الْمَنْصُورِ قَالَ : لَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، بَرَزَ الْمَنْصُورُ عَلَى فَرْسِهِ بِأَهْلِ مَوْكِبِهِ إِلَى تَلٍّ يَقْرُبُ مِنْ مَوْضِعِ الْمَجَاوَلَةِ وَيُشْرِفُ عَلَى مَكَانِ الْمَلْحَمَةِ ، قَائِمًا بِدُءِ أَهْلِ النَّوَاحِي بَيْنَ حَوْلِهِ ، إِلَى أَنْ اضْطَرَبَتِ الْمَيْمَنَةُ ، فَانْكَسَرَتْ ، وَعَظُمَتْ

الْخِيرةُ وَاسْتَفْجَلَتْ ، إِلَى أَنْ انْفَضَّ النَّاسُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَنْظُرُوا أَمْرَهُ ؛ وَارْتَأَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَرَاءِيَهُ ، وَاسْتَعَدَّ لِلْإِجْفَالِ وَرَاءَهُ ، حَتَّى جَعَلَ كَاتِبُ الْمَنْصُورِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ إِدْرِيسَ الْجَزِيرِيَّ يَقُولُ لِسَعِيدِ بْنِ يَوْسُفَ الْمَعْرُوفِ بَابِنِ الْقَلْبِيَّةِ : « هَلُمَّ إِلَى التَّوْدِيْعِ يَا شَهِيدَ ! » قَطْعًا عَلَى حُلُولِ الْمَنِيَّةِ ؛ فَكَانَ مَأْثُورًا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْيَوْمِ .

قَالَ خَلْفُ بْنُ حُسَيْنٍ : فَنَظَرَ الْمَنْصُورُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنْ مَعِهِ فَقَالَ لِي : « اعْتَرِضْ لِي مِنْ بَقِيَّةِ مَنْ أَهْلَ مَوْكِبِي ! » قُلْتُ : « أَسْمِيَهُمْ لَكَ : فُلَانٌ وَفُلَانٌ ! » وَعَدَدْتُ قَوْمًا مِنْ خَاصَّتِهِ نَحْوَ الْعِشْرِينَ ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي تَخَلَّوْنِي ! فَانصُرْهُمْ ! وَأَفْرِدُونِي ! فَاصْجِبْهُمْ ! » وَدَعَا عَبْدُ الْمَلِكِ وَلَدَهُ ، وَكَانَ قَائِمًا إِلَى جَنْبِهِ ، يَتَلَفَتُ إِلَى الْحَرْبِ ؛ فَلَا يَأْذُنُ لَهُ أَبَوَاهُ ؛ فَاسْتَدْنَاهُ ، وَوَدَّعَهُ ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُ وَجْهَهُ ، وَنَحْيِيَهُ عَالٍ ، وَأَرْسَلَهُ نَحْوَ الْمَيْمَنَةِ مُوْطِنًا عَلَى فَقْدِهِ . ثُمَّ أَرْسَلَ أَخَاهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ خَلْفَهُ فِي جِهَةٍ أُخْرَى ، وَتَحَوَّلَ عَنِ الْفَرَسِ إِلَى الْعِمَارِيَّةِ عِنْدَ اسْتِدَادِ الْمِحْنَةِ ؛ فَرَكَبَهَا ، وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ أَطْرَافَهُ زَمْعًا وَرَعَشَةً ؛ وَإِنَّمَا رَكَبَهَا تَوَطُّينًا لِمَنْ حَوْلَهُ عَنْ ثَبَّتِ مَقَامِهِ . وَكَانَ إِلَى جَنْبِهِ جُمْلَةٌ مِنْ جَنَابَتِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَا تَرُدَّ عَنْهَا يَدًا ؛ فَإِنَّهُمْ أَوَّلَى بِهَا مِنَ الْعَدُوِّ ! » وَظَلَّ قَائِمًا فِي جَنْبِهِ يَسْتَعِيْثُ اللَّهُ وَيُنَاسِدُهُ عَهْدَهُ ، وَالْحَرْبُ تَقْوَى ، وَالْأَمْرُ يَصْعَبُ ، إِلَى أَنْ عَنْهُ لَمْ يَمَعِ اسْتِدَادُ الْإِزْزَالِ رَأْيِي كَانَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْفَتْحِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَرَ بَرَفَعَ مَحَلَّتَهُ عَنِ الْوَهْدَةِ الَّتِي أَعْجَلَهُ الْعَدُوُّ عَنِ الظُّهُورِ مِنْهَا إِلَى الرُّبُوعَةِ الَّتِي كَانَ قَائِمًا عَلَيْهَا ؛ فَصَاحَ بَيْنَ حَوْلِهِ فِي إِفْنَادِ الثَّقَلِ ، وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى تَأْخِيرِهِ ، وَأَحْضَرَ خَدَمَةَ مُضْرِبِهِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ عَلَى السَّبْقِ بِهِ إِلَى ذَلِكَ التَّلِّ جَعْلًا وَافِرًا . فَوَافَقُوا بِهِ لَوْفَتِهِمْ حَمَلًا عَلَى الْأَعْنَاقِ ، وَاسْتَوَى مَضْرُوبًا لِحَيْنِهِ . فَلَمَّا عَايَنَ الْعَدُوُّ شَخْصَهُ ، سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّ بِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةً وَوَرَاءَهُمْ مَدَدٌ ؛ فَانْكَسَرُوا عَقِبَ ذَلِكَ ، وَاسْتَمَرَّتِ الْهَزِيمَةُ بِهِمْ ،

وركب المسلمون أكتافهم ، يقتلونهم كيف شاؤوا . ووجدت الجبال بأيدي أكثرهم ، قد أعدوها ليقربوا أسرى المسلمين . فأخذ جميع ما في تحللتهم من الكراع والسلاح والآنية . واتبعت الحيل منهنزمتهم فراسخ ؛ فأصيب كثير من فرسانهم . ونصر الله المسلمين عليهم نصراً ما سيع بأعظم مه . واستشهد في هذه الواقعة من صنوف المدونة وغيرهم أزيد من سبعمائة رجل . وذلك يوم الإثنين لست بقين من شعبان سنة ٣٩٠ .

ولم يخيم المنصور عن وجهته ؛ فأوغل في أرض قشتيلة . فدمر ، ولم يبق ولا وذر . ثم خرج إلى سرقسطة ، وعقب منها إلى قشتيلة ؛ فاقتحمها يوم الفطر من هذه السنة ، ونصل منها إلى بنبلونة ؛ فآثر هناك آثاراً عظيمة . ولم يظهر إليه بالبلدين أحد . ثم قفل إلى قرطبة ؛ فوصل إلى مائة وتسعة أيام . وعقب المنصور على كافة جنده بما ظهر من نكوصهم ؛ وأمر كاتبه على الرسائل عبد الملك بن إدريس بإنشاء كلام انتسخه القواد ليقرؤوه على كافتهم . منه فصل :

« وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشاقون ملاقات الرجال الفحول ! فحين جاءكم سانجه بالأمنية وفاتكم بالشرطة ، أنكرتم ما عرفتم ، ونافرتكم ما ألفتكم ، حتى فررتكم فراراً اليعافير من آساد الغيل ، وأجفلتم إجمال الرئال عن المقتنين ! ولولا رجال منكم رحضوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، لانت من جماعتكم ، وسبب بالموجدة كافتكم ، وخرجت للإمام والأمة عن عهدكم ، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم ! ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصري وحسن عقبي ! فلا بد أن ينصر دينه من شاء ! »

وفي ذلك ، يقول صاعدي يهني هذا الفتح ؛ وهي من أفخر شعره :

[ الكامل ]

جددت شكري للهوى المتجدد وعهدت عندك منه ما لم يعهد

اليوم عاش الدين وأبتدأ الهدى غصاً وعاد الملك عذب المورد  
ووقفت في ثاني حنين وقفة فرأيت صنع الله يؤخذ باليد  
من فاته بدر وأدرك عمره جربير فهو من الرحيل الأسعد  
فوددت لو حتم القضاء بأنني في القوم أول طالع مستشهد  
ما استكين لروعة ومحمد وبنيه أنصار النبي محمد  
عهدي به والله ينظر صبره والموت بين مصوب ومصدق  
غطى عليه المشركون فلم يكن في القوم إلا صخرة في فدفد  
حتى تحصن بالملائكة التي حقت بين معفر ومرد  
حملت ميامنهم عليك نسيجة كالسيل يحطم جليداً عن جليد  
ورأوك فارتدوا على أعقابهم مثل ارتداد تنفس الشهيد  
وركبت فلتهم بكل مهتد يفضي به في الروع كل مهتد  
ما ناجزوك وفي الجوانح موضع لتصبر ومكانة لتجلد  
طال الشقاء عليهم وتبرأوا بالجلش في الذل المقيم المقيد  
فتحالفوا لمحتث وتجمعوا لمفرق وتآلفوا لمبدد  
ثم واصل المنصور الغزو بنفسه وولده ورجاله على سانجه ملك  
النصارى ، حتى أذعن لائذاً بعقوه ؛ واستأذنه في القدوم عليه بنفسه ؛ فأذنت له ، وسر بجيحه سروراً ما سر قط بمثله . فتقدم في الاستعداد له واستحضر طبقات الأولياء ؛ فوصل لثلاث خلون من رجب سنة ٣٨٢ . وأركب المنصور الجيوش والمطوعة لتلقاه في دخوله إلى قصر الزاهرة ؛ فكان يومه أحد أيام الدنيا الشهيرة ، حتى بهت الذي كفر ، ورأى من وفور المسلمين ، ونباهة أسلحتهم ، وجمال زيهم ، وكثرة عذدهم ، ما لم يكن ظاناً أن الدنيا تجمعهم ، ولا الأيام تحشده ، ولا الحزائن تكفه . ولقيه ولد المنصور عبد الرحمن حفيده من بنته ، كما قدمنا



ذكره ؛ وقد حَفَّ به وزراء السلطان ووجوه القواد وأكابر أهل الخدمة والممالك ، في أحسن زيٍّ وأكمل تعبئة . فلما وقعت عينه على الصبي ، تجلَّ ، وباس رجله ؛ فأمر بالركوب ، وأقبل معه إلى أبيه . وصار بين صفيّ حديد حُفَافِي الطريق أميالاً : ما ثمَّ إلا الدروع السابرة ، والجواشنُ المذهبة ، والأبطالُ قد لبسوا السُوقَ والسَّوَاعِدَ ، وأسبغوا الخلقَ ، وعلّقوا الدَرَاقَ ، وخلفهم صفوفُ الرُّمّة ، مشدوداً عليها المناطِقُ المذهبة . والمَلِكُ الروميُّ يَتَلَبَّ الطرف ، قد غشى قلبه ذعرٌ ، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور في الساعة السابعة من النهار ؛ وقد قعد له أفخم قعود ، وأعلى مرتبة ، مكتنفاً سريره بالوزراء وأعاضهم رجال الدولة ؛ وامتدَّ الوصفاء والصقالبة صفين من باب المجلس إلى باب القصر . فحين وقعت عينه على المنصور بن أبي عامر ، أهوى إلى الأرض مُقبِلاً يُعيد ذلك مرّات ، وهو يستدنيه ، حتى قبَّلَ رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ . وأمرَ ؛ فألقي له كُرْمِيٌّ مُذهَّبٌ قعد عليه ؛ وأُشارَ ؛ فخرج الناسُ ، وخلا به قاضياً وطّره من عذله ، والعليجُ يقابله بالاعتراف . ثمَّ خرج وتبعه بالخلع السلطانيَّة ؛ ومشت بين يديه المراكبُ والبروزُ . وما انقضَّ المجلسُ إلا تحت جناح الليل .

ولما خُذ ابن أبي عامر شوكة النصارى بقسّثالة وليون وما إلى ذلك الصقع ، صرف الوجه إلى غزو الفرنجة المتصلة بأرض إفرائسة ورومة ، وهي الأمة التي لا يطاق قتالها صبراً وسلاحاً وجفوة وكثرة . فدوَّنها ، ودخل برجلونته ؛ وكان بما اتخذ لقتالهم القراميد التي تُعشى بها السواعد من الهند لتلقى بها الفرسانُ سيوفَ الفرنج من فوق رؤوسها ووجوهها ، وتقتحم بها الشدائد مفرجةً بها .

وإن أطلّقنا في أخبار ابن أبي عامر القول ، لم نَقِفْ عند غاية ؛ فقد أجمع المشيخة أنه نهض مجدي لا كفاء له ، وأصبح سعداً لا نخس بخالطه ،

وأعطى إقبالاً لا إداراً معه ؛ قد وثق بذلك ؛ فلم يلتفت إلى غيره . ولقد حذّر يوماً من رجل يُنبز بالشؤم تعلق به ، وقصّت عليه أخبار من شؤمه ؛ فقال المنصور : « لا مَرَحَباً بسعدي إن كان لا يعفني على شؤم هذا ومثله ! » فرعوا أن حال ذلك الرجل انتقلت بمعرفته إيَّاه . وكان الناس يعجبون من نجح رأيه كلّمَا ارتكب في الشورى مخالفةً أو سلك مضاضة . وكان مهيباً وقوراً ؛ فإذا خلا ، كان أحسن الناس بجلساً ، وأبرهم بن يحضر مُنادماً ومؤانساً . وكان شديد القلق من التبسط عليه والدالة والامتنان ، لا يغفرها زلةً ، ولا يلجم عنها جريرةً ؛ ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة وحفظ الطاعة أحداً من وَلَدَيْهِ ولا ذي خاصّة ؛ دعاه ذلك إلى قتل وَلَدِهِ عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف . وحكاياته في هذا الباب شهيرة .

وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخلعه إلى أن وصل إلى ربّه ، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، لا يُفَضِّلُ لَذَّةً على لَذَّةِ تدييره وحلاوة نهيه وأمره ؛ فينفذ الأمور ، والكأسُ تدور ، والجالال للطرَبِ تمور . زعموا أنه أكثر في ذلك ليلةً على كاتبه الأخصّ عيسى بن سعيد ، وكان أوَّلَ كَاتِبٍ كتب له قبل مُلكِهِ ؛ فكان ينسبط عليه لسالفِ خِدْمَتِهِ وقديمِ صُحْبَتِهِ . فلما باعد بينه وبين شهوته ، وقطع به عن . . . ، قال : « اللهم غفراً ! إماماً شراباً ولذّةً ، وإماماً خدمةً ومشقةً ! فإذا عزمْتَ على صلة النهار بالليل ، فأسكِت المسعة وَلَسْتُ خَضِرَ الحريطة ! ثمَّ مرُّ بما شئتَ نَقَمُ به على الحقيقة ! فخلطُ الجِدِّ بالهزل مُفسِدُهُ . وإنما نستجم هذه الساعة الضيقة لقطع الأوقات الطويلة ! » فضحك المنصور وقال : « احبِرْ يا عيسى ! وليس منّا في شيء ؛ ومن عدل بالأمر والنهي لَذَّةً ، فقد انتفى من الذكورة ! » ثمَّ

توفّر ببقية الليل على المئادة .

وحدث فتاه سَعْلَة مُلازمه ، قال : غلب عليّ السحرُ عند مولاي ، وقد اختلف ما بينه وبين الخليفة ؛ فكان يفرُّ على الحرم ، ويصعد إلى قببته المسماة بلؤلؤة وغيرها من مُستشرفاته ، يرعى النجوم ، وينفرد بنفسه ، ويكبُّ على الفكرة ، والشمعة بين يديه ، والدَّرَجُ ملقَى على الدواة إلى جانبه ؛ فإذا تاب له رأيٌ ، أثبتته ؛ ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر ؛ فيستلقي على مهادٍ يجيده في كلِّ وجهٍ من أماكن خلوته ؛ فلا يتحصّل لأهله على الحقيقة مكانٌ مرّقده ، ولا يزال قائماً على القدم حتى تُدْنَى منه سواكه ووضوءه ، ويُؤدّنّه المؤدّنُ بالصلاة ، فيقضيها ، ويربطُ الدَّرَجَ في منديل كُمه ، ويرفع الستّر عنه ؛ فيدخل من رُسْنه البكور من الخاصة والوزراء والصحابة ؛ فيناظرهم فيما رسمه ليله ، ويأمرُ بتقييد ما شاء منه ، إلى أن يرتفع النهار ويجتمع الناس ؛ فيأخذُ في النظر العامّ ، ويُناولني الدَّرَجَ ، فأقطعه صغاراً وأغرقه في ماء وردٍ بحضرتة حتى تحفى أجزاؤه . ولقد قلتُ له ليلةً : « قد أفرط مولانا في السهر ؛ وبدنّه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ! وهو يعلم ما يُجرّك عليه السهر من علّة العصب ! » فقال : « يا سَعْلَة ! حارسُ الدنيا لا ينام إذا نامت الرعيّة ! لو استوفيتُ نومي ، لما كان في دور هذا البلد عينٌ نائمة ! ولو كنتُ من صاحبِ القصر ( وأشار إلى ناحية الخليفة ) على مثلِ مسافةٍ بسطة ، لأخرمتُ النوم ! فكيف وإنّما بيننا مدىّ صيحة ! »

وأما آثاره في بناء القصور ، وزيادة المسجد الجامع ، والجباب لسقي الناس ، وبنيان القناطر بنهرَي قرطبة وإسجّة ، فآثارٌ عظيمةٌ ، ولو لم يكن من آتاه غيرُ الزاهرة ذات القصور الفخمة ، والمنزهات المُختَرعة . وكان ، لشدة حذره من الحادث الواقع بعد دولته ، وتقيّة المكروه من جهة أهل بيت سلطانه ، قد اتخذ رجلاً ثبّتاً أميناً جعله عيناً على مَنْ

بالمدينة من ولد الخلفاء ؛ وأمرَ المروانيين مع ذلك بلزوم منازلتهم في المدينة ، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلا لضرورة ، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحكّمين على دُول متعاقبة ، يطالعون ما ينكرونه من أحوالهم ؛ وأخذهم بتفريق من حوّلهم إلا لمن يأذن فيه من غلامٍ أو وكيلٍ أو مُعلّمٍ أو طبيبٍ ، وحذرهم صحبة سوانم من الناس ، وألزَمَهم التقصد في أمورهم والإقبال على ما يعينهم . وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات ، حتى خشعوا ، واقتصروا على بيوتهم ، وأهَمَّتْهم أنفسهم . وكان له كاتبٌ يدور في الدواوين يترصّد ما يجري من قصة أو يُحدث بين ولائها من مُناظرة ؛ فيثبت ذلك ، ويطالع به . وكان شأنه في الأخذ على المُكتمّين والمنجّمين ومن يُنذر بذكرٍ قاطعٍ على الدولة أو اقترابٍ من المدّة ؛ فكان يمتنع لذلك ، ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم . وكان أحرصَ الناس على التمييز والاعتبار ، والمشاحة للعمال .

وعلى الجملة ، فكان نسيجَ وحده في صقعهِ ؛ وقلَّ أن يسمع بمثله في غيره . قال بعضُ من تعنّى بأخباره : كان آيةً من آيات الله فطرةً دهاءً ومكرٍ وسياسةً ، عدّاً بالمصاحفة على الصّقالبة حتى قتلهم ؛ ثمَّ عدّاً بغالبٍ على المصاحفة حتى قتلهم ؛ ثمَّ عدّاً بجعفر بن الأندلسي على غالبٍ حتى استراح منه ؛ ثمَّ عدّاً بنفسه على جعفر حتى أهلكه . ثمَّ انفرد بنفسه ، يُنادي صروف الدهر : هل من مُبارز ؟ فلمّا لم يجد ، حمل الدهر على حكمه ؛ فانتقاد له وساعده ، واستقام له أمرُه منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره .

ومن أعجب أحواله أنّه كان على بصيرةٍ من أمره ، هائماً بما ذخرت له الأيامُ في حادثة سنّهُ ؛ فكان يتكلم في ذلك بين أصحابه ولِدائِهِ ، ويُشيرُ بما خبأ الله له من غيبه . فحدث ابن أبي الفيّاض في كتابه قال : أخبرني الفقيه أبو محمد عليّ بن أحمد ، قال : أخبرني محمد بن موسى بن عزرون ،

١ أي بيت الحاجب جعفر المصحفي .

قال : أخبرني أبي قال : « اجتمعنا يوماً في 'مَنْزَرِهِ' لنا بجهة الناعورة بقرطبة ، ومعنا ابن أبي عامر ، وهو في حدائقه ، وابن عمه عمر بن عَمْرِو بْنِ جَعْفَرٍ ، والكاتب ابن المارِ عَزَّيْ وَرجلٌ يُعرف بابن الحسن من جهة مالقة ، وكانت معنا سفرة فيها طعام . فقال المنصور ، من ذلك الكلام الذي كان يتكلم به : « لا بد لي أن أملك الأندلس ، وأقود العسكر ، وينفذ حكمي فيها ! » ونحن نضحك منه ، ونهزأ به . وقال : « تَتَشَوُّوا عَلَيَّ ! » فقال ابن عمه : « نَتَمَنَّى أَنْ نَتَوَلَّى الْمَدِينَةَ ! » وقال ابن المارِ عَزَّيْ : « نَتَمَنَّى أَنْ نَتَوَلَّى السُّوقَ ! » وقال ابن الحسن : « أَتَمَنَّى أَنْ تَوَلِّيَ الْقَضَاةَ بِجَهْتِي ! فَإِنِّي أَحَبُّ التِّينِ ، حَتَّى أَتَشَقَّى مِنْ أَكْلِ التِّينِ ! » قال موسى بن عَزْرُون : وقال : « تَمَنَّى أَنْتَ ! » فَأَسْمَعْتُهُ كَلَاماً قَبِيحاً . فلم يَكْ إِلَّا أَنْ صَارَ الْمُلُوكُ إِلَيْهِ ، فَوَلَّى ابْنَ عَمِّهِ الْمَدِينَةَ ، وَبَلَّغَهُ أَمْلَكَهُ مِنْ ضَرْبِ الْإِبْشَارِ ؛ وَوَلَّى ابْنَ الْمَارِ عَزَّيْ السُّوقَ ؛ وَكَتَبَ لابْنَ الْحَسَنِ بِالْقَضَاةِ عَسَاهُ يَشْعُ مِنَ التِّينِ . » قال : « وَأَغْرَمَنِي أَنَا مَالاً عَظِيماً ، أَجْجَفَنِي وَأَفْقَرَنِي لِتَبِيحِ مَا كُنْتُ جُنْتُهُ بِهِ . »

قلتُ : والشيءُ يُذكرُ بالشيءِ . وقف عندي على هذه الحكاية الشيخُ القاضي اليومَ بغرناطة عليُّ بن الحسن الملقب بجُعْسُوس ، أطرُوفة الدنيا وأضحوكتها سُكُلاً وَعِلْماً وَخَلْقاً ؛ فَصَبَّهَا فُرْصَةً تَغْتَمُّ بِضَعْفِ عَقْلِهِ ، وَظَهَرَ لَهُ بِسَبَبِ اسْتِرَاكِ اسْمِهِ مَعَ ابْنِ الْحَسَنِ الْمَذْكُورِ أَنْ يَتَنَسَّخَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِدَّةُ نُسَخٍ أَنْتَقَى عَلَيْهَا مَا تَضِيقُ عَنْهُ حَالُهُ الضَّعِيفَةِ . وَجَعَلَ كُلَّمَا فَرَّغَ مِنَ الْكِتَابِ ، بَاعَهُ أَوْ هَدَاهُ ، لَا يَقِفُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ . فَقُلْتُ لِلْكَاتِبِ ابْنَ زَمْرُوكَ الْمَوْلِعِ بِالْعَبَثِ بِهِ وَحِفْظِ نَوَادِرِهِ : « مَا تَوَيَّ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ مِنْ اقْتِصَارِهِ عَلَى نُسَخِ هَذَا الْكِتَابِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِهِ عَنْ ضَرُورِيَّاتِهِ ؟ » فَقَالَ لِي : « إِنَّهُ سَمِعَ الْحَدِيثَ

١ راجع « تاريخ قضاة الأندلس » لابن الحسن النباهي ، ص ٨١ .

« تَوَيَّجُوا فِيَنِي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ » ؛ فَقَدَّرَ ، جَارِياً عَلَى أَفْهَمِ سِتَةِ الْفَقِيهِ ، أَنَّ كُلَّ مُكَاتِرٍ لشيءٍ مَا فَهُوَ مُأْجُورٌ . » فَقُلْتُ لَهُ : « أَجْرٌ فِي الْحَدِيثِ بِحَضْرَتِهِ إِذَا جَاءَ إِلَيْنَا لِلطَّعَامِ ! » ففعل ، فقال : « يَا سَيِّدِي ! هُوَ ذِكْرٌ جَمِيلٌ ، وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْوَلَدِ ! » فَقُلْتُ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَعَلَى فَرَضِ أَنْ يَكْتُبَ بِظَهْرِ كُلِّ مُتَنَسِّخٍ عَقْدٌ بِأَنَّكَ ابْنُ الْحَسَنِ ، وَأَنَّ هَذَا جَدُّكَ ! وَأَيُّ فَخْرٍ فِيمَنْ تَبَيَّنَ أَنَّ سَبَبَ طَلَبِهِ الْقَضَاةِ الَّذِي يَسْتَعْفِي عَنْهُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْوَرَعِ هُوَ حُبُّ التِّينِ وَالشَّعْبُ مِنْ أَرْهَاطِهِ ! وَهِيَ شَهْوَةٌ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا فِي سَاحِلِكُمْ بَيْيُضَةً كَدَاجِجَةٍ أَوْ كِسْرَةٍ خُبْزٍ ، لَا بَلْ بغيرِ تَمَنٍّ ! وَهَلَّا ، إِذَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّ يَذْكُرُ السَّبَبَ ، قَالَ : لَنَجْرِيَ الْأَحْكَامَ بِالْحَقِّ وَأَنْ نَتَّخِذَ الشُّهُودَ وَنَنْظُرَ فِي الْأَحْبَاسِ الضَّائِعَةِ ، أَوْ سَكَتَ وَطَلَبَ الْقَضَاةَ فَقَطْ ! وَأَمَّا جَعْلُ مِثْلِ هَذَا الْوُظُفِ الدِّينِيِّ ذَرِيعَةً وَوَسِيلَةً إِلَى الشَّعْبِ مِنَ التِّينِ ، فَلَا يَقُومُ مَدْحُ صَاحِبِهِ بِالْقَضَاةِ ، وَتَعَرُّفُهُ بِابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي وَقْتِ الْحُمُولِ بِمَدْمَتِهِ النَّهْمِ وَالْحَسَةِ ! إِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ يَقْرُبُ لَوْ قَالَ الْمَوْرُخُ : رَغِبَ أَهْلُ مَالَةِ فِي تَقْدِيمِهِ أَوْ اسْتِخَارَ الْخَلِيفَةَ اللَّهَ ، فَهَدَاهُ إِلَيْهِ ! وَلَوْ أَدْرَكَتْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي تَرُغِبُ فِي الْخِلَاصِ إِلَيْهِ ، لِلْقَبْبَةِ بِطَيْرِ الْعَصِيرِ ! » ( وَهُوَ عِنْدَنَا طَائِرٌ مَعْرُوفٌ بِأَكْلِ التِّينِ ) ؛ فَقَالَ : « يَا سَيِّدِي ، وَمَتَى يَنْظُرُ أَحَدٌ بِنَظَرِكَ أَوْ يَعْطِي هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَا تُعْطِيهَا مِنْ اعْتِبَارِكَ ؟ مَا تَمَّ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَصِلُ بِفِكْرِهِ إِلَى مِثْلِ هَذَا ! » فَقَالَ ابْنُ زَمْرُوكَ : « حَضَرَنِي آيَاتٌ أَخَاطِبُ بِهَا سَيِّدِي الْفَقِيهَ ! » فَقُلْتُ : « أَفْعَلْ ! » فَأَنْشَدَهُ ، وَهُوَ مِنَ الْمُسْتَظْطَرِّفِ فِي مَعْنَاهُ :

أَحَافِدَ عَبْدِ التِّينِ يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنْ التِّينِ وَالْمَسْوَا (?) لَهُمْ مِنْ غَيْرِ لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ فَيْكٌ حَيِّراً إِلَى أَنْ هَدَيْتُ الْفِكْرَ مِثْلِي لِلسَّيْرِ فَقَدْ طُبْتُ مِنْ طَيْرِ الْعَصِيرِ بِنَسْبَةٍ فَخَرْتُ بِهَا بَيْنَ الْقَضَاةِ عَلَى الْغَيْرِ

١ التصحيف ظاهر في الأصل .

فَأَنْتَ إِذَا مِنْ ذَرَقٍ جَدَّكَ نَابِتٍ كَمَا تَنْبِتُ الْأَشْجَارُ مِنْ ذَرَقِ الطَّيْرِ  
 وَذَهَبْنَا فِي الدَّعَابَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ وَحَرَدَ ، وَأَرَادَ أَنْ يُجِيبَهُ ؛ فَأَرْتَجَ  
 عَلَيْهِ . وَالنَّوَادِرُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِذِكْرِ ابْنِ الْحُسَيْنِ هَذَا الْمَتَأَخَّرُ غَرِيبَةٌ جَدَّةٌ ، قَدْ  
 تَضَمَّنَتْ كِتَابُ يَسْمَى : « بَخْلَعُ الرَّسَنِ فِي التَّعْرِيفِ بِأَحْوَالِ ابْنِ الْحُسَيْنِ » ،  
 بِمَا دُوِّنَ لِلْمَوْلَى السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَا  
 شَيْءَ فَوْقَهُ فِي الطَّرَفِ وَالِاسْتِطْرَافِ ، يَسْلِي الثَّكَلَى . وَنَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى !

رَجَعَ الْحَدِيثُ . وَكَذَلِكَ كَانَ الْمَنْصُورُ أَيْضًا عَلَى عِلْمٍ مِنْ مُدَّتِهِ ؛ فَحَدَّثَ  
 أَبُو مَرْوَانَ [ ابْنَ حَيَّانَ ] عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ حَزْنَمٍ وَزِيرِ ابْنِ  
 أَبِي عَامِرٍ ، الْأَخْصَصُ بِهِ ، قَالَ : كُنَّا مَعَهُ يَوْمًا بِالزَّوْ ( وَهُوَ مَرَكَبُ  
 النَّزْهَةِ ) فِي النَّهْرِ بَيْنَ يَدَيْ قَصْرِ الزَّاهِرَةِ ، فِي نَفَرٍ مِنْ خَاصَّتِهِ ، مِنْهُمْ أَبُو  
 عُمَرَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حُدَيْرٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ يُصْعِدُ بَيْصَرَهُ وَيَصُوبُ  
 فِي قُصُورِهِ بِالزَّاهِرَةِ ، وَمَصَانِعِهِ الْمُطْلِئَةِ ، وَمَبَانِيهِ الْمُشْرِفَةِ ، وَقَدْ قِيدَتْ  
 الْأَحْظَافُ حُسْنًا وَبِهَجَةً . فَقَالَ مُحَمَّدٌ : « وَاهَاً لَكَ يَا زَاهِرَةُ الْحُسَيْنِ ! لَقَدْ  
 جَمَلَ مَرَأَتُكَ ، وَرَأَى مَنْظَرُكَ ! فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُدِيرُ الْمَشْهُومُ  
 الَّذِي يَهْدِمُكَ ! » قَالَ : فَاسْتَغْظَمْنَا مَا كَانَ مِنْهُ ، وَحَسَبْنَا أَنَّ النَّبِيذَ عَمَلٌ  
 فِيهِ . وَأَفْرَطَ أَبُو عَمَرَ فِي اسْتِنْكَارِ مَا جَاءَ بِهِ ، حَتَّى تَحَدَّاهُ بِالْقَوْلِ ، وَقَالَ لَهُ :  
 « كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِهَذَا ، يَا أَبَا عَمَرَ ! وَهُوَ عِنْدَكَ وَعِنْدَ سَلَفِكَ عَنْ صَاحِبِكُمْ  
 الْحَكَمِ كَالْحَكْمِ الْمُنْتَظَرِ ! وَلَكِنْ تَتَجَاهَلُ ! سَيُظْهِرُ عَلَيْهَا عَدُوُّنَا ، فَيَهْدِمُهَا ،  
 وَيُلْقِي حِجَارَتَهَا فِي هَذَا النَّهْرِ ! » فَأَخَذْنَا فِي التَّعْلِيلِ لِهَذِهِ الْآثَارِ . وَقَالَ :  
 كَانَ الْمَنْصُورُ يَعْلَمُ الَّذِي يَزُولُ أَمْرُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصِفَتَهُ بِمَا أَطَّلَعَهُ مِنْ تِلْكَ  
 الْآثَارِ ، وَجَلَبَ أَحَادِيثَ . اخْتَصَرْنَاهُ .

وَتَوَفَّى الْمَنْصُورُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُنْصَرَفًا عَنْ غَزْوَتِهِ إِلَى بَلَدِ ابْنِ عُثْمَانَ  
 صَاحِبِ قَسْتَلَالَةَ ، بِمَدِينَةِ سَالِمٍ ، الَّتِي بَنَاهَا بِوَادِي الْحِجَارَةِ مِنَ الثُّغَرِ ،  
 وَشَيْدَهَا ، وَأَقَامَهَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ ، مَحْمُولًا إِلَيْهَا مِنْ بَلَدِ الْحَرْبِ عَلَى

الرُّؤُوسِ ، عَزِيزًا ، عَلَى فَرَّاشِ التَّجِلَّةِ وَالتَّكْرِمَةِ ، وَحِجَابِ الْمُلْكِ وَالْعَمَلِ  
 الْمُخْتَوَمِ بِالْجِهَادِ ، لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٣٩٢ . وَدُفِنَ بِصَحْنِ  
 قَصْرِهَا . وَقَبْرُهُ هُنَاكَ مَعْرُوفٌ ؛ أَخْبَرَنِي بِهِ بَعْضُ الطَّلَبَةِ مِمَّنْ وَجَّهَتْهُ  
 لِلتَّكْيِيدِ عَقْدُ الصُّلْحِ مَعَ صَاحِبِ قَسْتَلَالَةَ ؛ فَدَخَلَ مَدِينَةَ سَالِمٍ فِي طَرِيقِهِ ،  
 وَقَدْ أَوْصِيَهُ بِذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّ رُسُومَهُ مِنْ شِعْرِ مَنْقُوشٍ وَنَارِيخٍ مَكْتُوبٍ  
 وَأَمْرٍ مُنَوَّهٍ بِهِ مَقْفُودَةٌ .

وَحَدَّثَ مَنْ سَمِعَهُ يُوصِي ابْنَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ؛  
 فَقَالَ لَهُ : « يَا بُنَيَّ ! لَسْتُ تَجِدُ أَنْصَحَ لَكَ وَلَا أَسْتَفْقَ عَلَيْكَ مَنِي فَلَا تُعَدِّتْ  
 وَصِيَّتِي ؛ فَقَدْ جَرَّدْتُ لَكَ رَأْيِي وَرَوَيْتِي عَلَى حِينِ اجْتِمَاعٍ مِنْ ذَهْنِي . فَاجْعَلْهَا  
 مِثْلًا بَيْنَ عَيْنَيْكَ . وَقَدْ وَطَّأْتُ لَكَ مِهَادَ الدَّوْلَةِ ، وَعَدَلْتُ لَكَ طَبَقَاتِ  
 أَوْلِيَائِهَا ، وَنَمَائِرَتْ لَكَ بَيْنَ دَخَلِ الْمَمْلَكَةِ وَخَرَجِهَا ، وَاسْتَكْثَرْتُ لَكَ مِنْ  
 أَطْعِمَتِهَا وَعُدَدِهَا ، وَخَلَقْتُ لَكَ جَبَابَةً تَرِيدُ عَلَى مَا يَقُولُكَ بِجِبْشِكَ  
 وَبِنَفَقَتِكَ . فَلَا تُطْلِقْ يَدَكَ فِي الْإِنْفَاقِ ، وَلَا تُقَيِّضْ لُظْلَمَةَ الْعُمَّالِ ؛  
 فَيَحْتَلَّ أَمْرُكَ سَرِيعًا ؛ فَكُلُّ سَرَفٍ رَاجِعٌ إِلَى اخْتِلَالٍ لَا تَحَالَةَ ! فَاقْصِدْ  
 فِي أَمْرِكَ جَهْدَكَ ، وَاسْتَنْبِطْ فَمَا يَرْفَعُ إِلَيْكَ أَهْلُ الْبَطَالَةِ . وَالرَّعِيَّةُ ،  
 فَقَدْ اسْتَقْصَيْتُ لَكَ تَقْوِيمَهَا ؛ وَأَعْظَمْتُ مِنْهَا أَنْ تَأْمَنَ الْبَادِرَةُ ، وَتَسْكُنَ  
 إِلَى لَيْلِ الْجَنْبَةِ . وَصَاحِبُ الْقَصْرِ قَدْ عَلِمْتَ مَذْهَبَهُ وَأَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنْ  
 قِبَلِهِ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ ، وَالْآفَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاهُ وَيَتَلَمَّسُ الْوُثْبَ بِأَسْمِهِ ؛ فَلَا تَنْمُ  
 عَنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ جَمَلَةً ، وَلَا تَرْفَعُ عَنْهَا سُوءَ الظَّنِّ وَالثَّهْمَةِ ؛ وَعَاجِلُهَا  
 مِنْ خِفَتِهِ عَلَى أَقْلٍ بَادِرَةٍ ، مَعَ قِيَامِكَ بِحَقِّ صَاحِبِ الْقَصْرِ عَلَى أَمْرٍ وَجْهِ .  
 فَلَيْسَ لَكَ وَلَا لِأَوْلِيَائِكَ شَيْءٌ يَقِيمُ الْحِنْثَ فِي بَيْنِ بَيْعَتِهِ إِلَّا مَا تُقِيمُهُ لَوْلِيَّهَا  
 مِنْ هَذِهِ النَّفَقَةِ . وَأَمَّا الْإِنْفِرَادُ بِالتَّدْيِيرِ دُونَهُ ، مَعَ مَا بَدَلَتْهُ مِنْ جَهْلِهِ  
 وَعَجْزِهِ عَنْهُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنِّي وَإِلَيْكَ مِنْهُ فِي سَعَةٍ مَا تَمْسِكُنَا بِالْكِتَابِ

والسُّنَّة . والمالُ المخزونُ عند والدِكَ هو ذخيرةُ مَمْلَكَتِكَ ، وعِدَّةٌ لحاجةِ تنزُلِ بك . فَأَقِمْهُ مقامَ الجارِحةِ من جوارِحِكَ التي لا تبدُلُها إلا عند الشدَّةِ ، تخافُ منها على سائرِ جَسَدِكَ . وأخوك عبدُ الرحمن ، قد صيرتُ له في حياتي ما رَجَوْتُ أَنِّي قد خرجتُ له فيه عن حقِّه من ميراثي ، وأخرجتُه عن ولايةِ التَّغَرُّ لئلاَّ يجِدَ العدوُّ مَساغاً بينكما في خلافٍ وصيَّتِي ، فيُسرعَ ذلك في نَقْضِ أمرِي ، ويَجْلِبَ الفاقةُ إلى كَوْنِي . وقد كَفَيْتُكَ الحَيِّرةَ فيه ؛ فاكفِنِي الحَيِّفَ منك عليه . وكذلك سائرُ أَهْلِكَ فيما صنعتُ فيهم بحسبِ ما قرَّرتُ به خلاصِي من مالِ الله الذي بيدِكَ . وخلافَتُكَ بعدي أَجْدَى عليهم ممَّا صرفتُه إليهم ؛ فلا تُضَيِّعْ أَمْرَ جِيعِهِمْ ، والحِظَّ منهم بعيني ؛ فَإِنَّكَ أبوهم بعدي . فخرِّجْ ذكورهم باستخدامِكَ ، وألِّفْ إناثهم جناحَكَ ، جبر الله جماعتهم ، وأحسنِ الخلافةَ عليهم . وإن انقادتْ إليك الأمورُ بالخضرةِ ، فهذا وَجْهُ العَمَلِ ؛ وإن اعتاصتْ عليك ، فلا تُلقِنَنَّ بيدَكَ إلقاءَ الأَمَّةِ ، ولا تبطُرْ بك وبأصحابِكَ النعمةَ والسلامةَ ، فتَنسُوا آمالَكُم في بطون بني أُمِّيَّةٍ وشيعتهم بقرطبة ؛ فإن قاومتَ من تَوَثَّبَ عليك منهم ، فلا تَذْهَلْ عن الحِزْمِ فيهم ؛ وإن خِفْتَ الضَّعْفَ ، فانتَبِذْ بِمَخاصِصِكَ وَغِلْمَانِكَ إلى بعضِ المعاقِلِ التي حصَّنْتُها لك . واختَبرْ عَدَدَكَ إن أنكرتَ يَوْمَ مَكِّ . وإياكَ أن تضعَ يَدَكَ في يَدِ مَرْوَانيٍّ ما طَوَّعْتَكَ بَنانَكَ ؛ فَإِنِّي أَعْرِفُ ذَنْبِي إِلَيْهِمْ ! »

قال : وسَمِعْتُهُ يقول لِغُلَمائِهِ عند هذه الوصِيَّةِ : « تَتَبَّهُوا لأَمْرِكُمْ ، واحفظوا نِعْمَةَ الله عليكم في طاعةِ عبدِ الملكِ أَخِيكُمْ ومولاكُمْ ، ولا تغرُّكُمْ بوارِقُ بني أُمِّيَّةٍ ، ومواعيدُ مَنْ يطلبُ منهم سَنائَكُمْ . وقَدَّروا ما في قلوبهم وقلوبِ شيعتهم من الحقدِ عليكم ؛ فليس يرأسُكُمْ بعدي أَشَقُّ عليكم من تولدي . ومِلاكُ أَمْرِكُمْ أن تنسُوا الأحقادَ ، وأن تكونوا كرجلٍ واحدٍ ؛ فَإِنَّهُ لا يُفْلُ فيكُمْ ! »

وانصرف المظفرُ لَشَأْنِهِ ، وضبطَ سلطانه ؛ وتخلَّفَ المنصورُ ، ينازعُ من أجله ، وانفرادَه بعلميه ، قد قطعَ الدهرُ به عن أَمَلِهِ ، فسبحانَ الحَيِّ الباقي لا إِلَهَ إلا هو !

قلتُ : ولم نُطِيلِ القولَ فيما اختَصَّ بدولةِ هشامِ بن الحَكَمِ المؤيَّد بالله ، وكفالةِ المنصورِ ابنِ أبي عامرٍ إِيَّاهُ ، إلا لكونه أَشْبَهَ الأحوالِ بما نحن فيه من جِهَةِ اتِّفَاقِ الخواصِّ على مُبايعةِ صبيٍّ لم يبلغِ الحُلُمَ ، وفي قطرٍ يقتدي الناسُ بأعلامه وأحكامه ، والتعويلُ في ذلك الرسمِ الإماميِّ على مَنْ يتولى وزارةَ التفويضِ ، وشأنها معروفٌ ، إذ تعذَّرَ وجودُ جميعِ الشروطِ المُعْتَبَرةِ ، ووجب مُراعاةُ حالِ المصلحةِ المقدَّرةِ ، لا سيما ومَنْ بهذه النيابة فقد عدمَ المِطْطَعْنَ فيه عدالةً وكفايةً ، وتمشَّتْ أمورُ المسلمين بذلك أَحْسَنَ ما مَشَّتْ فيما سَلَفَ من الأزمانِ ، وكونه عند مَنْ اقتصرَ عليه وأعطى صفةً يمينه فيه ممَّا اقتضاهُ الاجتهادُ الوقفيُّ ، وغير ذلك من المناسباتِ ؛ فلذلك مددنا القولَ فيه لَكَيْ يعضدَ الشكلُ بشكله ، ويأُنسَ صاحبُ هذه الوظيفةِ الشرعيَّةِ بذكر سِيَرِ مِثْلِهِ ؛ فيَجْتَهِدَ لِرِعايَةِ في فضله وعدله ، وينكبَ عما أنكرَ عليه من قَبْلِهِ فيجيدَ عن سبيله ، بمقدارِ نبذه . واللهُ يجعلنا ممَّنْ قصدَ الخيرَ في أمره كُلِّه ، بقدرته وعونه وحوله ! وفي آخرِ الكتابِ عند الوزنِ ، والكلامِ في الزمانِ والمكانِ ، وفَضْلِ الدولةِ المِريَنيَّةِ بالبرهانِ ، نستوفي ما نريدُه من هذا الشَّأنِ ، بمشيئةِ الله .

## دولة المظفر عبد الملك

### ابن المنصور محمد بن أبي عامر

وصار الأمرُ بعد محمد بن أبي عامرٍ لولده عبد الملك ، الملقَّب بالمُظَفَّرِ سَيْفِ الدولةِ ، يومَ الإثنينِ لثلاثِ خَلَوْنَ من شهرِ رمضان سنة ٣٩٢ .

وخطب الأقطار بالمغرب والأندلس ، يعرف الناس بوفاء أبيه ، وربما قصير له من أمره ؛ فاستوسق له الأمر ، ولم يخالفه أحد . واجتمع الناس على حبه . كان مع كلِّه بالنيذ ، واستغراقه فيه ، مراقباً لله ، محباً للصالحين ، يظهر العدل ، ويحيي الشرع ، وينصر المظلوم ، ويوفي بالبيعة ، ويقمع عدو الدين . وبالمثل شعري إلى أين يذهب الناس بعد هذا وما الذي يريدونه ! وكان بما تقرب به إلى قلوب الناس إسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد . وابتدأ من الحد الذي وقف فيه أبوه ، ترمياً بهيته العالية وآماله الشريفة .

قالوا : كان عبد الملك أسعد مولودٍ وُلِدَ بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما ؛ فجدد الألقاب ، واقتفى الرسوم . فلقد ذكر أن المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجّمين ؛ فلم يكونوا أوفر عدداً ولا أسنى أزوافاً منهم في أبياته ، مع عدم التلبس بشيء من أمرهم ، إذ كان مقتصرًا على شأنه من التجنّد والعمل بالسلّاح ، حفظاً للرسوم ، والتماساً لجليل الذِّكر ، وحرصاً على التزيّد والشفوف على غيره . وكان مثلاً في الحياء والشجاعة ، إذ ما كان عند الحياء والحشمة بكرراً عزيزة ، وفي مواقف الكريمة أسداً ورّداً ، لا يقوم له شيء إلا حطمه .

قال أبو مروان في « الكتاب المتين » ، فقال يصف مدته : انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباً ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقي سريرة ، ووثوق في بُعد همته ، أطاعوا بها إلى جنبه في السر والعلانية ؛ فباحوا بالتعم ، واستأثروا الكنوز ، وتناهوا في الأحوال ، وتناغوا في المكاسب ، وتحاسدوا في اقتناء الأصول وابتناء القصور ، وغالوا في الفرش والأمتعة ، واستفروها المراكب والعلمان ، وغالوا في الجوّاري والقيان ؛ فسنت أمان ذلك في تلك

المدّة . وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ؛ فمهّد تلك الدولة في احتشاد التعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ، نذراً لعرمان قضاه ، وأسبوعاً بعرضه ثلاثاً في كنف ملكٍ مقتبيل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيّام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا في طاعته . ورضي بالعافية منهم ؛ وآتوه إياها . فصفا عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلّصه الله من الفتن .

وقال في إطراد دينه : كان في سر أمره عفيفاً متواضعاً على رفعة حاله ، يبكي على ذنبه ، ويحب الصالحين ، ويستهدي أذعيتهم . وذكر لقاءه لولي الله على عهده أبي أيوب الفريسي - نفع الله به - ؛ ثم قال : وحكى الأستاذ أبو القاسم المقرئ ، فقال : طرقة عبد الملك ليلاً ؛ وأحسننا بذلك لقربنا من منزل الشيخ ؛ فامتلات المقبرة بحيل المظفر ، وقصد باب الشيخ في خيف من غلمانته ، والقاضي أبو العباس بن ذكوان معه ؛ ففرق الباب عليه ، وهو قائم يصلي ؛ فأدنته زوجته بكانه ؛ وكانت فاضلة ؛ وقالت : « يا أبا أيوب أوجز في حلاتك ! فهذا صاحب البلد واقف على بابك ، ينبغي الدخول عليك ! فانظر ما جناه عليك ابن .. ! » فانصرف ، وقال لها : « يا هذه بلوى حلت تستدفع بالصبر ! ائذني له ! » وقانا الله فتنته ! « فدخل وكلّيه ؛ فوعظه ؛ ثم تناول كفه مصافحاً ، فقال له : « يا مظفر ! إن لك كفوّاً ناعمة رخصة . فاتق الله عليها من لفتح الجحيم ! » فأقبل عبد الملك على البكاء والنحيب ؛ ثم دعا له ويده في يده ؛ فقال : « بسطها الله في الجهاد وأطالها بالصدقة ! ما يبلفني عنك بنعمة الله عليك إلا ما يسر ! وقد وجب عليّ نصحك : فاتق الله ربك فيمن استرعيت أمرهم ، وتذكر من بعد عنك وعجز عن قصدك ! فاكشف عن مظالمهم جهنمك ، وتوق سوء دعايمهم ما استطعت ، واحترس من

بطانتك أشد من عدوك ! فإنهم أقرب إلى ضررك ، يُزينون لك شهواتك لينالوا رضاك ، ولا يغنون عنك من الله شيئاً . والله الله في الجهاد ! فيه أعز الله أباك - رحمة الله عليه وعليك - بإصلاح السبيل ؛ فهي أهم ما ترك إليك . وتقوى الله أول وأخير ما أوصيك به ؛ فاشعرها قلبك ؛ فإنك تأتي إليه وحدك ، ولا يغني عنك أحد شيئاً ! » في كلام نحو هذا .

وذكر أن المظفر أرسل إليه بدرة من خمسمائة دينار وقال : « إنها من أطيب ثواني ! وأريد أن تضعها بمكان ينفع ! » فقال : « ما أعلم إلا إمام المسجد هذا ليست له دار . فإن شاء أن يشتري بها داراً يوقفها على أئمة المسجد ، فنعماً هي ؛ وإلا فهو أعلم بصدقته ! » فأمر عبد الملك بذلك ؛ فالدار تُعرف بهذا من يومئذ .

قال : وكان ممّا سلك فيه عبد الملك مسلك والده من الأعمال الزكية نظره في السجون وكشفه عن طال منهم سجنه وتعدّر خلاصه ؛ فيطلق من يؤمن إضراره بالمسلمين ويرجى سواهم .

قال : وكان عبد الملك لصحة عقده ، مع قلّة عقله ، لا يحلف بالله البتة ، ولا يحلف به تعظيماً لله . كتب عنه الكاتب يوماً شيئاً من ذلك في وعيد ؛ فلما مرّ بسمعه ، أنكره ، وأمر بمحو اليمين ؛ وقال للكاتب : « ومهما عهدتني حلاًفاً ؟ » قلت : وقد ذكر الناس ذلك في مناقب أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه .

وذكر أن عبد الملك كان أبر خلق الله بوالديته . وحكى عنه في ذلك خلقاً شريفاً ألحقه الله رضوانه . وذكر حياته وعفته ؛ فقال : كان لا يكاد يرفع طرفه إلى سائل ولا معذور حياة ورقة . وكان أغف خلق الله إزاراً ، وأسترهم لعورتهم ، وأبعدهم عن جميع ما يتدنس في الملوك من وهنة وعهر خلوة . وأجرى شجاعته ؛ فقال : وهذه خلّة كانت أغلب خلل الظفر عليه ؛ فحكى عن الوزير حكيم بن بدر أنه أجرى لمحمد بن

علي بن محمد بن خنّز المغرّاوي ، عظيم زنّاته ، مفتخراً به للعصية الأندلسية بعد موته بزمان ؛ فقال : « لا تشك ، يا أبا العاصي ، في أنه لم يكن في عسكره فارس يعدله البتة . »

قال ابن حيان : وكان من أحسن الغرائز في الناس ما جمع الله فيه من الحياء والشجاعة . فلقد استحق وصف القائل :

فتى هو أحيى من فتاة حية وأشجع من ليث بختان خادر  
ثم تكلم في سعده ويمن سلطانه ، وتملكه ، ورفاهية ، ومبانيه وآثاره ؛ فجاء ببدعات تحسدها الرمم البالية والدول الخالية . فيا ما أحسن الذكر الجميل في بطون الأوراق ، والمحاسن تنشأ بالأندلس ، ثم تطير إلى الشام والعراق ؛ وسبحان الذي يقول ، حكاية عن نبيه ( واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم . ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ) .

وله في الرّوم وسبيل الجهاد آثار كريمة : غزا سبع غزوات ، منها إلى برجلونة وبلاد الفريجة ، ومنها إلى بنبلونة ، ومنها إلى غليسية ؛ ومنها غزوة الحريقة ؛ ومنها غزوة قلونية ؛ وآخرها التي مات قافلاً عنها . وفي سنة ٣٩٤هـ ، تنهى ملكه ، واحتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم . وما رية في أمراء الجيوش أبسط يداً في الحركات الجهادية ، ولا أرعد معونة من المظفر . ولقد كان يفيض العطاء في المطوعة التي تعبر البحر للجهاد معه من أرض العدو وجبال البرابرة . وعهد في غزوته التي فتح فيها حصن متنعص من ثغر برجلونة إلى الخزان بتوزيع خمسة آلاف درع وخمسة آلاف بيضة وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدارين .

وفي سنة ٣٩٨ ، استدعى الخليفة إلى قصره بالزاهرة لتزهة أنشأها هنالك في قصوره ؛ فركب إليها من قصر الخلافة على سبيل المعهودة من الاستخفاء عن أعين الناس وطردهم عن طريقه بكل جهة ؛ والحاجب المظفر بين يديه في الجيش على العادة . وفاوض عبد الملك فيما أراده وتمتع من لقائه ؛ فلما انصرف من عنده ، أتبعه رقعة بخطه ؛ وهي بعد بسم الله :  
« من الخليفة هشام المؤيد بالله .

بسم الله الرحمن الرحيم ..

أتم الله عليك نعمته ، وهناك قسمته ، وألبسك عقوه وعافيته ، لما رأيناك - سلمك الله - من صنع الله الجسم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شئنا الصدور وأقر العيون ، استخرنا الله تعالى في أن سميناك المظفر . فنسأل الله سؤال إلحاف وضراعة وابتهاال إليه أن يعزفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم في أفضيته ، ويقرنه بيمينه وسعادته بمنه وخفي صنع . وكذلك أجنناك التكني في مجالسنا ومحافلنا ، وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائر ما يجري فيه اسمك معنا ودوننا ، إفاقة بجلتك لدينا ، ودلالة على مكانك منا . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر ثلاثاً أسعده الله بالإلهام إلى خطة الوزراء اثنين ، وجمعناه بها في التكني على المشيخة والترتيب . إترك في الدولة . وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولي دعوتنا ، ونشر نعمتنا ، وخريج أدبنا . فأظهر ما جدناه لك في الموالي وأهل الخدمة ، واكتب به إلى أقطار المملكة ، وتصدقفه بشكر النعمة ! أحسن الله توفيقك ، ومتعنا طويلاً ببعافاتك ، وآنسنا مكيّاً بدوام سلامتك ! إنه ولي قادر ، عزيز قاهر ، إن شاء الله تعالى !

وعنوان ما كتب به عبد الملك : « من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور . »

وكان عبد الملك قد أجحف بالمال لانطلاق يديه في حاصله ، والتوسعة على الناس بسدسه ، وكثرة حركاته ، والتجاوز في نفقاته . ثم تاب في أخريات أيامه ؛ فهجر اللهو والراحة ، واستيقظ من الغفلة ، وعكف على مباشرة أمره ، والإشراف على سلطانه ، وإحياء رسم والده . فانقلب إلى طرف من حاله ، حسم به أطباع العيال ووالى الجلوس للكشف عليهم ؛ فتضافت رغبته وحرصه ، وتراحت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور . وبلغ من ذلك في المدة القصيرة ما رجيحت بعده الثروة ، وحسنت العاقبة . وقضى الله باحترامه عند ترقيه في ذلك أسد ما كان في رأيه وأضبط ما كان لشأنه ؛ فمضى حميداً .

وكان قد اعتل في منصرفه من غزوته بالصائفة سنة ٣٩٨ عن بلاد سنجة ابن عرسية ؛ ووصل الحضرة منتصف المحرم في عتاييل علية متحداً بالانكفاء إلى أرضه ؛ فلم يستقر بقرطبة إلا ريثما تراجعته قوتله إلى أن صح عزمه على مفاجأة العدو بالشانية ؛ فخرج من قرطبة للنصف من صفر سنة ٣٩٩ ؛ فزاد به مراض الذبحة . ووقع العمل على إعادته إلى قصره في العمارة . فكانت وفاته بها في الطريق قبالة دير أرملاط من أحواز قرطبة - رحمة الله عليه - يوم الجمعة لإثني عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٣٩٩ . وولي الأمر بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور .

## دولة عبد الرحمن بن المنصور

محمد بن أبي عامر

ولما دخل المظفر قصر الزاهرة ميئاً ، وقد كان أخوه ضبطه مستخفاً



عنه ، فقام بالأمر ، وأنفق الأموال ، وثقف المدينة ، وجلس مجلس أخيه . ودخل الناس عليه منهته . ثم ركب إلى قصر الخليفة ؛ فعزاه بأخيه ؛ وانصرف ، وقد خلع عليه خلعاً سلطانيةً ، وقلّده الحجابة ، وأصدر له بخطه تسميته بالمأمون . فتلقت بالناصر ، ثم بالمأمون . فكان يدعى بالخاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة . وساء تصرفه ؛ وانتهى إليه ملك الدس : وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه ! وسلك خلاف مسلك أبيه وأخيه في مداخله الخليفة والوقوف في أمره عند ضرورة السياسة ؛ فتنفق إليه ، وفتح الباب إلى تيسير أغراضه ، واستماله ، وغلطه بنفسه ، وطرده العمل في استدعائه إلى التزّنه على رُسبه من الحجة عن الرعيّة . وكان رُسبه أن يكسب بُرئساً في جملة الجوّاري ؛ فلا يُعرّف منهن . وأوعز بالاحتفال له .

وسوّلت لعبد الرحمن نفسه أن يلتمس ولاية عهد هشام ، والقيام بأمر المسلمين من بعده ، إذ كان هشام قد عدم الولد ضعفاً ومهانةً ؛ فأسغفه بذلك ، مثيراً على نفسه الفاقة ؛ فإنّ الروائيين من أهل بيته كانوا يرتقبون عادة الدهر بالكرّة التي تُعيد الأمر إليهم منسلخاً عن العامريّة ؛ فهم يتعلّلون بالأحلام ، وأضغاث المنام ، ويزجرون ساعات الأيّام . فلما رأوا انصراف العهد إلى بني أبي عامر ، وخروجه عن بني مروان ، بلكوا ما لا يسعه ذرع التحمل . وشرع رجالهم في مُبادرة الأمر واستماله من دونه ؛ وقد جبّل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوي أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة تؤثر عنهم في العامريين نواذر حارة واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، مُرهم بإنهاء وعيده ، ويشافهم بإنكاره ؛ ولا يزال حكّامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الحرّق ، كثر الحمل ، وشهرت البغضة .

قال أبو مروان بن حيّان : وقد تقدّم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفيّة من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيدُ الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكّر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة . ولم يهل الخليفة بعد مُصرفهم من نزّهتهم التي أوقعوا فيها هذه الوهلة ، حتى غداً عليه اليوم الرابع في جيوشه المتكاثفة وعدده المتظاهرة ؛ فأخذ عليه أنقاب قصر الخلافة ، بعد أن أحضر من شاء من طبقات أهل الحضرة ؛ فأجلس لهم هناك ، وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية . وأخرج كتاباً قريء بحضرته من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن بُرد - رحمه الله .

وهذه نسخة العهد بالبيعة :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامّةً ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصّةً ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامّة ، بعد أن أمتع النظر ، وأطال الاستخارة ، وأهمّه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصّه به من إمرة المؤمنين ، واتقّى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف ، وحشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه ، ولم يوردها ملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلقي الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عن ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يُسند الأمر إليه ، ويعوّل في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد أطراح الهوادة والتبرّي من الهوى ، والتحرّي للحق ، والتزلف إلى الله ، عز وجل بما يرضيه ، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ؛ فلم يجحد أحداً هو أجدر أن يُقلّده الخلافة ، ويُفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، في فضل نفسه

وكرم خيمه وشرف هيمته وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المؤمنين الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر - وفقه الله - إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ؛ فرآه مسارعاً الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة ، وينبو بعينه إلى أعلى درج النصيحة ، أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويجوي من حلل المجد بما حواه ، مع أن أمير المؤمنين - أكرمه الله - لما اطلعه من مكنون العلم ، ورعاه من مخزون الأثر ، أملاً أن يكون ولي عهد القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ولا على غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد تملكه ، طامعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محابٍ له ولا مائل له بهوادة ، ولا متترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى بقاء ذلك في أمير المؤمنين - أعزه الله . وأمضى أمير المؤمنين - أعزه الله - عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازته ، وبثله ، لم يشترط فيه مننوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهه .

وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آلِهِ وَأَبَائِهِ ، وَذِمَّةُ نَفْسِهِ ، بَأَنْ لَا يُبَدَّلَ وَلَا يُعَيَّرَ وَلَا يُجَوَّلَ وَلَا يَتَأَوَّلَ . وَأَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً . وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مَنْ أَوْقَعَ اسْمَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَهُوَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -

جائز الأمر ، ماضي القول والفعل ، بحضرة من ولي عهده المؤمن ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله لما قلده ، والتزامه ما أزمه . وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ .

وهذا الكتاب نسختان ؛ أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ؛ يليه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً ؛ يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكام والقضاة والفقهاء المشاورين ، وغيرهم .

قال ابن عون الله : وصدر عبد الرحمن في أهل المملكة إلى قصره بالزاهرة ، يخال في ثوب الخلافة ، ويحسب أنها له نحلة . فلما استقر به مجلسه ، أذن خاصته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه ؛ فأفاضوا في ذكر تهنئته بما أكرمه الله به ، والدعاء له ، والمعونة عليه ، ويمدونه في غيّه ، وقلوبهم منكرة عليه ، وهو يوليهم قبولاً ، ويوسعهم تكريماً . وأمر بإتخاذ الكتب عنه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، يخبر بولايته العهد والإمعان إليهم بالدعاء له على منابرهم بالعهد بعد الدعاء للخليفة ، مع نسق أسمائه المجموعة له .

قال : وغدا وجوه الناس من أهل قرطبة لتهنئة المغرور عبد الرحمن بهذه المنحة ، التي كانت عندهم أشد محنة ، كلهم يعزّي عنها نفسه ، ويكفكف عليها عبرته ؛ ثم تجملوا بالملق . وجلس لهم عبد الرحمن بتصر الزاهرة في مرتبة الملك ، لا ينقصه دققة ، وصفا رجال المملكة قياماً ، بين يديه على مراتبهم في رائق أبهائهم ؛ وأذن لمن حضر الباب بالدخول إليه لتهنئته ؛ فدخلوا على منازلهم ، بقدمهم المبتعدون عن الخلافة من أهل بيت المؤيد هشام المرواني وغيرهم من بطون قرطش ، تبدو عليهم في ظاهريهم الاستكانة والكبوة ؛ وتسائل بعدهم وجوه الناس من الحضرة ؛ فقصوا حق تهنئته ، وغبطوه بما ارتقى إليه من رفيع مرتبته ؛ فأحسن الرد

عليهم ، وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه 'موقدة' ينبغضه .

وولّى عبد الرحمن ابنه عبد العزيز الخطبة الحجابة مجموعة له بسيف الدولة ، لقب عثم المنظر . فرسم هذا الطفل بالحجابة بقية مدة أبيه .

وانهمك عبد الرحمن بعد هذه الحادثة في غيّه ، وأقبل على بطائه ، وجاهر بذيّاته . ومال إلى صحبة الجند بكائيته ، فأدنى أكابر الفريقين ، ونادى وجوه الخنبيين ، أعني البرابر والأندلس ، فأكثرُوا الشغل بالراحات والاسعاف بالمحالات ، حتى تفاقم الأمر ، وهو ذاهل عن ذلك كله ، مشغول بشأنه .

قال ابن الرقيق في كتابه : لما تمّ له ما أراد من ولاية العهد ، ودبر سائر الأمور ، أخذ في التخليط والفسوق والانهماك في مجلس شرابه وخلوته حتى كبا لفيه عن قريب ، حسبا تذكره إن شاء الله .

قال ابن حبان : ومن مختار ما قالته الشعراء في تهنئة عبد الرحمن بولاية العهد قول أبي العلاء صاعد البغدادي :

قرأت كتاب الجود وحدك أوّلاً وأوضحت منه كل ما كان مشكلاً  
فلما تجلّى الحسن منه لبستته فأحسنت في الأقوام أن تفضلاً  
أما والذي أعطى الخلافة ربّها أغرّ معيّاً في التبايع مخولاً  
لقد حازها مرخٍ عليها جناحه عقاب إذا ما أعلق الصيد جلجلاً  
وقال أبو منصور زيادة الله الضبيّ في ذلك بديهة :

تخير الله والسلطان للأمر وليّ عهدٍ براه الله من كرم  
لا يعدم الملك منه أن يشيد له عزّاً شديداً بضرب السيف والقلم  
اختاره الله للإسلام يحفظه وخصه بعلو القدر والهمم

وقال أيضاً :

بوليّ عهد المسلمين سا التقى وابيض وجه الدين حتى أشرفنا

الآن أبلغت الخلافة سؤلها وغدا لها رأي الإمام موثقاً  
عقد الإمام لها فأثبت عزّها بولاية المأمون عهداً موثقاً  
ملك ترى نور الهدى يجينه متبلجاً وسنى التقى متألقاً  
زان المغرب في ولاية عهده بالبر والتقى فشاك المشرقاً  
لو أن مكة تستطيع زيارة لأنت إليه مودة وتشفقاً

وقال قاسم بن محمود المرواني :

[ الطويل ]

لقد وفق الله الإمام المؤيداً وألهمه للحق فيك وأرشدنا  
فقلّدت العهد الذي مدّ عهده لك الله منه في الرقاب وأكّدا  
شهدت بأن الله ولأك خير من أسس الدين الحنيف وشيّدنا  
وإنك يا مأمون أفضل منتقى وأجدر من عهد الخلافة قلّدا  
وهل ذخر الرحمن ذا الملك لأمريء سواك وأهداه إليك ومهدنا  
إلا يا وليّ العهد وفيت عزّة بأعين وقت في الزمان وأسعدنا  
تقلّده وابشیر بالخلافة بعده وذوق ذوي الغلّ الحسام المهتدا  
فأنت الذي جاءت به النذر التي أتي الأثر المروي فيها مرّدا  
وأنت أمين الله مهديّ يعرب بن قحطان فيها طبت نفساً ومحتدا  
لكم كان هذا الأمر بدءاً وفيكم يكون مدى مستأنف الدهر سرّمدنا

وقال كاتب الرسائل ، وأفرط في قوله ، وهو مولى بني مروان :

[ الكامل ]

الآن عاد الدهر غضّاً مشرقاً وتمكنت أرجاؤه واستوسقا  
وغدا هلال الحق بدرأ بعد ما قد كان أصبح شمله متقرّقا  
بوليّ عهد المسلمين ومن غدا في المشركين إذا تقم فيلقا  
فأله يشهد للمؤيد أنسه قد حاط أمة أحمد منه بقا

وأحلّهم في باذخ متمنع صعبٍ حواشيه عسير المثلثا  
أَمْسى يَفْتَشُ قَوْمَهُ وَعَثِيرَهُ شَحًّا عَلَيْهَا وَالْحَمِيمَ الْأَلْصَقَا  
وَرَجَا بَأْنَ يُبْلَغِي إِذَا مَا قَتَشُوا فِي عَبْدٍ شَمْسٍ لِلْخَلَاةِ مَعْلَقَا  
فَرَأَاهُمْ مَتَخَلِّفِينَ عَنِ الْعَلَا لَا يَصْلَحُونَ لِأَنْ يَسُوسُوا جَرْدَقَا  
فَرَمَى إِلَى الْمُتَأَمُونَ أَمْرَ جَمِيعِهِمْ إِذْ لَمْ يَزَلْ حَدْبًا عَلَيْهَا مُشْفَقَا  
قَالُوا إِذَا ضَعُفَتْ قُرَيْشٌ أَخْرَتُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ ذَاكَ مُصَدَّقَا  
وَأَتَى عَنِ الْعَارُوقِ أَكْرَمِ أَسُوفٍ خَبَرَ غَدَا لِلْخَافِقِينَ مُطَبَّقَا  
لَوْ أَنَّ فِيكُمْ سَالِمًا قَدَمْتَهُ لِيَلِي الْأُمُورَ مَغْرِبًا وَمَشْرِقَا

وهذا الذي جلبنا : بعضٌ من كلٍّ وقليلٌ من كثيرٍ . ولو أننا رأينا  
أخبار العامرية غير مستقلة ، لذهبنا في الاختصار أقرب من هذا  
المذهب .

وتحرك إلى الغزو شاتية ٣٩٩ التي اجتمعت أمره . وكان فتاه الأكبر  
نصح له في ترك الغزو ، وخوفه من اضطراب الناس ، وأبلغه عن بعض  
الروائيين نصيحة في محاولة رجلٍ منهم القيام عليه ، واستجابة خلتق من  
الجند إليه ، فأعرض عما ذكر ، واستهان به ، وقال : « والله ، لو اجتمع  
بنو مروان إلى مرقدي ، وأنا نائم ، ما أيقظوني ! » وهذه سبيل القرون  
التي سلك عليها معظم أهل الدُّول ، إلا القليل من الحزمة كالمصور ؛ فإن  
الحازم من لا يأمن الدهر ؛ فإنه جَمُّ العجائب ، ولا يبطل طبيعة المُسَكِّن ؛  
فإنَّ القريب في الدنيا بعيدٌ والبعيد قريبٌ ؛ والحازم مَنْ يَزِنُ كَلًّا  
بميزانه ، ويعده له عدته ، ويعطيه حظًا من فكره وكفلاً من احتياطه ؛  
فإن اتسقى حال السلامة ، لم يضرَّ حازمًا حزمه ولا محتاطًا احتياطه ، ولو  
لم يكن في ذلك صلاحٌ ، إلا أنه سَجَا للعدو ، وكمدٌ للمكاييد في أن يبصره  
بعيداً عن الغفلة ؛ فيتنبأ رأيه ، ويترك مهاجمته ، ويفتتم السلامة معه والنجاة

منه وضبط القطر بأولي غناه من رجاله وذوي كفاية من بطانته .

ونفذ بسبيله في وقتٍ لم يسمع بأشد منه قوة بردٍ وكلب مطرٍ .  
واقترح جليقية من تغر طليطلة على سبيل مُكررة من اللهو والبطالة .  
وكان يوعز إلى صاحب شرطته في المحلة أن يُنادي في الناس : « يأمرُكم  
أمير المؤمنين بكذا وكذا . » فيفعل ، ويقول له إذا عاد : « كيف رأيت  
الناس ؟ هل أنكر أحدٌ منهم شيئاً ؟ » فيقول : « لا ! » فيقول : « عاود  
ذلك مراراً كثيرة ! » إلى أن وصل طليطلة . وبها اتصل به أن محمد بن  
هشام بن عبد الجبار قام بقرطبة ، واستولى على القصر ، وفتح مدينة  
الزاهرة ، وأخذ أموالها ، ثم أحرقها وهدمها ؛ فهاله ذلك ؛ وضبط الجيش ،  
وأتى قلعة رباح ؛ فأقام بها حائراً بنفسه ، لا يدري ما يصنع إلا أن  
يَسْتَحْلِفَ الجُندَ عند المنبر . وكان قد صحبه في موكبهِ قومٌ كبير  
من زعماء النصارى ، المتوسلين إليه بقرني أمه من عُمومة الملك . فلما  
رأى اضطرابه ، عرض عليه رأي الخلاص من اللحاق والنجاة ، وبين له  
الأمور ؛ فقال له : « أنا على علمٍ من أيّ إذا ظهرت لأهل قرطبة ، لا يبقى  
أحدٌ على ابن عبد الجبار ! » فقال له الرومي : « أنا على علمٍ من أنك  
مغرور ! واهاً لك ! ولكن لا يُوسِعني الوفاء لك إلا الموت معك ، مع  
أنني قد أمكنتني خلاص نفسي ؛ فدونك وما شئت ! »

قال : ودعا أهل العسكر إلى مبايعته على حرب أهل قرطبة ونصر  
الخليفة المظلوم ؛ فلم يمتنع عليه أحدٌ ، وأقبلوا مجلفون له أياماً متوالية .  
وقال ابن يعلى الزناتي : دعاني وقال لي : « أصدقني عن نفسك وعن قومك !  
فلا رأي للمكذوب ! » فقلت : « نعم ! لا تغتر ! فليس يُقاتل عنك  
أحدٌ من زناتة ؛ والناس تبعٌ لهم ! » فشق عليه ذلك ، وقال : « ما الدليل  
على قولك ؟ » فقلت : « تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة ،  
وتظهر الرحيل ؛ فتعلم مَنْ يتبعك ومن يتخلف عنك ! » فقال :

« صدقت ! » ثم لم يفعل ، ورحل إلى قرطبة وقد زين له غدائه دخولها عنوة . وأخرج إليه ابن عبد الجبار حاجبه ابن كزى ، وقد فرّ عنه الناس . فقتل رحمه الله . وقتل معه ابن 'غومس' ، وذلك بمنزلة هانيء من أرميلاط ، أدنى محلاته إلى قرطبة ، يوم السبت لأربع خلكون من رجب من السنة .

\* \* \*

وانقضى أمرُ العامرية . وإلى دولتهم بلغت حدودُ التناهي في دول ملك الأندلس ، بحسب ضيق الحظّة وبُعد النجعة ، إذ الأمور لا تُقاس إلا بأشكالها ، ولا تناظر إلا بأمثالها . فذكر أبو مروان حيّان بن خلف رحمه الله . في كتابه الذي أنافَت على المائة أسفاره ، المسمى بـ « أخبار الدولة العامرية » ، المنسوخة بالفِتنة البربرية ، وما جرى فيها من الأحداث الشيعة » ، فقال : كتب إلي أبو التامم محمد بن مرشد ، أحد بقايا وجوه الكتّاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن ، مُعرِّفاً بأشياء سألتُه عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ ، أثبتّها نقلاً من كتابه ، وهي :

مبلغُ الجباية آخرَ أيام المنصور أربعة آلاف ألف دينار ، سوى رسوم الموارِيث بنرطبة وكور الأندلس كانت تجري على الأمانة ، وسوى مال السبي والمغانم على اتساعه في هذه المدة ، وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون . قال : وكانوا يعتدونها أربع بيوت : تؤخذ النققات السلطانية منها على المشاهدة بالزيادة والنقصان ، ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفاً ، إلى أن يدخل شهر يؤنيه العجمي : فيتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة ؛ فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها . وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه السلطان في بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفادته .

قال : وكتب أبو محمد عبد الله بن مروان ، آخر حُدّاق كتّاب الحاسبة اليوم ، وممن لحق طرفاً من تلك الدولة أن محمد بن أبي عامر أحب الوقوف على حاصل الأطنعية في الأهرار عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة ٣٧٤ ؛ فارتفعت جملته إلى مائتي ألف مُدني ونيّف عليها . قال : فلهذه العجبُ بذلك حتى قال : « أنا أكثرُ طعاماً من يوسف صاحب الخرائ ! » فلم يُطِله بغي كليمته إذ برأها من الاعتصام من ربّه تعالى ، واعتورته السّنون الشّداد المتوالية من سنة ٣٧٨ ؛ فانتسفت أطنعته باتصال الإنفاق وعدم الغتلال ، حتى أشفى على المجاعة وهم بالجواز إلى العدوّة لحصّبها يومئذ ، حتى أغاث الله بلاد الأندلس ، وأخرج أرزاقها ؛ وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطنعية ، ولا يقتصر على ما يجنيه منها حتى يُخرج المال في شرائها في سني الحِصْب . فهلك وحاصلها منها جُملة غليظة .

وكتب إلي أبو عبد الله بن سعيد التّجاني بما أثبتّه ، فقال : كان عددُ جميع الأجناد العامريين ، من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار ، وجميعهم مُرتزقون في الديوان ، يُقام لهم بالحمّلات والحليّة والسلاح والمنازل والثّقفة والعلوفة على مراتب مختلفة إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة . قال : وانتهى تحصيل المنصور بن أبي عامر لجميع من ضمه عسكره في بعض حصواته الحافلة من الفرسان خاصة إلى ستّة وأربعين ألف فارس . فكان عددُ فرسان الحرس لحمل العدوّة وخدمة العساكر ستمائة فارس ، وعددُ الشرط والرؤاد المتصرفين في خدمة العساكر مائتي فارس ، وعددُ الطبّالين مائة وثلاثين فارس . وانتهى عددُ الرّجاله معهم إلى ستّة وعشرين ألف راجل .

قال : وأذكر أن المنصور بن أبي عامر ، لما اعتد للصائفة التي توفي في قفوله عنها سنة ٣٩٢ ، أنفذ الكتّاب إلى جميع الثغور بأن يلحق ببابه

جميع طَبَقَاتِ الْمُتَرَجِّلِينَ مِنْ فَرَسَانِ الْجُنْدِ بِسَائِرِ النَوَاحِي ، لِشُرْفِ  
عَنْ حَمَلِهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ فَعَمَّهُمْ جَمِيعاً بِالْإِرْكَابِ لِكثْرَةِ مَا تَكَامَلَ مِنَ الْحَيْلِ  
يَوْمَئِذٍ . وَقَادَ مَعَ نَفْسِهِ فِي الْعَسْكَرِ بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعُمِائَةِ رَأْسٍ مِنَ الْحَيْلِ  
أَعْرَاءَ عِدَّةٍ لَمَّا يَجِدُثُ فِي طَرِيقِهِ ؛ وَمَعَهُ خَمْسُونَ فَرَساً مِنَ الْعِتَاقِ لِرُكَابِهِ ،  
إِلَى قَرِيبٍ مِنْ عِدَّتِهَا تَخَلَّقَهَا بِقَرْطَبَةٍ . وَأَفْضَلَ مَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الْإِصْطِبَلَاتِ  
بِقَرْطَبَةٍ مِئْدَارِ أَلْفِ فَرَسٍ عِدْوِيَّةٍ كَانَتْ طَرِيقَةَ الْعُبُورِ ، اسْتَعْنَى عَنْهَا ،  
وَأَمَرَ بِالْقِيَامِ عَلَيْهَا .

قال : وواصل الابتِغَاءَ عَلَى ذَلِكَ فِي طَرِيقِهِ كُلَّهُ مِنَ الْوُفُودِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنْ  
وَرَدَ مَدِينَةَ سَالِمٍ ، وَقَوْدُهُ مِنَ الْأَعْرَاءِ نَحْوُ أَلْفِ فَرَسٍ . وَكَانَ لَهُ مِنَ الْمَطَايَا  
وَالْبَغَلَاتِ سِوَى مَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ رَأْساً ، مِنْهَا لِرُكَابِهِ نَحْوُ  
خَمْسِينَ . وَكَانَ لَهُ مِنَ الْبِغَالِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِي الْأَسْفَارِ نَحْوُ أَلْفِ رَأْسٍ سِوَى  
الزَّوَامِلِ الْحَادِمَةِ لِلْحَيْلِ وَمَطَايَا الْوُكَلَاءِ . وَكَانَ لَهُ مِنَ الْجِمَالِ الْمُتَصَرِّفَةِ  
فِي حَمْلِ الْأَثْقَالِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، إِلَّا مِائَةَ بِمَسَارِحِ كُورَةِ تَدْمِيرٍ . وَكَانَ لَهُ  
مِنَ الرِّمَاقِ الْمُسْتَنْتَجَةِ بِحِزَائِرِ إِسْثِيلِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمَدَائِنِ عَلَى أَجْناسِهَا  
ثَلَاثَةُ آلَافِ فَرَسٍ ، يَعْدُهَا مِنْ فُحُولِ الْحَيْلِ لِلضَّرَابِ أَوْ أَنْ اسْتَنْتَاجَ مِائَةَ  
رَأْسٍ تُعَزَّلُ عِنْدَ الْعُلُوقِ .

قال : وَكَانَتْ حُمُولَةُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ لِعِزَاتِهِ الصَّائِفَةِ الْحَافِلَةِ مَا بَيْنَ أَثْقَالِهِ  
وَأَثْقَالِ غِلْمَانِهِ خَاصَّةً تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِي رَأْسٍ فِي أَعْمِ السِّنِينَ ، إِلَى مِائَةِ رَأْسٍ  
كَانَتْ مَعَهُ تَحْمِلُ أَرْحَاءَ الطَّحْنِ الْمَوْزَعَةَ بِجِهَاتِ عَسْكَرِهِ لَطَحْنِ الْأَرْوَادِ .  
وَرُبَّمَا قَصَرَ ظَهْرُهُ هَذَا عَنْ حُمُولَتِهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ؛ فَيَحْتَاجُ إِلَى  
الِاكْتِرَاءِ مِنَ النَّاسِ مِنْ بِلَدٍ إِلَى آخَرٍ . ثُمَّ قَالَ : وَمِنْ تَفْصِيلِ حُمُولَتِهِ  
( وَفَصَّلَ أَلْقَاباً مِنَ السُّرَادِقِ الْكَبِيرِ ، وَالْمَطْبُخِ ، وَآلَاتِ الْوُضُوءِ ، وَدَارِ  
الصَّنَاعَةِ ، وَأَغْلَالِ السَّجْنِ ، وَحَمْلِ الْمَالِ ، وَأَرْحُلِ النِّسَاءِ الْغَوَازِي ،  
وَأَخْبِيَةِ الْفَتِيَانِ ) . وَكَانَ مِنْ جَمَلَتِهَا مِائَةُ دَاخِلِ السُّرَادِقِ وَمِائَتَانِ إِلَّا

سِتَّةٌ تُحْمَلُ لِمَنْ لَا قَطِيعَةَ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ ، وَثَلَاثُمِائَةُ خِبَاءٍ تَحْمِلُ الرِّجَالَةُ ،  
وِثْلَاثُونَ خِبَاءً فَاضِلَةً لِلْأَضْيَافِ وَالْوَارِدِينَ . ثُمَّ ذَكَرَ عِدَدَ كَثِيراً لِلْغِطَاءِ  
وَالْوِطَاءِ عَلَى صُنُوفِهِ ، وَآلَاتِ الطَّبْخِ ، وَالسَّقَاتِينِ ، وَالْوُضُوءِ ، وَالْمَائِدَةِ ،  
وَتَوَابِيَتِ الْكِسِيِّ وَالْخِلْعِ ، وَآلَاتِ الْمُنْجَنِّيقِ ، وَتَوَابِيَتِ النَّبَالِ ،  
وَصِنَاعَاتِ الْعَسْكَرِ ، وَالزَّيْتِ ، وَالنَّفْطِ ، وَالْقِطْرَانِ ، وَالْمَشَاقَةِ وَمَا  
يُسْتَضَافُ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَحْمَالِ الدَّرُوعِ وَالْعُدَّةِ ، وَأَرْحُلِ الزَّمَالِينَ وَالْمَقْدَمِينَ .

ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا كُلُّهُ زَائِدٌ عَلَى مَا كَانَ يَقْدَمُ إِلَى الثَّغَرِ مِنَ الْعُدَّةِ عَلَى  
دَوَابِّ الْأَكْرِيَاءِ الْمُسْتَأْجِرَةِ لِحَمْلِ سِتِّمِائَةِ ثُرُسٍ عَامِرِيٍّ ، وَأَلْفِ ثُرُسٍ  
سُلْطَانِيٍّ ، وَأَلْفِي حَرْبَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ ، وَأَلْفِي وَضَمٍّ لِلرَّجَمِ ، وَأَرْبَعُمِائَةِ  
وَإِثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ خِبَاءً ، وَمِائَةَ وَسْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ خِبَاءً مِنَ الْأَخْبِيَةِ الْمَعْرُوفَةِ  
بِالْفُرُودِ ، وَخَمْسِينَ رُبْعاً مِنَ الزَّيْتِ ، وَسِتَّةَ تَجَانِيْقٍ مِنْ مَدِينَةِ سَالِمٍ ،  
وَمِائَتِي أَلْفِ سَهْمٍ ، وَخَمْسَةَ آلَافِ ثُرُسٍ سُلْطَانِيٍّ مِنْ مَدِينَةِ سَالِمٍ ، وَمِائَتِي  
زَوْجٍ مِنْ أَزْوَاجِ الْمَطَاحِينَ ، وَآلَاتِ الْحَدِيدِ . وَكَانَ يُدْفَعُ لِأَهْلِ الْحِمْلَانِ  
وَالنَّوَالِيِ فَرَسٌ وَمِطْيَةٌ وَسَرَجٌ وَلِجَامٌ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ نَفَقَةٌ شَهْرِيَّةٌ  
مِنَ الطَّعَامِ وَالْعُلُوفَةِ ؛ وَتُعَيَّنُ لَهُمُ الدُّورُ لِلسُّكْنَى .

وَكَانَ الرِّسْمُ أَنْ يُصْنَعَ مِنَ الْأَخْبِيَةِ عِدَّةٌ لِلْجُنْدِ كُلِّ عَامٍ عَلَى أَجْناسِهَا  
ثَلَاثَةُ آلَافِ خِبَاءٍ ، إِلَى مَا يُقِيمُهُ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ يَتِمَّوْنَ إِيَّاهُ مِنْ كِبَارِ  
خَدَمِهِ وَغِلْمَانِهِ . وَكَانَ يُصْنَعُ بَدَارِ التَّرَاسِينَ مِنْ أَصْنَافِ التَّرَاسِ كُلِّ سَنَةٍ ،  
حَسَبِ تَلَقُّيَتِهِ مِنْ بَحْبِيِ التَّرَاسِ ، أَحَدٍ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ مَشْيَخَةِ التَّرَاسِينَ فِي  
وَقْتِنَا ؛ فَقَالَ : كَانَ الطَّرِيجَةُ مِنَ التَّرَاسِ فِي السَّنَةِ ثَلَاثَةَ عَشْرِ أَلْفِ ثُرُسٍ ،  
وَطَرِيجَةُ الْقِسِيِّ فِي السَّنَةِ إِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَوْسٍ بِشَطْرَيْنِ عَرَبِيَّةٍ  
وَتُرْكِيَّةٍ : سِتَّةَ آلَافٍ مِنْ قِبَلِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْبَغْدَادِيِّ الْمُعَلِّمِ الْأَكْبَرِ  
بِقَرْطَبَةٍ ، وَمِثْلُهَا مِنْ قِبَلِ طَلْحَةَ الصَّقْلِيِّ بِالزَّهْرَاءِ . وَكَانَتْ طَرِيجَةُ النَّبْلِ  
فِي الشَّهْرِ عَشْرِينَ أَلْفاً .

قال التَّجاني : وكان بالزاهرة على ذلك كله من التراس الحَفْصُونِيَّة المَعْدَّة للتوزيع على رجالة قُرْطبة وغيرهم من المَحْشُودَةِ أَيَّامَ البُرُوزِ والزينة أربعون ألفاً . وكان فيها من أبدان الدروع المستعدة فيها لذلك سبعة آلاف درع ، ومن أجناس الدروع السَّوَابِغِ والغَلَّالِ السَّابِرِيَّةِ خمسة آلاف درع ، ومن الجَواشِينِ التَّنْصِيَّةِ والحُرَّاسَانِيَّةِ سبعمائة قِطْعة .

قال : وكان الجاري من اللحم على صَقَالِيَّةِ ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر وقِسْطُ المياومة سبعة وعشرين ألف رطل ؛ والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهن منه تسعة آلاف رطل ، سوى وظيفة مَطْبَخَةِ الخاصَّة المُقَامَةِ كُلِّ يَوْمٍ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا .

وزعم أن عدَّة الفُرْسَانِ من البرابرة الغرباء في ديوانه ثلاثة آلاف فارس ، يضاف إليها من رجالة الرِّقَاصَةِ السُّودَانِ الدَّاخِلِينَ فِي عِدَادِهِمْ أَلْفَا راجِلٍ تَتِمَّةُ خَمْسَةِ آلاف .

وذكر أحوال الطِّراز ، وما يصنع فيها ، ومقدار ما كان يَرْدُ على بابه من الرِّعَاصِ والحشْب . فرأينا أننا نطولُ بِجَلْبِ ذلك .

قال : وكان يُزْدَرَعُ لدوابِّ السلطان من شعير القَصِيلِ لِقْصِمِ خَيْلِ الحملان وغيرها مُفْتَتَحَ الزريعة من كلِّ شتوة بالأحقال السلطانيَّة في أَعَمِّ السَّنينِ خَمْسَمِائَةٍ مُدِّيٍّ من الشعير . وكان حاصلُ الابتِاعِ من الحَيْلِ في أَعَمِّ السَّنينِ ثمانية آلاف فَرَسٍ ، سوى ما يُبْتَاعُ من البِغالِ بأَرْضِ الأندلس .

قال : ولما عزم على غزو مُنْتَبِيُور ، احتاج إلى الاستكثار من البغال ، وأمر باستحضار ما يصلح منها ، وقعد لما يُقَادُ بين يديه منها ؛ فابتاع في سبعة أَيَّامٍ متوالية من شَوَّالٍ من هذه السنة ثلاثة آلاف رأس . وقال : شاهدتُ عند التقابُضِ في خِزَانَةِ السَّلَاحِ بين محمد بن إسماعيل المقرِيطي وعبد الله بن اللَّبَّادِ ؛ فأذْكَرُ أن المقرِيطي دخل فيها من العُدَّةِ على نحو خمسة عشر ألف جُنَّةٍ ، ما بين درعٍ سابِغَةٍ وجَوْشَنٍ وَبَدَنٍ خاصَّةٍ . وأما سائر الأسلحة

من الدرق والتراس والسيوف والرُّمَاحِ والبَيَضِ والطَّشْتَانِيَّاتِ والسُّوقِ والسَّوَاعِدِ والدَّبَابِيْسِ والطَّبْرَزِيَّاتِ وغير ذلك ، فَقَاتَ إحصائي كثرةً ، إلى ما شارفته في خزائن الحلية من أجناس المراكِبِ المُقَضَّةِ والمَذْهَبَةِ والحِزْمِ والمناطقِ والسُّروجِ واللَّجَمِ المختلفة الصِّقَاتِ ، وغير ذلك مما يحير اللبُّ اتِّسَاعاً وكثرةً ؛ كلُّ هذا أحاطَ به النَّهْبُ يَوْمَ قِيَامِ ابن عبد الجبار خطفةً في ساعةٍ ، لم يحصل منه على شركة ؛ فأعظم بها نكبة .

وبلَّغَتِ المدينةُ من الاتِّسَاعِ والانبساطِ وَبُعْدِ الأقطارِ إلى أن كانت أرباضها إحدى وعشرين رِبْضاً : كلُّ رِبْضٍ منها يُعَدُّ أكبر مدينةٍ من مدائن الأندلس ؛ بالجِهةِ العَرَبِيَّةِ منها تسعة : رِبْضُ الرِّقَاقِينَ ، رِبْضُ مَسْجِدِ الكَهْفِ ، رِبْضُ حَوَانِيتِ الرِّيحَانِي ، رِبْضُ مَسْجِدِ الشِّقَاءِ ، رِبْضُ مَسْجِدِ مَسْرُورٍ ، رِبْضُ بِلَاطِ مُغِيثٍ ، رِبْضُ حَمَامِ الإلِّيَّيرِي ، رِبْضُ السَّجْنِ القَدِيمِ ، رِبْضُ الرُّوضِ المُحَدَّثِ ؛ وبالجِهةِ الجُوفِيَّةِ ثلاثة : رِبْضُ الرُّصَافَةِ ، رِبْضُ بابِ اليَهُودِ ، رِبْضُ قُوتِ رَأْسِهِ المنسوبِ إلى أُمِّ سَلَمَةَ ؛ وبالجِهةِ القِبْلِيَّةِ إثنان : رِبْضُ سَقُنْدَةِ وَرِبْضُ مِثْنَةِ المَغِيرَةِ ؛ وبالجِهةِ الشَّرْقِيَّةِ رِبْضُ مِثْنَةِ عبد الله ، رِبْضُ فَرْنِ يَرْيَلٍ ، رِبْضُ فَحْصِ النَاعُورَةِ ، رِبْضُ المدينةِ ، القَصْبَةِ العَتِيقَةِ واسِطَةُ البلدة . وكان ينقسم على رِبْضَيْنِ الجامِعِ ، وما حَوْلَهُ رِبْضٌ واحدٌ يتولاهُ عَرِيفُهُ وَمَحَارِبُهُ على حِدَةٍ . وَرِبْضٌ آخَرُ بذاته ينفرد به أيضاً عَرِيفُهُ . وكان دَرْعُ مَسَافَةِ الحَنْدَقِ المضروبِ على قرطبة أَيَّامَ قتالِ البرابرة من جهاتها الثلاث ، إذ أغنى الشَّهْرُ الأعْظَمُ عن مدِّ الحفِيرِ عليها من الجهة القِبْلِيَّةِ ، سبعةً وأربعين ألف ذراعٍ وخمسمائة ذراعٍ ، يجب لها ستة عشر ميلاً غير سُدُسِ مِيلٍ .

قال : وهلك المنصورُ عن سبعة خُلَفَاءَ مِنْ فِتْيَانِهِ الأكابر . وكان شأنهم في مُلْكِ الأمويَّةِ كبيراً ؛ وهو يسوءُ بِثِقَلِ كُلْفَتِهِمِ البَاهِظَةِ . فلما تولى

ولده عبد الملك بعده الأمر ، بلغ بهم ستة وعشرين خليفة ؛ فضاعف مؤنتهم أضعافاً كثيرة . وكان من مشاهيرهم : واضح ؛ بشير ؛ نظيف ؛ نجاء ؛ شعله ؛ مظفر ؛ مجاهد ؛ زهير ؛ خيران ؛ نصر ؛ نصير ؛ طرفة ؛ شفيع ؛ يمن ؛ واثق ؛ بشير ؛ واضح ؛ بشري ؛ الزاب ؛ بليق ؛ كوثر ؛ خلف ؛ جعفر ؛ خلف آخر . انتهى كلام التجاني . قلت : خيران ومجاهد ملكان قد طارت بهم الأخبار ، ونُسبت لهم المآثر والآثار .

ومن خط الميزاني الكاتب في تاريخه قال : أحب المنصور أن يتعرف مقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الخطب في اليوم الواحد من أيام دروره للاحتكار ؛ فوكل بإحصاء ذلك عدة من ثقاته ؛ فعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها ، وكتب كل واحد منهم ما أحصاه ، ورفعوا جميعه ؛ فانتهى إلى ستة آلاف حمل وستمائة حمل على اختلافها . وذكر أن الخليفة الحكم وكل من أحصى له ما يباع بقرطبة من السمك المملوح المسمى بالسردين خاصة ، المجلوب من الساحل ؛ فانتهى البيع فيه في يوم واحد إلى عشرين ألف دينار دراهم .

هذه نبذة من أحوال تلك المدينة التي كان أهلها تحت بيعة صبي لم يبلغ الحلم بعمره ، ولا باشر شيئاً من أمره ، ولينظر نائب عنه بحمي حماه ، ويدافع عداه ، ويصون حرمة ، ويهتبه فضل الله قبله ونعمته ، ويخلد آثاره ، ويوفي إجلاله وإيثاره ، ويعطي وظائف الدين حقها ، ويوضح من شعائر الشرائع طرفها . وقد تقرر ما انتهى إليه أمرها من بعده ، وكيف ذهبت سعادتها بذهاب سعيه ، وأنجز لها الدهر كالي وعده ؛ فحالت أحوالها ، وتغير جمالها ، وشقت عن العورات أسماؤها ، وصارت معتبراً لذوي الاعتبار ، ومنذراً لناظمي الأشعار . فما ينسب في ذلك إلى الوزير أبي عامر بن شهيد من كبارها ، وأبناء وزرائها :

[ الكامل ]

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخير لا تسألن سوى الفراق فإنه ينيك عنهم أنجدوا أم أغوروا جار الزمان عليهم ففترقوا جرت الخطوب على محل ديارهم فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم فليشمل قرطبة يقل بكاء من دار - أقال الله عثرة أهلها - في كل ناحية فريق منهم عهدي بها والشم فيها جامع ورياح زهرتها تلوح عليهم والدار قد ضرب الكمال رواقه والقوم قد أمنوا تغير حسنها يا طيبهم بقصورها وخدورها والقصر قصر بني أمية وافر والزاهريّة بالراكب تزهّر والجامع الأعلى يغص بكل من ومالك الأسواق تشهد أنها يا جنة عصفت بها وبأهلها آسى عليك من المات وحق لي كانت عراصك للميمم مكة يا منزلاً تزلت به وبأهله

فمن الذي عن حالها نستخير ينيك عنهم أنجدوا أم أغوروا في كل ناحية وباء الأكثر وعليهم فتغيرت وتغيروا ثوراً تكاد له القلوب تنور يبي بعين دمعها متفجر فتبربروا وتغربوا وتمصروا متفطر لفرأقها متحير من أهلها والعيش فيها أخضر بروائح يفتّر منها العنبر فيها وباع النقص فيها يقصر فتعموا بجمالها وتآزرروا وبدورها بقصورها تتخذ والقصر قصر بني أمية وافر والزاهريّة بالراكب تزهّر والجامع الأعلى يغص بكل من ومالك الأسواق تشهد أنها يا جنة عصفت بها وبأهلها آسى عليك من المات وحق لي كانت عراصك للميمم مكة يا منزلاً تزلت به وبأهله



جَادَ الْفُرَاتُ بِسَاحَتَيْكَ وَدِجْلُهُ وَالنَّيْلُ جَادَ بِهَا وَجَادَ الْكَوْثَرُ  
وَسَقَيْتَ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ غَمَامَةً نَحْيَا بِهَا مِنْكَ الرِّيَاضُ وَتَزْهَرُ  
أَسْفَى عَلَى دَارِ عَهْدَتِ رُبُوعَهَا وَظَبَاؤُهَا بِفَنَائِهَا تَنْبَخْتَرُ  
أَيَّامُ كَانَتْ عَيْنُ كُلِّ كَرَامَةٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ إِلَيْهَا تَنْظُرُ  
أَيَّامُ كَانِ الْأَمْرُ فِيهَا وَاحِدًا لِأَمِيرِهَا وَأَمِيرٍ مِنْ يَتَأَمَّرُ  
أَيَّامُ كَانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلَامَةٍ تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ وَتَبْدُرُ  
حَزْنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَرَوَاتِهَا وَثِقَاتِهَا وَحُمَاتِهَا يَتَكَرَّرُ  
نَفْسِي عَلَى آلَائِهَا وَصَفَائِهَا وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا تَتَحَسَّرُ  
كَبْدِي عَلَى عِلْمَائِهَا حُلَمَائِهَا أَذْبَائِهَا طُرَفَائِهَا تَتَفَطَّرُ

قال : وممن رثى قرطبة أيضاً ، من وجوه أهلها وأرباب النعم  
المؤثلة بها ، وأكثر التفجع على دياره منها ، لما استولى الخراب عليها  
عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد  
ابن حزم ، ابن وزير آل عامر الأكبر . فإني وجدت بخطه في خبر  
ذكره قال :

وقفت على أطلال منازلنا ، بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ،  
ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة . فرأيتها قد تحت  
رُسومها ، وطست أعلامها ، وخفيت معاهدتها ، وغيّر لها البلى ؛ فصارت  
صحاري مجذبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وآكاماً  
مشوّهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن ، ومآوي للذباب ،  
وملاعب للجان ، ومعاني للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخاي  
للصوص ، بعد طول غيبتها برجال كالسيوف ، وفُرسان كالليوث ،

١ راجع « طوق الحمامة » لابن حزم ( من ٨٨ من طبعة ليون ) ، ومقالتنا في مجلة  
« الأندلس » ( ١٩٥٠ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ ) .

تَفِيضُ لَدَيْهِمُ النِّعَمُ الْفَاشِيَّةُ ، وَتَغْصُ مِنْهُمْ بِكَثْرَةِ الْقَطِينِ الْحَاشِيَّةُ ،  
وَتُكْتَسُ فِي مَقَاصِيرِهِمْ ظِبَاءُ الْأَنْسِ الْفَاتِنَةِ تَحْتَ زِبْرِجٍ مِنْ غَضَارَةِ الدُّنْيَا  
تُذَكِّرُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ ؛ حَالَ الدَّهْرِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ طُولِ النُّزَةِ ؛ فَبَدَأَ  
شَمْلَهُمْ حَتَّى سَارُوا فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَا ، تَنْطِقُ عَنْهُمْ الْمَوْعِظَةُ . فَكَأَنَّ  
تِلْكَ الْمُحَارِيبَ الْمُنْبَقَّةَ ، وَالْمَقَاصِيرَ الْمُرَشَّقَةَ ، الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الدِّيارِ  
كَبْرُوقِ السَّمَاءِ إِشْرَاقًا وَبَهْجَةً ، يَقْبِدُ حُسْنُهَا الْأَبْصَارُ ، وَيَجْلِي مَنَظَرُهَا  
الْهُمُومُ ، كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ ، وَلَا حَلَّتْهَا سَادَةُ الْأَنْسِ : قَدْ عَثَ بِهَا  
الْخَرَابُ ، وَعَمَّهَا الْهَدْمُ ؛ فَأَصْبَحَتْ أَوْحَشَ مِنْ أَفْوَاهِ السَّبَاعِ فَاعِرَةٍ ،  
تَوْذَنُ بِنَاءِ الدُّنْيَا ، وَتُرِيكَ عَوَاقِبَ أَهْلِهَا ، وَتُخْبِرُكَ عَمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ  
كُلُّ مَا قَدْ بَقِيَ مَائِلًا فِيهَا ، وَتُزْهِدُكَ فِيهَا . وَكَرَّرْتَ النَّظَرَ ، وَرَدَّدْتَ  
الْبَصَرَ ، وَكُدْتُ أَسْطَارَ حُزْنًا عَلَيْهَا ، وَتَذَكَّرْتُ أَيَّامَ نَشَأْتِي فِيهَا ،  
وَصَبَابَةَ لِدَائِي بِهَا ؛ مَعَ كَوَاعِبِ غَيْدٍ ، إِلَى مِثْلِهِنَّ يَصْنُو الْحَلِيمُ !  
وَمِثْلَتْ لِنَفْسِي انْطِوَاءَهُنَّ بِالْفَنَاءِ ، وَكَوْنُهُنَّ تَحْتَ الثَّرَى إِثْرَ تَقْطُّعِ  
جَمْعِنَا بِالتَّفَرُّقِ وَالْجَلَاءِ فِي الْآفَاقِ النَّائِيَةِ ، وَالتَّوَاحِيِ الْبَعِيدَةِ ؛ وَصَدَّقْتُ  
نَفْسِي عَنْ فَنَاءِ تِلْكَ الْقَصَبَةِ ، وَانْصَدَاعِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ بَعْدَ مَا عَهْدْتُهُ مِنْ  
حُسْنِهَا وَنَضَارَتِهَا وَزِبْرِجِهَا وَغَضَارَتِهَا ، وَنَضْوَتِهِ بِفِرَاقِهَا مِنَ الْحَالِ الْحَسَنَةِ ،  
وَالْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ ، الَّتِي رَفَلْتُ فِي حُلِيِّهَا نَاشِئًا فِيهَا ، وَأَرْغَيْتُ سَمْعِي  
صَوْتَ الْوَدَى ، وَالْبُيُومِ زَاقِيًا بِهَا ، بَعْدَ حَرَكَاتِ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ الْمُنْصَدِعَةِ  
بِعِرْصَانِهَا ، الَّتِي كَانَ لَيْلُهَا تَبْعًا لِنَهَارِهَا ، فِي انْتِشَارِهَا بِسُكَّانِهَا ، وَالتَّقَاءِ  
عُمَّارِهَا ؛ فَعَادَ نَهَارُهَا تَبْعًا لِلَّيْلِ فِي الْهَدْوِ وَالِاسْتِيحَاشِ ، وَالْخُفُوتِ  
وَالْإِخْفَاشِ . فَأَبْكِي ذَلِكَ عَيْنِي عَلَى جُمُودِهَا ، وَقَرَعَ كَبْدِي عَلَى صِلَابَتِهَا ؛  
وَهَاجَ بِلَابِي عَلَى تَكَثُّرِهَا ، وَحَرَّكْتُ لِلْقَوْلِ عَلَى نُبُوِّ طَبْعِي ؛ فَقُلْتُ :

[ الطويل ]

سلامٌ على دارِ رَحَلْنَا وَغَوْدِرَتْ خَلَاءَ مِنَ الْأَهْلِينَ مَوْحِشَةً قَفَرًا

## دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

وكنيته : أبو أيوب ؛ ولقبه المهدي ، وكان عبد الملك بن المنصور قد وثر محمداً هذا بقتل أبيه هشام بن عبد الجبار لاتهامه بالتدبير على دولته ؛ فكان يطلب له العوائل . فلما توفي المظفر ، وكان من قدر الله أن اتهمت أمه الذلفاء ، حظية المنصور ، بالتدبير عليها وقتله بالسم أخاه عبد الرحمن المتأثر بعده ؛ فداخلت المروانيين في الوثوب عليه بوساطة بشر الصقلي من الفتيان العامرية المنحرفين عن مولاه عبد الرحمن ؛ فأرشدوه المروانيون إلى فاتك من فتاك بينهم في ذلك الوقت ، جرار جصور ، ثائر ، مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أي واد يهلك ، وهو المهدي هذا . ففتح معه باب التدبير ، ووعده عن الذلفاء الإعانة بالمال . واستظهر بسائر ولد الناصر وفتيان المروانية ، وقد شملتهم كلمة بعض العامرية ؛ فبايعوا محمداً سراً ، واستألو له خلقاً كثيراً ، يلقونه بأطراف قرطبة وسفج جبلها ، على حال اكتتام وخفية . وخفي عن شيعه السلطان أكثر ذلك . فلما ذهب عبد الرحمن لوجهته من الغزو ، وأبعد عن الحضرة ، تمكن محمد بن عبد الجبار من وثوبه ؛ فأقدم على باب السلطان في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، واهتبل الفرقة لاستعمال صاحب كرسي المدينة القاعد به يومئذ أكثر حرسه في احتفار كرومه أمناً وطمانينةً واغتراراً بالأيام . وقد كان ابن عبد الجبار بث رجاله بتلك النواحي ، وانتبه هو في عدوة النهر قبالة القصر يرتقب الميقات ، إلى أن تألف إليه من أصحابه اثنا عشر

تراها كأن لم تغن بالأمس بلقماً  
فيا دار لم يفرك منّا اختيارنا  
ولكن أقداراً من الله أنفذت  
ويا خير دار قد تركت حميدة  
ويا مجتلى تلك البساتين حفيها  
ويا دهر بلغ ساكنيها تحييتي  
فصبراً لسطور الدهر فيهم وحكمه  
لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى  
وأبتها الدار الحبيبة لا يرم  
كأنك لم يسكنك غيد أوانس  
تفانوا وبادوا واسترّت نواهم  
سنصبر بعد اليسر للعسر طاعة  
وإني ولو عادت وعدنا لعهدنا  
ويا دهرنا فيها متى أنت عائد  
فيا رب يوم في ذراها وليلة  
فوا جئني المضى وواقلي المعرى  
ويا هم ما أعدى وباشجو ما أبرا  
ويا دهر لا تبعد وباعهد لا تحل  
سأندب ذاك العهد ما قامت الحضرا

فَتَى ، فِيهِمْ طَرَسُوسُ الْمَجُوسِي ، وَهُوَ أَشْهَمُ الْقَوْمِ ، عَامِلِينَ عَلَى الْكُرُورِ  
إِلَى الْبَابِ وَظَاهِرُ الْأَمْرِ ؛ فَانْكَفَى إِلَى هُنَاكَ ، وَقَدْ بَثَّ الْعَصَابَةَ أَمَامَهُ ؛  
فَتَنَكَّبُوا الْبَابَ كَأَنَّهُمْ نَظَارَةٌ ، إِلَى أَنْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ ابْنُ عَبْدِ الْجُبَّارِ . فَشَرِ  
سَيْفَهُ ، وَهَجَمَ لِلْحَيْنِ عَلَى صَاحِبِ الْمَدِينَةِ ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْهِ مَجْلِسَهُ . فَجِيءَ بِهِ إِلَى  
مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامٍ مُخْتَبِلاً لِقَرُطِ جِزْعِهِ ؛ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَفَعَ  
رَأْسَهُ عَلَى قَنَاقَةٍ . وَحِينَ أَبْصَرَتِ الْعَامَّةُ رَأْسَ الْمَذْكُورِ ، تَدَاعَتْ إِلَى ابْنِ عَبْدِ  
الْجُبَّارِ كَالسِّيُولِ مِنَ السَّفِيلَةِ وَالْعَوَاغِ ؛ فَقَوِيَتْ بِهِمْ نَفْسُهُ ، وَجَعَلَ يُحَرِّكُهُمْ  
عَلَى الْعَامِرِيَّةِ ، وَيُخَاطِبُهُمْ بِوَجْهِ قِيَامِهِ وَاحْتِسَابِهِ . وَبَادَرَ بِكَسْرِ سِجْنِ  
الْعَامِرِيَّةِ ، وَفِيهِ اللَّصُوصُ وَالذُّعَارُ وَأَرْبَابُ الْجَرَائِمِ . وَتَلَا حَقَّ بِهِ بَنُو عَمِّهِ  
الْمُرَوَّاثُونَ ، يَسْتَدْعُونَ النَّاسَ .

وَأَغْلَقَ هِشَامُ الْمُؤَيَّدَ بَابَ الْقَصْرِ ، وَارْتَقَى إِلَى السُّطْحِ ، وَأَشْرَفَ عَلَى  
الْعَامَّةِ بَيْنَ مُصْحَفَيْنِ ، يَحْمِلُهُمَا خَادِمَانِ ؛ وَأَشَارَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ مِنَ الْعَامَّةِ ،  
يُسْكِنُهُمْ بِيَدِهِ ؛ فَصَاحُوا بِهِ : « لَا حَاجَةَ لَنَا بِكَ ! وَهَذَا أَوْلَى بِالْمُلْكِ ! »  
فَوَلَّى عَنْهُمْ مُنْصَرِفًا إِلَى قَصْرِهِ . وَأَمَرَ الْحَدَّامَ بِالْكَفِّ عَنْ دِفَاعِهِمْ حَتَّى يَقْضِيَ  
اللَّهُ قَضَاءَهُ ، وَدَخَلَ حِجْرَابَهُ ؛ فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُ إِلَى أَنْ تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَأَمَرَ  
مُحَمَّدُ بْنُ قُتَيْبٍ الْقَصْرَ وَالْدُقَّ لِأَبْوَابِهِ ؛ فَشُرِعَ فِي ذَلِكَ ، وَجُلِبَتِ السَّلَالِيمُ .  
وَخَافَ هِشَامُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ لِمَا رَأَى عَجَزَ مَنْ بِالزَّاهِرَةِ عَنْ نَصْرِهِ ،  
وَتَمَالَؤَ النَّاسِ عَلَيْهِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبْدِ الْجُبَّارِ ؛ وَجَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هِشَامٍ  
مُحَاوَرَةٌ فِي عَشِيِّ هَذَا الْيَوْمِ . وَقَصَدَتِ الزَّاهِرَةَ أُمَمٌ مِنْ أَخْلَاطِ النَّاسِ ؛  
فَمَانَعَهُمْ أَهْلُهَا لَيْلَتَهُمْ ؛ ثُمَّ خَذَلَهُمُ اللَّهُ . بَعْدَهَا . وَأَنْزَلَ ابْنُ عَبْدِ الْجُبَّارِ  
النَّاسَ مِنْ سَقْفِ الْقَصْرِ ، وَذَادَهُمْ عَنْ أَنْقَابِهِ ، وَأَجْلَسَ بِكُرْمِيِّ الشَّرْطَةِ مُحَمَّدُ  
ابْنُ الْمُغْيِرَةِ ابْنَ عَمِّهِ ، وَنَصَبَ عَبْدَ الْجُبَّارِ ابْنَ عَمِّهِ الْآخَرَ مَكَانَ الْحَاجِبِ ،  
وَاسْتَدْنَى سُلَيْمَانَ بْنَ هِشَامٍ مِنْهُمْ ؛ فَسَمَّاهُ وَلِيَّ الْعَهْدِ ، وَبَعَثَ لِيَلْتَذِيَ إِلَى هِشَامٍ  
مَغْلُوبِهِ مَبْكِتًا لَهُ عَلَى حُبِّهِ إِلَى آلِ عَامِرٍ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى خَلْعِ نَفْسِهِ ؛

فَاعْتَذَرَ بِالْعَجْزِ عَنِ الْإِرَاحَةِ مِنْهُمْ ، وَبَادَرَ إِلَى مَا سُئِلَ مِنْهُ مِنَ الْخَلْعِ .  
فَسُرَّ ابْنُ عَبْدِ الْجُبَّارِ بِذَلِكَ ، وَبَادَرَ بِالْإِرْسَالِ عَنِ النَّاسِ لَيْلَتَهُ ، لَمْ يَطْبِقْ  
جَعْفًا . فَسَارَعَ الْمَشِيخَةُ وَأَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ قُرَيشٍ وَالْأَعْمَامُ وَالْوُزَرَاءُ  
وَطَبِيقَاتُ الْحُدَّامِ وَالْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْعُدُولُ ؛ وَقَدْ بَادَرَ إِلَيْهِ هِشَامُ بِخَلْعِ  
فَانْخِرَةٍ ، غَيْرَ بِهَا لِلْوَقْتِ مِنْ أَحْوَالِهِ . وَدَخَلَ عَلَيْهِ الْأَشْهَادُ ؛ فَصَحَّتِ الْخِلَافَةُ  
لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجُبَّارِ فِي صَبْحِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ ، لَقَبَ لَمْ يَلْبَسْهُ  
مُرَوَّاثِي قَبْلَهُ .

وَكَانَ الْمَهْدِيُّ جَسُورًا ، مُضْطَرِبَ الرَّأْيِ ؛ وَيُقَالُ إِنَّ عِدَّةَ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ  
سَفِيلَةِ قُرْطَبَةٍ ، فَأَثْنَبَتْ أَسْمَاءَهُمْ فِي الْعَطَاءِ ، خَمْسُونَ أَلْفًا . وَانْتَهَبَ الزَّاهِرَةَ ؛  
فَتَقَسَّمتِ الْأَيْدِي كُلُّ مَا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ مَخْزُونٍ وَآلَةٍ وَمَتَاعٍ  
وَعُدَدٍ سُلْطَانِيَّةٍ ، وَفَرَشٍ ، وَآنِيَةٍ ، حَتَّى اقْتُلِعَتِ الْأَبْوَابُ الْوُثِيْقَةُ وَالْحَشْبُ  
الضَّخْمَةُ ؛ وَتَوَصَّلَ مِنْهَا الْقَائِمُ - زَعَمُوا - بَعْدَ ذَلِكَ لِحُمْسَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ  
أَلْفٍ دِينَارٍ دَرَاهِمٍ ، وَمِنْ الذَّهَبِ لَأَلْفٍ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ .  
وَاسْتَخْرَجَ مِنْ بَعْضِ الدَّفَائِنِ مِائَتِي أَلْفٍ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا مَعَ الْاضْطِرَابِ  
وَالْفِتْنَةِ . وَأَطْلَقَ مِنْ حَرَمِ آلِ عَامِرٍ الْحَرَارَ ، وَاصْطَفَيْتِ الْأُمَاءُ . وَلَمَّا  
فَرِغَ مِنْ تَحْوِيلِ مَا كَانَ بِالزَّاهِرَةِ أَمَرَ بِهَدْمِهَا ، وَحَطَّ أَسْوَارَهَا ، وَقَلَعَ  
أَبْوَابَهَا ، وَتَشَعَّثَ قُصُورُهَا ، وَطَمَسَ آثَارَهَا ، وَتَعَجَّلَ ذَلِكَ ، تَوَقُّعًا  
لِتَدَارِكِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَامِرٍ وَمَنْ أَدْبَاهُ مِنَ الْجِيُوشِ أَمْرَهُ . وَسَوَّغَ  
النَّاسَ لِنَاقِضَتِهَا ؛ فَبَلَّغُوا مَنْ تَدْمِيرُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْجَلِيلَةِ مَا لَا يَبْلُغُهُ الدَّهْوَرُ  
الْمَتَعَابِقَةُ ؛ فَأَصْبَحَتْ بَلَقْعًا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ .

وَذَكَرُوا أَنَّ الْمَنْصُورَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ بَانِيَهَا كَانَ يَرَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ اللَّهَ  
اطَّلَعَ عَلَيْهَا وَتَجَلَّى لَهَا ؛ فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ ابْنَ الْهَمْدَانِي ؛ فَأَخْبَرَهُ بِحَرَائِجِهَا ،  
وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : « فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا » . فَكَانَ

المنصور متى تذكر هذه الرؤيا تنغص عبثه . وكان ما تقدم به التعريف من اغترار عبد الرحمن بن المنصور ، وإقدامه بالجيش على قرطبة ، وفرار الناس عنه إلى ابن عبد الجبار وقتله .

وسر أهل قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً ، وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرحبات والأرباض ، غافلين عما خبا القدر لهم في ذلك من المكروه الذي أباد خضراءهم ، وفرق جموعهم ، وأجاع بطونهم ، وسلب أموالهم ، وهدم دورهم ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ، سئة الله في الرعايا إذا بطرت ، وملئت العافية ، ودانت مجب الإذالة والقلق بالملوك والشرة إلى الثورات .

والتف الجيش الغازي مع عبد الرحمن بن أبي عامر على صاحب الأمر ، ودانوا بطاعته ؛ فكان من أسباب إدباره قعود من وكّل بأبوابه من السفلة ومُحدّثي الاستعمال والاستخدام من أرادل العامة المتجنّدة بكل من يجيب برّه وتسويده من وجوه الناس وأعلام الجلة وشيوخ البرابرة ؛ فكانوا يطالبونهم بإلقاء السلاح ، ويبادرونهم بالنجّة ويسمعونهم الحنّى ، من غير تمييز بين أعلامهم وأدنامهم ، حتى انبعثوا منهم حقداء ، وأثاروا على إسلام ابن أبي عامر ندامة . وهاجّت طائفة ؛ فتعدّت على دور البرابرة بالرّصافة ؛ فنهبتّها ؛ ففسدت طاعته ، وانخرفت النفوس عنه .

فلما استوسق له الأمر ، وكتب إليه واضح العامري صاحب طليطلة بالطاعة ، وتم مراده من انتظام الملك ، أخرج المؤيد هشاماً من قصره ، وأسكنه ببعض دور الملك ، وأحضر للناس رجلاً ميثاً شبيهاً به ، قيل إنه كان يهودياً أو نصرانياً ؛ فعايته الوزراء ، وشهدوا بأنّه هشام المؤيد من غير شك فيه . وقام بحق مواراته يوم الإثنين لثلاث بقين من شعبان هذه السنة ، ثم أسقط سبعة آلاف بمن كان قد استلحقه من جنوده ، فاستهدف لانحرافهم وعداوتهم ، وأعلن ببعض البرابرة

وتنقضهم ، جهلاً بحلّهم من البأس والعصية ؛ فتألفت من هذه الأصناف جملة على هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، ونعصبت العامة للمهدي . وأجلت الحال عن القبض على هشام بن سليمان ، والإتيان به إلى ابن عبد الجبار ، وتفرّق من كان قد التف به من البرابر المستوحشين من ابن عبد الجبار لكونهم صنائع ابن أبي عامر ، وغيرهم من البكتيين والصنائع والفتيان . فقتل هشام بن سليمان صبراً بين يديه ، وانتهبت دورّه ودور من تلبس به من البرابر وغيرهم . وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط خارج قرطبة عشية يوم الجمعة ، بعد محاورة بينهم وبين العامة ؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر . ورأسلهم محمد بن عبد الجبار ؛ فلم يلتفتوا إليه .

وكان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله قد فر من قرطبة طالباً النجاة بنفسه لما قتل من قتل من بني أمية ؛ فصار من جملتهم . ولما سألوه عن نفسه فصدّقهم عن أمره ، قدّموه ، وعقدوا له الخلفة ، وتسمّى المستعين بالله ؛ وذلك في عقب سؤال من سنة ٣٩٩ المذكورة ، ونهضوا به إلى سنانجه بن غرسية بن قرذلتند ، وعاهدوه على أن يعين سليمان بن الحكم على دخول قرطبة ؛ فتحرّك معهم في عسكر عظيم من النصارى ، واحتل قرطبة . وبرز إليهم المهدي فيمن معه ؛ فهزمهم سليمان ، وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أزيد من ثلاثين ألفاً . وكانت أول ثارات المشركين على المؤمنين .

ولما عظم الأمر على ابن عبد الجبار ، ورأى انحراف الناس عنه ، بدا له في أمر هشام المؤيد بالله المخلوع ، وظن أن الناس يتعصبون له إذا رأوه ؛ فأخرجه للناس ، ورجا أن يستمسك الحال به ؛ فلم يجده ذلك ، وقد تمكّن الداء ، وأعزل المشتكى ؛ وعجز ابن عبد الجبار ، ورأى إرباز هشام للناس لم يعن ؛ فدبر الحيلة ، وأذعن لسليمان ومن معه من البرابر ، وسلم في

القصر اسليمان ؛ فوجه إليه والدته الحكيم ليضبط أمره بخلال ما يتم خروج ابن عبد الجبار عنه بأهله ، ويدخله ضجوة اليوم ؛ ففرّ ابن عبد الجبار من ليلته ، واختفى في المدينة أياماً ؛ ثم خرج مُتَكَبِّراً إلى طليطلة في خبر غريب ، يتقصى حديث اختفائه وحيلته وما جرى عليه من الخطوب . فكان اتصاله بطليطلة وانحياسه إلى واضح الحكيم بها في أوّل جمادى الأولى من سنة ٤٠٠ . وقبيله أهل طليطلة أحسن قبول ؛ وكان من أمره ما بُذَكَرُ .

## أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

والحديث قد تقدّم بقيام البربر بدعوتيه ، ونزوله بظاهر قرطبة من بعد هزيمة ابن عبد الجبار ، ثمّ الخلاعه لهم عن الأمر ، واختفائه في المدينة ، ونزول سليمان قَصْرَ قرطبة مرثته الأولى في السابع عشر من ربيع الأوّل سنة ٤٠٠ ؛ ثاني يوم من فرار المهدي وطليبه ، فأغياه . واستقرّ سليمان بمقرّ المُلْك ، وخاطب البلاد ، وقدم العمال . ولحين لحاق ابن عبد الجبار إلى طليطلة مستظهِراً بواضح ، بادر ، فأحكم له أيضاً العَقْد مع الفِرَنْج ، على أن يخرج لهم عن مدينة سالم ؛ فقبضوها ، إلى ما التزم لهم عن نفسه من مالٍ ونَفَقَةٍ . وتحرك الجميع إلى قرطبة . وبلغ ذلك سليمان ؛ فاستنفر الناس ، وخرج إلى لقاءهم لأربع عشرة خلت من سؤال هذه السنة . ولما أحكمت البرابرة التعبئة للحرب ، جعلوا سليمان في أحيائهم ، ومعه خيل من المغاربة ، وقالوا له : « لا تبرح من مكانك ، ولو وطأتك الخيل ! » فلما دفعت الفِرَنْج ، وخرقت صفوف البربر ، لم يدر أن البربر أفرجت لها ، إذ لا يقوم لصدتها شيء ، ولأنها تلتفت عليها بعد ؛ فلم يشك أن

البربر قد اصطلدوا . فانهمز فيمن كان معه على ذلك ؛ فقتلت يومئذ البربر أرمق ملك الروم ومئين من كبار قومه . وقتل من البربر نحو من ثلاثمائة من رجالهم ، إذ لم يقتل لهم يومئذ فارس . وانجازوا إلى الزهراء ؛ فرفعوا أولادهم ، وفرّوا على وجوههم . ومضى سليمان فارّاً إلى ساطبة . وخرج أهل قرطبة ؛ فانتهبوا أثاث البربر ، وقتلوا من وجدوا . وأتى محمد بن عبد الجبار وواضح الفتى قرطبة ؛ فدخلوها .

## أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية

قال : ولما عاد ابن عبد الجبار إلى قرطبة ، جدّد البيعة لنفسه ؛ فكان أوّل من بايعه هشام المؤيد . وطلب الناس مالاً يفرضونه لمن معه من النصارى ؛ وكانوا في تسعة آلاف . ثمّ أقسم بالأيمان المغلظة أن لا يستقر ولا يحلّ شعار الحرب حتى يفرغ من أمر البربر ؛ وقد كانوا ساروا بعيالهم وأولادهم ، يحملونهم على سروج دوابهم وغير ذلك ، إلى جهة البحر الزقانيّ تجاه بلادهم الغربية ، ونزلوا بوادي يارو من أحواز مربة . وتحرك إليهم بكلّ من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة وبواديها ، حتى نزلوا على البربر يوم الخميس لستّ خلون من ذي قعدة سنة ٤٠٠ ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً . وغشّ ابن عبد الجبار فرسان الثغر ، وبكوا من البربر قتال المستميّ الذي لا يطمع في الحياة . ومن قاتل كذلك ، فقد كتب الله له الصائلة . فانهمز واضح وابن عبد الجبار والفِرَنْج أعظم هزيمة عن عدّ قليل ذليل إلا أنه أثبت رجله في مستنقع الموت ، ولم يعول على الحياة . فقتل من الفِرَنْج يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف ؛ وغرق منهم بوادي السقائين ، وهو وادي يارو خلق كثير . واحتوى البرابرة على ما في عسكرهم وعسكر واضح وابن عبد الجبار من مَضَارِب ومال وسلاح ودواب . ووصل المهزّمون إلى قرطبة ثاني يوم الواقعة . ورجب ابن عبد

الجبار وواضح من النصارى في الرجوع معهما إلى البربر ؛ فأبوا منه ذلك ، ورحلوا إلى بلادهم مقلولين . وشرع ابن عبد الجبار في الحركة والرجوع ، وطلب أهل المدينة بالمال تجلداً وعزيمة كاذبة . ولم يكن إلا أن رحل عن الحضرة ، ثم غلب رأي الانحجار والاحتجار ، وأمر باحتفار الحندق . وتكالبت البربر ، وظهرت خيلهم مغيرة على الأطراف ، وملكوا جبل ببشتر قاعدة خلاف ابن حفصون في القديم . وأجحف ابن عبد الجبار بالناس ؛ فنفروا عنه ، وتشاءوا به ؛ وبدأ لهم سوء ما ذخّر لهم القدر من أيامه ، وأحسوا بعقاب الله إليهم في بطر العافية المقتورة بدول العامرية التي ملكوها وسيموا نعيمها ، وضجوا من مواصلة جهادها في سوء الجوار وكفران الحق . ولهذا العهد أتت النفقات على أسباب السلطان ، وذهب عتاده وزينه ، وأصبح حقيراً فقيراً ، واستأسل العدو ، واستقال سليمان بن الحكم أمير البرابرة العشرة . واقتضى نظراً واضح ومن معه قتل ابن عبد الجبار ، وإعادة هشام المؤيد المستبق لهذا العهد ، المبلى بهذه المحن ، إلى محله . وكان المهدي قد استعجب واضحاً ؛ فدخل عليه يوم الأحد الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ ، وقبضوا عليه ، وأخرج هشام المؤيد ؛ فأجلس ابن عبد الجبار بين يديه ؛ فعاتبه طويلاً لما جنى عليه في نفسه وحرمة ؛ ثم أخرج من بين يديه ؛ فقتل ومثّل به . واختفى ولده ولي عهده إلى أن لحق بطليطلة .

## أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

الناصر لدين الله في المرة الثانية

ولما قتل المهدي ابن عبد الجبار ، جلس هشام للناس ، وتقديم لحجابه واضح ، وجدّد له البيعة ، وبعث برأس المهدي إلى سليمان أمير البرابرة وإلى

من معه ، ودعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، والاستقالة من الفتنه ؛ فلم يقبلوا ذلك ، واعتبطوا بأميرهم . وفي أخريات ربيع الأول من هذه السنة ، نزلوا قرطبة ، ودخلوا مدينة الزهراء . وانضم الخلق من الأحواز إلى المدينة ، وانتشرت الغارات ، وعظم العياث فيما اتصل بالبلد . وانتشر البرابر على كوز الأندلس مالفّة ، وإلبيرة ، وما اتصل بأحواز قرطبة ، يخرّبون الديار ، وينسفون النعام ، ويسبون الحرير ، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية ؛ وطلبوا الناس بالأموال ، وقطعوا الميرة عن قرطبة ، فاستد الغلاء ، وعظم البلاء ؛ واضطر هشام واضح إلى خطة الحنف من استصراخ النصارى والاستغاثة بملكهم على شرط تمكثه من البلاد . ووصلت رسله إلى قرطبة ؛ فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن بما فتح الملوك المجاهدون من بني أمية وكافل أمرهم المنصور وولده . وحضر لذلك الفقهاء والقضاة والمفتون ؛ وانصرف الجميع مستبشرين بنصر العدو إليهم خذلاناً وعباية ولجاجة في الغي وثمة من الله لبطر العافية . وارتكب العوام والرعايا بين المناصرة للبربر والمجانبة الطبيعية ، وعدم الإغماض في استصلاحهم ، مرتكباً من اللجاج والتصامم مكّن خزي الله من وجوههم ، وتلّ ربق القهر في رقابهم ؛ فلقد كانت من واضح وهشام في بعض الأحيان مراوغة في السلم والصّلاح ، وصلّ للكلام فيها من قبل القوم رجل خير يعرف بابن بكر ، وقّع الناس عليه ، فقتلوه ومثّلوا به ، وقد عجز صاحب الأمر عن نصره .

وتجرّد الناس لقتال البرابر ، وكلّفوا المال للجيش ، حتى تليفت أموالهم . وكان مما ألزم رسم الجيش خمسمائة فرس ؛ واضطر السلطان إلى المال ؛ فأخرج ما في قصره من حلى ثمينة وذخيرة وآنية فضة وذهب وثوب ومتاع ، حتى الكسب والخزّن والمواعين والفنن ، وحتى الأدوية الطيبية والعقاقير المجلوبة . ذكر أرباب التاريخ من ذلك أموراً تجدد الفجعة

وتبعث الحسرة ، لم يُغن ذلك من شيء لعبات الأيدي فيه ، وامتناز أيدي  
العوام به ، وشره أهل الجاه والتمكن إليه . وجمع السلطان الناس إلى  
القصر ، وشكا إليهم القتل والحاجة ؛ فأظهروا العجز ، وقالوا : « لم يبقَ  
فينا مَطْمَعٌ ولا عِلالةٌ ! فاضرُج بنا إلى العدو ! فإننا لا نُقيم على هذه  
الحالة ، والموت خيرٌ منها ! » وتخيّر واضح وارتابك عليه أمره ؛ فعزم  
على الفرار إلى الثغر ؛ وفطن له الجند ، وضعف في أعينهم ؛ فاجترأوا  
عليه ، واجتمعوا على ابن وداعة من وجوه قواد العسكر ، وزحفوا إليه ؛  
فعاثبوه بما أثلف من الأموال ، وما عزم عليه من خراب الدولة ؛ ثم  
سلّوا السيوف ، فقتلوه ، واحتزّوا رأسه ، وطافوا به البلد ، وألقوا جثته  
بالموضع الذي طرّح فيه جثة ابن عبد الجبار ؛ ونهبت دُورهُ وخزائنه ،  
وألفت أمواله مُبَسَّرةً ورحاله مشدودة . وتجلّد هشام بعده ، وأظهر  
الاستغناء عن الوزير ، وتجرّد لمباشرة الأمر بنفسه .

وكتب سليمان بن الحكم إلى أهل قرطبة يحذّرهم الفتنة ؛ فلبّوا . وبلغت  
الغاية ، وانتهى الأمر . وطال على الناس لزوم المحاريس والمراصد والبيات ؛  
فملّوا وعجزوا . وبان للعدو فشلهم وإخلاقهم إلى الأرض ؛ فاشتدّ فيهم  
طبعه ، وهم على خلسة إضعاف الحاصر . وتوالّت عليهم الهزائم ،  
وأكلتهم السّلاح ، وأضرعتهم الحاجة . واقتحم البرابرة أرباض قرطبة  
عنوة . فكان الأمر في هول يومها يجلّ عن الوصف ، ويشذّ عن العبارة ،  
من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب ؛ ولجأ من تأخّر أجله إلى  
المدينة . وخرج القاضي ابن دكنوان ، وكان له نَوسَلٌ إلى أميرهم سليمان  
ابن الحكم ، وقَدَمَ في الصّاعية إليه ، ورأي سديد في مُصالحه قَومهُ ؛  
فعدّوا للناس أماناً تحت ضِغارِ ذِلّةٍ ودَنيّةٍ وخَفِيّةٍ . ودخل سليمان  
القصر بقرطبة بعد .

## أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

### ابن الناصر لدين الله عبد الرحمن في المرة الثانية

دخل سليمان القصر بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة  
٤٠٣ ؛ وأحضر هشاماً ؛ فوبّخه ، وقال : « كنت تبرأت لي من الخلافة  
وأعطيت صفقة بينك ! فنقضت عهدك ! » فاعتذر إليه بأنّه مغلوب على  
أمره . ثم تبرأ له عن الأمر جُملةً . وانتقل سليمان إلى سكّنى الزّهراء ،  
ورتب الأمر ، وكتب بالتسكين إلى الجهات ، وأخرج الولاة ، وقسم بعض  
كُور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية ؛ وكانوا ستّة : فأعطى صنهاجة  
منهم بني زيري بن مناد الشيرة ؛ وأعطى مغرّاة جونيّ البلاد ؛ ومُنذر  
ابن يحيى سرقسطة ؛ وبني يَرْزَال وبني يَفْرَن جيان وذواتها ؛ والمغاربة  
وبني دَمَر وأزداجة شدونة ومورور . وولّى عليّ بن حمّود على سبتة ،  
والقاسم بن حمّود على مدينة طنجة وأصيلا الحضر . ولما استقرّ الأمر  
لسليمان ، كان رؤساء البربر غالبين على أمره ؛ فحذر لذلك العامرية ، وفرّوا  
إلى بلاد شرق الأندلس ؛ فتأثّلوا بها الملك ، حسباً يأتي بحول الله .

وفي هذا العهد ، لأوّل عودة سليمان بن الحكم ، هلك هشام - رحمه  
الله - ؛ وكان الفتيان والعامريون والبقايا الشاميون ، لما يئسوا من  
حسن العقبى ، وأيقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة ، قصدوا الليلة  
الاثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة إلى باب السدّة ، وقد تاهّبوا للفرار ،  
وجهدوا في الدخول إلى هشام ؛ فلم يمكنهم من ذلك . فجعلوا يرأسلونه  
ويعرضون عليه الدخول إلى مدينة الزّهراء ، كيما يجتمع الجند إليه بها ؛  
فأبى وقال : « المدينة من قرطبة ! ومن فاتهُ رأسُ الأمر فلا يأخذ  
بذنبه ! وقد علم الله أنّي ما أحببت الدخول في شيء مما أذخلكموني

فيه ؛ فقد نَفَذَ قضاؤه بكرهه ، وهو حسي ! » قالوا : « فاركب معنا الليلة في خَفٍّ من رَجُلِكَ وصفوةٍ من أَهْلِكَ ، نُخْرِجُكَ في جَمْعِنَا ، ونقطع من الليل ؛ فَنُحْجِقَكَ بقلعة ساطِبة بِحُلٍّ عَصْمَةٍ . فلا يبعد أن يلحق بك الناسُ ، وينحلُّ أمرُ عدوك بسرعة ! » فقال : « وهذا أَشدُّ ! أعود إلى مثل حالِ سليمان ، والقح الفتنه ، والعرج الأُمّة ! هاهنا لا يكون أبداً ! » فلما يسوا منه ، مالوا إلى الصلح من غَدٍ ، وطمعوا في الحياة ، واستجابوا لخلع هشام ؛ ومكثوا من ناصيته . فحُلَّ إلى سليمان ، وعاتبه ؛ ثمَّ صرَّفه ، وقد رقَّ له مع محمد بن سليمان ولده ، ووصَّاه بالجميل في أمره ؛ فأقام معه أياماً ، لا يُخْفِي مكانه ؛ ثمَّ غِيبَ شخصه ؛ فكان آخر العهد به .

وشاع يومئذٍ أن محمدًا أعجل عليه دون إذن والده سليمان ؛ فاغتاله خنقاً منفرداً بذلك ، مع بطانته ابنُ حَدِيرٍ وغيره ، خمسَ خَلَوَنٍ من ذي القعدة سنة ٤٠٣ . فكانت مُدَّةُ في هذه الكرّة سنتين وأربعة أشهر ، أنسَتْ ما قَبْلَها من آمادِ الشرِّ وأزمانِ الفتنه . وكانت سنُّه يوم الخلع الثاني ثمانٍ وأربعين سنة وأربعة أشهر . ولم يخلف عقباً من ذكر ولا أنثى . واقتدر قاتلوه على ما لا شيء فوقه من كتم أمره ، وأساعوا أنه فرُّ لوَجْهه مأذوناً له ؛ فتعيشَ زماناً سقَاءً بالمرية .

وكان من غرائب الدهر ، ولعمري إنَّ الدهرَ لغرائبُ كلُّه ، أن ضمَّ ابنُ عبادٍ بإشبيليةَ شيخاً مأبوناً من عَرَضِ الرِّعَاعِ ، أضبطه ، وحجبه ، وزعم أنه هشام المؤيد ، استقرَّ عنده وقام بدعوته ، وندب الناس إليه ، ووقف عليه مُعَاينو هشام أيامَ حياته ؛ فشهدوا بوجوده حيّاً لديه فخطبَ له بأكثر بلاد الأندلس قرطبة وإشبيلية وغيرها زماناً ؛ وتوصل بذلك إلى كثير من تدييره حتى توطد له الأمرُ بإشبيلية ، واستحكم بناؤه ، وأورثه بنيه بعده .

ولما تنفّسَ مَخْنَقُ العامريِّين الموالِي والصنائع الهاشميين ، وعادوا على سليمان بالحقود البربرية ، صرف بعضهم إلى علي بن حمّود أمير سبته من الحسنيين عهداً منسوباً إلى هشام المؤيد ، وبخطه زعموا ، يعهد فيه بالأمر بعده إلى علي بن حمّود وتوليته الطلب ؛ وسهّلوا عليه سبيل طلب الخلافة . فأظهر به الخلافَ على سليمان بن الحكم ؛ وكان أُمْلَكَ لنفسه ؛ ثمَّ تحرّك بعد أن التفت عليه بشر كثير ، وبعد أن خاطب أخاه القاسم بقرطبة ؛ فلحق ببلاده الحضراء . فكان استبدادُ علي بن حمّود بسبته سنة ٤٠٤ . وقتل قاضيها محمد بن عيسى ، والفقيه ابنُ يَرْبُوع عميدها ، لانتهاهما بميل إلى سليمان ؛ وقد بعث عيوناً تتطلع له على أحوال سبته .

وفي السنة المذكورة ، جاز علي بن حمّود من سبته إلى مالقة ، بعد أن بعث منها إلى حبّوس الصنهاجي وإلى خيران العامري ؛ فأشارا عليه بقصد مالقة وقتله . وخرج سليمان المستعين بالله من قرطبة إليه ؛ فالتقيا في شهر حرّ من سنة ٤٠٧ . فكانت على سليمان الهزيمة . وقبض على سليمان وأخيه وأبيه الحكم ؛ فقتلهم بيده ، وقال بلسانه الزناتي : « لا يقتل الزُّلْطَانُ إِلَّا الزُّلْطَانُ ! » وقيل إن علي بن حمّود قال للشيخ الحكم : « يا شيخ ! هكذا قتلتم هشاماً ! » فقال : « لا والله ! ما قتلناه ، ولا هو إلا حيٌّ يُرْزَق ! » فعند ذلك عجل علي بقتله . وكان هذا الشيخ الحكم بن سليمان فاضلاً ، لم يتلبس من أمر ابنه بكبير شيء . وجعلت رؤوس ثلاثهم في طست ، وأُخْرِجَت من المحلة إلى القصر ، يُنادى عليها : « هذا جزاءُ مَنْ قَتَلَ هشاماً ! »

وانقضى أمرُ سليمان على هذه السبيل . وكان أديباً شاعراً مدرّساً متأنياً ، إلا أنه خرج الأمر في تليق الأمور عن يده . وشعره متداول مشهور . وهو أحدُ مَنْ شَرَفَ الشعرَ باسمه ، وتصرّف على حكمه .



ومن المشهور له ، قوله 'بعارض' الرشيد هارون في قوله بسبب جواربه  
[الكاميل] : الثلاث :

ملك الثلاث الآيات عساني وحللتن من قلبي بكل مكان  
ما لي نطأو عني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني  
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

بقوله :

عجباً يهاب اللئيم حد سناي وأهاب لحظ فواتير الأجفان  
وأقارع الأبطال لا متهيباً منها سوى الإغراض والهجران  
وتملككت نفسي ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان  
ككواكب الظلماء الحن لناظر من فوق أغصان على كئيبان  
هذي الهلال وتلك بنيت المشتري حسناً وهذي أخت غصن البان  
حاكمت فيهن السلوى إلى الهوى فقضى سلطان على سلطاني  
فأبحن من قلبي الحصى وتركتني في عز ملكي كالأسير العاني  
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ذل الهوى عز وملك ثاني  
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن لا كنت من مروان

واعتمدته شعراء العاصرية والدولة الأموية ؛ وقد نسجت على أفواههم  
ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتن ، واشتدت فاقتهم ، وحمّت  
طباعهم . وكانوا كالزاد الفداء الجياع ، انقضت لفرط الضرورة على  
الجراحة ؛ فلم يبال صدامهم ، ولا شد خللتهم ، لاشتغاله بشأنه واشتداد  
حاجة سلطانه . فمن ذلك ما أنشده شاعر الأندلس على عهده ، الكائن

١ راجع « ذخيرة ابن بسام » ( ج ١ / ١ ، ص ٣٣ - ٣٤ ) .

فيها يومئذ بنزلة المتنبي بصقع الشام ، أبو عمر بن دراج القسطلاني :  
[ الطويل ]

هنيئاً لهذا الملك روح وريحان ولدين والدنيا أمان وإيمان  
فإن قعيد الحزني قد ثل عرشه وإن أمير المؤمنين سليمان  
سمي الذي انقاد الأنام لأمره فلم يعصه في الأرض إنس ولا جان  
وباني العلى للحمد غاد ورائح وحلف الثقي لله راض وعضبان  
به رد في جو الخلافة ثورها وقد أظلمت منها قصور وأوطان  
وأنقذ دين الله من قبضة العدا وقد قاده الشر ذل وإدعان  
وقام فقامت للمعالي معالم وللخير أسواق وللعدل ميزان  
وجدد للإسلام ثوب خلافة عليهما من الرحمن نور وبرهان  
وأكد لها عهد لأكرم من وفى بعهد ركت منه عهود وإيمان  
به شد أزر العدل والعلم والهدى وفاض على الأيام حسن وإحسان  
فتى نكصت عنه العيون مهابة فليس له إلا الرغائب أقران  
يرون عليه يوم يروي سيوفه دماً أن يوافيه الدجى وهو ظمان  
سمي النبي المصطفى وابن عمه ووارث ما شادت قريش وعدنان  
وما ساق الشورى وأوجبت التقى وأورث ذو النورين عمك عثمان  
وما حاكمت فيه السيوف وحازة إليك أبو الأملاك جدك مروان  
موارث أملاك وتوكيد بيعة جدري بها فتح قريب ورضوان  
ودوحة تجدد في السماء كأنها كواكبها منها فروع وأغصان  
لئن عظمت شأناً لقد عز نصرها بكرات فرسان لأقدارها شان  
قبائل من أبناء عاد وجوهم لهم صفو ما تميمه هود وقحطان

١ راجع بعض أبيات هذه القصيدة في « ذخيرة » ابن بسام ( ج ١ / ١ ، ص ٥٣ - ٥٤ ) .

بنو دؤال الملك الذي سَلَفَتْ به  
فهم عرفوا مَثْوَاكَ في هبوة الردى  
وللموتِ في نفسِ الشجاع تَحِيلُ  
فَأَعطوك واستعطوك في حومة الوغا  
كَأَنَّ السَّمَاءَ بِدَرْهَمِهَا وَنَجْمُهَا  
وقد لَمَعَتْ حَوْلَيْكَ مِنْهُمْ أَسِنَّةُ  
أَسُودٍ هَيَّاجٍ مَا تَرَالُ تَرَاهُمْ  
وَأَقْبَارُ حَرْبٍ طَالِعَاتُ كَانَمَا  
وَيَوْمَ اقْتِحَامِ الْحَفْرِ أَيْقَنْتُ أَنَّهُمْ  
دَلَفَتْ بِهِمُ لِلْحَرْبِ نَحْتِ عَجَاجَةٍ  
بِكُلِّ زَنَاتِيَّ كَانَ حُصَامُهُ  
وَأَبْيَضُ صِنْهَاجٍ كَانَ سِنَانُهُ  
لَقَدْ عَلِمُوا يَا مُسْتَعِينُ بِأَنَّهُمْ  
وَلَوْ لَآكَ وَالْبَيْضُ الَّتِي مَهَّدُوا بِهَا  
وَلَا اسْتَبَدَّلَتْ قَرَعُ النُّوَاقِيسِ بِالضُّحَى  
وَهُمْ سَمِعُوا دَاعِيكَ لَمَّا دَعَوْتَهُمْ  
تَصَاوِيرُ نَاسٍ مُهْطَعِينَ لَصُورَةٍ  
فَلَهُ عَزْمٌ رَدَّ فِي الْحَقِّ رُوحَهُ  
وَقُلْتُ لِحَاً لِلْعَائِرِينَ كَأَنَّهُ  
وَأَصْبَحَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي هَارِ حَفْهِمْ  
مُحَمَّدٌ مَنْ رَدَّ النُّفُوسَ فَأَصْبَحَتْ  
وَأَنَسَ شَمْلٌ بِالتَّفَرُّقِ مَوْحِشٌ  
وَحَنٌّ خَلِيطٌ بِالصَّبَابَةِ حَنَانٌ

ورَدُّ جِمَاحِ الْغِيِّ مِنْ غَرْبِ شَأْوِهِ  
وَقَدْ أَمِنَ التَّثْيِيبَ إِخْوَةَ يُوسُفَ  
وَأَعْقَبَ طَوْلَ الْخَرْبِ أَبْنَاءَ قَبِيلَةٍ  
وَحَنَّتْ لِدَاعِي الصُّلْحِ بَكَرٌ وَتَغْلِبُ  
وَفَازَتْ قِدَاحُ الْمُشْتَرِي بِسُعُودِهَا  
وَعُرِفَ مَعْرُوفٌ وَأُنْكِرَ مُنْكَرٌ  
وَأَعْمَدَ سَيْفُ الْبَغْيِ عَنَّا وَعَظَلَتْ  
وَمَا كَانَ مَنَّا الْحَيُّ فِي ثُوبِ ذُلَّةٍ  
وَمَنْ عَلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأُنْجَزَتْ  
يُمْنُ الْإِمَامِ الظَّافِرِ الْغَافِرِ الَّذِي  
مُجَرَّدُ سَيْفِ الْإِنْتِقَامِ لِمَنْ عَتَا  
فَمِنْ سِرِّهِ الْمَخْيَا فَسَمِعُ وَطَاعَةٌ

وكان ملكه ، الذي عفا على محاسن العباد والبلاد ، بوطن الجهاد ،  
وذهب منه بالطارف والتلاد ، وإذ قرطبة حضرة الدنيا ، وأم التواعد من  
غير ثنيا ، حر النار ، وبرد الشفار ، وترك حديثها تحلاً للاعتبار ، ثلاث  
سنين وعشرة أشهر ، ألوت بحاسن المضر الأنيق ، وذهب برؤنقه الشهير .  
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير !

وعقد سليمان بن الحكم العهد لابنه محمد بن سليمان ، في منتصف جمادى  
الآخرة سنة ٤٠٠ . وكان يومئذٍ واحده ، وهو صبي مُراهق ، فأعلن  
بتقليده عنده ، وزعم أنه من حُسن اختياره لرعيته ، بعد أن شاور في  
ذلك وزراءه ورجال مملكته من الطائفتين . فتوحي معظمهم مراقبته ؛  
فأمضى به العهد ، وأوقع الدعاة له بذلك في سائر عمله ، وأجرى ذكره  
بالتأمين والتكنية في مخاطبة . فتمت ولايته على هذا الوجه دون نقعة

ولا عطاء لقلة المال . فكان أوّل من اقتنع بذلك ؛ وتلاه 'من' جاء بعده من المتوثبين في الفتننة ، حتى صار العهد كخطبة من الخطط ، يقتصر فيه على صحيفة مقروعة . وأمر بنقش اسمه في السكة والأعلام والطروز ؛ وتقدم إلى الخطيب قاضي الجماعة ابن ذكوان بالدعاء له فوق المنبر على الرسم ؛ ونفذت الكتب بذلك عن سليمان . فكانت نسختها :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين ، لما جبله الله عليه ، وحبه إليه ، من الاجتهاد للمسلمين ، والنظر لهم ، والفكر في عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والإشفاق من اختلافهم ، وافتراق كلمتهم ، رأى أن يجتهد لهم لمساته ، كما اجتهد لهم في حياته ، بأن يرفع لهم علماً يبتدون به ، وينصب لهم وزراً يلجأون إليه ، وموثلاً يتعطفون عليه ، يؤلف شملهم ، ويجمع كلمتهم ، ويلئم شعنتهم ، ويسكن نفرتهم ، ويؤمن روعتهم ، مقتدياً في ذلك بالائمة المهتدين ، والخلفاء الراشدين ، الذين نظروا للأمة من بعدهم ، وأسفقوا من اختلاف كلمتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجأهم ما لا تحيد لهم عنه ولا بد منه من بغات الأقدار ، ونفاد الأعمار ، الليل والنهار ؛ فأطال استخارة الله - عز وجله - والرغبة إليه في أمده ، بتوفيقه ومعاذته بتسديده ؛ وحمله على ما فيه الخيرة له ولجميع المسلمين وجميل العاقبة في الدنيا والآخرة ؛ فألقى الله في روعه ، وثبت في خلده ، وقرر في نفسه ، أن محمد بن أمير المؤمنين أوّل أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين غير محاب له ولا آخذ بهوادة فيه ، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له ، واجتماع أدوات الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه ، وهديه ، وورعه ، وفضله ، وطهارة أثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال جلته ، وسعة علمه ، وكإل أدبه ، واضطلاع به بأعباء الخلافة ، ومعرفته بمعاني السياسة ، ونفاذه في التدبير والإدارة . فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولاية

عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين ، وهو يعتقد أنه قد خرج جماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم ، وتبرأ إلى الله بما كلفه من أمرهم ، وأدّى الأمانة التي حملة الله في الاجتهاد لجماعتهم ، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم ، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم ، وفضله الجسيم ، ونظراً لأمة محمد - عليه السلام - ونحسناً عليها ، واحتياطاً لها ، وهروباً من التقصير في حقها . والله يريو جماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له وألمه إليه . فأعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده وما أنفذه من فعله ، وتقدم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عمك بالدعاء له في خطب الجمع بما أدرجنه طي كتابنا هذا . والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم ، وجميل العاقبة في دينهم ودنياهم ، وأن يقارضه بجميل نيته لهم ، وكريم مذهبه فيهم . إنه ولي المجازاة بالإحسان عن الإحسان ، والتمن بالفضل والامتنان ، إن شاء الله . وكتب في النصف من جبادى الآخرة سنة ٤٠٠ .

قال أبو موان في « المتين » : ومن غريب ما طرحه أهل التنجيم في مبتدأ هذه الفتننة وكنته تأثيرها على أصولهم وزعمهم أن القرآن الشنيع الحادث في سنة ٣٩٧ المؤذن بها كان في برج ذي جسد ين قيل له السنبلة ؛ فأنذروا بذلك بأن تكون لمن قام بالملك في هذه الفتننة دولتان لا محالة . فرصدت ذلك ؛ فإذا القضاء قد أخرجه من القوة إلى الفعل ، حسباً ذكره ، وتناسق على الكرور في الملك خمسة أملاك ملكوا مرتين ، وهم : محمد بن هشام هذا ؛ ثم هشام بن الحكم صاحب الجماعة ؛ ثم سليمان بن الحكم صاحب البرابرة ؛ وإثنان من ملوك الحمودية : القاسم بن حمود ، وابن أخيه يحيى بن علي بن حمود . وارتفعت بعد هذه العادة على أن أباه علي بن حمود ، عاقب سليمان بن حكم ، وأول ملوك بني حمود ، شذ

عن هذا الترتيب في ثنية الملك وَسَطَ من سبته ؛ فلم يدلْ إلا مرة واحدة . والله أعلم بأمره وأحكامه .

ذكر دولة الأدارسة الحسنيين بقرطبة  
وما يتخللها من أفذاذ بني أمية من بعد الجماعة

دولة علي بن حمود بقرطبة

وهو علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - . وهو أول ملوك بني هاشم بالأندلس . والكلام في هذا البيت ولحاق أهله من البلاد الحجازية بالمغربية مما يرجى القول فيه إلى الجزء الثالث بعد هذا إن شاء الله . لقبه : الناصر لدين الله ؛ وكنيته : أبو الحسن . وكان من جملة أمراء المغاربة المترشحين في ديوان بني أمية بقرطبة .

ولما التفّت البرابرة والمغاربة بسليمان ، استنجاساً من العاصب الأندلسية ، وتشميراً لمقارعتيها ، وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين ، لحق بالعدوة الغربية ، وتغلب على سبته محتالاً . ثم عاد إلى الأندلس لما استوسق الأمر لسليمان ، واختص من كُور إبالته التي اقتسمها البرابرة واقتطعوها بسبته ، وأخوه القاسم بالجزيرة ، كما ذكرنا آنفاً . ولم يصب عن دهاء أصحاب سليمان بن الحكم فساد رأييه في إشراك بني حمود مع نفسه في الولايات على نفسه وترشّحهم إلى طلب ما بيده . ولكن الله غالب على أمره ؛ فلقد دخل على سليمان عبد الله البيرزالي من رؤساء البرابرة ، لما بلغه تقديم بني حمود بصفتي العدو وتين ؛ فقال له : « بلغني أنك ولّيت بني حمود على المغرب ! » فقال : « نعم » . فقال : « أليس العلويون طاليين ؟ » فقال : « نعم » . فقال له : « تأتي إلى الأحناش ، فتروّدهم

شعابين ! » فقال له : « قد نفّذ الأمر بذلك ! »

وقال ابن حيّان : ومن الإتفاق العجيب على سليمان أنه ، لما استوسق له الأمر بعد فراغه من أمر هشام ، أنفذ عزّمه من بين قواد جيوشه في اختيار علي بن حمود للتقديم بسبته ، رأياً ذهل عنه ، ونبذه إلى ضدّه له مكاشيح شريك في الدعوى والقراية ؛ فتلقّفا علي ، وهجم عليه ؛ فسلبه ملكه ، وحوّل دولته ، ومزّق عشيرته . وإذا أراد الله أمراً ، أمضاه ! وذكر أن هشاماً كان معنياً بقاءه على المروانية بسبته ، أول أسبه عين ، حسباً تلقى ذلك من كتب الملاحم والحدّثان ؛ فلم يزل يرتقب ظهوره إلى أن قام علي بسبته ؛ فكتب له عنده ؛ فكان من أخذه بثأره ما تقدّم .

ولما صارت إليه الدولة ، قهر البرابر ، وأمضى الأحكام ، وأقام العدل . وكان الأغلب على خلقه السباحة والشجاعة والإنابة . وكان مفتّح الباب ، مرفوع الحجاب ، يقيم الحدود ، ويعذب المتطلّعين ؛ فانتشر الناس في الأرض . ثم ساء في الناس رأيه ؛ فألزمهم المغارم ، وانتزع منهم السلاح ، وتوصّل إلى خيارهم بسبب الإطباع ؛ فامتحن لذلك جملة من أعيان قرطبة . وكان فيما زعموا تليقاعة ، يُصيب بعينه ؛ فما يستحسن شيئاً إلا أسرعت إليه الآفة . وازدورت عنه جوانب الكثير من الرؤساء والعامرية .

وفي سنة ٤٠٨ ، كان مقتله بأيدي أحداث من صقاليته بحمام قصره ، لم يُشرّ كنهم في أمره سواهم . ولما استطال نساؤه لبته في الحمام ، دخلوا عليه ؛ فألفوه صريعاً يسيل دمه ؛ فطار خبر مقتله . وبُعث إلى القاسم أخيه بإشبيلية ؛ فلتحق بقرطبة ، وصلى على أخيه ، وقعد مكانه ، وعثر على اثنين من الصبية فقتلا وصلبا ؛ ولم تنتقل التهمة إلى غيرهم . فسكنت الأحوال .

## دولة القاسم بن حمود بقرطبة

وقد تقدم نسبُه في ذكر أخيه . وكان لقبُه المأمون ، وكنيتُه أبو محمد . وولي الأمرَ مرتين مداولاً لابن أخيه يحيى ، أولاها لأربع خلون من ذي قعدة ، سادسَ يوم من موت أخيه . وأحسنَ تلقى الناس ، وأجل مَوَدِّهم ، وأمتهم ، وأسقطَ عنهم ما كان قد طلبهم به أخوه ؛ وأقرَّ الحُكَّامَ وأرباب الألقاب على ما تخلَّفهم عليه أخوه . ثم ضَعَفَ أمرُه وتلاشى ، وغلب عليه رؤساء البرابرة المستولون على الكُور ، وأمراء الثغر ، والفتيان العامرية بالبلاد الشرقية . واتفق أمراء الثغر مُنذِر بن يحيى ، وابنُ ذي الثون ، وزهير العامريُّ على إعادة الدولة الأموية ؛ فبايعوا من بني أمية عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

## بيعة المرتضى من بني أمية ،

وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر

وكان من أسباب ذلك أن خيران الفتي العامري ، لما دخل قرطبة مع علي بن حشود ، طمع في أن يجيدَ هشاماً المؤيد بالله حياً . فلما لم يجده ، استراب من علي بن حشود ، وحذره ، وشرع في الفرار ؛ وأتبعه علي بذلك ؛ فسبقه زهير ، ولحق بأمته وشيعته . ونصبوا هذا المرتضى ، وزحفوا به إلى قرطبة ، بعد أن أحكموا أمره ، وراشوا جناحه ، وأقاموا آلات الملك ، ونزلوا بإغترناطة ، بادئين بها ؛ وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي . فكانت بينه وبين القوم محاورات ومخاطبات ؛

ثم اقتتلوا اقتتالاً شديداً أياماً ؛ ثم إن المرتضى خذله أنصاره من هؤلاء الأمراء ؛ وكانوا قد بدا لهم في أمره ؛ فانهزموا عنه ، وهم في أضعاف مضاعفة من عدوهم . وقُتِلَ المرتضى . واستولى الصنهاجيون أصحاب زاوي على محلاته من الآلات والحيل والظهور والقياب ، على ما يجوز الوصف كثرة .

وورد على القاسم بن حشود الخبر بمقتل المرتضى وهزيمة الأندلسيين من قبل زاوي مع سبهم من الغنية ؛ وفي الجملة مُرادق المرتضى ؛ فسرَّ بذلك ، وضرب السُرادقَ على نهر قرطبة ؛ وعشيه الناس ينظرون إليه ، وقلوبهم تنتطع أسى وحسرة .

ومن بعد هذه الواقعة ، ركبت ريحُ المروانية ، وتقطَّعوا في الأرض ، واستهينوا ؛ فلم تَقُمْ لهم قائمة . وكان ممن تخطَّاه الهلاك يومئذ أبو بكر هشام بن محمد ، أخو المرتضى ، ولحق بالموالي العامريين ؛ فزهدوا فيه ؛ فاستقرَّ عند ابن قاسم صاحب حصن البُنت ؛ فأجاره . ولم يزل عنده إلى أن استدعي للأمر بقرطبة ، حسباً يأتي التنبيه عليه إن شاء الله . ومن بعد هذه الواقعة أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وطنه بإفريقية ، مُغْتَبِطاً بما نهيَّأ له ، وحذراً من العواقب بَعْدَه ، إذ رأى أن الذي جرَّ له الهزيمة على الأمراء إنما كان إغماضهم وتحاذلهم عن نصر صاحبهم . وكانت هذه الواقعة في سنة ٤٠٩ .

رجع الحديث إلى دولة القاسم . ولما ضَعَفَ أمرُ القاسم ، شرع أبناء أخيه : يحيى الكائن بسبنة ، وإدريس الكائن بالقلة ، في مطالبة ؛ فأجاز منهم يحيى بن علي بن حشود البحر إلى مالقة ؛ فقبضها ، وتخلَّف إدريس بسبنة . وجمع يحيى جيشاً ممن انضاف إليه بالقلة ومن أعانته من جيرانه البرابرة ، وقدم على عمه بقرطبة . واستجار القاسم برؤساء البرابرة جيرانه ؛ فقمعدوا ، وأرادوا التغريب بين أولئك الحسنين . ولما عجز القاسم عن

مقاومته ، فرّ إلى إشبيلية بَلَدِهِ ، لثان خلون من ربيع الآخر سنة ٤١٢ ، وضبط مَنْ بها من العِدُوِّين ، إلى أن لحق يحيى بن علي بقرطبة .

### دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني بقرطبة

بوع له بقرطبة يوم الإثنين مستَهْلُ جُمادى الأولى من سنة ٤١٢ . واجتمع عليه الفريقان من البرابر والأندلسيين بقرطبة وأعمالها . وكان شريف الأرومة في بيت كريم الولادة ، رابع أربعة من أبناء القُرَشِيَّات في الإسلام : أوْهُمْ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثمّ الحَسَن ، ثمّ الأمين ابن زَيْنَدة بنت جعفر . وسلك لأوّل أمره مَسْلَكَ أبيه في التحقُّق بالفروسيّة والصيد ، ومُجَانِبَةِ العَصِيَّة ، وإيثار النصفه ، وطلب السلامة ، إلّا أنّ الكبر والعجب سَأَنَاهُ ، وثَلَّتْ خِصَالُهُ ، إلّا أنّ الإضاعة والراحة واستكفاء غير الكفي طرَّقَت الحُلُلَ لأمره ، وضِيقَت عليه الكلف ؛ فاضطرّ إلى ارتكاب ما نَعَاهُ الناس على غَيْرِهِ ؛ فسَاءَت حاله ؛ وتمشّت مُدَّة ولايته الأولى هذه ، وهي سَنَةٌ واحدة وستّة أشهر ونصف شهر ، بِمُسَالَمَةٍ ومُعَاقَدَةٍ بينه وبين عمّه المجاور له بإشبيلية .

قال أبو محمد بن حَزْم : ولم يسمع بِخَلِيفَتَيْنِ تَصَالَحَا ، ولا بِأَدَلٍّ على الإدبار منه . واضطرّ إلى الفرار عن قرطبة لاثني عشرة خَلَّتْ من ذي قعدة سنة ٤١٣ .

### دولة القاسم بن حمود الحسني بقرطبة

#### في كَرَّتِهِ الثَّانِيَةِ

ولما فرّ يحيى بن علي بن حمود من قرطبة ، وخلعه مَنْ بها من جُنْد البربر وغيرهم ، استدعى الأمر القاسمُ من إشبيلية ثانية ؛ فدخل قرطبة يوم الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ . فاستمرت أيامه بقرطبة وإشبيلية ، وابن أخيه يحيى بالقة ، يُدعى لكل واحدٍ منهما بِأُمير المؤمنين ، إلى أن ساءت حاله ، وفسد ما بينه وبين أهل المدينة بسبب من حَفَّه من البرابرة . فثار الناسُ بهم وأعلّسوا بِخُلْعِهِ كَلِمَةً إجماعاً ، وأزعجوه عن المدينة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جُمادى الآخرة منها ، بعد حصره في القصر أياماً ، يراوِحُونَهُ القتال ويُعَادُونَهُ ، إلى أن انتقل إلى الرَّبَضِ العَرَبِيِّ منها في جيش البربر . واتّصل الحصار منه بقرطبة نحو شهرين ، إلى أن أُتِيحَ عليهم النَّصْرُ لأهل المدينة ، ووقعت عليهم هزيمة شنيعة فرّوا لها مفلولين ؛ وذلك لاثني عشرة ليلة خَلَّتْ من شعبان من السنة .

وفرّ القاسمُ إلى إشبيلية ، وبها ابنه محمد الحَسَن وأهلُه . فسبّ أهلُها أبواب المدينة في وجهه ؛ وعَمِدَهُمُ القاضي بإشبيلية محمد بن إسماعيل بن عَبَّاد أوّلُ الطائفة العبّاديّة ، وهذه الحال كانت أسّ دَوْلَتِهِمْ . وانصرف القاسمُ طريداً إلى مدينة شَرِيش ؛ فاستقرّ بها . وأعمل إليه الحركة يحيى المُعْتَلِي بالله ، ابن أخيه مُداوِلُهُ بقرطبة ، فنازَلَهُ بِمَدِينَةِ شَرِيش إلى أن فتحها وأسرّه ؛ فسجنه مع بنيه بالقة ؛ ثمّ أمضى قَتْلَهُ خُنْفًا فيما زعموا .

ولما فرّ القاسمُ عن قرطبة منهزماً مع البرابر ، وظهر عليهم القُرْطُبيُّون ،

طمعوا في جَبْرِ الدعوة المروانية ؛ فاختاروا من أبناء المروانية أُمْلَكَ مَنْ  
في بَقَايا الوقت سُلَيْمَانَ بن عبد الرحمن ، وكتبوا بَيْعَتَهُ ، ولَقَّبُوهُ  
بِالمُرْتَضَى . فبينما هم بالمسجد الأعظم ، قد شرعوا في أخذ البيعة له ، إذ  
هجم إليهم عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، أخو المهدي القائم على  
بني أبي عامر المستوي على أمر هشام المؤيد ، في شِرْذِمَةٍ من الناس ،  
يدعو إلى نفسه ؛ فرجعوا إليه طَوْعاً وَكَرْهاً . وبَشِّرَ اسْمُ سُلَيْمَانَ من  
الرَّقِّ وجعلَ فيه اسْمَهُ ؛ وذلك من النادر الغريب .

## دولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار

بويغ يوم خروج القائم والبرابر من رِبَضِ قَرْطَبَةِ منزهين ، يوم  
الثلاثاء السادس عشر من رمضان المعظم سنة ٤١٤ . وتلقَّبَ بالظافر بالله .  
وكان قد همَّ بالوثوب عند اضطراب أمرِ القائم بن حمود ، وبثَّ دَعْوَتَهُ ؛  
فلم يَتَأَتَّ له ذلك ، ونذر به الوزراء والمَشِيخَةُ ؛ فحذروا من شَوْمِ الوثوب .  
ووقع الطلبُ عليه ؛ فلم يظهر إلا يوم هجومه ؛ فأسفوه بذلك ، وإن كانوا  
قد أعلَقُوهُ بالشُّورى لبراءته ، وجعلوه ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ بعد سليمان بن المُرْتَضَى ،  
ومحمد بن العراقي . فاستقلَّ بالأمر يومئذٍ ، وتكثَّفَ أميرا الدائرة محمودُ  
وعَبْدُ الرَّحْمَنِ المُقْدَّمَانِ على الرجال المتخذين بقرطبة حمايتها من القائم والبرابرة .  
فساء الوزراء والمشيخة ذلك ، ولم يمهِّلهم أَنْ قبض عليهم ، واعتقلهم بالمُطَبِّيقِ ،  
وأغْرَمَهم أموالاً ؛ فسَعَوْا عليه من المُطَبِّيقِ ، وكتبوا الناس ؛ فاستجابوا  
لهم وثاروا ؛ فكسروا المُطَبِّيقِ ، إذ لم يكن بقرطبة مَعْقِلٌ يملك السلطانُ  
فيه نَفْسُهُ إلا القصر ، اغتراراً بِأَزْمِنَةِ العافية ، وحُسْنِ ظَنِّ بالأيام .  
وخرج الوزراء والمشيخة ؛ والتفَّ بهم الناسُ ، وتغلبوا على القصر ،  
وأفقدوا به محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ،

ولقَّبوه المُسْتَكْفِي بانه .

وقال بعض المؤرِّخين : إنما ثار به الناسُ لإكرامه وفنداً من البرابر .  
قدموا عليه ؛ فصاح الناس : « عاد شرُّ البرابر جدعاً ! » ووافَقَهُم الدائرة ؛  
فقتلوا الضيوف من البرابر ، وماجوا في البلد ؛ فسَمِعَهُم مَنْ بالمُطَبِّيقِ من  
مَشِيخَتِهِمْ ؛ فاستغاثوا بهم ؛ فكسروا أقفاله . وما رآه إلا تَسَوُّرُ الناسِ  
السقفَ عليه . وأحيطَ به من كلِّ جهة . وركب بطمع في الخروج ؛  
فقامت الدائرة من وَجْهِه يسُّونه ؛ فترجَّل ، وخلع ثيابه ، واختفى في  
أَتُونِ حَمَامِ القصر . وسُبِّيتْ حرْمُهُ بما لم يجزِ على حرم مثله .  
وبُحِثَ عنه ؛ فاستُخْرِجَ بحالٍ قبيحٍ ؛ فبطش به أحد الرجال القائمين على  
رأس ابن عمِّه المبايع . فقتلَ ومَضَى لسبيله يوم السبت ثلاث خلَوَنَ من  
ذي القعدة سنة ٤١٤ ، وكان ، لولا قاطِعُ الأدبار عليهم ، من ذوي الفضل  
البارع ، والظرف الناصع .

قال ابن بسام : كان على حدوث سنه ذكياً ، يَقِظاً ، لَبِيّاً ، أديباً ،  
حَسَنَ الكلام ، جيِّدَ القرينة ، مليح البلاغة ، يتصرَّف فيما شاء ، ويصوغ  
قِطْعاً من الشُّعر مستجادةً ، يُزِينُ ذلك بطهارة أوثاب ، وعِفَّة ، وبراعة من  
شرب النبيذ . وكان في وقته نسيجَ وَحْدِهِ ؛ به خَمَ فضاء أهل بيته  
الناصريين .

## بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن

ابن عُبَيْدِ اللهِ بن عبد الرحمن الناصر لدين الله

وكنيته : أبو عبد الرحمن . وكان عمره إثنين وخمسين سنة . ووافَقَ  
لَقْبَهُ لَقَبَ شبيهه من العباسية في كثير من الحلال ؛ منها توثبهما في

الفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل واحدٍ منهما على ابن عمه ، وتوسيط كل واحدٍ منهما في شأنه امرأة خبيثة ؛ فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا بنت المروزيّة . قاله ابن حيّان . وكان منقطعاً إلى البطالة ، عطلاً من الخصال ، ضدّاً لقتيله المستظهر . وفي أيامه ، عاجل ابن عمه ابن العراقي بالحق ؛ وفي أيامه ، استوصلت القصور الناصرية بالخراب .

وفي سنة ٤١٦ ، اتصل بأهل قرطبة تحريك يحيى بن علي بن حمّود إليهم من مالقة ؛ فدخل الوزراء والمشيخة على المستكنفي ؛ فأغلظوا عليه في الكلام ، وقالوا : « قد اضطررنا إلى مكافحة عدوّنا ! ونحن خارجون إليه ! ولا ندري ما يحدث عليك بعدنا . فاخرج معنا ! » فأجمل الرد عليهم ، وخرج فارّاً بنفسه في هيئة النساء متنقّباً بين امرأتين . فذكر أن من خرج معه من رجاله اتهموه بمال ؛ فاغتالوه وقتلوه بأقنيلج من الثغر . وكان خروجه في يوم الثلاثاء خمس بقين من ربيع الأول من السنة . وعاد يحيى بن علي بن حمّود إلى قرطبة .

## دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة

### كرّته الثانية

وقدم يحيى بن علي من مالقة بعد انصراف المستكنفي عن قرطبة ؛ فدخل القصر يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٤١٦ المذكورة ، وبقي به إلى تمام السنة . ثم خرج إلى مالقة يوم الثلاثاء اثنان من المحرم ، وترك بقرطبة وزيره وكتبه أنا حفة . - موسى ، ودوناس بن أبي روح ، إلى أن قصد إلى قرطبة الموفق زهير وخيران العامريّان من قبل حبّوس بن ماكسن . فلما أحس أهل قرطبة

بهما ، وثبوا بن كان عندهم من البرابر ؛ فقتلوه يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة ؛ وبلغ عددهم ألف رجل . وفرّ أحمد بن موسى ودوناس ؛ فنجيا . وكان يحيى بن علي بن حمّود قد انتقل إلى قرطبة ، مضيقاً على ابن عبّاد ؛ وطمع فيه ابن عبّاد لاستئثار اللهو والشراب به ؛ فوجه إليه إسماعيل بن عبّاد ابنه مع جيش من صنائعه وطائفة من البرابر المستخدمين لديه ؛ فطرقوا أحواز قرطبة ليلاً ، وقد كمنوا ، وستروا أنفسهم . واتصل خبرهم بيحيى ، وهو عاكف على شرابه ، تسيل ؛ فنعر - زعموا - وقال : « واياض يحيى الليلة وابن عبّاد زائر ! » وبادر الخروج برجاله ، ومضى ، يضرب إبطي قرسه . وألقى بنفسه على القوم في أوائل خيله ؛ فقال منهم منالاً كاد يفضحهم ، لولا أن انتفضت الكمّاء . وجاد صبره ؛ ثم انهزم أصحابه وضرع ؛ فجزّ رأسه ، وطير به إلى ابن عبّاد بإشبيلية . فخرّ ابن عبّاد ، فيما زعموا ، ساجداً ؛ وانطبق البلد فرحاً . وكان لديه محمد بن عبد الله البرزالي كبير البرابرة من بني برزّال ؛ فابتدر قرطبة لوقتبه ، وقد ملك أبوابها سودان يحيى بن علي ؛ فتوصل من بعض الأماكن حتى دخلها عن حيلة ؛ فحاز ما اشتملت عليه .

وانقض أمر يحيى بن حمّود على هذه الوتيرة ، وذلك في سنة ٤١٧ ؛ فكانت مدّته هذه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً . وكان من حديث بني حمّود ما يأتي ذكره إن شاء الله .

قال : واجتمع أهل قرطبة بعد هذه الكائنة على خلع الفاطميين من بني حمّود ؛ ونشأت بينهم التّرات التي تأتي المهادنة ؛ فظنّوا من يسدون به الرّسم من بني أمية .



## دولة هشام بن محمد بن عبد الملك

ابن عبد الرحمن الناصر

وقد تقدم أن المُرْتَضَى الذي بعثه العامريون قَتَلَ بظاهر غرناطة لمّا حلّ بها طالباً الأمر لنفسه ، على يد زَاوِي بن زِيرِي ، وأن أخاه هشاماً هذا فرأى يومئذٍ من الواقعة ، واستقرَّ بِحِصْن البُنْت عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهري . ولما خُلعَ الحُمُودِيُّونَ ، بَايَعَهُ أَهْلُ قرطبة بِمكانه من الثغر المذكور ، يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٨ . وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيّام ؛ فخطبَ له بقرطبة غائباً عنها . ثم أتى قرطبة في سنة ٤٢٠ . ولم تَطُلْ مُدَّتُهُ أَنْ خُلعَ بسبب وزيرٍ له يُعرَفُ بِحُكْمِ بن سعيد ويدعى بالقزّاز ، أساء مُعامَلَةَ الوزراء والرعيّة . وكان إحسان مُعامَلَةِ مَنْ ذَكَرَ يومئذٍ مُعوَظاً بكلِّ حال لسوء خلق المدينة ، وشدوذ أهلها عن ضبط السياسة ، وجُرأتهم على الثوب ، وضعف السلطان وعجزه عن مؤنة مَنْ يقهر به العامّة ؛ فبطشوا به وقتلوه . وكان المغربي بهشام ابن عمِّ له ، هو أُمَيَّة بن عبد الرحمن العراقيّ ، من أبناء الناصر ، فتسّى شديدُ التهوّر والجلل ، سوّلت له نفسه الاستيلاء ؛ فلما قَتَلَ حُكْمُ قام أُمَيَّة هذا . وهو أُمَيَّة بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . واجتمع عليه العوام ، وتقدّم إلى القصر ، وهشامُ الشّيخُ غافلٌ بين نسائه ؛ فبادرَ حين بلغه الخبرُ والرجفةُ الصعودَ إلى العليّة متمتعاً بها . ونهبت العامّةُ القصرَ . وبادرت العامّة إلى الشّيخ أبي الحزَم بن جهور كبيرهم ؛ فهتف على الناس بكفّ الأيدي . وأُمَيَّة مع هذا مُقيمٌ بالقصر ، قد تبوّأَ مَجْلِسَ هشام ، واستوى على فراشه ، ورتّب من النّهابة مَنْ

يُنْقِذُ أوامِرَهُ مُحَرَّضاً على هشام ، لا يشكّ في تمام الأمر له . وأمرَ الوزراء والمشيخة الرأى ؛ فاتّفقوا على خلع الشيخ وإبطال رسم الخلافة جُمْلَةً لعدم الشاكلة ، وعلى نفى المروانيّة وإجلالهم . وأنفذوا إلى هشام المُعْتَزَّ بالله ، وإلى أُمَيَّة بالخروج عن قرطبة ؛ فأنزل الشيخ هشام من العليّة إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة ، فيمن تألّف إليه من ولده ونسائه ، طارحاً نفسه على الجماعة ، يُنشدُّهم الله في مُهْجَتِهِ . فأعلمهم بِكَرَمِهِ الناس له ؛ فقال : « لَتَيْتَنِي قُرب البحر : يرموني في اللجّة ؛ فيكون أخفّ لثأني ! فافعلوا ما سئتم ، واحفظوني في أهلي وولدي ! » وبقي بمكانه يومه وليلته أسيراً ذليلاً ، خائفاً ، شاخصَ البصر إلى جهة تهجم منها المنية عليه .

وذكر بعضُ خَدَمَةِ المسجد أن أوّلَ ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضارُ كَسِيرَةٍ يسدُّ بها جوع طفلةٍ صغيرةٍ له ، إذ كان قد ضمّها إليه ساتراً إيّاها بكُمِهِ من برد ليلته ؛ وكانت تشكو له الجوع ، ذاهلةً عمّا أحاط بها ؛ فتزیدُ في همّه ؛ وسأل سراجاً يتأنّس به نسأوه . فأبكى مَنْ كَلَّمَهُ اعتباراً بعاديّة الدهر . وبات الناس ليلتئذٍ بالجامع ليفرغ الوزراء من شأنه ؛ ثمّ أخرجَ إلى حِصْن ابن الشرف من غير أن يُؤخَذَ خطُّهُ بالخلع ، ولا يشهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة وإحلال الأُمّة من بيعته على البديل المعهودة . وأنسأهم الله ذلك تهاوؤاً بحقه ونسياناً .

وأما أُمَيَّة بن العراقيّ فلم يبرح من القصر حتى أزعج مُطْلِقاً لسانه من الحُمل على الوزراء بما شاء . ومشى البريدُ في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحدٌ بقرطبة من بني أُمَيَّة ، ولا يكتفهم أحدٌ . وكان القائم بإخراجهم ، ومقيمُ الرَّمم بقرطبة بعدّهم أبا الحزَم بن جهور ، حسباً يأتي الكلام فيه . وانتهى أمرُ بني مروان لهذا الحدّ ، ومحا رسمُ الجماعة ؛ وتقسّم البلاد والأقطارُ رؤساء الطوائف ، قد استحاز كلُّ منهم استبداده بنفسه . ورضي

بذلك مَنْ بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء، وتعدد العلماء، وانفساخ الأقطار، وتراحم الاعمار. والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده. والعاقبة للمتقين. ونكره بالقول على تمام حديث العلويين الفاطميين من بني حمود.

### ذكر تلخيص الكلام

### في الامراء من بني حمود

وقد ذكرنا منهم فيما سلف كبيرهم علي بن حمود، والقاسم أخاه، ويحيى بن علي، وانتهينا إلى ذكر مقتل يحيى بن علي بظاهر قرمونة على يد يدي ابن عبّاد، وتعلّب محمد بن عبد الله البرزالي على قرمونة. فنصل ذكر القوم بعده؛ فنقول: ولما بلغ إدريس بن علي بن حمود الكائن بسبّنة خبر يحيى أخيه، أسرع للحاق بالآفة، ودعا إلى نفسه. ونهض إليه حبّوس بن ماكنسن مع صنّهاجة؛ فبايعوه، واستضافوا بجملتهم زهيراً الفتى؛ فخطب له بالمريّة لمطاوعة زهير حليفه وجاره بإلييرة، وذلك في منتصف ذي الحجة من السنة. وتوجّهوا إلى قرمونة وإسيلية؛ فجلّلوها نهباً وغارة؛ ولم يتّجه لهم فيها أكثر من ذلك.

ثم توفي إدريس صاحب سبّنة ومالقة سنة ٤٣١؛ فبويع بعده أخوه حسن بن علي بسبّنة، وتسمّى بالمستنصر بالله. ولما توفي حسن بن علي، قام بعده بأمّره ولده يحيى، ودام ملكه بها سنتين. ثم قام عليه ابن عمه حسن بن علي نسيبه؛ فخلعه. ويذكر أن والد حسن هذا، وهو يحيى بن علي، أسند إليه عهده؛ فسبقه عمه إدريس أبو هذا القليل إليه. وعبر حسن بن يحيى إلى مالقة، وكان له أخ اسمه إدريس

وشي به؛ فثقفه في القصر. ثم نادى ملك حسن بالآفة إلى أن توفي بها مسنوماً. وترك ولداً صغيراً له بسبّنة؛ فبايعه أبو الفوز نجاة العلوي قائداه وثقته بها؛ وهو من شرط كتابنا ممن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام. وأجاز البحر لثقاف البلاد؛ فأتى الجزيرة، وبها أبناء القاسم بن حمود؛ وأراد إخراجهم منها. فبرزت إليه سبّنة أمهم حامية، وقالت: «يا أبا الفوز! أقطع أيتام مواليك، وتخرجهم، وتكشفهم عن البلاد؟» فخل - رحمه الله - من ذلك، وانصرف إلى مالقة، وقد صحبه قوم من برغواطية كانوا أخوالاً لحسن المتوفي بالآفة؛ فترصدوا غفلة من أبي الفوز نجاة العلوي؛ فقتلوه بالطريق من مالقة. ثم نهضوا إليها؛ فسبّقوا الخبر، ودخلوا على أحمد بن موسى الوزير قائدها؛ فقتلوه؛ وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه، فبايعوه بها هم ومن فيها من رؤساء البرابر ولقبوه العالي بالله وخطبوا باسمه سنة ٤٣٤.

ثم ثار على العالي ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود؛ فضاهاه في شعبان من سنة ٤٣٨؛ اهتبلوا غرته، وقد خرج إلى قلعة بيشتر؛ فسدت الأبواب في وجهه؛ فعاد إلى بيشتر. ثم رحل بأهله وولده إلى سبّنة؛ فأقام بها عند سواجات البرغواطية، القائم بأمرها لذلك العهد؛ ويأتي التعريف به.

واستقام أمر محمد بن إدريس بالآفة، وتلقب بالمهدي. وكان محمد بن إدريس هذا سفاكاً للدماء؛ فأعملت الحيلة في هلاكه بكأس مسنومة وجهها باديس بن حبّوس الصنّهاجي أمير غرناطة مع رجل من خاصته؛ فقال: «هذه كأس جلبت للحاجب المظفر باديس؛ فلم يرها تصلح إلا للخلافة. فاخصك بها.» فأعجب بذلك محمد بن إدريس، وملأها خمرًا، وضمها إلى فيه؛ فأحس في نفسه ريبة؛ فأمر الرجل الذي أوصلها إليه؛ فشرب ما فيها؛ فتهرأ لحمه من حينه. وبقي محمد بن إدريس

ثلاثة أيام ، ومات في آخر سنة ٤٤٤ .

وقام بعده بالأمر ابن أخيه ، وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمّود ؛ وتسمّى بالسّامي . ثم أخجل نفسه ، وركب البحر كأنّه تاجر ، ونزل في ريف غمارة . فقبض عليه وأُتي به إلى سبتة ؛ فقتله سواجات البرغواطية . وبقي العالي عنده إلى أن مات في سنة ٤٤٤ .

وولي بعده ولده حمّد ، وتسمّى بالمستعلي . واتفق أمراء البرابر على البيعة لمحمّد بن القاسم بن حمّود ، الكائن بعد أبيه بالجزيرة الخضراء وما إليها ؛ ولقبوه بالمهدي ، وخطب له بجميع بلادهم . وتوجّه إليه من رؤسائهم جماعة ، منهم كبيرهم باديس بن حبّوس صاحب غرناطة ، وإسحاق بن محمد بن عبد الله الزّتانيّ صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب موزور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش . وانضاف إليهم فتح الله بن يحيى من أمراء ولبة الغرب ، وابن الأفتّس صاحب بطليوس ، ونمضوا به إلى بلد ابن عبّاد إشبيلية ، ونازلوه ، وانتسفوا أرضه ؛ ثمّ انصرفوا ، وقد عجزوا عنه ؛ وذلك في سنة ٤٣٩ .

ولما توفّي محمد بن القاسم ، بايعوا ولده محمد بن محمد بن القاسم على رسمه . ثمّ مات . وولي بعده القاسم ولده الملقّب بالمستعلي . ثمّ تغلّب باديس بن حبّوس على مالقة ، وأخرجه عنها ؛ ولم يبق لهذا العهد على ملك الحسنيين إلاّ الجزيرة الخضراء ، وأميرها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمّود ؛ فنازله قائد ابن عبّاد عبد الله بن سلام في البرّ ؛ ونازله أساطيله في البحر . فلما عجز من مقاومته ، تخلّى له عن البلاد عن أمان أكّده ، وركب البحر معرضاً عن جهة سواجات سبتة إلى المريّة فأقام بها إلى أن مات . وانقرضت مدّتهم . وكانت من يوم ولي علي بن حمّود إلى تخلّي القاسم عن الجزيرة ثانياً وخمسين سنة .

قال أبو محمد بن حزم : اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء

أربعة ، كلّ واحد منهم يُخطب له بالخلافة بوضعه . وتلك قضيحة لم يُرَ مثلاً : أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام ، كلهم يتسمّى بالخلافة وإمارة المؤمنين ؛ وهم : خلف الحضريّ إشبيلية ، عليّ أنّه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام ، وشهد له خصيان ونسوان ؛ فخطب له على منابر الأندلس ، وسفكت الدماء من أجله ؛ ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة ؛ ومحمد بن إدريس خليفة بالآلة ؛ وإدريس بن يحيى ابن عليّ ببشتّر .

ذَكَرُ نُبْذَةٍ مِنْ

## أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف

نقول ، وبالله الاستعانة ، ومنه الحول والقوة : وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطّة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لأحد في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ، ولا في الفروسيّة نسب ، ولا في شروط الإمامة مكنتسب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبّروا العمالات والأمصار ، وجنّدوا الجنود ، وقدّموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتّاب الأعلام ، وأنشدتهم الشعراء ، ودوّنت بأسماهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء ؛ وهم ما بين محبوب ، وبربري مجذوب ، ومجنّد غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحبس ، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغايراً ؛ وقصّارى أحدّهم أن يقول : « أقيم على ما بيدي ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ! » ولو جاءه عمر بن عبد العزيز ، لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه ؛ ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً ، وخلفوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً ، من معتدٍ ومعتضدٍ ومُرْتَضَى ومُوقَّقٍ ومُسْتَكْفٍ ومُسْتَظْهِرٍ ومُسْتَعِينٍ ومَنْصُورٍ وفائزٍ ومُتَوَكِّلٍ ، كما قال الشاعر :

بما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتضدٍ فيها ومعتدٍ  
ألقاب تملك في غير موضعها كاهر تحكي انتفاخ صورة الأسد

جلبنا منهم ذكراً ليعتبط مطالعته بحاله ، ويرضى الواقع عليه من زمانه ، ويتبع بشأنه ، ويرى أنه أوثق عهده ، وأحكم عقده ، وأرحب عطاء ، وآمن وطناً ، وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة ، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير ما لديه !

## ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها

قلت : وكان من الترتيب أن تقدّم من تقدّم بالزمان من هؤلاء الرّساء ؛ واستحقّ تقدّم الذكر بتقدّم وقت ظهوره . وإنما ابتدأنا هؤلاء الجهوريّة اعتناءً بمحل ولايتهم دار الملك قرطبة لأعادها الله . ونبدأ أولاً بشيء من ذكرها ؛ فنقول :

قال أبو محمد الرّشّاطي : قرطبة قاعدة البلاد ، وأمّ المدائن ، ومستقرّ الخلافة ، ودار الإمارة ؛ فيها كان الخلفاء من بني أمية ؛ وآثارهم بها ظاهرة ، وأبنيتهم فيها وقفا جاورها سنيّة ، وبها الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا لكبر مساحته ، وإحكام صنعه ، وجمال هيئته وإتقان بنيته ؛ تهتم به الخلفاء من بني أمية ؛ فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتهتماً إثر تهتم ، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، واستولى على أمر الإحسان ؛ فصار يحار فيه الطّرف ، ويعجز عن حسنه الوصف . وقرطبة على نهر كبير فوهته يجبل شقورة ، ويسر على قرطبة ؛ ويتنصب فيه تحت قرطبة أودية ؛ ثم يمر إلى إشبيلية (وقد ذكرناه في باب الإشبيلية) ؛ وعليه بقرطبة قطرة عظيمة حصينة من أجل البنيان قدرا ، وأعظمه خطراً ؛ وهي من الجامع في قبيلته وبالقرّب منه ؛ فانتظم به الشكل إلى الشكل ، وجاءت كالفرع لذلك الأصل . ولما كانت قرطبة على الصّفة التي ذكرنا محل الإمارة ، ومستقرّ الخلافة ، كثرت بها العلم والعلماء ، واستقر فيها

فيه ؛ فأعطوا قوسَ السياسة باريها ؛ فانسدل عليهم به الستر .

قال المؤرخ : وكان مع براعته ، ورفعة قدره ، أشدُّ الناس تواضعاً وعفةً ، وأشبَههم أولاً بآخر ، لم يختلف به حالٌ من الفتاة إلى الكهولة . واستمرَّ في تدييره بقرطبة ؛ فأنجح سعيه ، ولمَّ الشعث في المدَّة القريبة ؛ فنش الرِّقات ، وأحسَّ منها الموات ، ودافع بحسُن تدييره البرابرة ، وأحسن الجوار والمعاملة . ثمَّ توفّي -- رحمه الله -- ليلة الجمعة السادس من شهر محرم سنة ٤٣٥ .

### أيام أبي الوليد محمد بن جهور

قال ابن حَيَّان<sup>١</sup> : وولي بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد ابن جهور بن عبيد الله ، نهاية بيوت الشرف الأثيل بقرطبة على تمرّ الدهر المغرب ساوّه في نظم قِلادة خمسة ككعُوب الرُّمَح أنبوباً على أنبوب ، همُّ ما همُّ ، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبين خامسهم عبيد الله ، خوَّهم الله الرياسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار ؛ فلم تنقلها الفتنة إلى أن ورثها ترُّبها هذا الوالي الفاضل أبو الوليد ، ولما يعرف البؤس يوماً ، فأعانته ذلك على الحسب والمروءة . وأقرَّ لوقته الحكام وأولي المراتب . ثمَّ اقتفى آثار أبيه في السياسة ؛ فأصبح من العجَب العُجاب تكافُ الناس عن التظالم والتسافك ، بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد بأيدي جبَّاية أصحاب الشرطه أيام الجماعة . فلا يكاد يُسمعُ لشرارهم من معهود ذلك إلا السَّادرة . ثمَّ قال : فلم يَقمُ من الأمر بثل ما قام به أبوه ، بل قدَّم ولده عبد الملك على الناس وأخذ عليهم العهد والبيعة لابنه المذكور ؛ فجار واعتدى ، وصحب الأرزال ، وأهمل الأمور ، وأخاف

١ راجع « ذخيرة » ابن بسام ، ج ١/٢ ص ١١٧ - ١١٨ .

السُّبُل ، وأظهر الفساد ، وتعاطى ما أحجم عنه سلفه من الاستبداد ؛ فسَمَّى نفسه بذي السَّيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله ؛ وخطب له على المنبر باسمه . ولم يكن أبوه ولا جدُّه انتقلا عن رَسْم الوزارة ولا تلبسا بشيء من أمور الأمويَّة .

### أيام عبد الملك بن محمد بن جهور

وكان الرئيس أبو الوليد - رحمه الله - قد ألقى الله منه على ابنه الأصغر من ولديته محبةً آثرة لها على أخيه كبيره عبد الرحمن ، لِمَزيَّة شهامة كانت في نفسه جنى بها خروج الأمر عنهم . وخصَّ عبد الرحمن بحظَّ رغيب من أمره ؛ فكان لعبد الملك النظر في الجُنْد ، والتَّوَاتِي لعرَضهم ، والإشراف في أعطيَّتهم ، ولعبد الرحمن النظر في أمر الجبَّاية والإشراف على أهل الخدمة ؛ ورضى بذلك ، إلا أن عبد الملك ابتزّه ذلك ، وتغلب عليه ، وسجنه في منزله ، ورقب عليه ؛ وقد أصابت الأب زمانة . وأستولى عبد الملك على الأمر .

وكان من تدييره الانحطاط في سلك المعتضد بن عبَّاد جارهم المصائب ، فوالى مخاطبته ومداخلته ، وزاره بنفسه ؛ فقام ابن عبَّاد بحقّه ، وأغراه بما تسبَّب به إلى ما بيده من قتل وزير أبيه الكاثر سجي في حلق ابن عبَّاد ، وهو المعروف بابن السَّقاء . واتَّصلت مصادقته لابن عبَّاد بضدّه يحيى بن ذي النون ؛ فصرَّف عزمه إلى قرطبة ، وجعل التضييق عليها نَصَب عَيْنه ، واستهان في سبيل الحصول عليها الأموال ، واصطنع الرجال ، وتحرك إليها سنة ٤٦٢ . فاستغاث عبد الملك بن أبي الوليد بن جهور بصديقه ابن عبَّاد ، لعجزه عن الانفراد بمقاومة ابن ذي النون ؛ فبعث إليه المعتضد ابن عبَّاد بكتيبة من ثلاثمائة فارس ؛ ثم أتبعها ألف فارس لتظر قائدين

الفضلاء والنبلاء ، وصارت دار هجرة للعلم ، ومكان رحلة لأولي الفهم .  
 وكان من بها من الخلفاء - رضي الله عنهم - هم العلماء ، ويكبرون من  
 يولونه منهم خطّة القضاء ، ويختارون للخطّة أهلها ، ويوفونهم حقوقهم  
 فيها ؛ فكانت للقضاة بها المنزلة العالية ، والرتبة السامية ، مع كَوْن الخلفاء  
 منقادين لأحكامهم ، واقفين لدى نقضهم وإبرامهم ، مع ما خصّ به أهل  
 قرطبة من علو الهمة ، واجتماع الكلمة ، وتأليفهم على الحقائق ، واتباعهم  
 لأحسن الطرائق ؛ فصارت بذلك لهم النخوة والعزّة ، وحازوا أعلى منازل  
 الرفعة . فممن ولي القضاء بقرطبة ، وكان بها على الصفة التي ذكرنا ، محمد  
 ابن بشير .

ووقع لي ذكرها في بعض كتب الفتوحات ؛ فقلت : قرطبة  
 وما أدراك ما هيّة ، ذات الأرجاء الحالية الطامية ، والأطوار الراسخة  
 الراسية ، والمباني المباهية ، والزّهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ،  
 حيث هالة بدر الساء قد استدارت من السور المشيد البناء دارا ، ونهر  
 المجرة من تهرها الفيّاض ، المسلول حُسامه من غمود الفيّاض ، قد لسق  
 بها جارا ، وفلكك الدوّلاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مدارا ، ورجع  
 الحنين استيقاقا إلى الحبيب الأوّل ؛ وادّكارا ؛ حيث الطود كالتاج ، يزدان  
 بلجين العذب المجاج ، فيزري بتاج كسرى ودارا ؛ حيث جسور التصور  
 المديدة ، كأنها عوج المطي العديدة ، تعبر النهر قطارا ؛ حيث آثار العامري  
 المجاهد ، تعبق من تلك المعاهد ، شذا معطارا ؛ حيث كرائم السحاب ،  
 تزور عرائس الرياض الحباب ، فتحمل لها من الدّر ثارا ؛ حيث شول  
 الشمال تدور على الأدواح ، بالغدو والرواح ، فتري الغصون سكارى  
 وما هي بسكارى ؛ حيث أيدي الافتتاح ، تقتض من شقائق البطاح ،  
 أبكارا ؛ حيث تغور الأفاحي البواميم ، تقبلها زوار النواميم ، فتخفق من  
 قلوب النجوم الغيارا ؛ حيث المصلّى العتيق قد رحب بجالا وطال منارا ،

وأزرى ببلاط الوليد احتقارا ؛ حيث الظهور المثاره بسلاح الفلاح تحب  
 عن مثل أسنمة المهارا ، والبطون كأنها لتدميت الغمام بطون العذارا ،  
 والأدواح العالية ، تخرق أعلاها الهادية ، بالجداول الحيارا . فما شئت  
 من جور صقيل ، ومعرض للحسن ومقيل ، ومالك للعقل وعقيل ، وخمائل ،  
 كم فيها للبلابل ، من قال وقيل ، وخفيف يجاوب بثقيل ، وسنابل نحكي  
 من فوق سوقيها ، وقصب بسوقيها ، الهمزات فوق الألفات ، والعصاوير  
 البديعة الصفات ، فوق القصب المؤتلفات ، تميل لهبوب الصبا والجنوب ، مالية  
 الجيوب ، بدرر الجبوب ، ويطاح لا تعرف عين المحل ، فتطلبه بالذّخل ،  
 ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار ، عند افتتاح السوسن والبحار ، غير  
 العبدان من سودان النحلة ، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ  
 الطية البعيدة راحله ؛ إلى الوادي ، وسر النوادي ، وقرار دموع الغوادي ،  
 المتجاسير على تخطيه ، عند تمطيه ، الجسر العادي ، والوطن الذي ليس  
 من عمرو ولا من زيد ، والفرّا الذي في جوفه كلّ صيد ، أقلّ كرسية  
 خلافة الإسلام ، وأغار بالثرافة والجسر دار السلام ؛ وما عسى أن تظنب  
 في وصفه ألسنة الأفلام ، أو تعبّر به عن ذلك الكمال فنون الكلام .

\*\*\*

ولما خلّع هشام الأخير ، واتفق رأي الجماعة بقرطبة على نحو رسم  
 الخلافة الأموية ، لعدم الصلوح في أهل بيتها ، وسوء الجوار ، وفناء الأموال  
 التي يُرزق منها من يقهر به السلطان كواف الناس ، اتفق الملائ على إسناد  
 الأمور بالحضرة إلى شيخ الجماعة ، وبقية الأشراف من بيوت الوزارة ، أبي  
 الحزم جهنم بن محمد بن جهنم بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن العزم  
 ابن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بُخت بن أبي عبدة . وكان لمدخل  
 جدّه يوسف بن بُخت بن أبي عبدة إلى الأندلس أثر عظيم من جيل  
 الذراع وسعة الباع ؛ وأسندوا إليه مههمهم ، وعدّوا من خصاله ما لم يحتفلوا

الكبيرَيْن : خَلَفَ بن نَجَاح ، ومُحَمَّد بن مَرْتِين ؛ وتقدَّم إليهما بما يكون عليه عَمَلُهُما .

ولمَّا اتَّصَلَت يَدُ عبد الملك بجيش ابن عَبَّاد ، دافع ابن ذي النون عن حوزته ؛ فانصرف عنه ، ولم يَجِدْ فيه غِرَّةً ، بعد قتال ومُدافعة . وكان مُضْطَرَبُ الجيش العبَّادي أيام مقامه في نصره ابن جَهْوَز بالرُّبُض الشرقي من قرطبة .

ووقعت المُدَاخِلَة بين قائِدي الجَيْشَيْن وبين بعض الإشبيليين في الإِراحة من بني جَهْوَز وخَلْعهم وتَصِيرُ الأمر إلى ابن عَبَّاد . فلما صحَّ انصرافُ ابن ذي النون ، وذهب القائدان ومن مَعَهُما إلى وداع ابن جَهْوَز بباب المدينة ، اقتحم رجاله الأبواب وملكوها ، ودخل الجيش ، وقامت الدعوة باسم ابن عَبَّاد يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦١ . وامتنع عبدُ الملك وخُوَيْصَّمُهُ في عِلْيَةِ الدار حيث سُكِنَاه ، ودافع عن نفسه إلى أن غشي الدارُ الجرادُ المنتشرُ من الناس وشملها النُهبُ . ولجأ الشيخُ أبو الوليدُ أبوه ؛ فأوى إلى مَقْصُورَةِ المسجد ببَنَاتِهِ وكرائمِهِ ؛ واقتحمها طائفةٌ من نصارى الجُنْد الإشبيلي ؛ فجرَّوهم ، وانهبوا ما أصابوا عندهم من ذخيرة .

وطلب عبدُ الملك الأمان لنفسه ، ونزل إلى القائِدين ؛ وتحصَّل البلدُ ورؤساؤه في أيديهما ؛ فأطلقا الثَّدَاء بكفِّ الأيدي ، وتوعَّدَا بالسيف ، وعجلاً إخراجَ عبد الملك وأخيه عبد الرحمن إلى إشبيلية من يَوْمِيهما ، مراعاةً للعِزِّم . وألحقا بالجلَاء طائفتَهُما ؛ فوكَّلا بالكلِّ من تطلَّع بذلك ؛ ثم عظما على النظر في حال الشيخ الزَّيْن أبي الوليد ، صَدْرَ بُيُوتَاتِ الأندلس ، وأوثقها عروةً جاءه وأشدّها ركنَ تَعْيْنٍ ؛ فصيّراه إلى دارٍ صُغرى ، إلى أن وصل جوابُ ابن عَبَّاد بإخراج الشيخ ومن معه إلى جزيرة سَلْطِيش من الجُزُرِ الكائنة في مَوْقع نَهْرِ إشبيلية ؛ فأُخْرِجَ ، من بعد العِزِّ

والبجلة واتَّصَل الترف ، محمولاً بَيْنَ عِدْلَيْيْ تَبْنٍ على ظَهْر زاملَةٍ ، قد أُرْكِبَ خَلْفَهُ مَنْ يُمَسِّكُهُ .

قلنتُ : وقد أفترَدَ أبو مَرْوَان بن حِيَّان لهذه التكبّة الجَهْوَريّة كِتَاباً سَمَّاهُ « البَطْشَة الكُبْرَى » ؛ وكلامُهُ فيه من لبَابِ بلاغَتِهِ . وذكر أن الشيخَ أبا الوليد بن جَهْوَز لما تَوَسَّطَ القنطرة ، مُخْرَجاً عن وَطَنِهِ على تلك الحالة ، رفع يَدَيْهِ إلى السماء ، وأخذ يَبْتَهِلُ في الدعاء ؛ وكان ممَّا حَفِظَ عنه قوله : « اللهم ! كلِّم أجبنتَ فينا الدعاءَ علينا ، فأَجِبْهُ لَنَا ! » فمات لأربعين يوماً من نكبتِهِ بجزيرة سَلْطِيش -- رحمه الله وغفر له -- فكانت هذه سبيلُهُم -- رحمةُ الله عليهم .

وشرع الوزيران في ضَبْطِ قُرْطُبَةٍ . فتأثَّي بَعْدُ حَوَادِثُ تَخَلَّلت ذلك ، يطولُ الكتابُ إن استقصيناها . فكانت مُدَّةُ بني جَهْوَز بقُرطبة أربعين سنةً إلا سِيراً . والبقاء لله وحده . وتأثَّي لهذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ ، وخصوصاً لأبي الحَزْمِ والدِهِما ، ما لم يَتَأَتَّ لِمَتَأَمَّرٍ من مُسألة من يَلِيهِ ، وانسحابِ العافية على بلده مُدَّةً ولايته ، حتى كان لرؤساء الطوائف بمنزلة الأب ، يفصل بَيْنَهُم في القضايا ، ويشفع في الحوائج ، ويُصْلِحُ بَيْنَهُم في المُنازعات ؛ فلم يَدْرِ الناسُ ما فقدوا فيهم إلا بعد أن بَلَّوْا غَيْرَهُم وفقدوا خَيْرَهُم . والحُكْمُ لله سُبْحَانَهُ !

ولم يُمْتَنِعِ الْمُعْتَمِدُ بن عَبَّاد بما حصل عليه من منيحة قُرْطُبَةٍ ، بل نقصه سرورها بما كان من هُجُوم ابن عَكَّاشَةَ على قرطبة ليلاً ؛ فطرقها . وتيسَّرَ ذلك له لِنَظَرِهِ بعض الحصون المجاورة للحضرة ؛ وقد كان الْمُعْتَمِدُ تَخَلَّفَ فيها الظافِرَ وَلَدَهُ والوزيرَ مُحَمَّد بن مَرْتِين ، مَضِيْعَيْنِ للحِزْم ، غريقَيْنِ في اللذَّات . واحتال ابنُ عَكَّاشَةَ حتى دخل المدينة ليلاً برجاله ، وطرق دارَ الإمارة . وبرز الظافِرُ إلى استجلاء الأمر ؛ فقتلَ وحزَّ رأسَهُ . وبادر إلى ابن مَرْتِين ، وهو عاكِفٌ على شرابٍ وهو ؛ فقبضَ عليه . وتأمَّرَ ابنُ

عكاشة بن بالبلاد من أولياء ابن ذي النون . فتست الدعوة لابن ذي النون .  
ولم يخلص إلا زمن قريب ، وقتل ابن عكاشة ، وعادت قرطبة إلى  
المعتد إلى آخر أيامه .

## ذكر أيام بني عباد باشبيلية وغيرها

وبنو عبّاد من العرب الداخلين إلى الأندلس من لخم .

قال أبو مروان : جاز إلى الأندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا  
في أقطارها ؛ وانحاز منهم إلى غريبها أخوان نعيم وعطاف ؛ فنزل  
أحدهما بقرية يومين ، وتناسل ولدها مدة من الزمان ، ثم  
انتقلوا إلى إشبيلية فتمسوا ، وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم  
المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجيه المنصور . وقد كان نشأ فيهم  
صدر بيتهم ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عبّاد ؛ فقدّمه المنصور على  
خطة القضاء بها ؛ فأتصل استعماله إلى زمن انقراض الإمامة الأموية .  
واستمرت حاله مع من نجم في الفتنة ؛ فنظر في صلاح القطر ، وحمله على  
الطريقة المثلى من السياسة ، إلى أن نزل في عينته الماء سنة ٤١٤ ؛  
وقدح ؛ فعاد بعض بصره ؛ فلم يستجز الحكم بين الناس ؛ فولّى  
ولده أبا القاسم القضاء ، واقتصر هو على رئاسة البلد وتولّى رأي المشيخة .

وكان نسيجاً وحده عِلماً ومعرفةً وأدباً وحكمةً ؛ فحصى مدينة  
إشبيلية من سطوة البرابر الذين اقتطعوا أحوالها ونزلوا حولها بالتدبير  
الصحيح ، والرأي الراجح ؛ والنظر في الأمور السلطانية ، إلى أن هلك  
سنة ٤١٤ .

## ذكر أيام القاضي أبي القاسم محمد بن عباد

### أول ملوكهم باشبيلية

وهو أبو القاسم بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن  
إسماعيل بن قريش بن عبّاد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن  
نعيم اللخمي . وعطاف هو الداخل مع بلنج بن بشر .

وكان القاسم بن حمّود ، لما ملك إشبيلية ، قد اختصه واستظهر به على  
مهمات تلك الحضرة ، واستناب إليه لمحطه من الجلالة والأصالة في النظر ،  
ووفور المالية . فلما جرى على القاسم ما تقدّم التعريف به من إيقاع أهل  
قرطبة بمن معه من برابرته ، وإجلاله وإيثارهم عن الحضرة ، وما أتيح لهم  
من هزيمته ، خاطب بين يدي لحاقه بإشبيلية من بها بأن تخلص له الدور  
لمن في صحبته من البرابر . فوقع الاتفاق من أهل البلد على سدّ أبواب  
المدينة في وجهه ، وأن يخرج إليه أهله ولده ؛ ففعلوا . ووصل  
القاسم ؛ فامتنعوا عليه ، إلى أن قصد شريش ، كما مرّ قبل . وتولّى  
ضبط المدينة على كثرة الهرج القاضي أبو القاسم ، عميد البلدة ، مشترك  
النظر مع وجوه البلاد وأعلام بيوتاتها ، إلى أن انفرد بالأمر دونهم .

وجرت له في تدبير تلك الأحوال أمور شهيرة ، إلى أن خلص  
بسايقته ، وأجمع أهل عمله على طاعته ؛ فدانوا له ، وسلك سيرة أصحاب  
الممالك بالأندلس ؛ وأقبل لأوّل وقته يضمّ الرجال ، ويشترى العبيد ،  
والجد يساعده ، والأمور تنقاد له ، إلى أن استولى على الأمّد ، وبني  
قواعد سلطانه سامية العمّد .

وكان من تدبير إسماعيل بن عبّاد ، لما ضاق ذرعاً بمزاحمة بني حمّود



الفاطميّين من كلّ جهة ، ولهم في الناس النداء المسموع والحقّ المعلوم ، أن دعا إلى تجديد بِنِعة الخليفة هشام المؤيد ، المشكوك في موته ، المدّعي كثير من الناس أنّه فرّ لوجهه ؛ وزعم أنّه عثر عليه سائحاً في الأرض ؛ وقد كان صاحب المريّة زهير العامري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام ؛ فمؤّه زمناً به سنة ٤٢٦ ؛ ثم تلاشى الأمر في يده ؛ فطرده ؛ وأحكم ابن عبّاد أمره ؛ فأعلق منه اليد بشبهه ؛ فمضى الحال بها زمناً طويلاً . والدنيا عند الله حقيرة الزان ، خاملة الشان .

قال ابن القطّان حاكياً عنه ؛ فذكر أنّ هشاماً فرّ من الفتنة ، ورفض الملك ، وكتب أمره ، واستقرّ في قرية من قرى إشبيلية ، يؤدّن في مسجدها ويعبّثه ، ويتقوّت من العمل في الحلفاء ؛ فخرج اليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا وولده وجميع خاصّته وعبيده ، ومعه أبواب الحلفاء وملايسهم وزيتهم ومراكبهم ، ولم يشعر الرجل ، وهو خارج المسجد من القرية ، يعمل بيده في حلفاء ، إذا بالقوم قد غشّوه وأحاطوا به ، وترجل القاضي وابنه ومن معهم ، وقبّلوا الأرض بين يديه ؛ فبهت الرجل لما عاين ، وجعل يقول : « لتست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون ! » وهم لا يردّون عليه شيئاً سوى التضرّع والرجبة ، إلى أن أقاموه من مكانه ، وجردوه من حلفائه ، وألبسوه الكسوة الخلافيّة ، ووضعوا القلائس على رأسه ، وأركبوه ؛ ومشى القاضي وجميع من معه أمامه . وكان الرجل أشبه الناس بهشام ؛ ودخلوا به المدينة ، وصائح ينادي : « يا أهل إشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ! فهذا مولاكم ! قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم ! » واستقرّ بالقصبة ، وحجبه ابن عبّاد بابنه إسماعيل ، شأن المنصور مع هشام بقرطبة . وخطب الناس بكلّ جهة في شأنه ؛ فوجه الكثير منهم أرساله وثقاته ليقيفوا على حقيقة أمره ؛ فأدخلوا على الرجل ، وهو في بيت مظلم ؛ وذكر لهم أنّه يشكو مرض

عينيه ، كلّموه وكلّمهم ، غير أنّهم لم يثبتوا صفته ؛ فمنهم المقرّ والمنكر . وأبى قبول ذلك ابن جهّور ؛ فغزا ابن عبّاد بلدّه ، إلى أن أظهر الموافقة . وخطب له في القواعد التي تغلب عليها العامريّة .

وعظم ملك ابن عبّاد ، وضيق على الجهات ، وأكثر الغارات ، إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتعلّبين على كورة إلبيرة في هزيمة اتّجهت عليه . وكانت له وعليه وقعات شهيرة ، إلى أن توفّي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد في سنة ٤٣٣ . وولي الأمر بعده ولده أبو عمر عبّاد بن محمد الملقّب بالمعتضد .

### أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد

تولّى الأمر بعد أبيه منسليخ جمادى الأولى من سنة ٤٣٣ . واستولى على غرب الأندلس كشتب ، ولبلّة ، وجبل العيون ، وما إلى ذلك . قال أبو مروان : وكان عبّاد قد أوتي من جمال الصورة ، وتمام الخلقة وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحسن ، ما فاق به على نظرائه . ونظر مع ذلك في الأدب أدنى نظري بأذكي طبع ؛ فحصل منه على قطعة وافرة . قالوا : ومن عجائب سعده أنّه فتح ما يجاوره من بلاد أعاديه ، وأجلى طواغيتهم عن جواره حتى انضاف إلى بلاده عمل قرمونة وعمل الجزيرة ، وتحصّلت في خزائنه جُملة من رؤوس ملوك البرابرة والأدارسة ، مثل رأس محمد بن عبد الله أمير قرمونة ، شهاب الفتنّة ، ورؤوس خزرّون وابن نوح والخليفة يحيى بن علي بن حمّود وغيرهم ، بمن أرواهم بسيفه ؛ وجدها اللّثونيّون لما دخلوا لإشبيلية على ولده في مستودعات مفاخره ، والرقاع مُلصقة بها معرّبة عن أسماها . هذا ، وهو قاعد فوق أريكته ، منفذ للعظام من

جوف قصره . وكان شديد الجرأة ، قوي المنة ، عظيم الجلادة ، مستهيناً بالدماء ؛ قتل ولده إسماعيل صبراً بيد نفسه ، وقد اتهمه بالفساد عليه . واحتال على طائفة من رؤساء أعدائه البرابرة ، حتى زاروه ببلده ؛ فأدخلهم الحمام في سبيل التكرمة ؛ فسد بابَه إلى أن هلكوا عن آخرهم . وما زال الناس ينسبون إلى هذا اللقب مصاحبة الجرأة والفظافة في كل زمان ومكان .

وقال بعضهم فيه : لم يتصر عبّاد في دولته ، التي مهدها فوق أطراف الأسيّة ، وصير أكثر شغله فيها شبّ الحروب ، وكياد الملوك ، وإهراج البلاد ، وإحراز التلاد ، في توفير خطّه الأوّفي من الأمور الملوكيّة ، والعُدّة السلطانيّة ، والآلات الرئاسيّة ؛ فابتنى القصور الساميّة ، واعتمر العبارات المُغلّية ، واكتسب الملايس الفاخرة ، وغالى في الأطلاق السيئة ، وارتبط الخيل السابحة ، واقتنى العِلّمان الرُثوقة ، واتخذ الرجال الذادة ؛ فانتقام من كل فرقة ، يتعهد طبقاتهم بإدوار الأعطية وضمان الزيادة ، على صدق الصيال والوفاء بالوعيد على النكول ، سياسةً أُعيت على أُنْداده من ملوك الأندلس . وكان يتشبه في حزمه وضبطه لأمره بأبي جعفر المنصور .

وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المُظفّر بن الأَفطس ، حتى عجز المُظفّر عن حربِه . وسنّ الله بينهما الهدنة في ربيع الأول من سنة ٤٤٣ ، بسعني الشيخ ابن جهّور أمير قرطبة . وبعد ذلك ، فرغ ابن عبّاد إلى حرب الأمراء الباقيين بالعرب ، فأُتيح له من الظفر بهم ، والاستيلاء على بلادهم ، ما هو معلوم . ثمّ مدّ يده إلى الجزيرة الخضراء ؛ فنازل فيها محمّد بن القاسم ، كما ذكرنا ، وملكها من يديّه . ثم صرف جيده إلى قرطبة ، ووجه إليها عزّمه . فأثاه الحيام من دون ذلك . وكان ملكها مذخوراً لولده المُعتبِد وولي الأمر بعده . وهو محمّد المُكنى بأبي القاسم ، الملقب

أول الأمر بالظافر ، ثمّ بعده المُعتبِد على الله . وكان المُعتبِد مع جوده ورسالته وعلوّه هبته ، يقرض الشعر ، ويصدر عنه المقطعات الرائقة ، والمعاني الفاتحة ؛ فمن شعره المنسوب إليه قوله : [المنسرح]

كأنّما يسميننا الغض كواكب في السماء تَبَيّضُ  
والطروق الحر في جوانبه كخذ عذراء مسه عض

وقوله : [الطويل]

شربنا وجفن الليل يغسل كحلّه بناء صباح والنسيم رقيق  
مُعْتَقّة حمراء أمّا بخارها فضخم وأما جسها فدقيق

### دولة المعتمد على الله محمد بن عباد

كنيته : أبو القاسم . وهو الجواد ، الشجاع ، البليغ ، ذو الأخبار الشهيرة الذّكر ، والأنباء الماثورة في الدهر .

قال ابن الصّيرفي : المعتمد على الله محمّد بن عبّاد نسيح وحده في الجود ، وأصلب نظرائه مكسر عُود ، فذّاً في البلاغة ، طرفاً في الشعر والكتابة ، باوع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جزل الألفاظ ، كثير المعاني ، حرّ المأخذ ، لدن معاطيف الكلام ، وقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الإشارة ، جمّ التوليد ؛ لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه ، على كثرة ما اجتلب إليه من أعلام النناء ، ونثر عليه من درّ الحمد ، ووُضع في يديّه من برّ القريض .

قالوا : وكان شجاعاً مقداماً ، حسن السيرة ، رفيقاً بالرعيّة . وسنت به هبته إلى تلك قرطبة ؛ فدخلت في أمره حسبما وقع الإلماع به عند

مُجالسةً ، وشهامةً نفساً ؛ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ قَلْبِ الْمُعْتَمِدِ ، وَحَلَّ مِنْهُ  
الْمَحَلَّ الْمَجْجُورَ عَلَى سِوَاهُ . وَكَانَ خَيْرَانِ الْعَامِرِيِّ ، لَمَّا خَرَجَ عَنْ مُرْسِيَّةَ ،  
تَغَلَّبَ عَلَيْهَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ طَاهِرٍ مِنْ أَعْيَانِهَا وَجَلَّتْهَا ، وَمَحَلَّهَا فِي  
الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ وَالسَّرَاوَةِ مَعْرُوفٌ ، قَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْفَتْحُ فِي كِتَابِ  
« الْقَلَائِدِ » وَغَيْرُهُ ، إِلَى أَنْ خَالَفَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا ، وَكَاتَبُوا الْمُعْتَمِدَ  
يَسْتَدْعُونَهُ إِلَيْهَا . فَوَجَّهَ ابْنُ عَمَّارٍ وَزِيرُهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَائِدَ جَيْشِهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ  
ابْنَ رَشِيقٍ . فَدَخَلَ مُرْسِيَّةَ ، وَتَحَصَّلَ ابْنُ طَاهِرٍ فِي اغْتِقَالِهِ . وَضَبَطَهَا  
وَاسْتَقَرَّ فِيهَا قَرَارُهُ ، إِلَى أَنْ سَوَّاتْ لَهُ نَفْسُهُ الْإِنْفِرَادَ بِهَا ، وَكَشَفَ وَجْهَهُ  
فِي الْخِلَافِ لِلْمُعْتَمِدِ . وَقَبِضَ لَابْنِ عَمَّارٍ مِنْ ابْنِ رَشِيقٍ جَزَاءً عَامِلٍ  
بِسُوءِ عَمَلِهِ ؛ فَاهْتَبَلَ غِرَّتَهُ ، وَقَدْ خَرَجَ لَتَفْقُدَ بَعْضَ شُؤُونِ حُصُونِهَا ؛  
فَوُتِبَ عَلَى مُرْسِيَّةَ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا . وَبَلَغَ ابْنُ عَمَّارٍ الْخُبْرَ ، فَفَرَّ عَنْهَا ،  
وَلَحِقَ بِالْمُقْتَدِرِ ابْنِ هُوْدٍ بِسَرْقِيسْطَةَ . وَاسْتَوَلَى ابْنُ رَشِيقٍ عَلَى مُرْسِيَّةَ ؛  
فَامْتَنَعَ أَيْضاً بِهَا . وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ ، إِلَى أَنْ  
خَرَجَ ابْنُ رَشِيقٍ عَنْ مُرْسِيَّةَ لِيُوسِفَ بْنِ تَاشْفِينٍ أَمِيرَ لِسْمُونَةَ ، عِنْدَ  
جَوَازِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ . وَاسْتَعَدَّ الْمُعْتَمِدُ لَهُ ؛ فَلَمْ يَسْمَعْ الْمُعْتَمِدَ بَعْدَ ذَلِكَ  
فِيهِ الْكَلَامَ .

وَبَقِيَ ابْنُ عَمَّارٍ عِنْدَ الْمُؤْتَمِنِ بْنِ هُوْدٍ عَلَى شَأْنِهِ عِنْدَ الْمُعْتَمِدِ مِنْ سُلْطَانِهِ ،  
إِلَى أَنْ أَغْرَاهُ بِحِصْنِ سَقُورَةَ ، وَوَعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِفَتْحِهِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا  
نَزَلَ بِسَاحَتِهِ ، كَادَهُ صَاحِبُ الْحِصْنِ ، وَهَيَّأَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ، وَجَعَلَ الْبَلَدَ فِي  
يَدِهِ بِاللَّسَانِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ الصُّعُودَ بِنَفْسِهِ لِمُبَاشَرَةِ قَتْلِ بَنِيهِ ؛ فَأَسْرَعَ لَذَلِكَ  
فِي طَاقَةِ يَسِيرَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِ وَرِجَالِهِ ، وَقَدْ أَعْمَى عَيْنُهُ الْحِرْصُ وَالْعُرُورُ ،  
وَتَهَوُّرُهُ الْمَشْهُورُ ؛ فَلَمَّا تَحَصَّلَ فِي قَصَبَةِ صَاحِبِ الْحِصْنِ ، وَثَبَ بِهِ ، وَأَكْبَلَهُ  
وَأَوْدَعَهُ الْمُطِيقَ .

وَإِثْلُ ذَلِكَ ابْنُ عَمَّادٍ ؛ فَرَأَسَلَ صَاحِبَ الْحِصْنِ فِي التَّمَكِينِ مِنْهُ ،

وَأَرْغَبَهُ فِي لَدَيْهِ حَتَّى اسْتَفْزَهُ وَأَمَكَّنَهُ مِنْ رَمْتِهِ . فَأَذْخَلَ إِشْبِيلِيَّةَ مَدْخَلَ  
الشَّهْرَةِ ، فَوْقَ ظَهْرِ بَيْنِ عِدْلَيْ تَبْنٍ . وَحَشَرَ النَّاسَ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَقَدْ  
خَرَجَ أَمِيرًا كَبِيرًا ، وَأُعِيدَ الْيَوْمَ كَذِلَالًا أَسِيرًا . وَتِلْكَ عَادَةُ الْأَيَّامِ فِي تَعَاقُبِ  
الصُّرُوفِ ، وَجَعْدِ الْمَعْرُوفِ . وَاعْتَقَلَهُ الْمُعْتَمِدُ بِيَعْضِ هَجَرِ الْقَصْرِ ؛ وَكَانَ  
يَسْتَحْضِرُهُ ، فَيُبَالِغُ فِي عَتَبِهِ ، وَيَتَأَقَّاهُ ابْنُ عَمَّادٍ مِنَ الْاسْتِعْطَافِ وَالِاسْتِرْحَامِ  
بِمَا كَادَ يَحِلُّ عَقْدَةً مَوْجِدَتَهُ ، وَيَطْمَعُ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَيْهِ ، لَوْلَا أَنَّ أَعْدَاءَهُ  
شَمَّرُوا لِلْإِغْرَاءِ بِهِ ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَقْوَالَ فِي إِسَاءَةِ ذِكْرِهِ ، وَالتَّيْلِ مِنْ أُمِّ  
وَلَدِهِ ؛ فَأَمْضَى قَتْلَهُ بِيَدِهِ .

وَصَدَرَتْ عَنْ ابْنِ عَمَّارٍ مِنَ الْأَشْعَارِ فِي غَرَضِ اسْتِقَالَتِهِ وَاسْتِعْطَافِهِ  
كَلِمَاتٌ شَهِيرَةٌ ، تُعَالِجُ بِرَامِهَا جِرَاحَ الْقُلُوبِ ، وَتُعْفِي عَلَى هَضْبَاتِ  
الذُّنُوبِ ، لَوْلَا مَا فَرَّغَ عَنْهُ مِنَ الْقَدَرِ الْمَكْتُوبِ ، وَالْأَجَلِ الْمَحْسُوبِ ؛ فَمِنْ  
ذَلِكَ قَوْلُهُ :

سَجَايَاكَ إِنْ عَافَيْتَ أُنْدَى وَاسْمَحْ      وَعَذْرُكَ إِنْ عَاقَبْتَ أَجْلِي وَأَوْضَحْ  
وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخُطِئَتَيْنِ مَرْبِيةٌ      فَأَنْتَ إِلَى الْأَذْنَى مِنَ اللَّهِ تَجْنَحْ  
وَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَزَيَّدُوا      سِوَى أَنْ ذَنْبِي ثَابِتٌ مُتَصَحِّحْ  
وَأَنْ رَجَائِي أَنْ عِنْدَكَ غَيْرُ مَا      يَخْضُ عِدْوَتِي الْيَوْمَ فِيهِ وَيَمْرَحْ  
أَقْلَنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَى      لَهُ نَحْوُ رُوحِ اللَّهِ بَابٌ مُفْتَحْ  
وَلَا تَكْتَفِ قَوْلَ الْوُشَاةِ وَزُورَهُمْ      فَكُلْ إِيَّاهُ بِالَّذِي فِيهِ يَرْشَحْ  
وَقَالُوا سَيَجْزِيهِ فُلَانٌ بِذَنْبِهِ      فَقُلْتُ وَقَدْ يَغْفُو فُلَانٌ وَيَصْفَحْ  
أَلَا إِنَّ بَطْشًا لِلْمُؤَيَّدِ يَرْمِي      وَلَكِنْ حِلْمًا لِلْمُؤَيَّدِ يَرْجَحْ  
وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاهُ تِمِيمَةٌ      سَتَشْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحَمَامَ مُجْلَحْ  
سَلَامٌ عَلَيْهِ كَيْفَ دَارَ بِهِ الْهَوَى      إِلَيَّ فَيَدْنُو أَوْ عَلَيَّ فَيَنْزَحْ

ذكر بني جهنور ؛ ووصل إليها ؛ فأنس أهلها ، وبث المعروف فيها ، وأحسن السيرة في أهلها ؛ فسرّوا بإياله . وولّى عليها ابنته الحاجب مِراج الدولة عبّاد بن محمد بن عبّاد ليستخلفه فيها ؛ فوصلها يوم الثلاثاء السادس من شوال تلك السنة ، ودخلها دخولاً فخماً ، تضاعف له سرور أبيه .

وانصرف المعتد إلى إشبيلية ، وخلف ابنه والياً عليها ؛ وترك معه القائد ابن مرتين بجماعة من الفرسان ؛ فدخل ابن ذي النون صاحب طليطلة في أمرها رجلاً من قواد الحصون المجاورة لقرطبة ، بهيمة من البهم ، أجزأ من خادير الأسد ، يُعرف بحكم بن عكاشة ، ضمن له غرر ابن عبّاد بها . ومّا ذلك إلى القائد ابن مرتين ؛ فأكذب الخبر ، وتهاون به ، إلى أن تمّ لابن عكاشة ما أرواده ؛ ففتح له بعض أبوابها قوم من شيعته ، ودخل المدينة ليلاً ، بحيث لا يُشعر به ، في سرّذمة من خيله ورجله ؛ فقصّد دار ابن جهنور ، حيث سكنى الأمير ابن عبّاد . وبرز ابن عبّاد عند سماع الهية ؛ فجالدهم بسيفه حتى قتل . ثمّ نهضوا بعد قتله إلى دار ابن مرتين ، وهو عاكف على شرابه ولهوه ؛ ففرّ ، واختفى ببعض دور صناعه . وعُثر عليه بعد ثلثة ؛ فاستحضر ابن عكاشة من كان بين يديه ليلتذ من القينات والمثنيين ؛ فجعل يسأله عن أسماء من حضر ، شاماً له ؛ ثمّ أكبله وبعثه إلى حصنه . فلما وصل ابن ذي النون ودخل الحضرة ، أمر بقتله . ولم تصبح ليلة هجوم ابن عكاشة على المدينة إلّا وقد انضمّ إليه أعداد من الأشرار . واستولى على البلدة ، وأقام فيها الدعوة الذنوبية . وخاطب ابن ذي النون ؛ فلاحق بقرطبة ؛ فدخلها في أبهة عظيمة ، وأخذ بيعة أهلها . وكان وصوله إليها من بلنسية يوم الجمعة لحس بقين من جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ . ولم ينشب ابن ذي النون أن اعتل بقرطبة ؛ وتوفي فيها لإثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤٦٧ .

وخاطب أهل قرطبة المعتد ؛ فأقبل إليهم ، وقاموا بدعوته . وفرّ ابن عكاشة على وجهه ، يوم المدافعة ؛ فقتله بالخنطرة يهودي من رجال قرطبة . واستولى ابن عبّاد على المدينة ثلاث ليالٍ بقين من ذي قعدة السنة المذكورة . ومن بعد ذلك ، اتّصلت بها طاعة ابن عبّاد ما ينيف على ست عشرة سنة . وأسكن بها ولده الملقب بالمأمون ، وعاد إلى إشبيلية .

واتّصل أيام المعتد على الله أحسن أيام . ولذلك ما لهجت القصص بأخباره وأحاديث حظيته المسماة اعتياداً ، لجمع اسمها حروف لقيه ؛ وهي أم الملوك الأربعة من ولده ، والمنسوبة روميّة إلى مولاه الذي اشتواها منه ، واسمه رميك بن فلان ، إلى أن ناله ضم من صاحب قشتالة إدفونس بن قرذلاندي في شأن الضربة التي كانت تؤدّيها إليه ملوك الأندلس ، وابن سالب اليهودي المتولّي لقبضها منه ، بحيث أسمعه ما يكرهه ؛ فغضب - رحمه الله - وأمر بقتله وأمر من وصل صحبته من النصارى . فعظم ذلك على الطاغية ، وأقسم أن لا يرفع عقلاً عن ابن عبّاد ؛ فاضطره ذلك إلى الجواز إلى المغرب ، واللاحق بالأمير يوسف بن تاشفين ، والاستظهار به على جيهاد الطاغية ؛ فأجابه لذلك ؛ وخرج له عن الجزيرة الخضراء . وكان ما يقع التعرّيف ببعضه من الوقعة بالعدو على يد يوسف بن تاشفين ، وحسن بلاء المعتد في ذلك ، إن شاء الله .

### خبر المعتد بن عباد مع ابن عمار

وكان محمد بن عمار من المعتد بن عبّاد بالمحلّ المعروف تربية وخدمة ، وطول صحبة ؛ وكان نادرة وقته براعة وأدباً ، وحسن

لِيَهْنِيَهُ إِنْ مِتُّ السَّلْوُ فَإِنِّي أَمُوتُ وَيِي شَوْقُ إِلَيْهِ مُبَرَّحُ  
 قُلْتُ : وَلَوْلَا أَنْ يَطُولَ الْكِتَابُ ، لَأَسْتَوْفَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعْجِبُ  
 اسْتِيفُوهُ . وَسُبْحَانَ الَّذِي جَعَلَ نَفْسَ أَكْثَرِ الْمُلُوكِ تَقَادُ فِي أَرْمَةِ حُبِّ  
 التَّشْفِي ، وَطَلَبِ الْإِنصَافِ ، فَلَا تَتَوَقَّفُ فِي مُطَاوَعَتِهِ . وَذَلِكَ لِأَنَّهَا  
 نَفْسٌ غَيْرُ مَقْهُورَةٍ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُلْكَاتِ ، وَلَا مَرْغَمَةٍ بِفِرَاقِ الشَّهَوَاتِ ، إِلَّا  
 لِلْقَلِيلِ النَّادِرِ مِمَّنْ كَانَتْ نَفْسُهُ مُتَّصِفَةً بِالرَّحْمَةِ فِي أَصْلِ جَبَلَتِهَا ؛ فِيهِ سَاكِنَةُ  
 الْفُورَةِ ، كَالْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ فِي الْعَفْوِ عَنْ عَمَلِهِ الَّذِي نَادَمَهُ عَلَى كَأْسِ السَّلَافَةِ ،  
 مِنْ بَعْدِ أَنْ ابْتَرَزَهُ تَوْبُ الْخِلَافَةِ ، فَتَرَكَهَا مَثَلًا بَعْدَهُ ، وَلَا يَخْلِفُ اللَّهُ لِمَنْ  
 اتَّصَلَ بِالْحِلْمِ وَعَدَهُ ؛ وَمِمَّا يُوَثِّرُ عَنِ الْمَأْمُونِ قَوْلُهُ : « لَوْ عَلِمَ النَّاسُ  
 تَحَبُّبَنَا فِي الْعَفْوِ ، لَتَقَرَّبُوا إِلَيْنَا بِالْجُرَائِمِ ! » وَمَا كَانَ أَجْمَلَ بِالْمُعْتَمِدِ أَنْ  
 يَبْقِيَ عَلَى جَانٍ مِنْ عِبِيدِهِ قَدْ مَكَّنَّهُ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ ، لَا يُؤْمَلُ الْحُصُولُ عَلَى  
 أَمَدِهِ ، وَلَا يَجْدُرُ تَعْصِبُ قَبِيلِهِ ؛ وَلَا يَزِيدُهُ الْعَفْوُ عَنْهُ إِلَّا تَرْفَعًا وَعِزًّا ،  
 وَجَلَالَةً وَهَيْئَةً ، وَذِكْرًا جَبِيلًا ، وَأَجْرًا جَزِيلًا . فَلَا شَيْءَ أَمْنَحَى لِلْسَبْتَةِ  
 مِنَ الْحَسَنَةِ ، وَلَا أَقْتَلُ لِلشَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ ! وَرَحِمَ اللَّهُ الشَّاعِرَ إِذْ يَقُولُ :

[الكامل]

وَطَعَنَتْهُمْ بِالْمَكْرُمَاتِ وَبِاللَّهِ فِي حَيْثُ لَوْ طَعَنَ الْقَتَا لَتَكَسَّرَا  
 وَذَكَرُوا أَنَّ الْمُعْتَمِدَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ وَلَاتَ حِينَ مَنَدِمَ ! وَمِنْ الْحِكْمِ  
 قَوْلُهُ : « أَنْتَ عَلَى مَا لَمْ تَفْعَلْهُ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّ مَا فَعَلْتَهُ ! » جَعَلْنَا اللَّهُ  
 مِمَّنْ يَمْلِكُ عَيْنَانِ نَفْسِهِ ، وَتَقَدَّمَ لَعْدِهِ فِي أَمْسِهِ . وَكَانَ زَمَنُ الْمُعْتَمِدِ بِالْأَنْدَلُسِ  
 مَشْهُورًا بِالرَّاحَاتِ وَالْآدَابِ ، وَأَيَّامُهُ مَوْصُوفَةٌ بِاخْضِرَارِ الْجَنَابِ .

## بقية اخبار المعتمد بن عباد

ولما استوسق ليوسف بن تاشفين بسببه أمر الجهاد ، وراقه حسن ما  
 بالأندلس من البلاد ، وأغري بملوك الطوائف ، وفكرت لديه مساوئهم ،  
 أزمع على خلعهم ؛ فبدأ بصاحب غرناطة حميد باديس ؛ ثم ثنى  
 بالمعتد على الله ؛ فنازلته قواديه بإشبيلية ، ونازلت ولده المأمون  
 بقرطبة ، وولده الرازي بوندة . ولما ضاق به الأمر ، جدد مراسلة  
 سلطان النصارى ، يستصرخ به ، ويطمعه ؛ فبعث إليه جيشاً أوقع  
 بالمرابطين المحاصرين لأهل جيان وقية استأصلتهم ؛ ولأجلها ذهبوا إلى  
 الإقطار بدمه عند خلعهم لو اتهمت الفتنيا بذلك . ثم وصل النصارى إلى  
 بلكمة من أخواز إشبيلية ؛ فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة  
 تنافس فيها المسلمون . وعند ذلك يئس ابن عباد ، وأيقن بالغبلة .  
 وتراعى الناس من فوق أسوار إشبيلية ، واستدعى أهلها أرواء المرابطين .  
 وركب المعتد ، وقد اقتحم البلد يوم الثلاثاء منتصيف رجب من سنة  
 ٤٨٤ ، وعليه قميص يشق عن بدنه ، وقد اعتزل السلاح ، والسيف  
 منتصب بيده ؛ وحمل على الداخلين ؛ فردتهم على أعقابهم ، وقتل منهم  
 فارساً ؛ ونزع الناس أمامه ، وخلفوا الباب ؛ فأمر بسده ، وعاد إلى  
 القصر . وإلى تلك الحال يشير بقوله :

[مجزوء الكامل]

كَمْ رُمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ أَنْ لَا تُخْصِنِي الدُّرُوعُ  
 وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ صِرَ عَلَى الْحَشَى دِرْعُ دَفُوعِ  
 أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ يَهَوَايَ دُلَايِي وَالْحُشُوعُ  
 مَا مَرَّتْ قَطُّ إِلَى الْقِتَا لِي وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ  
 شَيْمُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ وَالْأَصْلُ تَبِعُهُ الْفُرُوعُ

وفي يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، فُتِحَت المدينة ؛ فوقع النهب ؛ وفرَّ أهلها إلى المحلة . وخرج ابن عبَّاد وابنه مالك ؛ فقتل مالك بين يديه . وكوثر المعتد ؛ فأغمد سيفه ، وانصرف إلى القصر ملقياً بيده . ووقع البريخ بكف الأيدي . ثم أخرج المعتد ؛ فغرب مكبولاً ، مُدال العز ، مسلوب الملك ، بعد أن جرَّت عليه أهوال . وتلقَّت بنته يوم الخروج ، ثم جبرَّت عليه بعد ذلك . واستقرَّ بأغمت ، وأقات من عزَّل بناته . وجرَّت عليه خطوب شهيرة ، هيون سباعها مصائب الزمان ، وحوادث الحدان . وبأغمت ماتت حظيئة قبله ؛ وله في التفجع عليها ، ورثاء نفسه ، وإنذاره بسرعة لحاقه بها ، وذِكْر مَعْنَدِهِ وأبائمه وتقلب الأحوال به ، أقوال مَفْتَتَة للقلوب ، مَفْجَرَة للقروب ، مُسْلِيَة عن متاع الدنيا المسلوب .

وكانت وفاته بأغمت في ذي الحجة من عام ٤٨٨ . ولما أحس بالنية تروقه ، وجبالها تعلقه ، أمر أن يكتب على قبره :

قَبْرُ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي حَقًّا ظَفَرْتَ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عَبَّادِ  
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَتَلُوا بِالْحَصْبِ أَنْ أَجْدَبُوا بِالرَّيِّ لِلصَّادِي  
نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ وَأَقَانِي بِهِ قَدَرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَوَأَقَانِي لِمُعَادِي  
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ النِّعْشَ أَعْلَمُهُ أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادِي فَوْقَ أَطْوَادِ  
فَلَا تَزَلْ صَلَوَاتُ اللَّهِ دَائِمَةً عَلَى دَفِينِكَ لَا تُحْصَى بِتَعْدَادِ

قُلْتُ : ووقفت على قَبْرِ الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ بِمَدِينَةِ آغَمَتِ فِي حَرَكَةِ رَاحَةٍ أَعْمَلْتُهَا إِلَى الْجِهَاتِ الْمَرَاكُشِيَّةِ ، بَاعِثًا لِقَاءَ الصَّالِحِينَ وَمُشَاهِدَةً الْآثَارِ ، عام ٧٦١ ؛ وهو بمقبرة آغَمَتِ فِي نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ ، قَدْ حَفَّتْ بِهِ سِدْرَةٌ ؛ وَإِلَى جَانِبِهِ قَبْرُ اعْتِمَادِ حَظِيَّتِهِ ، مَوْلَاةِ رُمَيْكٍ ؛ وَعَلَيْهِمَا وَحْشَةُ التَّغْرُبِ وَمَعَانَاةُ الْحُمُولِ مِنْ بَعْدِ الْمُلْكِ ؛ فَلَا تَمُتْكَ الْعَيْنُ دَمْعَهَا

عند رؤيتها . فَأَنْشَدْتُ فِي الْحَالِ :

[البسيط]

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بِأَغَمَتِ رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمُهِمَّاتِ  
لَمْ لَا أَزُورُكَ يَا أَنْدَى الْمُلُوكِ بَدَأَ وَيَا ضِيَاءَ اللَّيَالِي الْمُدْلِهَمَّاتِ  
وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَّى الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ إِلَى حَيَاتِي لَجَادَتْ فِيهِ أَيْبَانِي  
أَنَافَ قَبْرُكَ فِي هَضْبٍ يُبَيِّرُهُ فَتَنْجِيهِ حَقِيَّاتِ التَّحِيَّاتِ  
كُرُمْتَ حَيًّا وَمَيَّنَّا وَاسْتَهَرَّتْ عَلَيَّ فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ  
مَا رِيءَ مِثْلُكَ فِي مَاضٍ وَمَعْتَدِي أَنْ لَا يُرَى الدَّهْرُ فِي حَالٍ وَلَا آتِ

وقال ابن الصِّنَوَيْيَ : لما انفصل الناس من مُصَلَّى الْعِيدِ الَّذِي تَوْفَى الْمُعْتَمِدُ فِي شَهْرِهِ ، حَفَّ بِقَبْرِهِ مَلَأٌ مِنَ النَّاسِ ، يَتَوَجَّعُونَ لَهُ ، وَيَتَرَحَّمُونَ عَلَيْهِ . وَأَقْبَلَ شَاعِرُهُ ابْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ فِي جُمْلَتِهِمْ ؛ وَقَدْ اتَّفَقَ حُضُورُهُ يَوْمَئِذٍ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ؛ فَوَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ ، وَأَنْشَدَ :

[الكامل]

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَسَامِعُ فَأُنَادِي أُمَ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّاعِ عَوَادِ  
لَمَا خَلَّتْ مِنْكَ الْقُصُورُ فَلَمْ تَكُنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ  
أَقْبَلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعًا وَتَخَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَادِ

ثم خرَّ يبكي ويعفر وجهه في تراب قبره . قال : فبكى ذلك المَلَأُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَلَابِسَهُمْ ، وَارْتَفَعَ نَشِجُهُمْ وَعَوِيلُهُمْ ، وَمَتَعَ النَّهَارَ . فَلَهُ كَرُّ ابْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ ، وَمَلَأُ ذَلِكَ الْبَلَدِ . قُلْتُ : وَقَامُ رِثَائِهِ :

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تُبَرِّدَ أَدْمَعِي نِيرَانُ حَزْنٍ أَضْرَمْتَ بِفَوَادِي  
فَإِذَا بَدْمَعِي كَلَّمَا أَجْرَيْتَهُ زَادَتْ عَلَيَّ حَرَارَةُ الْأَكْبَادِ  
يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُتَبَيِّرُ أَهَكَذَا يُنْحَى ضِيَاءُ النَّيِّرِ الْوَقَّادِ

١ . اورد الفتح أول هذه القصيدة في « قلائد المعيان » ( ص ٣١ ) .

أَفْقَدْتَ عَيْنِي مَذْ فَقَدْتَ إِثَارَةَ  
 مَا كَانَ ظَنِّي قَبْلَ مَوْتِكَ أَنْ أَرَى  
 الْهَضْبَةَ الشَّتَاءَ تَحْتَ ضَرْبِهِ  
 عَهْدِي بِكَ وَهُوَ طَلَّقَ ضَاخِكُ  
 وَالْمَالُ ذُو شُلٍ مَذَابِ وَالنَّدَى  
 أَيَّامٌ تَخْفُقُ حَوْلَكَ الرَايَاتُ فَوْ  
 وَالْأَمْرُ أَمْرُكَ وَالزَّمَانُ مَبْشُرُ  
 وَالْحِلُّ تَمْرُحُ وَالْفَوَارِسُ تَنْحَنِي  
 إِذْ نَحَسِبُ الْهَيْجَاءَ رَوْضًا يَانِعًا  
 وَتَحَالُ غَنَبَرُهَا دُخَانُ النَّدَى قَدْ  
 وَكَأَنَّ بَيْضَ الْمَرْهَفَاتِ عَلَى الطُّلَى  
 وَلَكُمْ هَزَزَتِ الْغُصْنُ مِنْ طَرْبِهَا  
 وَسَقِيتَ رَحْكَ نَمٍّ مِنْ مَاءِ الطُّلَى  
 وَكَأَنَّمَا فِي الدَّرْعِ مِنْكَ رِبِيعَةٌ  
 حَتَّى إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْهَرَ حَقْدَهُ  
 أَلْقَتْ بِأَيْدِيهَا مَعَاظِلَكَ الَّتِي  
 وَنَهَدِمَتْ أَرْكَانُ كُلِّ سِيَاسَةٍ  
 قَالُوا أَضَاعَ الْحَزْمَ وَهِيَ بَوَاطِلُ  
 وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُلْكِكَ فَالْعَنَا  
 حَازَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ مُلْكُ أُمِّيَّةٍ  
 وَرَأَى مُعَاوِيَةَ عَلِيًّا هَالِكًا  
 وَالدَّهْرُ أَذْهَبَ تَبْعًا وَجُنُودَهُ  
 وَأَزَالَ مُلْكَ الْأَرْضِ عَنْ شَدَادِ

منها :

لَمَنِ لَأَعْجَبَ بَعْدَ فَقْدِكَ كَيْفَ لَا  
 أَوْ يَخْضِبُ الْخَطِيءُ بَعْدَكَ ثَغْرَهُ  
 أَوْ تَلْتَقِي الشَّجَعَانُ تَحْتَ عِجَاجِهِ  
 قَدْ كَانَتْ الْأَمْدَاحُ يُجْعَلُ دُرُّهَا  
 مَنْ يَفْتَحُ الْأَمْصَارَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 مَنْ يَطْعَنُ النُّجْلَاءَ فِي الْمِرَاقِ أَوْ  
 مَنْ يَتْرِكُ الْأَسْطَارَ فِي الْأَوْرَاقِ مَنْ  
 مَنْ يَفْهَمُ الْمَعْنَى الْحَقِيَّةَ وَمَنْ لَهُ  
 مَنْ يَلْبَسُ الْحَصْدَاءَ وَهِيَ حَصِينَةٌ  
 وَيَقْلُدُ الصِّصَامَ وَهُوَ مُنَمَّقُ  
 مَنْ ذَا يَمْدُ عَلَى الْعَفَاةِ ظِلَالَهُ  
 مَنْ يَبْذُلُ الْآلَافَ لِلزُّوَارِ وَالْ  
 هَيْهَاتَ مَاتَ الْجُودُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 وَدَجَا الزَّمَانُ وَأَفْحَطَتْ أَيَّامُهُ  
 مَسَخَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ فَتَعَوَّضُوا  
 يَا سَاكِنِي الْقَبْرِ الَّذِي فَقَدَانُهُ  
 كُنَّا نَوْمِلُ أَنْ نَرَى لَكَ عَوْدَةً  
 وَتَبَيَّنَتْ خَيْلُكَ فِي مِرَابِطِهَا عَلَى  
 وَتَهَمَّدُ السُّلْطَانُ فِي الْأَقْطَارِ  
 فَإِذَا الْمَنَابِ قَاطِعَاتُ بِالْمُنَى  
 قَدْ كَانَ هَزُّ الرَّمْحِ عَطْفِي قَدَّهُ  
 وَابْنُ الْحَسَامِ الْعُضْبُ مِنْ إَغْمَادِ  
 تَسْتَنْكِرُ الْأَسْيَافُ فِي الْأَغْمَادِ  
 أَوْ يَرْكَعُ الْهِنْدِيُّ فَوْقَ الْمَادِ  
 أَوْ يَقْتَضِي الْمَبِيدَانُ سَبْقَ جَوَادِ  
 فِي كَفِّ أَيْ مِمَّا نَقَّادِ  
 مَنْ يَعْقِدُ الرَايَاتِ لِلْقُوَادِ  
 مَنْ يَضْرِبُ الْإِخْدُودَ فِي الْمِرَادِ  
 لَ الْحِلِي فِي اللَّبَاتِ وَالْأَجْيَادِ  
 صَدَقَ الْحَدِيثُ وَصَحَّةُ الْإِيرَادِ  
 وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ عَيُونِ جَوَادِ  
 بِفَرِيدٍ لِفَرْنَدٍ وَحَلِيِّ نَجَادِ  
 وَيَبْلُغُ الْأَمَالَ كُلُّ مُرَادِ  
 مَدَاحِ وَالْقُصَادِ وَالرُّوَادِ  
 وَأَصَابَ بَزْ الْفَهْمِ كُلُّ كَسَادِ  
 فَالْجَدْبُ مَوْجُودٌ بِكُلِّ مُرَادِ  
 مِنْ ذَلِكَ الْإِصْلَاحُ بِالْإِفْسَادِ  
 قَتَلَ الرَّجَاءَ وَفَتَ فِي الْأَعْضَادِ  
 تَعْطِي بِهَا الْأَيَّامُ كُلُّ قِيَادِ  
 وَعَنْدٍ مِنَ الْإِتِهَامِ وَالْإِنْجَادِ  
 لِلْأَضْهَارِ وَالْحُقُودِ وَالْأَوْلَادِ  
 وَالدَّهْرُ لَا يُرْدِي سِوَى الْأَجْوَادِ  
 وَأَبْنَى الْحَسَامِ الْعُضْبُ مِنْ إَغْمَادِ

وتصاهلت بهم الجياد إلى الوغى  
 إذ حان حين العز أذركك الردى  
 لو كنت إذ ساروا بنعشك حاضراً  
 لمي لأعجب من ضجيعتك التي  
 جاورتها في قنبرها فكأنما  
 راحت وأنقلك النوى من بعدها  
 جمعتكما آغيات في الترب الذي  
 أم الملوك أما علمت يزائري  
 أبكى العلى والمجد فقد كما الذي  
 لهفي على تلك السجيا إنها  
 لهفي على تلك العطايا واللى  
 كم نعمة خضراء قد ألبستني  
 ناديت كفك طامياً مستظراً  
 أخرجلت في الجود الذي دفقت حا  
 قد كنت لا أرضى البحار مناهلي  
 في دولة غراء عبادية  
 ورياسة نحي البلاد رئيسها  
 والبدري ترسي والثرياً معقلي  
 أغرقتني في بحرك الطامي الذي  
 وسلكت في نصري سيوف مكارم  
 عادت بجاراً إذ سقيت ضحاضحي  
 ومددت كفي للكواكب قاعداً  
 وتضاحك الأنجاد للأنجاد  
 فكان موتك كان بالميرصاد  
 لرأيت نهيلاً على الأعواد  
 قد كان قربك أنسا في الناد  
 قد كنتا في ذا على ميعاد  
 فمشيت إليها فوق نعشك غاد  
 وسدما منه بأي وصاد  
 لك ذي وفاء مخلص ووداد  
 ليست له الدنيا ثياب حداد  
 زهر الربا موشية الأبراد  
 كم أخرجلت من واكفات غواد  
 ومواهب واليتها وأباد  
 فقضى علي نذاك باستعباد  
 ثم طيئ وفضحت كعب لإباد  
 زهواً ولا أرضى السماك مهادي  
 فلت من الأملاك كل عناد  
 يومه يوم ندى ويوم جلا  
 والصبح سفي والرياح جيادي  
 منع الظماء ورود كل ثماد  
 تركت سيوف الهند غير حداد  
 وغدت هضاباً إذ رفعت وهادي  
 فبلغتها لما غدوت مصادي

نفقتني والدهر بيخس قيمتي  
 وأقمتني لما رأيت حوا  
 فالجن بعدك ليس يدري ما الكرى  
 وكان قلبي في محالب طائر  
 إن لم تطب فيك المراتي والثنا  
 أو فزت من ذاك الجمال بنظرة  
 إن السادات التي قد حزتها  
 ولئن مضت فإن ذكرك خالد  
 يا صاحب الفقر التي قد أصبحت  
 راقت وجوه الكتب بالنكت التي  
 لما فقدت المثل آترك الردى  
 شقوا الثياب وجدوا أحزانكم  
 كم رد ربح الخطب عنكم ظلّه  
 لولا أمير المسلمين وفضله  
 والله يبقيه لكم ليصونكم  
 أبقى عليكم ستره وأقالكم  
 كان ابن عباد صباحاً مسفراً  
 كم بات منه البحر تحت سكينه  
 ما كان إلا الروض موشي الحلي  
 يتر عنده الحمد معطفه كما  
 يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً  
 قد كان من أعلى الملوك رياسة  
 وأنفت من رخصي به وكسادي  
 دث الأيام قد أسرفن في إقعادي  
 في دمنعة منهلة وسهاد  
 وكان جني فوق شوك قتاد  
 مني فليست بطيبير الميلاد  
 لجعلتها حتى القيامة زادي  
 تركتك منفرداً بلا أنساد  
 يبقى مع الأيام والآباد  
 زهر الرياض بضيقي بغداد  
 منعت زنادك ثم من لصاد  
 ومن الصحيح تنافر الأضداد  
 وصلوا التلثف يا بني عباد  
 وحماكم من مثل عاصف عاد  
 لم تكتحل أجفانكم برقاد  
 من كل حادثة تخاف فؤادي  
 قد يشفق الأمجاد للأمجاد  
 لغياب لث أظلمت وداد  
 والطود ذو الهضبات فوق وساد  
 سقيت أزاهره بصوب عهاد  
 يتر عطف الأملد المياد  
 صعب اللقاء على ذوي الأحاد  
 وفؤاده من أوزع الزهاد



يا موت لم تشفق لغربته ولم تر ما تخلفه من الأولاد  
ما ورث الأبناء إلا مجده إن العلى ميراث كل جواد  
كأن نَفْدِي موته بنفوسنا لو كان يقبل فيه منا القادي  
يا موت كيف رأيت صبر محمد قبل احتلاك كان في استعداد  
كنم رام في رجب لقاءك جاهداً والخط ليس ينال دون جهاد  
أهوى الشهور سواه فهو أذلني وأحب أيامي سوى الآحاد  
صبراً جيلًا يا بنيه فربما نال المني قوم بلا ميعاد  
إني نظمت لكم لآليء قوله عرضت على الأيام صفو وداد  
ولقد تمازج حبكم بجوانيحي كتمازج الأرواح بالأجساد  
فسقى انسكاب الغيث قبر أياكم من رائج متدفق أو غاد  
ولقد رثبت وما قضيت حقوقكم والله يعلم ما يكن فؤادي

### ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما اليها

كان مبدأ نباهة هذا البيت سليمان بن محمد بن هود الجذامي،  
الملقب بالمستعين. وكان، في مدة الجماعة بالأندلس، من كبار الجند  
بالغمر الأعلى إلى حين الفتن الشاملة؛ فتغلب على مدينة لاردة، وقتل  
قائدها أبا المطرف التيجي في خبر طويل. واستولى على مدينتي لاردة  
ومنتون وأنظاريهما، في غرة محرم من سنة ٤٣١.

### أيام سليمان بن هود

ولما ثار أهل سرقسطة بيحيى بن منذر بن يحيى، صرفوا طاعتها إلى

سليمان بن هود. فضخم أمره، واشتهر ذكره، وبعده صيته، إلى أن  
توفي سنة ٤٣٨. وتخلّف خمسة أولاد، قد كان قسم عليهم أقطار ملكه؛  
فولّى أحمد منهم مدينة سرقسطة المدينة البيضاء؛ وولّى يوسف  
مدينة لاردة؛ وولّى محمداً مدينة قلعة أيوب؛ وولّى لباً وشقة؛  
وولّى المنذر تطيلة. واستبدوا بعد موته. وكان أحمد منهم مصنوعاً  
له؛ وضايقهم؛ فظهر عليهم، إلى أن ابتزهم ما كان بأيديهم، واستأصلهم  
إلى أن ذهب اسمهم ومسمّاهم في حديث طويل. وتلقب أحمد  
بالمقتدر بالله.

### أيام المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود

واستوسقت للمقتدر أحمد بن سليمان الطاعة بالثغر الجوفي. واستضاف  
مدينة طرطوشة إلى عمله، وكانت تحت يد لبيب من الفتيان  
العابرية، ثم في يد مقاتل بعده؛ فاستحوذ عليها بعد مهلكها.  
وكانت بينه وبين الرثوم حروب عظيمة، ودخلت مدينة برشت من  
عمله غنوة، فاستولت من سبئها على ما يقارب مائة ألف نفس،  
وعبروا المدينة. فشمّر المقتدر أحمد بن سليمان بن هود إلى استرجاعها،  
واستنفر المسلمين من جميع بلادهم، ونازل المدينة؛ وكان في جيشه الذي  
احتشده من الرثمة بالقسي العقارة أزيد من ستة آلاف؛ ففتح الله  
المدينة على يده غنوة. فشاع له بذلك ذكر جميل وصيت شهير. ثم  
زاحم إقبال الدولة علي بن مجاهد؛ فاستنزل على مدينة دانية، واستضاف  
عملها إلى ما بيده؛ فاتسعت خطته، وانفسحت عمالته، وتعدّد جيشه.  
ثم هلك سنة ٤٧٥ سيء الميته من كلب أصحابه كان يعرض له أعضاه،  
وذلك لقتله رجلاً صالحاً دخل عليه يعظه. وقد ضرب على رعيته ضريبة

مالٍ للرُّوم ؛ فلم يُنْهله الله أنْ أَخَذَهُ أَخْذًا وَبِيلاً . وولي الأمر بَعْدَهُ  
ابنُه المَوْثَمين ؛ فلم تَطُلْ مُدَّتُهُ أَنْ هَلَكَ .

## أيام المَوْثَمين محمد بن المقتدر أحمد

ابن سُلَيْمان بن هُود

تَصَيَّرَ لَهُ مُلْكُ أَبِيهِ بِالتَّغَرُّ كُلِّهِ ، وَاسْتَبْرَأَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ  
سَنَةَ ٤٧٨ ؛ وَوَلِيَ بَعْدَهُ الْمُسْتَعِين . وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ بَنُ عَبَّادَ مَا  
يَكُونُ بَيْنَ الْفُحُولِ فِي الْهَجَمَاتِ ، وَاللُّيُوثِ فِي الْأَجَمَاتِ . وَبِهِ تَلَا حَقِّ ابْنِ  
عَمَّارٍ لَمَّا خَالَفَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، حَسْبًا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْكِتَابِ .

## دولة المستعين أحمد بن محمد

ابن سُلَيْمان بن هُود

وَقَامَ بِأَمْرِ الثُّغُورِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ الْمُسْتَعِينُ بِاللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ هُودَ . وَفِي  
سَنَةِ ٤٨٩ ، نَازَلَ الْعَدُوُّ مَدِينَةَ وَشَقَّةَ مِنْ عَمَّالَةِ الْمُسْتَعِينِ ، وَضَيَّقُوا بِهَا .  
وَحَشَدَ الْمُسْتَعِينُ جِيوشًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَحَمَلَ إِلَيْهَا الْمِيرَةَ . وَالتَقَى الْفَرِيقَانِ ،  
وَوَقَعَتِ الْحُرُوبُ مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا ، حَتَّى كَادَتْ تَأْتِي  
عَلَى الْفَرِيقَيْنِ . وَتَرَكَ ابْنُ هُودَ الْمَصَافَ عَلَى حَالِهِ ، وَقَصَدَ مَضْرِبَهُ لِمَا  
سَاءَ ظَنُّهُ بِيَوْمِ الْكَرْيَةِ ؛ فَرَفَعَ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْمَالِ ؛ ثُمَّ كَرَّ إِلَى مَقَامِهِ ،  
وَأَبْلَى إِلَى أَنْ كَانَتْ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَخْرِيَاتِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ الْعَامِ .  
فَفَقِدَ مِنَ النَّاسِ مَا يُنَاهِزُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَالتَمَسَ أَهْلُ وَشَقَّةِ الْأَمَانِ  
لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ يَوْمِ الْهَزِيمَةِ .

ثُمَّ سَمَا طَمِعَ الْعَدُوُّ إِلَى مَرْقُوسَةِ حَاضِرَةِ الْمُسْتَعِينِ ؛ فَتَنَزَّلَهَا فِي جَبُوعٍ  
لَا تُحْصَى . وَأَجَازَ الْأَمِيرُ يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينِ الْبَحْرَ ، وَوَجَّهَ جَيْشًا لِنَظَرِ  
قَائِدِهِ عَلِيِّ بْنِ الْحَاجِّ يُفَحِّصُ عَنْ أَحْوَالِ مَلِكِ الرُّومِ بِسَرْقُسْطَةِ ، وَيُخْبِرُ  
أَحْوَالَ جَيْشِهِ . فَشَاعَ لَمَّا أُطْلِيَ عَلَى مَحَلَّةِ الطَّاعِيَةِ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينِ ؛  
فَأَوْقَعَ اللَّهُ الرِّعْبَ فِي قُلُوبِ الْعَدُوِّ ، وَانْهَزَمَ جَمْعُهُ ؛ فَأَعْمَلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ  
السُّيُوفَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَنَجَا الطَّاعِيَةُ فِي أَفْذَاذٍ قَلِيلَةٍ بَعْدَ مُشَارَفَتِهِ الْعُطْبِ .

وَالْمُسْتَعِينُ هَذَا يَمُنُّ لَمْ يُرَاجِعْهُ أَمِيرُ لَسْتُونَةِ ، وَلَا نَازَعَهُ مَا فِي يَدِهِ ،  
وَلَا تَطَرَّقَ لِحُلْمِهِ ، قَبُولًا مِنْهُ لِلْعَفْوِ ، وَإِقْرَارًا فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ لَمَّا  
تَجَدَّدَ مُضَاقَتُهُ مِنْ تَصْيِيرِ مَا بِيَدِهِ إِلَى الرُّومِ ؛ فَكَانَ يُلَاطِفُهُ . وَوَجَّهَ  
إِلَيْهِ ابْنُ هُودَ وَلَدَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ ؛ فَقَامَ بِحَقِّهِ ، وَصَرَفَهُ مُكْرَمًا ، وَأَصْحَبَهُ  
كِتَابَهُ بِمَا نَصَّهُ :

« مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفُ بْنُ تَاشُفِينِ ، إِلَى الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ  
هُودَ — أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ . كَتَبْنَاهُ إِلَيْكَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُوَالِي أَيَّامَ  
سَعْدِكَ ، وَيُعَالِي أَعْلَامَ مَجْدِكَ ، وَيُطِيلُ فِي طَاعَتِهِ وَعَلَى أَحْسَنِ مَا نَمَّاهُ  
عُمْرَكَ ، وَيَشُدُّ بِتَقْوَاهُ أَزْرَكَ ، وَيَجْرِي عَلَى كُلِّ لِسَانٍ صَدَقَ ذِكْرُكَ ؛  
مِنْ حَضْرَةِ مَرَاكُشَ ، حَيْثُ تُتْلَى آيَاتُ مَرْفِكَ ، وَمَا تُرَى السَّادَةُ الْقَادَةُ  
سَلَفِكَ . وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ ، وَنُسْتَهْدِيهِ أَيْمَنَ الْمَسَالِكِ  
وَأَبْيَنَ الْمَقَاصِدِ ، وَنَسْأَلُهُ أَتَمَّ الْفَوَائِدِ ، وَأَعَمَّ الْعَوَائِدِ ؛ وَنُصَلِّي عَلَى  
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَفْوَةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَخَاتِمِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ  
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا . وَأَمَّا الَّذِي عِنْدَنَا — أَيُّدِكَ اللَّهُ — لَجَانِبِكَ الْكَرِيمِ ؛ وَبِحَدِّكَ  
الْعَمِيمِ ، وَبِحَدِّكَ الْمَعْلُومِ الْمَقْهُومِ ، فَوَاضٍ صَرِيحٌ ، وَعَقْدٌ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى  
صَحِيحٌ . وَوَرَدَنَا — أَدَامَ إِبْقَالُكَ ، وَأَجْرَى إِلَى غَايَةِ الْإِفْضَالِ أَمَّا لَكَ نَشْأَةُ  
السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ ، وَالتَّبَاهَةِ وَالتَّوْبَلِ ، أَبُو مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ ابْنُكَ وَوَلَدَةُ  
وَتَنْشُبَا ، وَابْنُنَا وَدَادَةُ وَتَقَرُّبَا ، زَادَ اللَّهُ بِهِ عَيْنَكَ قُرَّةً ، وَنَفْسَكَ

دارُ مُلْكِهِمْ سَرَقُ سُلْطَةِ إِلَى النَّصَارَى ، مُتَعَلِّقًا بِأَذْيَالِ ابْنِ رُذَمِيرٍ ، إِلَى أَنْ عَاوَضَهُ مِنْ رُوطَةٍ بِحَظَّتِهِ مِنْ مَدِينَةٍ تُطِيلُ فَاثْقَلُ إِلَيْهِ بِأَهْلِهِ . وَلَمَّا ثَارَ ابْنُ قَسِيٍّ فِي صَقَرٍ مِنْ عَامِ ٥٣٩ ، نَهَضَ إِلَى قَرْطَبَةٍ عِنْدَ ثَوْرَةٍ ابْنِ حَمْدِينَ ، فَدَخَلَهَا ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَرَأَ مِنْهَا وَقَصَدَ جَيْآنَ ، وَقَدْ ثَارَتْ لِابْنِ جُزَيٍّ قَلْعَةُ جَيْآنَ ؛ فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَعَاجَلَ عَرْنَاظَةَ ؛ وَقَدْ ثَارَ بِهَا ابْنُ أَضْحَى قَاضِيَهَا ، وَاسْتَدْعَى ابْنَ حَمْدِينَ ؛ فَتَمَلَّكَ ابْنُ هُودٍ الْمَدِينَةَ ، وَشَدَّ حِصَارَ مَنْ بَقِصَبَتِهَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ شَهْرًا . وَجَيْشُ قَاضِي مُرْسِيَّةِ ابْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْجَيْشَ إِلَيْهَا ؛ وَسَبَقَ الْمَلْتَمُونَ ؛ فَأَوْقَعُوا بِهِ الْوَقِيعَةَ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ . وَظَهَرَ الْمَلْتَمُونَ إِلَى أَنْ عَجَزَ ابْنُ هُودٍ عَنْ مَرَامِ عَرْنَاظَةَ ، وَفَرَّ إِلَى جَيْآنَ . وَفَرَّ ابْنُ أَضْحَى إِلَى الْمُتَكَبِّ ، وَاسْتَوْلَى الْمَلْتَمُونَ عَلَى الْبَلَدِ . ثُمَّ إِنَّ ابْنَ هُودٍ اتَّصَلَتْ بِهِ ثَوْرَةُ ابْنِ عِيَّاضِ مُرْسِيَّةِ ؛ فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا ، وَدَخَلَهَا فِي الْحَادِي عَشَرَ لِحَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ٥٤٠ . ثُمَّ إِنَّ الرُّومَ أَغَارَتْ عَلَى مُرْسِيَّةِ وَجِهَاتِ الشَّرْقِ ؛ وَكَانَ اللَّقَاءُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَوْفِي عَشْرِينَ لَشَعْبَانَ ؛ فَهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ هَزِيمَةً شَنِيعَةً قُتِلَ فِيهَا ابْنُ هُودٍ . وَانْقَرَضَ أَمْرُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ الْمُتَوَكِّلُ بْنُ هُودٍ ، يَفْخَرُ بِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَةِ الْمُسْتَعِينَ بْنِ هُودٍ ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ شُطَّارِ الْأَدْبَاءِ يَوْمَئِذٍ :

يقولُ المستعينُ : أَبِي وَجَدْتِي حَلِيفُ الْبَأْسِ وَالْجُودِ الْمَعِينِ  
فَقُلْتُ : الْفَضْلُ فِي التَّقْوَى فَدَعْنَا بِفَخْرِ التَّرَبِّ وَالْمَاءِ الْمَهِينِ  
وَهَلْ فِي الْمُسْتَعِينَ رَأَيْتَ خَيْرًا فَكَيْفَ الْمُتَدَعِي فِي الْمُسْتَعِينَ

### دولة بني دنون بطليطلة وما إليها

وذكر المؤرخون أن بني دنون هؤلاء الملوك برابرة من قبيل

البربر الذين كانوا يخدمون في الدولة العائرية ، وأن اسم جدّهم الذي ينسبون إليه هو زنون ؛ فغيّر بالدال لطول المدّة . ولم يكن لهم رئاسة ولا نباهة إلا في دولة المنصور محمد بن أبي عامر ؛ ففيها تقدّموا ، واشتهروا ، وقادوا الجيوش ، واستقرّوا بكورة سننبرية . ولما ضبط أمر طليطلة عبد الرحمن بن مثنو ، تمّ عبد الملك بن مثنو بعده ، وأساء السيرة في أهلها ، خلعه ، واتّفقوا على أن يرسلوا إلى ابن دنون ؛ فوجه إليهم من سننبرية ابنه إسماعيل بن عبد الرحمن بن دنون .

### أيام إسماعيل بن دنون بطليطلة

#### وما إليها

قالوا : فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وما إليها ، وساس أهل مملكته سياسةً استقاموا عليها . واستنام في أموره إلى شيخ البلدة أبي بكر ابن الحديدي ؛ وكان من أهل العلم والدهاء ؛ فكان إسماعيل لا يقطع أمرًا دونه ، إلى أن حسده قوم من أهل طليطلة على منزله لديه . ثم توفّي إسماعيل ، وولي بعده ابنه يحيى المأمون .

### أيام يحيى بن إسماعيل بن دنون بطليطلة

#### وما إليها

فلما ملك يحيى بن إسماعيل طليطلة ، جرى على سبيل أبيه في استعمال قاتنون العدل ، وأجرى أموره مع ابن الحديدي على سنن أبيه ؛

١ غير أن مؤرخي ملوك الطوائف ، كابن حبان وابن بسام وابن عذاري ، يسمونهم « بني ذي النون » ؛ وهو تعريب اسم جدّهم زنون البربري .

مُسْرَةً ؛ ومعه وزيراك أبو الأصبع وأبو عامر . أَكْرَمَها الله بقواه ؛ وكلاً وَفَّيْنَاهُ حَقَّ نَصَابِهِ ، وآتَيْنَاهُ بِرَّهَ مِنْ بَابِهِ ، وَنَلَقَّيْنَاهُ تَكْرِمَةً بِمَقْتَضَى دَوَائِيهِ وَأَسْبَابِهِ . وَأَدْبَيْنَا إِلَيْنَا كِتَابَكَ الْخَطِيرَ ، الْمَقْبُولَ الْمَبْرُورَ ؛ فَوْقَئِنَّا بِهِ عَلَى وَجْهِ شَخْصِيَّهَا ، وَأَضْعَيْنَا فِي تَقْصِيلِ جُمْلِهِ إِلَى تَلْخِيصِهَا ؛ فَأَلَقَّيْنَا إِلَيْهَا مُرَاجَعَةً عَنْ ذَلِكَ مَا لَقَّيْنَاهُ ، وَسَفَرْنَا لَهَا عَنْ وَجْهِ مَقْصَدِنَا فِيهِ حَتَّى يَسْتَبِينَاهُ ، مِنْ جُمْلَةِ الْوَفَاقِ ، وَجَمَاعِ الْإِنْتَظَامِ فِي سِلْكِ مَا يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى وَالْإِتِّسَاقَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ولما احتلَّ يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ٤٩٦ ، أعاد إليه تَوْجِيهَ وَلَدِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَلَقَّبَ بِعِمَادِ الدَّوْلَةِ ، الْكَائِنَ بِحِصْنِ رُوطَةَ ، بِهَدِيَّةٍ جَلِيلَةٍ : كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا أَرْبَعَةُ عَشَرَ رُبْعاً مِنْ آيَةِ الْفِضَّةِ مُطَرَّزَةً بِاسْمِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ جَدِّهِمْ ؛ فَأَمَرَ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ بِضَرْبِهَا قَرَارِيطَ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَفَرَّقَهَا فِي طَبَاقِ الْمُرَابِطِينَ لَيْلَةَ النُّخْرِ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ ، عَقَدَ الْبَيْعَةَ لَوْلَدِهِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ ، وَحَضَرَ الْعَهْدَ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ الْمُسْتَعِينِ .

وَاتَّصَلَتْ أَبْطَامُ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ إِلَى سَنَةِ ٥٠١ ؛ ففِيهَا ، جَدَّدَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ وَلَوْلَدِهِ ، وَتَحَرَّكَ إِلَى الْجِهَادِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْهَا . فَدَخَلَ عَلَى تَطِيلَةٍ إِلَى أَرْنَيْطَ ، وَنَازَلَهَا ، وَدَخَلَ أَرْبَاضَهَا ؛ وَاعْتَصَمَ أَهْلُهَا مِنْهُ فِي كَنِيسَةٍ عَتِيقَةٍ ، فَحَرَّلَ عَنْهَا بَعْدَ مُصَالَحَتِهِمْ عَلَى مَالٍ يَوْدُونَهُ ، أَخَذَ بِهِ رَهَائِنَهُمْ . ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَقَدْ شَنَّ الْغَارَاتِ عَلَى تِلْكَ الْأَقْطَارِ ؛ فَعَمَّهَا إِحْرَاقٌ وَنَهَبٌ وَتَدْمِيرٌ . فَلَمَّا شَارَفَ بِلَادَ الْإِسْلَامِ ، تَلَا حَقَّ بِهِ النَّصَارَى ؛ فَاجْتَلَدَ الْفَرِيقَانِ أَحْرَ جَلَادٍ ، إِلَى أَنْ اسْتَشْهَدَ الْمُسْتَعِينُ بْنُ هُودٍ وَانْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ ؛ فَأُتِيَ الْقَتْلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَذَلِكَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ .

## أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود

### عِمَادُ الدَّوْلَةِ

بَايَعَ النَّاسُ عَبْدَ الْمَلِكِ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَشْهَدَ أَبُوهُ ، بِسَرَقُوسْطَةَ ، وَاسْتَرْطَوْا عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَلَبَّسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الرُّومِ . وَطَمَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَاطِمَةَ ، قَائِدُ الْمُلْتَشَةِ فِي سَرَقُوسْطَةَ عِنْدَ مَوْتِ الْمُسْتَعِينِ ؛ فَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا عَلَى سَهْرٍ مِنَ الْوَقِيعةِ ؛ فَلَمَّا قَرِبَ مِنْهَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَشَارَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ ، وَلَا يَبْدَأَ بِالْفِتْنَةِ ، وَيُخَيِّسِي عَلَيْهِمْ اسْتِعَانَةَ أَمِيرِهِمُ بِالرُّومِ ؛ فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ . ثُمَّ إِنْ عَبْدَ الْمَلِكِ تَلَبَّسَ بِمِلْكٍ قَشْتَالَةٍ ؛ وَأَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ ؛ فَاسْتَدْعَوْا قَائِدَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ مِنْ بَلَنْتِسِيَّةٍ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ ، وَفُتِحَتْ لَهُ الْمَدِينَةُ . وَاسْتَدْعَى عَبْدُ الْمَلِكِ النَّصَارَى ؛ فَتَحَرَّكَ إِلَيْهِ ابْنُ رُدْمِيرَ . وَبَادَرَ ابْنُ الْحَاجِّ قَائِدُ عَسْكَرِ اللَّسْثُونِيِّينَ إِلَى قِتَالِهِ ؛ فَخَذَلَ النَّاسَ ، وَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ ؛ فَاسْتَشْهَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ؛ وَأَتَتْ الْهَزِيمَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، عَشِيَّ يَوْمِ الْأَحَدِ مُنْتَصَفِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ ٥٠٣ ، إِلَى أَنْ أَخْرَجَ أَهْلُ سَرَقُوسْطَةَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ الْمُؤْتَمِنِ بْنِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ الْمُسْتَعِينِ مِنَ الْحَضَرَةِ ، وَاسْتَدْعَوْا عَامِلَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ ؛ فَدَخَلَها يَوْمَ السَّبْتِ الْعَاشِرِ الَّذِي قَعْدَةُ سَنَةِ ٥٠٣ ، وَلَمْ يَقُمْ لَهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ عَقْبِهِ بَعْدُ قَائِمَةٌ . وَانْحَازَ إِلَى قَبِيَّةِ الرُّومِ .

## أيام أحمد بن عبد الملك

### بن أحمد بن يوسف بن هود

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ بَقِيَّةَ بَنِي هُودٍ ، أَبَقَتْهُ الْفِتْنَةُ بَغْرَ رُوطَةَ ، لَمَّا تَصَيَّرَتْ

فاستقامت طاعته ، واتسقى ملكه ، إلى أن وقعت المنازعة بينه وبين جاره  
سليمان بن هود ؛ فوجه إليه جيشاً كثيفاً لنظر ولده أحمد بن سليمان ،  
ونازل مدينة وادي الحجارة . وبرز المأمون لمدافعته . وأتيح لابن  
هود عليه ظهور حاصره لأجله بدينة طلبيرة ، ثم رحل عنه ؛ فأجأته  
ضيقة وما آسفه به ابن هود إلى الاستعانة بملك النصارى ، وبذل له مالاً ،  
وأخرجه إلى قطر سليمان بن هود ؛ فجال العدو في أحوازه شهرين من زمن  
الصيف ؛ فلم يدع ما يقتاته الطائر ، وخرّب البلاد ، وأهلك العباد ، وفتح  
عدة من الحصون والمعاقيل . وحالف ابن عبّاد ، ووافقه على ما دعا  
إليه من الدعة الهشامية ، وأعلن بها على منابيره ، وقدّر أن الحرق  
بذلك يُرَقَّع ، أو أن العبل به ينفع .

وفي السنة الآتية ، استعان ابن هود بالنصارى ، وخرج إلى أرض ابن  
دثون ، واسترجع ما ظهر عليه ابن دثون من حصونه ؛ وناغاه ابن دثون ؛  
فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود ؛ ففتح قلعة قلهرية التي كان  
فتحها ابن أبي عامر ، وفازت بها أيدي الرثوم ؛ وذلك صدر عام ٤٣٧ .  
وخرج الطاغية المظاهر لسليمان بن هود من ملوك جليقية إلى تغر  
طليطلة . ودامت الفتنة بين هذين الأميرين المؤمنين على المسلمين  
من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٣٨ ، وفورقت بموت سليمان بن هود منها . فلما  
فتر حنق يحيى بن دثون من سليمان بن هود ، رجع إلى مطالبة جاره ابن  
الأنطس . ثم شغلته الشواغل عنه ابن عبّاد ، وساء ما بينهما . وتحرّك  
إلى قرطبة بما دعا ابن عبّاد إلى نصره صاحبها ، ثم إلى غدره والاستيلاء  
عليه . ثم تصيرت إلى يحيى بن دثون على يد ابن عكاشة كما ذكرت  
قبل . ثم توفي بها يحيى بن دثون لإحدى عشرة ليلة من ذي قعدة سنة  
٤٦٧ ، وولي بعده حفيده وسيه يحيى بن دثون .

## أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن دنون

وبُويع ليحيى هذا بطليطلة إثر بلوغ الخبر بموت جدّه . ثم وصل  
تابوته إلى مدقته بها ؛ فجدد رسوم الجدّ . وكان قبل وفاته قد قسم  
وظائف الملك ؛ فجعل الأجناد إلى وزيره ابن القرّج ، وأمور الرعايا  
والمشورة والرأي إلى ابن الحديدي ، وأخذ الموائيق على ابن الحديدي  
ليبلغ كل مبتغ في شدّ أزره ، وثبت أمره ، علماً باستقلاله ،  
ويُنن مناقبه وخلاله . وكان هذا الحفيد يحيى مضعفاً ، كثير الحيلة ،  
حيث الفكرة ، يُصاحبه مرض درن قلماً ينش به . وأغرته  
الطائفة الغالبة على أمره ابن الحديدي ؛ فعجل على مكروهه . وكان جدّه  
قد سکن ملكه ، وقرّر أسبابه بسجن طائفة من أهل طليطلة ،  
حاث الشرور وأسباب الفتن ، بإشارة ابن الحديدي ؛ فشؤسوا  
بالمطيق ، واطردوا الخبر بفقدهم . فلم يتمكن لابن دثون الفك بـابن  
الحديدي لأصالته في المدينة إلا بعد الاستظهار عليه بأعدائه منهم ؛  
فأخرجهم سرّاً . ولما دخل ابن الحديدي المجلس ، ووقعت عليهم عينه ،  
أيقن بالهلكة . وقام ابن دثون ، وهو يتعلّق بأذباله ويستجيره ، فلم يغير  
ذلك ؛ فتمكّنوا منه وقتلوه . وهاجت العامة ؛ فشغلت بنهب دونه  
وإطلاق أيديها على ماله .

وظنّ ابن دثون أن الجو قد خلا له من ابن الحديدي ؛ وإذا به قد  
بحث عن حنقه بظلفه . وإذا بتلك الجماعة ، لما فرغوا من ابن الحديدي ،  
رجعت على حفيد ابن دثون بحسائف جدّه . وانتدب ابن عبد العزيز كبير  
بلنسية بها ، وخلع يده عن الطاعة ووقف أمره على مهادة ، إلى أن  
ثار بحفيد ابن دثون تلك الطائفة التي أخرجا من الاعتقال ، وصاحوا به ،

وسَعَوْا في هلاكه ؛ فَأَفْلَتَ من بعض الأبواب المُعَدَّة للضرائر ، لا يملك شيئاً إلا نَفْسَهُ .

وزعموا أَنَّ زَوْجَهُ بِنْتَ الْمُظَفَّر وابنته منها تَبِعَتَاهُ يومئذٍ راجِلَتَيْنِ أَزِيدَ من قَرَسَخَيْنِ ، إلى أن رَكِبَتَا ؛ ولحق ببعض حصونه . وأقام أهلُ طَلَيْطَلَة بعده أياماً كَالسَّائِمَةِ المِهْلَةِ ، ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مُشِير ، إلى أن جنحوا إلى الْمُظَفَّر بن الأَفْطَس من ملوك الطوائف ، على بُعْدِ دارِهِ ، وانتزاح أظفارِهِ ؛ فجاءهم متناقلاً ، كما قال المورِّخ : كَوْدَتَا سَامُوهُ خَصَلَ سَبَاقٍ ؛ فدخل طَلَيْطَلَة سنة ٤٧٢ .

## أيام المتوكل على الله عمر

### ابن الْمُظَفَّر بن الأَفْطَس بطَلَيْطَلَة

قالوا : وأقام المُتَوَكِّلُ بطَلَيْطَلَة بُسَدَدَ أمورها أَضَلَّ من يَدٍ في رَحِمٍ ، وأَذَلَّ من لَحْمٍ على وَصَم . وقد كان ابنُ دُثُون بعد فِرَارِهِ تَهِيّاً له دخولُ مدينةِ قُونَكَة ؛ فتماسك أمرُهُ بها إلى أن فرَّ عنها بعد تمام عشرة أشهر أمامَ إلحاح العدوِّ وقلَّةِ المال . وعاد عُمر بن الْمُظَفَّر إلى بلده ، وقد حصل من ذخيرةِ ابنِ دُثُون وماله وما عثر عليه من أسباب قصره على حظٍّ رَغِيبٍ .

## عودة يحيى بن دنون إلى طليطلة

### أعادها الله

ولما استقرَّ حَفِيدُ ابنِ دُثُون بِأَمْنِهِ بعد الخروج من طَلَيْطَلَة ، راسلَ إِذْفُونَشُ مَلِكَ قَشْتَالَة ، يذكره سَالِفَ عَهْدِهِ ، إذ كان قد اضطرَّ إلى اللحاق بابنِ دُثُون جدِّهِ ، ولجأ إليه لما غلبه أَخَوَاهُ على المُلْكِ ؛ فَأَجَارَهُ إلى أن عاد إليه أمرُهُ . فلبَّى دَعْوَاهُ ، وسمع شكواه ، وأقبل معه إلى طَلَيْطَلَة ، وقد عاقدهُ على أن يخلِّي بينه وبين المدينة إذا أبلغه أَمَلُهُ من دخولها . فنارَلَهَا ، وشدَّ حصارَهَا ، إلى أن بلغ الجهد من أهلها مَبْلَغَهُ ، وعجزوا عن الصبر ، وتَبَرَّأوا من المسكة ، وأَعذروا في الدفاع ، إلى أن أُعيدَ حَفِيدُ ابنِ دُثُون إلى طَلَيْطَلَة على شروط للنصارى لا يطاق حَمْلُهَا ؛ فدخلها ، والطاغيةُ بين يَدَيْهِ يَتَبَخَّجُ بيده عنده . واستقرَّ بها شرٌّ استقرار . واقتضاه الطاغيةُ الوَعْدُ ، وسلبه الله النصر والسَّعْدَ ، وهلكت الذِّمَّةُ ، واستؤصِلت الرِّمَّةُ ، ونُفِذَ عقابُ الله في أهلها جاحِدي الحقوق ، ومُتَعَوِّدي العقوق ، ومُقِيمِي أسواق الشقاق والنفاق ، والمُثَلِّ السائر في الآفاق . ولم تطلْ مدَّتُهُ سَطْرُ السَّنة حتى ملك الطاغيةُ طَلَيْطَلَة .

ذكروا أَنَّ أهلَ العَقْدِ والحَلِّ من أهلها ، لما بلغ الصبر بهم مداهُ ، خرجوا إلى محلَّتِهِ ؛ فَأَدخلوا إلى المضرب الذي كان له ، بعد حِجَابٍ غليظٍ وإذلالٍ كثيرٍ ؛ فَأَلْفَوْهُ يمسح عَيْنَيْهِ من النوم ؛ فقال لهم : « إلى متى تتخادعون ، وماذا تصنعون ؟ » فقالوا : « ربي ثلان وفلان أمنيّة ! » وسئوا له جملةً من ملوك الأندلس ؛ فقهاقت ، وسخر بهم ، ودعا بإرسال من سمَّوه ؛ فحضروا ، وكلُّهم يؤدِّي خضوعَ مُرْسَلِهِ ، وينوب في لثم يده ، ويتوسَّلُ بهديته ؛ فخرجوا من عنده وقد سُقِطَ في

أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المجلس ، تخلّوا بينه وبين البلد . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وانتقل حفيد ابن دنثون إلى بِلَنْسِيَّة بِمُشَايعة مَلِك قَسْتَالَة ، ووجهه معه جيشاً حتى دخلها ؛ واستقرّ بها إلى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ ؛ وقد تمّلك ابن عائشة قائدُ يوسف بن تاشفين مُرْسِيَّة ؛ فاستدعاه أهلُ بِلَنْسِيَّة ، وعرضوا عليه مدينتهم ؛ فأقبل إليها نائبه بجيش من اللّسْثُونِيَّين . وخرج القاضي ابنُ جَحّاف والفُقهاء لتلقّيه وإدخاله البلد . ففرّ ابنُ دنثون من القصر ، ولم يمكنه الخروج من المدينة ؛ فاخفى ببعض الدّور الخالية ؛ فظهِرَ عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسيقَى إلى القاضي ابن جَحّاف ؛ فأمرَ بقتله . تولّى ذلك فتى من بني الحديديّ القليل بطليطلة ؛ وطيفَ برأسه . واحتوى ابنُ جَحّاف على ما كان له ؛ وطرحَتْ جثته في سَبْخَةٍ ؛ فواراهُ رَجُلٌ احتساباً وصدقةً ، ودُفِنَ دون كفنٍ . فانقطعت مُدَّتُهُ على هذه السبيل .

## ذكر مدة بني مسلمة

### المعروفين بني الأَفْطَس

وهؤلاء من جُملة ملوك الطوائف . وكان جدُّهم أبو محمد عبدُ الله بن محمد بن مُسَلِّمة المعروفُ بابن الأَفْطَس أصله من قبائل مِكنَاسَة ؛ ونزل بفَحْص البَلْثُوط من جوفى قُرْطُبَة .

قال ابن حَيَّان : ومن النادر الغريب انجاءُه في تُجِيب ؛ وبهذه النسبة مدحَتْه الشعراءُ آخرَ وقته ، إذ يقول ابن شَرَف القَيْرَوَانِي : [السريع]  
يا مَلِكاً أُمِستَ تُجِيبُ به تحسدُ قَحْطَانَ عليه نِزارُ

لولاك لم تشرف معدّها بها جلّ أبو ذرٍّ فجلبت غفارا  
وكان من قومٍ لا نباهة لهم ، إلا أنّه كان من أهل المعرفة النابتة والعقل والسياسة والدهاء . ولما تفرّق شمل الجماعة ، وانتزى كلٌّ على ما بيده ، استبدّ بالقعقريّ بِيَطْلِينُوس وشنّترين وجميع الثغر الجوفيّ فتّى من عبيد الحكم اسمه سابور ؛ وكان غفلاً ، من المعرفة عطلاً ، إلا من خلّة الشجاعة ؛ فكان عبدُ الله بن محمد بن مُسَلِّمة من صناعه يدبّر له أمره ، ويخدم دولته ، إلى أن هلك سابور وترك ولدَيْن لم يبلغا الحلم ؛ فضبط له عبدُ الله الأمر ، وأمسكه على ولديّه .

## دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأَفْطَس

خلف هذا الرجلُ سابور ، وقام بأمرٍ ولده في صقع كبير ، هو الذي نُسِّيَه اليومَ بأرض بُرْتَقَال ، ودبّر أمره ، وأقام ملكاً ؛ وهو ومنّ ناب عنه من شرط كتابينا في ذكر من يوبع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام . وحسبك بذلك الوطن جلالةً ، وبأهله وفوراً ؛ فاشتمل عبدُ الله على ذلك الأمر ، واستأثر به ، وحصل على مُلكٍ غرِب الأندلس . واستقام له مُدَّةٌ إلى أن هلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى سنة ٤٣٧ ؛ وولي بعده ولده المُظَفَّر .

## دولة المظفر محمد بن عبد الله

### ابن محمد بن مُسَلِّمة بن الأَفْطَس

ولي المُظَفَّر بعد أبيه على ما كان بيده ؛ فاستقامت أموره . وكان فاضلاً عالماً وشجاعاً فارساً . وله التّأليف الكبير المُسمّى بـ « المُظَفَّرِي » ، في نحو خمسين مُجلّداً . وأقام بذلك الثغر ملكاً عظيماً . وكان يُنكر

الشَّعْرَ عَلَى قَائِلِهِ فِي زَمَانِهِ ، وَيُقِيلُ رَأْيَ مَنْ ارْتَسَمَ فِي دِيْوَانِهِ ،  
ويَقُولُ : « مَنْ لَمْ يَكُنْ شِعْرُهُ مِثْلَ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ أَوْ الْمُعَرِّيِّ ،  
فَلَيْسَتْ لَهُ » ولا يَرْضَى بِدُونِ ذَلِكَ . وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِهِ ابْنِ عَبَّادٍ  
حُرُوبٌ أَذْهَبَتْ الرُّسُومَ ، وَأَتَلَقَّتْ الْأَرْوَاحَ وَالْجُسُومَ ، وَاللَّهُ يُنْصِفُ  
الْخُصُومَ ، إِلَى مَعْبَدِهِ لِدَافِعِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

وَفِي مُدَّتِهِ ، أَخَذَ الْعَدُوُّ مَدِينَةَ قُلُومَرِيَّةَ مِنَ الْفُتُوحِ الْعَامِرِيَّةِ ، بَعْدَ مُحَاصَرَةٍ  
طَوِيلَةٍ . وَكَانَ قَائِدُهُ عَلَيْهِا تَمْلُوكًا لَهُ اسْتَأْذَنَ الْعَدُوُّ فِي السَّرِّ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ  
بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ . وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا ، وَقَدْ أَخَذُوا أَهْبَةَ الْقِتَالِ ؛ فَقَالَ لَهُمُ  
الْعَدُوُّ : « كَيْفَ الْقِتَالُ وَقَائِدُكُمْ عِنْدَنَا مِنْذُ الْبَارِحَةِ ؟ » فَضَبُّوا إِلَى  
أَنْ نَفَدَتْ أَقْوَاتُهُمْ ، وَدُخِلَتْ عَلَيْهِمْ عُنُودٌ ؛ فَقُتِلَ الرِّجَالُ ، وَسُبِيَ الذَّرِّيَّةُ  
وَالْحَرِيمُ ، فِي سَنَةِ ٤٥٦ ؛ فَكَانَ الْفَجْعُ بِهَا أَكْبَرَ . وَكَانَتْ مُدَّةُ الْإِسْلَامِ  
بِهَا بَعْضًا وَسَبْعِينَ سَنَةً . وَأَقْبَلَ الْمَلُوكُ قَائِدُهَا إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ ، وَكَانَ  
لَهُ مَحَلٌّ مِنْ قَبِيلِهِ ؛ فَأَمَرَ بِهِ ؛ فَضُرِبَ عُنُقُهُ . وَكَلَبَ الطَّاعِيَةُ عَلَى هَذِهِ  
التَّغْوِزِ الْغَرِيبَةِ ، وَضُرِبَ عَلَى أَهْلِهَا الْإِتَاوَةُ حَتَّى صَعَفَتْ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ  
أَهْلَكَهُ سَنَةَ ٤٥٨ ؛ وَقَامَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ إِذْفُونَشُ ؛ فَشَغَلَ بَابَ عَبَّادٍ إِلَى أَنْ  
شَغَلَهُ اللَّهُ بِالْمُرَابِطِينَ .

وَلَمَّا تَوَفَّى الْمُظَفَّرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ عُمَرُ  
وَيَحْيَى . وَفِي سَنَةِ ٤٦١ ، عَظُمَ بَيْنَهُمَا الْخِلَافُ وَالنِّزَاعُ ؛ وَحَصَلَ الطَّاعِيَةُ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَمِهِمْ وَذَخِيرَتِهِمْ ، فَسَبِيلُ  
التَّضَرُّبِ مِنْ مُنَارِحِهِمْ . فَشَبَّتْ نَارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمَا ، وَتَعَلَّقَ مِنْهَا بِحِي  
بُولَايَةِ ابْنِ دَنْثُونٍ ؛ وَمَالَ أَخُوهُ عُمَرُ إِلَى تَوَلِّيِ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ . وَمَا  
زَالَتِ السَّعَايَاتُ تَقْدَحُ بَيْنَهُمَا حَتَّى اصْطَلَمَتِ الْبِلَادُ ، وَاجْتَاكَتِ الرَّعِيَّةُ . وَأَزَّاحَ  
اللَّهُ زَمَنُهَا بِمَوْتِ أَحَدِ الْأَخَوَيْنِ بِحِي . وَاسْتَوْسَقَ الْأَمْرُ لِأَخِيهِ عُمَرَ ؛  
فَاسْتَحَقَّ الْإِنْفِرَادَ بِالذِّكْرِ .

## دولة المتوكل على الله عمر

### ابن المظفر بن الأفطس

وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ مَلِكًا عَالِي الْقَدْرِ ، مَشْهُورَ الْفَضْلِ ، مَثَلًا فِي الْجَلَالَةِ  
وَالسَّرِ ، مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَالْبَلَاغَةِ . وَكَانَتْ مَدِينَةُ بَطْلَنِيُوسَ فِي  
مُدَّتِهِ دَارَ أَدَبٍ وَشِعْرِ وَنَحْوٍ وَعِلْمٍ .

وَقَالَ الْفَتْحُ عِنْدَ ذِكْرِهِ فِي « قَلَانْدِهِ » : مَلَكَ جُنْدَ الْكُتَّابِ  
وَالْجُنُودِ ، وَعَقَدَ الْأَلُورِيَّةَ وَالْبُودَ ، وَأَمَرَ الْأَيَّامَ فَاسْتَمَرَّتْ ، وَطَافَتْ  
الْأَمَالُ بِكَعْبَتِهِ وَاعْتَمَرَتْ ، إِلَى لِسْنٍ وَفَصَاحَةٍ ، وَرَحِبِ جَنَابِ الْوَاغِدِ  
وَسَاحَةِ ، وَتَنَظَّمَ بِزُرِّي بِالْدرِّ النِّظِيمِ ، وَنَشَرَ بِسَرِي فِي رَقَّةِ النَّسِيمِ ، وَأَيَّامُ  
كَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا جُمِعَ ، وَلِيَالٍ كَانَ فِيهَا عَلَى الْإِنْسِ حُضُورٌ وَمُجْتَمَعٌ .  
وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ بْنُ غَانِمٍ : كَتَبَ إِلَيَّ الْمُتَوَكِّلُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فِي  
وَرَقَةٍ كَرُتَبٍ مِنْ بَعْضِ الْبَسَائِنِ : [مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

انْهَضْ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَأَسْقُطْ سَقُوطَ النَّدَى عَلَيْنَا

فَنَحْنُ عِقْدُهُ بِغَيْرِ وَسْطَى مَا لَمْ تَكُنْ حَاضِرًا لَدَيْنَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ دُخُولِ طَلَيْطُلَةٍ فِي أَمْرِهِ ، وَانْتِقَالِهِ إِلَيْهَا ، وَمَقَامِهِ  
بِهَا الْمُدَّةَ الْمَذْكُورَةَ . وَاسْتَمَرَّتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ تَغْلُبَ اللَّمْتُونِيُّونَ  
الْمُتَسَمُّونَ بِالْمُرَابِطِينَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ؛ فَضَيَّقَ الْأَمِيرُ سِيرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ  
بِبَطْلَنِيُوسَ بِالسَّرَايَا وَالْغَارَاتِ ، وَالْمُتَوَكِّلُ يَطْمَعُ بِالتَّسُّكِ بِهَا لِقُرْبِهِ  
مِنْ مُحَدُودِ النَّصَارَى . فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُ ، وَعَجَزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ، رَاسَلَ إِذْفُونَشَ  
مَلِكَ قَسْتَالَةَ ، وَأَطْمَعَهُ - زَعَمُوا - فِي الْمَدِينَةِ ، وَخَرَجَ لَهُ عَنْ مَدِينَةِ



سَنَتَرِينَ ، فحَصَّنَهَا العدوُّ وضبطَهَا . وعندما مُكِّنَ العدوُّ من سَنَتَرِينَ ، انخرَفَتْ عنه الرعيَّةُ ، واتَّصَلَ عليه الحيلُ ، وضاقَتِ الصدورُ ؛ وراسَلَ أَهْلُ بَطْلَيْوُسَ المُرَابِطِينَ ، فوصلَتْهَا الجيوشُ ، وفتحَ الناسُ الأبوابَ ، فدخلَ القومُ عنوةً ، وقبِضَ على المَتَوَكِّلِ وعلى بَنِيهِ وعبيده ، واستُخْرِجَ ما كانَ له من مالٍ وذخيرةٍ ؛ وأزْعَجَ مع ابْنَيْنِ له إلى إِشْبِيلَةَ . وفي أثناء الطريقِ ، لما بَعُدَ من بَطْلَيْوُسَ ، أنْزَلَ وأَمَرَ بالتَّأَهُّبِ للموتِ ؛ فسألَ أَنْ يُقَدَّمَ ابْنَاهُ قَبْلَهُ لِيَحْتَسِبَ بِهِمَا ؛ فكانَ كذلكَ . وقُتِلَ الجميعُ صَبْرًا ؛ وذلكَ في أخرياتِ سنة ٤٨٨ . وكانَ قد اشْتَصَّ وَلَدَهُ الملقَّبَ بالمنصورِ إلى حِصْنٍ شَانِجَشَ لِيَتَحَصَّنَ بِهِ ؛ وجعلَ عنده ذخيره .

## أيام المنصور بن المتوكل عمر

### ابن الأفطس بمحسن شانجش

ولما اتَّصَلَ به ما جرى القَدَرُ به في والدِهِ وأَخَوَيْهِ الفضلِ وسَعَدَ أَيُّ عَمَرٍ ، وجَهَّ إلى إِذْفُونَشُ بِأَهْلِهِ ومالِهِ ، ودخلَ - زَعَمُوا - في دينِهِ ، وصدرَ معه إلى بلاده ، بعدَ أَنْ ثَقَّفَ الحصنَ بِرجالِهِ . وانتهى أَمْرُ بني الأفطسِ .

وقد رثاهم الوزيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ بنَ عَبْدِونٍ عَظِيمُ مُلْكِهِمْ ، وناظِمُ سِلْكِهِمْ ، بقصيدةٍ اشتملتَ على كُلِّ مُلْكٍ قَتِلَ ، وأَسَارَتْ إلى مَنْ عُدِرَ مِنْهُمْ وَخُتِلَ ،

تُكَبِّرُهَا المَسَامِيعُ ، وَيَعْتَبِرُ بِهَا السَّامِعُ ؛ وهي ١ : [ البسيط ]

تسرُّ بالشيءِ لكن كَيِّ تَغَرَّ به كالأيمِ ثارٍ إلى الجاني من الزهرِ

١ ليست القصيدة مودة هنا بتمامها ، إذ نقص منها الأبيات السبع الأولى . راجع نصّها في « قلائد العقيان » ( ص ٣٨ - ٤٠ ) ، وفي « المعجب » لعبيد الواحد المراكشي ( ص ٥٣ ) ، إلخ .

كم دولة وليت بالنصر خدمتها  
هوت بدارا وفلت غرب قاتله  
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت  
وأبتعت أختها طسما وعاد على  
وما أقالت ذوي الهيئات من يمين  
ومزقت سبأ في كل قاصية  
وأنفذت في كلليب حكما ورمت  
ولم ترد على الضليل صحته  
ودوخت آل ذبيان وجيرتهم  
وألقت بعدي بالعراق على  
وبلغت يزجرجد الصين واختزلت  
ومزقت جعفرأ بالبيض واختلست  
وأشرقت بجيب فوق فارعة  
وخاضبت شيب عثمان دما وخطت  
وأجزرت سيف أسقاها أبا حسن  
وليتها إذ فدت عمرا بخارجة  
وما رعت لأبي اليقظان صحته  
وفي ابن هندی وفي ابن المصطفى حسن  
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد  
وعمت بالظبي فودى أي أنس  
وأزلت مصعبا من رأس شاهقة  
ولم ترأب مكان ابن الزبير ولا

لم تبق منها وسل ذكراك من خبر  
وكان عضبا على الأملاك ذا أثر  
ولم تدع لبني يونان من أثر  
عاد وجرحهم منها ناقص المرر  
ولا أجارت ذوي الغايات من مضر  
فما التقى رائح منهم بمبشكر  
هلها بين سمع الأرض والبصر  
ولا نلت أسدا عن ربها حجير  
لخما وغطت بني بدر على النهر  
يد ابنه أحمر العينين والشعر  
عنه سوى الفرس جمع الترك والجزر  
من غيلة حمزة الظلام للجزر  
وألقت طلحة الفياض للعفر  
إلى الزبير ولم تستحي من عمر  
وأمكن من حسين راحتي شمر  
فدت عليا بمن شاءت من البشر  
ولم تزوده الا الضيح في العمر  
أنت بمعضلة الألباب والفكر  
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر  
ولم ترد الردي عنه فنا زفر  
كانت له مهجة المختار في وزر  
راعت عيادته باليت والحجر

ولم تدع لأبي الذبّان قاضيه ليس اللطيم لها عمروً بمنصر  
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم تُبقِ الخلافة بين الكاس والوتر  
ولم تعد قضب السقّاح نابئةً عن راس مروان أو أشياعه الفجر  
وأُسبكت دمعّة الروح الأمين على دمٍ بفتحٍ لآلِ المصطفى هدير  
وأشرقت جعفرًا والفضلُ ينظره والشيخُ يحیی بريق الصارم الذكر  
ولا وَفَتْ بعهود المُستعين ولا بما تأكّد للمعتز من مررٍ  
وأوثقت في عراها كلَّ مُعتمدٍ وأشرفت بقذاها كلَّ مقتدرٍ  
وروّعت كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ وصبّت كلَّ منصورٍ ومُنْتَصِرٍ  
بني المُظفّر والأيام ما برحت مراحلًا والورى منها على سفرٍ  
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت بثله ليلة في سالف العمر  
من للأميرة أو من للأعينة أو من للأسيّة يهديها إلى الثغر  
من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر  
أو دفع كارثة أو ردع آزفة أو وقع حادثة تُعيي على القدر  
ويح السباح وويح البأس لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمرٍ  
سقت ثرى الفضل والعبّاس هاميةً تغزى إليهم سباحاً لا إلى المطر  
ثلاثة ما رأى السعدانِ مثلهم فاختبر ولو عُزّزا في الحوت بالقمر  
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا وكلّ ما طار من نسر ولم يطر  
ومرّ من كلّ شيء فيه أطيبه حتى التبع في الآصال والبكر  
من للجلال الذي عمّت مهابته قلوبنا وعيون الأنجم الزهر  
أبن الإباء الذي أرسوا قواعده على دعائم من عزٍّ ومن ظفر  
أبن الوفاء الذي أصفوا مشاعره فلم يرد أحد منها على كدرٍ  
كانوا رواسي أرض الله منذ ناوا عنها استطارت بن فيها ولم تقر

من لي ولا من لهم ان عَطَلَتْ سُنَنُ وأُخَفَّتْ أَلْسُنُ الآثار والسير  
من لي ولا من لهم إن أعضلت محنٌ ولم يكن وردّها يدعو الى صدرٍ  
على الفضائل إلّا الصبرُ بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر  
يرجو عسى وله في أختها أملٌ والدهر ذو عقب شتى وذو غير  
أُنْبَتْنَا هذه القصيدة لمُنَاسَبَتِهَا لِعَرَضِ التَّأْرِخِ .

### ذكر مدة بني صمادح الامراء بالمرية

قالوا : كان جدّهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن  
صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر بن عميرة بن شريح بن  
حرمة بن تميم بن المخضب بن شبيب بن الدعان بن سعد بن أشرس  
الواقع والده على ثجيب ؛ عُرِفُوا بأُمَمهم . كذا أُنْبَتَ نَسَبهم ابنُ  
الصيّري . وثبت في « كتاب المغرب » انهم جدّهم أبا يحيى بن أحمد بن  
صمادح ؛ فيظهر أن هذه الاسماء الثلاثة متأخرة عن عبد الرحمن هذا الذي  
ذكر ابن الصيّري ومُتَّصِلَةٌ به .

وكان جدّهم ، حسباً ذكر ابن حيّان إذ قال : أبو يحيى بن أحمد صاحبُ  
مدينة وشقة وأعمالها ؛ وطلعت نبأته في أيام المؤيد هشام ؛ ثم أكّد له  
ذلك سليمان بن الحَكَم ؛ فتنى له الوزارة ، وأمضاه على عمله . وكان  
أول أمره مُمَانِلًا لابن عمّه مُنْذِر بن يحيى ، يُظْهِر موافقته ، وبُكَائِهِ  
حسده بما لا شيء فوقه ؛ ثم تكاشفًا بعد مضي سليمان ، ونحاربا على ملك  
وشقة ؛ فعجز ابن صمادح عن مُنْذِرٍ لكثرة جَمْعِهِ ، وسلّم له البلد ،  
وفرّ بنفسه . وأمّا ابنه مَعْن ، فنحن نذكره .

## ايام معن بن صمادح

قالوا : لما قُتِلَ زُهَيْرُ الْفَتَى بظَاهِرِ غَرْناطة على يَدَيِ بَادِيسَ بْنِ حَبُوسٍ أميرِ صَنْهَاجة ، حسباً بِأُتِي ذِكْرُهُ ، وصارت الْمَرْيَةُ دارُ مُلْكِهِ إلى عبد العزيز بن أبي عامرٍ صاحبِ بِلَنْسِيَّة ، حسده على ذلك ، وناقسه فيما صار إليه مُجَاهِدُ مَوْلَى سَلَفِهِ ؛ فَتَحَرَّكَ إلى بلاد عبد العزيز ، وهو يومئذٍ مشغولٌ بما نَفَلَ الدهرُ من تركة زُهَيْرِ الْقَتِيلِ ؛ فخرج مُبادِراً إلى استصلاح مُجَاهِدٍ ؛ واستخلف بالْمَرْيَةِ صهره ووزيره مَعْنُ بْنُ صُمَادِحٍ هذا ؛ فكان شراً مُسْتَخْلَفَ بدارِ مُلْكٍ ؛ فلم يَكُنْ يُؤَارِي عبد العزيزَ وَجْهَهُ حتى خَانه الأمانة ، وطرده عن الإمارة ، ونصب له الحَرْبَ ؛ وفازت بها قدامه واستقرَّ فيها ملكه ، وخلفها ميراثاً لَبَنِيهِ بَعْدَهُ . ثم هلك . وأقام بأثره بَعْدَهُ وَلَدُهُ أَبُو بَحِي .

## ايام محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله

قال المؤرِّخ : فارتقى ذروة الخلافة ، وتلقَّب من ألقاب الخلفاء بِالْمُعْتَصِمِ بالله وبالرَّشِيدِ .

قال ابنُ بَسَّام : ولم يكن أبو بَحِي هذا من ملوك الْفِتْنَةِ في شيءٍ فَإِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الدَّعَةِ ، واكتفى بالضيق من السَّعَةِ ، واقتصر على قَصْرِ بَيْنِيهِ ، وعلقَ يَفْتَنِيهِ ، وميدانٍ من اللذة استوى عليه ، وبرَّز فيه ، غيرَ أَنَّهُ كان رَحِبَ الْفَناء ، جَزَلَ الْعطاء ، حليماً عن الدماء والدماء ، طافت به الآمال ، واتَّسع في مَدْحِهِ الْمقال ، وأُعْبِلَتْ إلى حَضْرَتِهِ الرِّحال ، ولزمه فحولُ من الشُّعراء كَأبي عبد الله بن الحَدَّاد ، وابن عُبادة ، وابن الشَّهيد ،

وغيرهم . وكانت بينه وبين ملوك الطوائف فتونٌ مُبيرةٌ ، غلبوه عليها ، وأخرجوه من سجنه إليها مُكْرَهاً ، لم يكن مكانه منها بِمَكِين ، ولا فَتَحَهُ بِمُبِين .

ولما ملك يوسف بن تاشفين أرضَ الأندلس ، وعزم على خلع رؤسائها ، ونازلت المحلات غَرْناطة ، أمر الأمير يحيى بن واسنو منهم مُحاصَرة الْمَرْيَةِ ، والتضييق على الْمُعْتَصِمِ ؛ فطال به الحصار ، وتُمَلَّكَتْ حصونها وجِهاؤها ؛ فلم يَبْقَ بيد الْمُعْتَصِمِ غيرُها . وضائق بها الأحوال ، وشرع أهلها في الفرار . واعتلَّ الْمُعْتَصِمُ ، ونزل به الموتُ أَثناء مُحاصَرتها ؛ فذكروا أنه نظر إلى جارية عند رأسه تبكي عليه ؛ فقال لها : [ المتقارب ]

ترَفَّقْ بدمعك لا تفنِّه فين يَدَيْكَ بكاءً طَوِيلَ

وَأَوْصَى وَلَدَهُ ولياً عَهْدِهِ مُعِزُّ الدَّولة أَنْ يَتَسَكَّ بِقَصَبَةِ الْمَرْيَةِ ما أقام ابن عُبَادٍ مُتَمَسِّكاً بِإِسْبِيلِيَّة ؛ فإذا أَفْضَى أمرُهُ إلى خَلْعِهِ ، فليُعبَرِ الْبَحْرَ بأهله وولده إلى الجزائر جزائر بني مَرْغَنَّا ؛ وقد كان راسلَ صاحبِ الجزائر ، ووجهه إليه أحمد بن عبد العزيز بن عَلِيشُون من أهل بَلَدِهِ ؛ فوصل إلى المنصور بن الناصر بن عَلَتَّاس ، وهو يومئذٍ بِالْقَلْعَةِ ، يخطف إليه جواره والتحولَ إليه ؛ فتلقاه بالرحب والسعة ، وخيَّره في أَقْطارِ بلاده . ثم توفي الْمُعْتَصِمُ بنُ صُمَادِحٍ في ربيع الآخر من سنة ٤٨٤ . ولما اتَّصل موته بِالْمُعْتَمِدِ ابن عُبَادٍ ، قال : « رَجُلٌ استصحب حالَ سَعْدِهِ من قَصْرِهِ إلى قَبْرِهِ ! كان الموتُ كَأَسَأَ بيده ؛ فحين استطابها ، تَجَرَّعَهَا ! »

وذكر الْفَتْحُ الْمُعْتَصِمَ بِيَعُض ما يُوجبُه الانصافُ لشأنه ؛ فذكر أبحاثاً كتب بها إليه ابنُ عَمَّار ، وقد طال مقامه ضيفاً لَدَيْهِ ، ومُجَوِّباً بِسحاب يَدَيْهِ ، وهي ٢ :

١ راجع « القلائد » ( ص ٤٩ ) .

٢ أورد الفتح هذه القطعة والتي تليها في « قلائد العقيان » ( ص ٥٠ ) .

[ مجزوء الكامل ]

يا واضحاً فضح السحابة ب مجود في معنى السراح  
ومطابقاً يأتي وجو ه الجدد من طرق المزاح  
أسرفت في برّ الضياء ف فجدة قليلاً في السراح

فوقع له 'نجيباً ، ومن فراقه إياه كئيباً :

يا فاضلاً في شكره أصل المساء مع الصباح  
هلاً رفقت بهجتي عند التكلم في السراح  
ان السراح ببعدهم والله ليس من السراح

أيام معز الدولة بن المعتصم بالله

أبي يحيى بن صمادح

ولما توفي المعتصم ، أقام معز الدولة يصبّ ويصعد ، ويعمل النظر  
في امثال وصية أبيه ؛ فجعل يبدى غرضه في نقل روجه بنت مجاهد إلى  
دانية ، وينزل أسبابها إلى المدينة ، ليكون أقرب إلى الإيساق في البحر .  
فلما كمل ما أرادته من ذلك ، وافته اليقين بتغلب المرابطين على ابن  
عباد وخروجه عن ملكه ؛ فأمر رجاله بنقب السور خارج باب مومى  
إلى دار الصنعة ، وركب بمن اختص به في قطنة ، وحمل المال والمتاع  
في ثنتين ، وأحرق باقي الأجناف خشية الانتباغ ؛ فأمن عاديتهما ، ونزل  
بالجزائر على البخت وطائر السن ، إلى أن هلك بها . وانقضت أيام بني  
صمادح .

ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر

وكان هؤلاء البقاياء العامريون ولد المظفر والمنصور من تخطاهم  
الهلاك عند ثورة عبد الجبار ؛ وسلمت لبعضهم دنيا عريضة . ولما استقر  
الأمر سليمان بن الحكم مدته الأولى ، تقرب منهم ، واجتلب صنائعهم ،  
وأذن في مواراة شلوع عبد الرحمن بن أبي عامر ؛ فبولغ في التنويه به  
أقصى المبالغ ، وأعلن النوح لها ، وأقامت العامرية لها المآتم الملوكة .  
وبرز الطفيلان ابنا العم محمد بن المظفر وعبد العزيز بن المنصور ،  
وأشفهما لا يجاوز سبع سنين ؛ فكانا تحت رعي ، إلى أن اختل أمر  
سليمان بن الحكم بعودة عدوهما وقاتل أبيهما محمد بن عبد الجبار إلى  
قرطبة ؛ فخرج عبد العزيز عنها ، وتأذن الله سبحانه بتجدد ملك كبير  
لعبد العزيز منها بشرق الأندلس ، دام سنين عديدة .

دولة محمد بن المظفر عبد الملك بن محمد

المنصور أبي عامر بن أبي عامر الملقب بالمعتصم

قال ابن أبي الفياض وغيره : كان محمد جميلاً سخياً . وكان يوم وقعت  
الآفة بدولتهم صبيّاً صغيراً من نحو سبع سنين . واستقر بالشعر في كنف  
منذر بن يحيى ؛ ثم انصرف إلى كورة جيان ؛ فظهر ببعض أحوارها ،  
وضم إلى نفسه الرجال ، مستعيناً على ذلك بأموال عظيمة خلصت لأمه ، كانت  
تحمده بها ، إلى أن ظهر أمره . فلما استقل خيران الفتن العامري  
بقننة أريولة ومروسية ، ونازعه الموفق مجاهد العامري صاحب دالية ،  
وأتاحت مجاهد عليه الهزيمة ، عجز عن مقاومة مجاهد ؛ فخطب محمد

ابن المظفر يدعوه إلى ملك ما بيده ؛ فأسرعه إليه ، وملكه من أريولة ومُرسية ، وخرج له عن الأمر ، وصار في جملة من بين يديه . ثم فسد ما بينه وبين خيران ، وتغير له حتى حذره خيران على نفسه ؛ ففر عنه ، وقصد المرسية ؛ فاحتل بها ليلة الرابع عشر لربيع الآخر من سنة ٤١٢ . ثم تحرك منها إلى مُرسية ، مُحارباً لمحمد المعتصم ؛ فألح عليه حتى أخرجه عنها في السادس لربيع الأول من سنة ٤١٣ بعد ها . وذلك أن محمداً أضع الحزم ؛ فخرج عن المدينة ، وقد داخل خيران من أهل مُرسية رجلاً يُعرف بعميرة بن الفضل ؛ فسد الباب دونه ، وضبط المدينة باسم خيران . ولجأ المعتصم محمد بن المظفر إلى أريولة ؛ فصعد إليه خيران . ولما علم محمد أنه لا طاقة له بخيران ، فر عنها ، ولحق بمجاهد ؛ فكان عنده مدة . ثم توجه إلى البلاد الغربية من جهة الأندلس ؛ فاستقر بحصن دارة ، وبها توفي من جذري أصابه ، في ليلة الجمعة من ليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٤٢١ .

وأخبر الإمام أبو محمد بن حزم أنه ، لما أيقن بالموت ، دق جوهراً عظيماً كانت قيمته ما لا نهاية له ، لئلا يتمتع به أحد بعده . فانقض أمره على هذه السبيل . وهو من شرط كتابنا ، إذ كان ممن يبيع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ؛ وكذلك ابن عمه الآتي ذكره .

## أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر

عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر

قال أصحاب التاريخ : كان الموالي العامريون عند ذهاب مُجاهد كبيرهم عنهم ، قد أسندوا أمرهم إلى مشيخة منهم ، وتشاوروا في ارتقاء أمير من أنفسهم ، يعتزفون له ؛ فاتفقوا على ابن مولاهم عبد العزيز هذا ،

ليثاراً له على ابن عمه محمد بن عبد الملك ؛ وكان محمد مقيمًا بقرطبة ، وعبد العزيز بسر قسطة ؛ فلحق بيلنسية ، واستقبله الموالي أفواجاً ، ينفعون له بالطاعة ، وقتلوه رياستهم سنة ٤١٧ .

وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقرابته ، قد ابتغى الله رحمةً للمتقين من أهل بيته ؛ فأواهم ، وجبر كسروهم ، ونعش فقيرهم طول مدته ، إلى أن بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه . وخاطب لأول حينه الخليفة القائم بن حمود بقرطبة ، ولطفه هدية حسنة ، وذكره بدمام سلفه ؛ فتقبله ، وسأه ذا السابقتين ، ولقبه المؤتمن . فتوطد سلطانه . واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب كانوا يُسمون الطباع الأربع ، وهم : ابن طائوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكروني كاتب رسائله ؛ ولم تزل حاله تسو حتى اتصل بوزارته ؛ فقال جسيماً من دنياه . وكان له من جهة سلفه للأئمة ملوك النصارى حظ انتفع به ، عند ما نازعه الأمر مُجاهد جاره بدانية ، وضيق عليه ؛ واستظهر بجيوش النصرانية في أخبار يطول شرحها .

وفي أيام عبد العزيز هذا ، كانت الواقعة على المسلمين ببطرنّة ، حسبا هو مشهور . وطالت مدة عبد العزيز إلى سنة ٤٥٢ ، وتوفي في ذي الحجة منها . وعهد بالأمر إلى ولده عبد الملك .

## أيام عبد الملك بن عبد العزيز

ابن عبد الرحمن بن أبي عامر

ولما هلك عبد العزيز ، اجتمع أهل دولته على ابنه عبد الملك ، وهو صبي لم يبلغ الحلم ؛ فهو من شرط كتابنا فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وقام له بالأمر كله كاتب والده المدبر لدولته

بن عبد العزيز المشهور مع معروفته بابن رويش القرحيبي ؛ وكان موصوفاً بالرجاحة ؛ فأحسن معونته ، وتولّى تهيبه سلطانة ؛ واستقرّ أمره ؛ ورأى هذا الكاتب الشهير مدبر الدولة في عبد الملك مكانه صهره وظهره ابن دنون المأمون ، إذ كان صهر عبد الملك أبا أمراته المساهم له في مصاب أبيه ، المعين له على سدّ ثلثه ، الذائد عنه كل من طمع فيه .

## ذكر أيام الدولة المنذرية

قال ابن حبان : كان منذر بن يحيى رجلاً من عرّض الجند ؛ وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر ؛ وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة . وكان أبوه يحيى من الفرسان غير الثباء ؛ فأما ابنه هذا فكان فارساً سبق الفروسيّة ، خارجاً عن حدّ الجهل ، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة ؛ وأما غدّره ، فالنار برأس اليفاع ؛ من أفضحه غدّره بيشام المؤيد موثق ليعلمته ؛ ولم يقتصر على غدّره حتى غزاه في عقر داره ، وأزله عن سريرته ، وأسلمه لحقه ، وباع دماء أهل قرطبة عشرينه . وعاد بمثلها لمحمد بن سنان أثيره ، عندما استجار به في نكبته ؛ فقتله ، وهو ضيفه ؛ فجاءه كمنعة مشهورة ، لم تغسلها معذرة ، إلا أنه كان كريماً ؛ وهب القادة مالاً عظيماً ؛ فوفدوا عليه ، وعمرت بذلك حضرته سرقسطة ، فحسنت أيامه ، وهتف المدح بذكره . وكان الأول واثبه قد ناس نصبة القرحيبي ؛ فحفظت أضرافه إلى أن مضى بسببه .

وفي سنة ٤٣١ ، قتل منذر بن يحيى ، فقتله رجل من بني عمه يعرف بعبد الله بن حكيم ، دخل عليه ، وهو غافل في غلالة ، وليس عنده

إلا بعض حقائبه ، وقد أكتب الخاسع كتاباً ؛ فقرأ خبثان من بين يديه إلا خادماً منهم قتلته عبد الله مع منذر مولاه ؛ وقطع رأس منذر ، وأخرجه للوقت ، وقعد في موضعه ؛ وقد ركب من خطة التغرير مركباً لم يجسر عليه فائسك قبيلته ؛ أسقطت فتكته كل فتك في الإسلام ، لوثوبه على ملك جوف قصره وبين يديه أزيد من مائة رجل سوى نسائه ؛ قام بين الجميع كالأسد الوراء ؛ فأبلسوا وهتوا ؛ فلم يكن من أحد منهم مدافعة . وأرسل من حينه عن القاضي والمشيخة ؛ فدخلوا عليه ، وهو قاعد على فراش منذر ، وهو زمّل في دمايه إلى جانبه ؛ فوصف أنه إنما جرى في سبيل الإصلاح والشد سلطانهم ، وأظهر الدعاء أولاً لابن هود ، فأروه قبول ما وصّفه ، وتفرّقا عنه ، وكلمتهم متألفة عليه ، إلى أن ثاروا به وفاتكوه ؛ فخرج من باب بظهر القصر ، ونجا بفاخير ما اشتمل عليه من ذخائر آل منذر ؛ ولحق بحصن روطه أحد معاقل سرقسطة المنعة ، وقد كان أعدّه لنفسه ؛ فأقام به يرصد الفتنة جهده ؛ وحمل معه أخوين لمنذر قتيبه ، وأب المنيرة بن حزم وزير منذر ، وغيرهم مقيدين ؛ فحبسهم عنده يطالبهم بالأموال . ونهب القوم قصر سرقسطة إثر خروجه حتى قلعوا بربره ، وطمسوا أثره . وبادر ابن هود ؛ فتملك سرقسطة سنة ٤٣١ .

وقال ابن حبان فيه : كان قد ناس عظماء القرحيبي ؛ فحفظت أطرافه ، إلى أن مضى بسببه ، وشعره سدود لا ثغرة فيه ؛ وبلغ من استالته الطوائف النصرانية أن جرى على يديه وبخضركه عقد مصاهرة لبعضهم ؛ فقرضته الأئمة إلى أن أثبتت له نسبة ؛ فاعترف الناس برأيه . ولم يأت بعده من نسبه مسدد . واشتمل منذر على قواد تلك الثغور ؛ فاستوسقت له الأمور . واستكتب عدة من الكتاب الثباء ، وقصد أكابر الشعراء . وعيه يقول أبو عمرو بن دراج

قَصِيدَتِهِ ، لما صرف إليه وجهه ، وقدم عليه سنة ٤٢٨ هـ ، وهي : [الكامل]

بُشْرَاكَ مِنْ طَوْلِ التَّوَحُّلِ وَالسَّرَى      صُبْحُ بَرُوحِ السَّفَرِ لَاحَ فَأَسْفَرَا  
مِنْ حَاجِبِ الشَّمْسِ الَّذِي حَجَبَ الدُّجَى      فَجَرَى بِأَنْهَارِ التَّدَى مُتَفَجِّرَا  
نَادَيْتَ حَيَّ عَلَى التَّدَى ثُمَّ اعْتَلَى      سِيلَ الْعَفَاةِ مَهْلًا وَمُكَبِّرَا  
لَبَيْكَ أَسْمَعْنَا نِدَاكَ وَدُونَنَا      نَوْءَ الْكَوَاكِبِ مُخَوِيًّا أَوْ مُمَظِيرَا

منها :

فَسَرَيْتُ فِي حَرَمِ الْأَهْلَةِ مُظْلِمًا      وَرَفَلْتُ فِي خِلَعِ السُّمُومِ مُهَجَّرَا  
وَشَعَبْتُ أَفْلَادَ الْفَوَادِ وَلَمْ أَكْذُ      فَحَذَوْتَ مِنْ حَذْوِ الثَّرَيَّا مُنْظَرَا  
سَتْ تَسْدَأُهَا الْجَلَاءُ مَغْرِبًا      وَحَدَا بِهَا حَادِي النَّوَاءِ مُشْمَرَا  
ظُعُنُ أَلْفِنِ الْفَقْرِ فِي غَوْلِ الدُّجَى      وَتَرَكْنِي مَأْلُوفَ الْمَعَاهِدِ مُفْقِرَا  
يَطْلُبُنْ لِي الْبَحْرَ حَيْثُ تَقَاذَفَتْ      أَمْوَاجُهُ وَالْبَرَّ حَيْثُ تَنَكَّرَا  
هَيْمٌ وَمَا يَبْغِينَ دُونَكَ مَوْرِدًا      أَبَدًا وَلَا عَنْ بَحْرِ جُودِكَ مَصْدَرَا  
مِنْ كُلِّ نَضْرٍ الْآلِ مَحْبُوكِ الْمُنَى      يُزْجِيهِ نَحْوُكَ كُلُّ مَحْبُوكِ الْقَرَا  
بَدَنٌ قَدَتْ مِنْهَا دُمَاءُ نَحْوَرِهَا      يَبْقَايُهَا فِي كُلِّ أَفْتَقٍ مُنْهَرَا  
تَحَرَّتْ بِنَا صَدْرَ الدُّبُورِ فَأَنْبَطَتْ      قَلَقَ الْمُضَاجِعِ تَحْتَ جَوِّ أَكْذَرَا  
وَصَبَتْ إِلَى نَحْرِ الصَّبَا فَاسْتَخْلَصَتْ      سَكَنَ اللَّيَالِي وَالنَّهَارِ الْمَبْصَرَا  
خَوْصٌ نَفَخْنَ بِنَا الْبُرَى حَتَّى انْتَنَتْ      أَسْلَاوَهُنَّ كَمِثْلِ أَنْصَافِ الْبُرَا  
تَذَرَتْ لَنَا أَنْ لَا تُلَاقِي رَاحَةً      بِمَا تُلَاقِي أَوْ تُلَاقِي مُنْذَرَا  
وَتَقَاسَمَتْ أَنْ لَا تَسِيغَ حَيَاتَهَا      دُونَ ابْنِ يَحْيَى أَوْ تَمُوتَ فَتَعْذَرَا  
لِلَّهِ أَيُّ أَهْلَةٍ بَلَغَتْ بِنَا      يُبْنَاكَ يَا بَدْرَ السَّاءِ الْمُقْمِرَا  
بَلْ أَيُّ غُصْنٍ فِي ذِرَاكَ هَصَرَتْهُ      فَجَرِي فَأَوْرُقْ فِي يَدَيْكَ وَأَمْرَا

١ راجع بعض هذه القصيدة في « الذخيرة » لابن بشار ( ج ١/١ ، ص ٥٦ - ٥٨ ) .

فلئن صفا ماء الحياة لَدَيْكَ لِي      فبما شَرِقتُ إِلَيْكَ بِالماءِ الصَّرَى  
ولئن خَلَعْتَ عَلَيَّ بُرْدًا أَخْضَرَا      فَلَقَدْ لَبَسْتُ إِلَيْكَ عَيْشًا أَغْبَرَا  
ولئن مددتَ عَلَيَّ ظِلًّا بَارِدَا      فَلَكُمْ صِلْتُ إِلَيْكَ حَرًّا مُسْعِرَا  
وكفى لمن جعل الحياة بضاعة      ورأى رضاك بها رخيصاً فاستترى  
لهفانٌ لا يرتدُّ في أجفانه      إلَّا تَذَكَّرَ عَبْرَتِي فَاسْتَعْبَرَا  
أَبْنِي لَا تَذْهَبْ بِنَفْسِكَ حَسْرَةً      عَنْ غَوْلِ رَحْلِي مُنْجِدًا أَوْ مُغْوَرَا  
فلئن تَرَكْتَ اللَّيْلَ فَوْقِي دَاجِيًا      فَلَقَدْ لَقِيتُ الصَّبْحَ بَعْدَكَ أَزْهَرَا  
ولقد وردت مياءً مأرب حَفَلَا      وَاسَمْتُ خَيْلِي وَسَطَ جَنَّةِ عَبَقَرَا  
ونظمتُ للغيد الحسان قَلَانِدًا      مِنْ تَاجِ كِسْرَى ذِي الْبَهَاءِ وَقَيْصَرَا  
وحللتُ أَرْضًا بُدِّلَتْ حَصْبًا وَهَاجَا      ذَهَبًا يَرُوقُ لِنَاطِرِي وَجَوْهَرَا  
وَلَتَعْلَمِ الْأَمْلاكُ أَنِّي بَعْدَهُم      أَلْقَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْقَرَا  
وَرَمَى عَلَيَّ رِدَاءَهُ مِنْ دُونِهِمْ      مَلِكٌ تُخَيِّرُ الْعُلَى فَتَخَيَّرَا  
ضَرَبُوا قِدَاحَهُمْ عَلَيَّ فَفَازَ بِي      مِنْ كَانَ بِالْقِدْحِ الْمُعْلَى أَجْدَرَا  
مِنْ فَكٍّ طَرَفِي مِنْ تَكَالِيفِ الْفَلَا      وَأَجَارَ مِنْ طَرَفِي تَبَارِيحِ السَّرْمَى  
وكفى عتَابِي مِنَ الْأَمِّ مَعْذَرَا      وَتَذَمُّعِي بِمَنْ تَجَمَّلَ مَعْذَرَا  
وَمُسَائِلِ عَنِّي الرِّفَاقِ وَوَدُّهُ      لَوْ تَنَبَذُ السَّاحَاتِ رَحْلِي بِالْعَرَا  
وبقيتُ فِي لَجَجِ الْأَمَى مُتَضَلِّلَا      وَعَدَلْتُ عَنْ سُبُلِ الْهَدَى مُتَخَيِّرَا  
كَأَلَّا وَقَدْ آتَسْتُ مِنْ هَوْدٍ هُدًى      وَلَقِيتُ يُعْرُبُ فِي الْقُبُولِ وَحِينَرَا  
وَالْحَارِثَ الْجَفْنِيَّ بِمَنْعِ الْحَمَى      بِالْحَيْلِ وَالْأَسَادِ مَبْذُولَ الْقَرَى  
وَحَطَّطْتُ رَحْلِي بَيْنَ نَارِي حَاتِمٍ      أَيَّامَ يَقْرِي مُوسِرًا أَوْ مُعْسِرَا  
ولقيتُ زَيْدَ الْحَيْلِ تَحْتَ عَجَاجَةٍ      تَكْسُو غَلَائِلَهَا الْجِيَادَ الضَّمِيرَا  
وعقدتُ فِي يَمَنِ مَوَاتِقَ ذِمَّةٍ      مَشْدُودَةِ الْأَسْبَابِ مُوثَّقَةَ الْعُرَى

القناة من الثَّغاف ، جنح إلى الاستقرار ببلنسية ، إلى أن لحقته بها الحادثة . فأسير وبقي عند العدو مدة . ثم سنى الله خلاصه بقلعة الطمع فيه لذهاب ذات يده ؛ فلحق بشاطبة ؛ ثم عاد إلى بلنسية ؛ فأقام بها إلى أن توفي سنة ٥٠٧ هـ ؛ وقد نيف على التسعين سنة . وكان - رحمه الله - فصيح القلم ، ظريف التوقيع ، خفيف الروح ، عذب النادرة والفكاهة ، حسباً يظهر ذلك من كتابي « القلائد » و « المطمح » .

### ذكر شيء من حديث ابن عبد العزيز

وكان الوزير أبو بكر بن عبد العزيز أحد رجال الكمال بالأندلس ، وعين بلنسية التي بها تبصر ، ولسانها الذي تسهب به وتختصر . وكان طاغية الرُّوم ، الممارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إيّاه في أمر بلادهم ، يقول إذا جرى ذكره : « رجال الأندلس ثلاثة ! » فبعد فهم ابن عبد العزيز . ولما فر المتوكل بن المقدر بن دنون عن طليطلة ، وسوغها لصاحب قشتالة ، لجأ إليه ببلنسية ؛ وقد كان بها وزيراً لأبيه ؛ فكفّفه وقام بأمره . وكانت آثار ابن عبد العزيز على الجملة جميلة ؛ وكان ثانياً لأبي الحزم بن جهور وشيهاً له في الجهة الشرقية ؛ حمل جهته على سداد ، وقام بها بحال الاستبداد ؛ فطاوَلَ الجبال والآكام ، وفلّ السيوف بالأقلام . وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٤٥٦ هـ . وأخبار ابن عبد العزيز شهيرة ، وآذابه في الشهرة الشمس في الظهيرة .

### أيام القاضي أبي أحمد بن حجاج

#### رئيس بلنسية

وهو ثالث القوم : ابن عبد العزيز وابن طاهر ، وفي نطمهم . وكان قاضي حضرة بلنسية ؛ وله فيها الأمانة المأجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة . وكان قد سئم إضافة عدو الله الكنيطور ببلنسية وسوءه أهلها خطة الحسف وسئم الذل . وضاق صدره بحفيد ابن دنون المنتقل إليه بعد تمكين النصارى من طليطلة ؛ فقوي بمكان دولة اللستونيين ، وانتحل على أيديهم كشف المحنة والخروج من ذل الكنيطور متعبداً أهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بصرامته . فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ؛ فوجه إليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس إلى لقائه .

وفر عند ذلك حفيد ابن دنون من قصره ، وثار البلد به ؛ وعثر عليه ؛ فقتل بأمر القاضي ابن جحاف ، كما تقدم . وتمت بقتله الرئاسة في البلد لابن جحاف ؛ فرتب الأجناد والخدمة ، واستشعر أهبة الملك ، وعين الألقاب ، وحذا حذو ابن عباد بإشبيلية ؛ فلم تساعد الأيام .

وخاطبته عدو الله الكنيطور ، يئنه على ما نهياً له ، وفي قلبه من استظهاره بسطان لمتونة النار المضرة ؛ وأخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه ، ويطلبه بالأطعمة التي كانت له بحصون بلنسية ، انتهبا رجاله في حال الحادثة . فراجعته أن البلد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ، والأطعمة قد انتهبت . فكتب إليه الكنيطور ، يقسم بمحرجات أيمان دينه ألا يروح عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثار ابن دنون . وخاطب من يجاوره من أهل



وَحَطَّطْتُ بَيْنَ جَفَانِهَا وَجُفُونِهَا حَرَمًا أَبَتْ حُرْمَاتُهُ أَنْ تُخْفَرَ  
تلك البدورُ تَتَابَعَتْ وَخَلَفَتْهَا سَعِيًّا فَكُنْتَ الْجَوْهَرَ الْمُتَخَيَّرَا  
وَلَقَدْ نَمَوْتُكَ وَلَادَةً وَسِيَادَةً وَكَسَوْتُكَ عِزًّا وَابْتَنَوْتُ لَكَ مَفْخَرًا  
أَهْدَى إِلَى شَفِيفِ الْقُلُوبِ مِنَ الْهَوَى وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكُرَى  
وَمَشَاهِدُكَ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُهَا ظَنًّا يَرِيبُ وَلَا حَدِيثًا يُفْتَرَى  
لَا قَبْتَ فِيهَا الْمَوْتَ أَسْوَدَ أَدْهَمًا فَذَعَرْتَهُ بِالسَّيْفِ أبيضَ أَحْمَرَ  
وَلَوْ اجْتَلَى فِي زِيٍّ قَرْنِكَ مَعْلَمًا لَتَرَكْتَهُ تَحْتَ الْعِجَاجِ مُعَقَّرًا  
يَا مَنْ تَكْرَّمُ بِالتَّكْبِيرِ قَدْرُهُ حَتَّى تَكْرَّمُ أَنْ يُرَى مُتَكَبِّرًا  
وَالْمُنْذِرُ الْأَعْدَاءَ بِالْبُشْرَى لَنَا صَدَقَتْ صِفَاتُكَ مُنْذِرًا وَمُبَشِّرًا  
مَا صَوَّرَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِ امْرِئٍ حَتَّى يَرَاكَ اللَّهُ فِيهِ مُصَوَّرًا  
وعلى ما تقرُّ من قَتْلِ مُنْذِرٍ أَكْثَرُ الْحِكَايَاتِ ؛ إِلَّا أَنْ صَاحِبَ  
« الْمَغْرِبِ » ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ فِي سَنَةِ ٤٣٨ هـ حَدِيثَ آلِ الْمُنْذِرِ ؛ فَقَالَ مَا  
نَصُّهُ : وَذَلِكَ أَنَّ أَمْرَ سَرَقِيسْطَةَ كَانَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ التَّجِينِيِّينَ يُسَمَّى مُنْذِرَ  
ابْنِ بَحْيٍ ؛ فَكَانَ مِنْ قَوَّادِ الدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ ، وَمَاتَ فِي أَمَدِ الْفِتْنَةِ ؛ فَوُورِثَ  
مُلْكُهُ ابْنُهُ بَحْيِيُّ بْنُ مُنْذِرٍ ؛ وَكَانَتْ سِنُهُ فِيمَا ذُكِرَ تِسْعَ عَشْرَةِ سَنَةٍ ؛  
فَتَسَمَّى بِالْحَاجِبِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ ؛ فَاحْتَقَرَهُ بَنُو عَمِّهِ ، وَتَوَاطَعُوا عَلَى قَتْلِهِ  
مَعَ كَبِيرٍ مِنْهُمْ دَخَلَ يَوْمًا لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ ؛ فَضْرَبَهُ بِسِكِّينَ فِي صَدْرِهِ ، كَانَ  
سَبَبَ مَنِيَّتِهِ . وَخَرَجَ هَذَا الْقَاتِلُ ؛ فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ بَنُو عَمِّهِ ، وَوَلَّوهُ أَمْرَهُمْ ؛  
وَكَانَ عَاهِرُ الْفَرَجِ ؛ ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى النِّسَاءِ الْحَمَامِ ؛ فَانْكُرُوا  
فَعَلَّهُ . وَقَامَ عَلَيْهِ أَهْلُ سَرَقِيسْطَةَ وَهَذَا يَقْتُلُهُ ؛ فَخَرَجَ فَارًّا بِنَفْسِهِ ،  
وَأَقَامَ أَهْلُ سَرَقِيسْطَةَ دُونَ أَمِيرٍ ؛ فَبَعَثُوا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ هُوْدٍ ؛ فَوَلَّوْهُ  
عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ فَبَقِيَ أَمِيرَهُمْ إِلَى أَنْ مَاتَ .

فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ صَحِيحًا ، فَيُظْهِرُ أَنَّ مُنْذِرَ بْنَ بَحْيٍ وَلِيَ بَعْدَهُ وَلَدًا

لَهُ أَوْ أَخٌ سَمِيَ لِأَبِيهِ . فَجَرَتْ عَلَيْهِ الْحَادِثَةُ الشَّيْبَةَ بِالْحَادِثَةِ عَلَيْهِ ؛ وَإِلَّا ،  
فَهُوَ وَهُمْ مِنَ الْمُوَرَّخِ . وَالْمَشْهُورُ فِي ثَوَارِ الْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الطَّوَائِفِ إِثْمًا  
هُوَ مُنْذِرُ بْنُ بَحْيٍ .

## ذَكَرَ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِ بَنِي طَاهِرٍ بِمَرْسِيَةِ

وَكَانَ هَذَا الْبَيْتُ بِمَرْسِيَةِ بَيْتِ أَعْلَامٍ ، وَحَمَلَةَ سَيْوْفٍ وَأَقْلَامٍ . فَلَمَّا  
تَفَرَّقَتِ الْجَمَاعَةُ بِقَرْطَبَةٍ ، وَجَرَتْ الْحَادِثَةُ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ ، وَلَجَأَ فِتْيَانُهَا  
إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَاسْتَقَرَّ مِنْهُمْ خَيْرَانِ الْعَامِرِيُّ بِمَرْسِيَةِ ، ثُمَّ انْزَعَجَ  
عَنْهَا حَسْبًا يَنْبِيئِينَ فِي مَوْضِعِهِ ، تَغَلَّبَ عَلَيْهَا الرَّئِيسُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ  
طَاهِرٍ ؛ وَكَانَ صَدْرَ زَمَانِهِ ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ فِي بِلَاغَتِهِ وَبَيَانِهِ ؛ فَأَجْرَى  
أُمُورَ بَلَدِهِ ، وَذَهَبَ فِيهَا مِنَ الْعِزِّ إِلَى أَمَدِهِ ، مُسْتَعْنِيًّا بِوَفْرِ نَشِيهِ ،  
وَسَائِرًا مِنَ الْحَزْمِ فِيهَا عَلَى مَذْهَبِهِ ، إِلَى أَنْ فَسَدَتْ بِهَا حَالُهُ مَعَ جِيرَانِهِ ؛  
فَحَسَدُوهُ ، وَمَوَرَدَ الرَّدَى أَوْرَدُوهُ ، وَخَاطَبُوا الْمُعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ مُحَمَّدَ  
ابْنَ عَبَّادٍ . فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ وَزِيرَهُ ابْنَ عَمَّارٍ ، وَابْنَ رَشِيقٍ قَائِدَ عَسْكَرِهِ .  
وَنَارَ الْبَلَدُ عَلَى ابْنِ طَاهِرٍ ، وَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ ؛ وَاسْتَوْلَى ابْنُ عَمَّارٍ عَلَى  
مَرْسِيَةِ . وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْقِيَامَ بِهَا عَلَى الْمُعْتَمِدِ ؛ وَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْجَيْشَ ،  
وَخَاطَبَ ابْنَ رَشِيقٍ فِي شَأْنِ الْوُثُوبِ بِهِ . فَتَوَصَّدَ غِرَّتَهُ ، وَقَدْ خَرَجَ عَنْ  
مَرْسِيَةِ ؛ فَمَلَكَهَا ، ثُمَّ اسْتَأْثَرَ بِهَا إِلَى نَفْسِهِ ، حَسْبًا تَقَدَّمَتِ الْإِسَارَةُ  
إِلَيْهِ . وَتَنَاقَشَ فِي هَذِهِ التَّقْلِبَاتِ الْخُرُوجُ مِنَ الْإِعْتِقَالِ لِابْنِ طَاهِرٍ ؛ فَلَحِقَ  
بِابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَارِهِ بِيكَنْدُوسِيَّةَ ، وَهُوَ أَيْضًا كَبِيرٌ ذَلِكَ الْقَطْرِ ، وَعَيْنُ  
الْأَعْيَانِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ .

قَالَ الْفَتْحُ فِي « الْفَلَاذِلِ » ١ : وَعِنْدَمَا خَلَصَ مِنْ ذَلِكَ الشُّقْفِ ، خَلُوصًا

الخصون ، الذي لا طاقة له ، يستعبد الأقوات للمجاعة .

ثم كاد الكنبيطور عدو الله ابن جحّاف ، وخدعه ، ودخله في إقامة أودعه وتوطيد ملكه : إذا صرف المسلمون وأزعجهم ، فإنه يسوغ استبداده بالملك ، ويقيسه مقام ابن دنون ، ويقايل عنه من يريده ؛ وكان استنقل القوم وضاق بمؤتهم ؛ ففعل . وعند ذلك استبصر في التضييق عليه ؛ فعظم الغلاء ، وتضاعف البلاء ؛ واستصرخ بأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ؛ فبعث إليهم جيشاً عظيماً ، أتيح للكنبيطور عليه الظهور . فأيقن الناس بالملكة .

واشتد عليه كلب العدو إلى أن استأمنوه لأنفسهم . وخرج إليه ابن جحّاف ، وأحكم معه العقد ؛ ودخل العدو المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ . وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية ؛ فما أغنت وفازت بها قداحه . ولما تمكن فيها ، سام أهلها سوء العذاب ، واستخلص أموالهم ، وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف . واعتقل القاضي أبا المطرف جعفر ابن جحّاف ، وعم بالنكبة جميع قرابيه وأهلته ، وطلبه بئال حفيد ابن دنون . فلما استصفى جميع ماله من ظاهر وباطن ، أمر بإضرام النار . وسبق القاضي أبو المطرف يوسف في قيوده بين أهله وولده ؛ وقد حشر الناس من أهل الملتين . وقال الكنبيطور للملأ : « ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم ؟ » فصمتوا ؛ فقال : « أمّا نحن ، فجزاؤه عندنا الإحراق ! » وأمر به وبجملته إلى تلك النار ؛ وقد لفت الوجوه على المسافة البعيدة . فخرج المسلمون والنصارى ، ونصروا إليه في شراك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ؛ فأسعف الرغبة بعد جهنم ومدة . واحتفر للقاضي أبي المطرف حفرة ، وأدخِل فيها إلى حجراته وسوى التراب حولته وضمت إليه النار . فلما لفت وجهه قال : « نعم الله الرحمن الرحيم ! » ثم ضمها إلى جسده ؛ فاحترق . رحمه الله . ولم يكن

غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر ، ودفعه إياه بالمطاوله ، رجاء في استسكان البدة للإسلام ، واستبقاء الكلمة فيها .

وبعد بعد إحراقه إلى الجلّة من أهل بلنسية ؛ فتفقهم بحال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحنة ، حتى استأصل جميع ما عندهم . وجعل الناس في الضغط أسرة على طبقاتهم . وهلك في الثفاف خلق كثير منهم - رحمهم الله - في آخريات السنة .

## ذكر شيء من أخبار بني رزين

قال ابن حبان : وقد ذكر أبا مروان بن رزين الملقب بحسام الدولة : كان جده هذيل بن خلف بن لبّ بن رزين صاحب السهلة ، موصلة ما بين الثغرَيْن الأعلى والأدنى من قرطبة . وكان من أكابر برابرة الثغر ، ورث ذلك عن سلفه . ثم سما لأول الفتنه إلى اقتطاع عمله . والإمارة بجماعته ، والتشبه بجاره إسماعيل بن دنون في الشroud عن سلطان قرطبة . فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره ، إلا أنه كان مع تعزّزه على هشام ، لم يخرج عن طاعته ، ولا وافق منذراً وأصحابه على التآمر عليه ، إلى أن ظفر سليمان بهشام المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة ؛ فسلك مسلكهم . ورضي منه بذلك سليمان ، وعقد له على ما في يده لعجزه عنه . وقرّب منه منذر بن يحيى ، وطمع فيه ؛ فأجاره منه منعة مغلّقه ، وسلم من معرة الفتنه أكثرت وقته . وتخطت الحوادث القوة سعده ؛ واقتصر مع ذلك على ضبط يده المرسوم بولاية والده ، وترك التجاوز حوله ، والامتداد إلى شيء من أعمال غيره . فاستقام أمراء ، وعمر يده وانظر بعد جمهور الثوار بالأندلس مدة الحياة .

وليس في بلد النضر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزّين  
سلفه ، لاتصال عمارتها . فكثُر ماله إذ ناعى جاره وشبيهه إساعيل بن  
دثون في جمع المال ، ونافسه في خلال البخل وفترط القسوة . وكان  
شاباً جميل الوجه ، حامي الأنف ، غليظ العقاب . صار إليه أمر والده  
منبعث الفتنه ، وهو فتى ما اجتمع وجهه ؛ فأنجده الصبا على  
الجهالة ، وقواه الشباب على البطالة ؛ فبعد في الشرود شأوه ؛ ولم يحالف  
أحدًا من الأمراء على أداء الإتاوة ، ولا حظي أمراء الفتنه منه بسوى إقامة  
الدعوة فقط ، إلى أن مضى بسيله . والأخبار متتابعة يجهله وفظاظته ،  
حتى زعموا أنه سطا بوالديته وتولى قتلها بيده . وكان بارع الجمال ،  
حسن الخلق ، أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات ؛ وهو أول من  
بالغ في الأندلس في شراء القينات المشهورات ؛ فكانت سيارته أرفع  
سيارات الملوك بالأندلس .

وتصير أمره إلى الحاجب ذي الرياستين أبي مروان عبد الملك بن رزّين  
ابن هذيل حسام الدولة ؛ وعندئذ احتفل بمجدهم ، وبلغ النهاية في  
الإشراف تجدهم .

ذكره الفتح في « الفلاند » فقال : ورث الرياسة من ملوك عضدوا  
مؤازرهم ، وشدوا دون النساء مآزرهم ، لم يتوشحوا إلا بالحمائل ، ولا  
جنحوا للبأس إلا في أعنة الصبا والشمال ، وركبوا الصعاب فذلّلوها ،  
وابتغوا سبباً للنجوم حتى انتعلوها ؛ فملكوا الملك بأيديهم ، وعقلوه من  
النجدة بقيت . وكان ذو الرياستين منتهى فخارهم ، وقطن مدارهم .  
وأما شجره ، فأخبر الكاتب أبو جعفر بن سعدون أنه أصبح يوماً  
بحضرة ولده رش ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد قفل الغمام  
الأزهار حتى أذهب نضجها ، وسقاها فأروى عطشها ؛ فكتب إليه :

١ راجع « الفلاند » ( ص ٥١ - ٥٢ ) .

[الطويل]

قد ينالك لا يستطيعك النظم والنثر  
فأنت ملك الأرض وانفصل الأمر  
مرينا نذاك الغمر فأنهل صيباً  
كما سكبت وطفاء أو فتق الزهر  
وجاء الربيع الطلق يندى غضارة  
فحيثك منه الشمس والروض والنهر  
وما منهم إلا إليك اتماؤه  
جيبك والجود المتمم والبشر  
خلا منك دهر قد مضى بعبوسه  
فلما أتت أيامك ابتسم العضر  
فبشرت آمالي بملك هو الرور  
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر  
فأجابه :

إليك فلولا أنت لم ينظم الدر  
ولا التام في مدح نظام ولا نشر  
إذا قلت لم ينطق فصيح مدرب  
ولا ساغ في سماع غناء ولا زمر  
لك السبق كم روضت من عاطل الربى  
وحللت من سحر وقد حرم السحر  
ولما ملكك القول قسراً وغنوة  
أطاعك جيش النظم وانتصر النشر  
فلا نقل إلا ما تقول بديهة  
ولا خمر ما لم تأت من فمك الخمر  
وكبا به فرسه يوماً ، وقد ركب متصيذاً ؛ فسقط سقطة أو هنت  
قواه ، ودعته إلى ملازمة مشواه ؛ وبلغه أن أحد حساده شتم بوقعته ،  
وسر بصرعته ، فقال :

[البيط]

إنني سقطت ولا جبن ولا خور  
وليس يدفع ما قد شاءه القدر  
لا يشتم حسودي إن سقطت فقد  
يكبو الجواد وينبو الصارم الذكر  
هذا الكسوف يرى تأثيره أبداً  
ولا يعاب به شمس ولا قمر

١ راجع « الفلاند » ( ص ٥٤ ) .

## ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البنت

منهم نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري . ولم تزل في أيديهم من أوّل الفتن . وكان أوّل من تأكل بها ، وبني الرياسة لقومه بسببها ، عبد الله هذا المذكور ، إلى أن هلك سنة ٤٢١ . ثمّ ولي بعده محمد ابنه الملقب ببيمن الدولة ، واستمرت أيامه فيها في جملة نوّار الأندلس وأولي طوائفها إلى سنة ٤٣٤ . ثمّ ولي بعده ولده أحمد بن محمد بن عبد الله ، الملقب بعز الدولة .

قال أبو مروان بن حيّان عند ذكره : وألقاب سلفه ميّاسم مهولة لمن حظّه من الدنيا عدّة حربه ، تحيط عينه بها من فوق مرّقبته ؛ فهلك هذا الفتى بمرّقبته الشاهقة ولم يُملّ له بعد أبيه . وكان موته في رجب من هذه السنة . فنصب أصحابه بعده ابنّاً له صبيّاً ابن سبع سنين أو نحوها ، يُسمّى محمداً ، وسوّه بالإمارة مكانه ، وتحطّوا بها عيومتّه ، إذ آثره بها شيخ دولتهم المسمّى بقاسم ، جدّ هذا الغلام أبو أمّه ؛ ودبر الأمر باسمه شهوراً ليُبقي النعمة على ابن ابنته المؤمّر ، إلى أن يدرك ؛ فأنف عنه ابن محمد من ذلك ، وواطأ في السرّ جماعة من أصحاب أخيه على الوثوب بقاسم هذا ، وإزالة أمر ابن ابنته ، والكون مكانه ، خوفاً على ما في أيديهم . فتهيأ له ذلك ، فيما بلغتني ، آخر هذه السنة . ووثب بقاسم ؛ فقيده وحبسه . وصرف الصبي ابن أخيه إلى حجر أمّه ، ونكحها . فاستلج إلى والديها المحبوس في يده ، وخلص عنه ، وأعادته إلى حاله مع أخيه شهره الأوّل . وقام بالإمارة مقام أبيه الهالك ؛ فانظمت له سريعاً . واستلج إلى الملوك حولّه ، ونسب نظام الدولة ؛ فانصلت ولايته .

وقلت : هؤلاء الرؤساء أشهر من كان على إثر القراض الدولة الأمويّة من رؤساء الطوائف بالأندلس ، ما بين متناهي الخلافة ، مجاري كبار الملوك في اتّساع الخطّة ، وكثرت الجباية ، وتوفّر الجيش ، وانتشار الشهرة ، واحتفال المباني والآثار ، واستخدام الكتّاب والشعراء ، ومحاورة العلماء ، واختيار القضاة الفضلاء ، كبنّي عبّاد ، وبني هود ، وبني دنثون ، وبني الأفطس ، وبني منذر ، وبني جهور ، من أخذان السداد والعافية ، ومن أمثالهم بني أبي عامر .

وكان على عهد هؤلاء جملة لم تبلغ هذا المدى في الشهرة ، ولا برزت في ميدان الذّكر . منهم : ابن أبي الحجّاج الشّنياطي ، القائم بمدينة لاردة .

ومنهم : أبو الأصبع بن مزيّن ، وموسى أخوه ؛ وكان أبوهما قاضي شلب وحصون الغرب ، تسمّى أحدهما بالمظفر ، وانفرد بالأمر دون أخيه ، إلى أن غلب عليه المعتضد سنة ٤٤٣ ؛ فكانت مدّتهم تسعاً وثلاثين سنة .

ومنهم : أبو عيسى بن البّون ، صاحب قلعة عبّاد السلام من الثغر قرب وادي الحجارة .

ومنهم : سعيد بن أحمد بن زنفّل الجُماني ، المنتزعي بقلعة سفورة المنية من أطراف جيّان .

ومنهم : عبد الحميد بن مثنور الدّائيري . ومنهم : يحيى بن غرّان الدائيري المنتزعي بصخرة ابن الشرف المسماة بقرايش ، على باب فراطية . والدائيري والدواير عبد أهل الأندلس هم الصّعليك الذين يثورون في الحصون ، فيقطعون الطرقات ولا يُعطون طاعة .

ومنهم : ابن بطّال ، صاحب حصن الشّوص من موطنة ككور الغرب .

ومنهم : المعروف بابن أخِي حَصَاد ، صاحبُ القلعة المنسوبة إليه  
وسط كورة سُدُونة ؛ إلى عددٍ كثيرٍ شقَّ علينا ذكرهم مع عدم  
الشهرة ، وضؤولة الشأن .

ومنهم : عبدُ العزيز البكريُّ أبو مُصْعَب ، صاحبُ سَلْطِيش ؛  
استمرت حاله في رفاقةٍ من العيش لِرَضَى أهلِ بلده به ، إلى أن تحرَّك إليه  
ابنُ عَبَّاد ؛ فرأى أبو مُصْعَب أن ليس له قدرة على مُدافَعَتِهِ ؛ فخرج عنها ،  
وانتقل إلى قُرْطُبة بأهله وولده .

ومنهم : أبو نَصْر بن يحيى ، المتسمى بالحاجب ، ولي بعد أخيه بنواحي  
لِبلَّة وولبة وجبل العيون ؛ وكان رخيَّ البال ، صالحَ الأحوال ، إلى  
أن أخرجه عنها ابنُ عَبَّاد . وكانت مدة بني يحيى خمساً وأربعين سنة .  
وقد مرَّ ذكرُ ابنِ عَمَّار وابنِ رَشِيق . ونحن نذكرُ بعد هؤلاء من  
أمكن ذكره من موالي الملوك العامريين .

ذَكَرَ مَنْ تَبَسَّرَ

## من ملوك الموالي الامويين والعامريين

### أيام القتي خيران العامري

نقول : انتهت الشهرة في هؤلاء الممالك العامريين إلى الأمير خيران  
بعد انقراض الدولة العامرية . وكان ممن تخطته المتاليف عند خلع هشام ،  
واستيلاء سليمان بن الحَكَم على قرطبة ، وقتل من قبض عليه منهم .  
وأنجاه الفرار له عن الحضرة . وكان قد نال بباب هشام الرئاسة والقيادة  
على الصقلب ، والمشاركة في جماعة الفحول النابئين عن الدولة ؛ فخلص من  
الحضرة مُفلتاً ، بعد أن تضمَّر بها وخفي مكانه ؛ وقد اتَّصل به انتزاع

أصحابه بشرق الأندلس ؛ فذهب إليهم عن توديع . وأبَتْ له هيئته  
الانقياد لأحدٍ من رؤسائهم ، إذ كان ، منذ صباه وفي دار سلطانهِ ، أشبههم  
أبناء جنسهِ نفساً ، وأغلاهم هيئةً . فاستقرَّ مُصْعَباً بن أخرجه من  
طرف كورة تَدْمِير ، وكتب إلى جماعتهم من تحلته ، ليخبرهم بمذهبه في  
النزول بمكانه بينهم وبين عدوهم من البرابرة ، ساداً لثغرهم ، ويسألهم  
الإعانة على ذلك ، حتى يذودهم عن كورة تَدْمِير . ففعلوا . واستقرَّ خيران  
بذروة أريولة ، وهي مثلٌ في الحصانة والمنعة ؛ وأقبل إليه ثوابت الفتنه  
من الدَّابِيرة والصَّعَالِكة ، أقدم بهم على الكثير ، وزاولَ جسام الأمور ؛  
فاعتلى قِدْحَهُ ، واشتهر أمره إلى أن استولى على الجبهة .

ووجهه إليه صاحبُ قرطبة موسى بن مروان بن حُدَيْر ، وكان في  
الصرامة والجرأة آيةً . وكانت بينه وبين خيران وأصحابه وقِيعَةٌ أَجَلَتْ  
عن أمر موسى بن حُدَيْر ، وقتل أصحابه ، ونصر خيران نصراً عزيزاً  
اعتلى به . ثم تغلَّب على مُرْسِيَّة ؛ فكشف جمعه . ثم صرف وجهه إلى  
طلب المَرِيَّة مَعْقِلِ الأندلس ؛ وكان بها أَفْلَح الصَّقْلِيُّ من هؤلاء  
رَجُلٌ جَلْفٌ شديدُ العتوِّ والجهالة ، مُفْرِطُ النخوة ، لا يُحسن التفرد  
والاستقلال بنفسه ، قد ذهب به العُجبُ كلَّ مذهب ، ورأى لنفسه  
الفَضْلَ على سائر جنسه بالشَّيْخُوخة وقديم الملكة . فاستهان الناس ؛  
فتعباً له خيران في جيشه من مُرْسِيَّة غُرَّة المحرم سنة ٤٠٥ ؛ فنازله ،  
ودخل المدينة ، وتغلَّب على القَصْبة ؛ فقتل أَفْلَحَ وولده ، وحاز ما  
وجد فيها من مال وعدة ؛ وهتف في رعيَّتها بالأمان ، واتخذ المدينة  
وطناً نزله برجاله وماله ، واستخلف على ما انصرف عنه ، وعوَّل على  
المَرِيَّة ؛ فأحسن صَبْطَهَا ، وحصَّن قَصَبَتَهَا ، وسدَّ عَوْرَاتَهَا ، إلى أن  
صيرها في الحد الذي هي اليوم فيه ؛ فلا يُرام التعلُّقُ بها . واتخذها  
قاعدةً لسلطانهِ ، وحمل إليها أموالَ عمِّله ، وعدل في سيرته ، ورقق

برعيته ، واستوسع فيما يليها من الأعمال ، وضبطها مع عمه الأول بجيشه ورجاله . واستعان على تدبيره بوزيره الشهير الدهّاء والرجاحة أبو جعفر أحمد ابن عباس بن أبي زكرياء ، إلى أن نال بصحبته فوق ما ناله 'مجيل' قلم من صفة ملك ، حسباً هو مشهور .

وجرت بين خيران وبين من 'يجاوره من أمراء صنهاجة بكورة النيرة حروب' ؛ فلم يفلتوا من صرمة .

وله بالمرية الآثار الخالدة ، والحسنات الشهيرة . فهو الذي أوصل إليها الماء ، وبني الحمة العجيبة . وفي أيامه بلغت من العمارة والقوة وفشو الصنائع ما هو مشهور . وكان مذهبه في الجود قصداً ، لم يشتر بكرم ، ولا وسم بلوم . وكان أغلب خلال الخير عليه كهيته وشجاعته وحصافته ؛ اجتمع له إلى شجاعة النفس جودة الرأي وحسن التدبير ؛ فكان يجري أكثر عمله في حروبه على المكر والتدبير والمخادعة ؛ وهو رأي أولي المعرفة بها من ملوك الحزمة . وكان مذهبه مع جلالة شأنه الخفض من حاله ، والقصْد في أسماؤه ؛ فما كان يتسمّى في شيء ممّا يتنافس فيه أملاك زمانه من ملوك الفتن ، إلا ما كان من وصفه بالخليفة والفتى الكبير .

وإياه مدح شاعر الأندلس أبو عمرو أحمد بن دراج القسطلي صدر سنة ٤٠٧ ، يصف محنته في ركوبه البحر إليه ببنييه ؛ وهي :

[الطويل]

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشرتك قد آواك عز وسلطان  
هو النجم لا يدعى إلى الصبح شاهد هو النور لا ينفى على الشمس برهان  
إليك سحناً فلنك تهوي كأنها وقد دعرت من مغرب الشمس غروبان

أوردتها ابن بسام في «الذخيرة» ( ج ١ ) ص ٧٤ - ٧٥ .

على لجج الخطر إذا هبت الصبا  
موايل توعى في ذراها موايل  
وفي طي أسال الغريب غرائب  
يركدن في الأحشاء حر مصائب  
إذا غيض ماء البحر منها مددته  
وإن سكنت عنها الرياح جرى بها  
يقلن وموج البحر والهمل والدجى  
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا  
وهبنا رأينا معلّم الأرض هل لنا  
وصرف الردى من دون أدنى منازل  
تقسمن السيف والحيف والبلى  
كما افتسمت أخذائهن يد النوى  
ظعان ، عمران المعاهد مقفر  
فإن غربت أرض المغارب موطني  
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي  
فإن بلاداً أخرجتني لعطل  
سلام على الإخوان تسليم آيس  
ولا عرفت خلأت دار خليفة  
ويا رب يوم بان صدع سلامه  
نودعهم شوقاً بشجو كمثل ما  
ويصدع ما ضم الوداع تفرق  
إذا شرق الحادي بهم غربت بنا  
ترامى بنا فيها ثير وثيلان  
كما عبدت في الجاهلية أوثان  
سكن شغاف القلب شيب وولدان  
تريد ظلاماً ليها وهي نيران  
بدمع عيون تمترين أشجان  
زفير إلى ذكر الأجرة حثان  
تموج بنا فيها عين وآذان  
سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان  
من الأرض مأوى أو من الإنس عرفان  
تباهي إلينا بالسرور وتردان  
وشطت بنا عنها عصور وأزمان  
فهم للردى والبر والبحر إخوان  
لهن وقعر الأرض منهن عمران  
وأكرني فيها خليط وخلان  
وأجزلت البشرية على خراسان  
وإن زماناً خان عهدي لخوان  
وسقياً لدهر كان لي فيه إخوان  
عفا رسمها منها عفا ونسيان  
بصدع النوى أفلاك قلبي إذ كانوا  
أجابت خفيف السهم عوaja مرغان  
كما انشعبت تحت العواصف أغصان  
نوى يومها يومان والحين أحيان

فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة  
فيا عجباً للصبر منّا كأننا  
قضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم  
وجوه تناءت في البلاد قبورها  
وما بليت في التراب إلا تجددت  
ومنها :

هم استخلفوا الأحباب أمواج لجة  
أقول لهم صبراً لكم أو عليكم  
فلا قنط والعسر للبسر غالب  
ولا يأس من روح وفي الله مطمع  
ستسبون أهوال العذاب ومالكاً  
متى تلحظوا قصر المرية تنزلوا  
وتسبّدوا من موج بحر شباكهم  
تقلد سيف الله عنا بحقه  
وحلّى بناجر العز مفرق محبت  
وبالخير فتاح وبالخير عائد  
له الكرة الغراء عن كل سارد  
بكل كمي عامري يقوده  
حليهم بيض الصوادم والقنا  
ترآك حزب الغي فيهم فأقبلوا  
فأي حصور قلبت أي أعين  
عيون بها كادوا العلى بعمائها

ومنها :

فلو نشير الأملاك يومك فيهم  
ولو رد في المنصور روح حياته  
وناديت للهيجاء أبناء ملكه  
جبال إذا أرسيتها حومة الوعى  
يقودهم داع إلى الحق مجلب  
كتائب بل كتب بنصر كسطرت  
هو السيف لا يرثاب أنك سيفه  
حياك قد أحيت منّا شمائل  
وناجاك أسراراً وناداك معلماً  
ألا هكذا فليحفظ العهد حافظ  
قليله ماذا أنجبت منك عامر  
ولله منّا أهل بنت رمتهم  
وكلهم يزهى على الشمس في الضحى  
وقد راد أبناء السبيل وسيلة  
فما قصرت بي عن علاك شفاعه  
ولا بك عن مثلي جزاء وإحسان

واعتل خيران بالمريّة أشهراً يقيم رسمه للناس ابن عباس بن أبي  
زكرياء ، إلى أن توفي بها ليلة الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى  
سنة ٤١٩ . وكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة . وصار الأمر إلى  
زهير الفتى .

## أيام الفتى زهير العامري

ولما توفي خيران، اجتمع أحد بن أبي زكرياء بأهل العقد والحل، وعرفهم بموت خيران، وبأنه قدّم أخاه زهيراً. قال: فرضي الناس. وكان زهير فاضلاً، شهنأ، داهية، سديد المذهب، مؤثراً للأناة، عالي الهمة. وكان خيران قد استقدمه، وهو أمير بمرسية من قبله، ورشحه لكانه؛ فقام بالأمر أحمد قيام يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة ٤١٩. ودامت مدته عشرة أعوام ونصفاً.

وله بالمرية آثار جميلة: هو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة. وكان يشاور الفقهاء، ويعمل بقولهم. وامتدت أطناب مملكته من المرية إلى قرطبة ونواحيها، وإلى شاطبة وما يليها إلى بياسة إلى الفج من أول طليطلة.

ودبر أمر قرطبة منفرداً به أيام الفتن والاستغناء عن الخلافة؛ وسكن قصرها يوم الأحد لحس بقين من شعبان سنة ٤٢٥. ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر، إلى أن فسد ما بينه وبين باديس بن حبوس من الحلف القديم؛ وراسلته معاتباً ومستدعياً تجديد التحالف؛ فسارع زهير نحوه؛ قد ضيع الحزم، واغتر بالعجب، ووثق بالكثر، أشبه شيء بجي الأمير الضخم إلى عامل من عماله، قد ترك زمن الالتقاء بالنظر، وأعرض عن ذلك كله. وأقبل؛ فتجاوز الحد بين العمليين من غير إذن باديس؛ وصير الأوعار والمضايق خلفه. ولما وصل إلى غرناطة، خرج باديس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعدّه حاصلاً في قبضته؛ وبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله في القري والقصيم، بما يمكن اغترارهم؛

ووقعت المناظرة بين زهير وباديس؛ فنشأ عارض الخلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره على التشطط. فعزم باديس على لقائه؛ فتهياً، والحائن لا يشعر، وقطع في الطريق خلفه قنطرة لا يحيد له عنها، وغاداه عن تعبئة محكمة. فدهش زهير وأصحابه؛ لكنه أحسن تدبير الثبات، وقام. فنصب الحرب وثبت في قلب العسكر؛ وقدّم خليفته هذيل بوجه أصحابه الموالي العامرية، وعرف صنهاجة أنهم الحماة والشوكة، ومتى خضدوا، لم يثبت من وراءهم؛ فاختلفوا بهم، واشتد القتال. فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة، ليُري قدرته. فانهمز زهير وأصحابه، وتقطّعوا؛ وعمل السيف فيهم؛ فمزقوا، وقُتل زهير، وجُهل مضرعه. وغنم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والعدّة والحلية والعلمان والحياض ما لا يحاط بوصفه.

وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب سؤال من سنة ٤٢٩ بقرية الفت من خارج غرناطة. واتصل خبر هذه الواقعة بأهل المرية؛ فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم أبي بكر الرميمي؛ فضبط المدينة إلى أن كاتبوا عبد العزيز بن أبي عامر المتقدم الذكر؛ فجاءها من بكنسية، حسباً ذكر في أسنه.

## أيام أبي الجيش مجاهد العامري

ومجاهد العامري هذا، صاحب دانية والجزائر الشرقية، ذو الأخبار الفخمة والوقائع الشهيرة.

قال أبو مروان: كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل، من أسقفها العلم والمعرفة، اللذان لم يكن في



الأحرار ولا في الموالي أثبتت قدماً منه فيها ، يكاد يربي على متقلدتها من أكابر العلماء في وقته ، لاسيما علم العربية ؛ فإنه تحقق به ، إلى ما يتصرف من علم القرآن قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره ، قد عني بطلب ذلك من صباه إلى اكتناله ؛ فكان في النهاية من البصر به . وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه . وأتت إليه العلماء من كل صقع ؛ فاجتمع بفنائها جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم ، كأبي عمرو المقرئ ، وابن عبد البر ، وابن معمر اللغوي ، وابن سيده ؛ فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وعلمانه ؛ فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون في فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرّفون دولته . ومنها التقدّم في الفروسيّة والحدق بمعانيها ؛ فلم يك في ملوك الزمان فارس يعدله سكلًا ولباقة ورؤاء وهيبه ، وحسن عمل في السلاح ، وتقليباً له ، إلى حدق أبواب الثقافة والرواية ، وتدقيق لمعانيها .

وتسمى ، أول انتزائه بالجزائر ، بذري الزاريتين خطبته التي رقاها إليها بعض ملوكهم . وكان شديد الوطأة على رعيته ؛ سام أهل الجزائر الحسّاف ؛ فسطا بوجههم ورؤسائهم ، وألزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغريب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظّر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة أموالهم ؛ فكتبها منعوتة ؛ فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً حتى يكتب على ربّه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه إلى أن يصلح للرياسة ؛ فيقبض منه عند ذلك ، ويعطى منه خمسة دنانير دراهم ، لا يزداد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه إن نقّ إلا ببراعة من يقته . ولقد قطع أذن رجل لقطعه أذن مهراً ، طلب التشوية بخلقه .

وأكثر التخليط في ذات أمره ؛ فطوّراً ناسك مخشيت ، متبرّء

من الباطل كله ، منقطع إلى الجِدِّ وأهله ، لا يستريح إلا إلى جزء يقرأه ودقتر يطالعه ، أو عالم يذاكره ؛ وتارة لا يأنس بشيء من الجِدِّ ، ولا يعرف غير البطالة واللغو . وكان مذهبه في الجود قصداً ، لم ينهيك فيه ، فيعزى إليه ، ولا كره عنه ، فيوصف بضده ؛ فأعطى وحرّم وجاد وبخل ، ووضع الأشياء مواضعها ؛ فكانت نجا من عهدة الذم . وكان مع أدبه وعلمه أزهد الأمراء في الشعر ، وأنكرهم على منشديه ، لا يزال يتعقبه بنقده ، كاشفاً عن لفظه أو شبهة أو سرقة أو إحالة ؛ فأقصر الشعراء لذلك .

وعزّا - رحمه الله - إلى سرذانية جزيرة الرّوم ، وهي عظيمة ، مسيرتها ثمانية أيّام ، وفيها ملوك أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة ؛ اقتحمها في مائه وعشرين مركباً حمل فيها ألف فارس ؛ ففتح أرضاً جليّة ، وضرب على بعض ملوكها جزيرة ، وتجاوز حده ؛ فاخطت مدينة واسعة شرع في بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، بعد أن غم وسبى ما لا يأخذه الحضر ، إلى أن كسد في زمانه السبي ، وخست فيه الأثمان . وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة واستجاشوا . وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه ؛ فعزم على التحوّل إلى محلّه ، والقفول إلى دار ملكه بدانية وميورة ؛ فأعجله العدو عن ذلك ، وقطع به . فكانت عليه وقعة شنيعة ، وظهور ما سيع بمثله ؛ فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله ، واستنقدوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهن نساؤه وبناته وعلي ولده وجود أمه النصرانية ، افتدي بعضهن سريعا ؛ وتأخر البعض كولد علي ؛ فإنه وقع في سهم صاحب الأمايين ، وهم أمة من الفرنجة تلي الصقالية ، يسع أن دارعة مقاتلتهم ثمانون ألفاً . فاحتبس به للمباهاة ، وأعيّا على والده فداؤه ؛ وقد بذل فيه عشرة آلاف ، إلى أن خلاص بعد زمن طويل . ولم يخلص

من أَسْطُولِهِ أَجْمَعِهِ إِلَّا خَمْسَةَ مَرَاكِبٍ وَأَرْبَعَةَ قَوَارِبٍ ؛ وَكَانَ شُحْنَةُ  
الْأَسْطُولِ الْمَقْلُولِ مِنْ سَبْيِ سَرْدَانِيَّةَ يَوْمَ ظَهْرِ الْعُدُوِّ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ  
فَارِسٍ .

وَكَانَ مُجَاهِدٌ قَدْ نَصَبَ بِمَجْلٍ مُلْكِهِ خَلِيفَةً دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ ؛ وَهُوَ الْفَقِيه  
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمُعِيطِيِّ الْمَدِينِيِّ ، أَعَدَّ مِنْ أَرْجَعَتِهِ  
الْفِتْنَةَ مِنْ رِجَالِ الْأَشْرَافِ بِقَرْطَبَةٍ . وَكَانَ فِي عَدَدِ الْفُقَهَاءِ الْمُشَاوِرِينَ بِهَا ؛  
فَنَصَّبَهُ خَلِيفَةً ، وَأَخَذَ لَهُ عَلَى النَّاسِ الْبَيْعَةَ فِي جَمِيعِ عَمَلِهِ بِدَانِيَّةَ  
وَمَيُورِقَةَ وَغَيْرِهَا ، وَسَاءَ الْمُنتَصِرُ بِاللَّهِ ، وَأَثْبَتَ اسْمَهُ فِي سِكَتِهِ  
وَفِي أَعْلَامِهِ ؛ وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ٤٠٥ ، وَخَلَقَهُ بِدَارِ مُلْكِهِ . فَلَمَّا  
عَادَ مِنْكَوْبًا مِنْ غَزْوَتِهِ بِسَرْدَانِيَّةَ ، أَلْفَاهُ قَدْ اسْتَبَدَّ ، وَدَاخَلَ النَّاسَ ،  
وَعَمِلَ عَلَى إِبَادَتِهِ ؛ فَبَادَرَ الْمُعِيطِيُّ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى السَّاحِلِ ، وَهُوَ ذَاهِلٌ  
عَنْهُ ، وَهَجَمَ عَلَيْهِ ، وَأَقَامَهُ عَنْ تَحْلِيصِهِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ شَايَعَهُ مِنْ  
أَصْحَابِهِ ، وَتَسَلَّمَ مِنْهُ سُلْطَانَهُ ، وَعَاتَبَهُ فِي سُوءِ مَا كَفَاهُ بِهِ ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ  
يَدَهُ ؛ فَاعْتَرَفَ لَهُ بِهَيْبَتِهِ ، وَقَالَ : « بَلَغَنِي مَا أَخَذْتَنِي بِهِ عِنْدِي مِنْ  
الْعَبَثِ بِالنَّاسِ ، وَالِاسْتِثْنَاءِ بِالْفَيْءِ ، وَالْمُجَاهَرَةِ بِالْمَعَاصِي ؛ فَلَمْ يَسْعَنِي  
إِنْتِظَارُكَ ، وَأَرَدْتُ قَبْضَ يَدِكَ عَنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بَايَعْتَنِي ، وَلَا  
هُوَادَةَ لَكَ عِنْدِي ! » أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ . فَاحْتَبَلَهُ ، وَصَيَّرَهُ فِي الْبَحْرِ  
إِلَى أَرْضِ الْعِدُوِّ ؛ فَأَنْزَلَهُ بِبِجَايَةِ ؛ وَاسْتَقَرَّ عِنْدَ الْبَرَابِيرَةِ بِهَا مُعَلِّمًا  
لصِبْيَانِهِمْ ، لَا يَرْفَعُ رَأْسًا إِلَى الدُّنْيَا . وَطَاوَلَتْهُ هُنَاكَ الْحَيَاةُ إِلَى أَنْ هَلَكَ  
بَعْدَ مُدَّةٍ . وَأَصْبَحَ خَبْرُهُ لِلنَّاسِ عِبْرَةً .

وَلَمَّا هَلَكَ مُجَاهِدُ الْمُؤَوَّقُ ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَلَدُهُ عَلِيُّ بْنُ مُجَاهِدٍ  
الْمُسَمَّى بِإِقْبَالِ الدَّوْلَةِ .

## إِيَّامُ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ إِقْبَالُ الدَّوْلَةِ

وَكَانَ مُجَاهِدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ تَمَّ لَهُ الْفَتْكَالُ مِنْ أَسِيرٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِهِ  
وَنِسَائِهِ وَأَخْوَانِهِ فِي مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ ، إِلَّا وَالِدَتَهُ ، وَكَانَتْ نَصْرَانِيَّةً ؛  
فَاخْتَارَتْ أَهْلَ مِلَّتِهَا ؛ وَتَبِعَتْهَا أُخْتُهَا ؛ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَأَقَامَ عَلَى  
وَلَدِهِ ؛ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَاحِدَهُ وَسِنُهُ سَبْعُ سِنِينَ ، إِلَى أَنْ تَهَيَّأَ فَكَأَنَّهُ  
سَنَةَ ٤٢٣ ؛ وَوَصَلَ إِلَى جَزِيرَةِ مَيُورِقَةَ ، ثُمَّ إِلَى دَانِيَّةَ ، وَهُوَ فَتَى كَاهِلٌ ،  
يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الرُّومِ الَّذِينَ رُبِّيَ فِيهِمْ ، وَيَتَزَيَّأُ بِزَيْبِهِمْ ، وَيَقُولُ بِقَوْلِهِمْ .  
فَعَرَضَ عَلَيْهِ وَالِدُهُ الْإِسْلَامَ ؛ فَقَبِلَهُ ، وَحَسَّنَ إِسْلَامَهُ ؛ وَخَتَنَهُ ؛ فَأَصَابَهُ  
مِنْ ذَلِكَ مَرَضٌ شَدِيدٌ . وَبَدَتْ لِمُجَاهِدٍ فِيهِ تَخَالِيلُ الشَّجَاعَةِ ؛ فَتَوَكَّلَ  
بِإِرْهَاقِهِ وَتَأْدِيبِهِ ، وَأَلْحَقَهُ بِمَرْتَبَةِ أَخِيهِ الْأَصْغَرِ الْمُرَشَّحِ لِأَمْرِهِ ، وَعَوَّلَ  
عَلَيْهِ دُونَهُ فِي قُوَّةِ جَيْشِهِ ؛ ثُمَّ قَلَّدَهُ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، صَارِفًا إِيَّاهُ عَنْ وَلَدِهِ  
حَسَنٍ فَكَانَ لِهَذَا مِنَ الْمَوْجِدَةِ عَلَى أَخِيهِ ، مَا ظَهَرَ أَثَرُهُ قَبْلَ انْصِرَامِ  
حَوْلٍ . وَقَدْ دَاخَلَ حَسَنٌ ابْنَ عَبَّادٍ فِي أَمْرِ الْوُثُوبِ عَلَيْهِ ، وَوَجَّهَ غُلَامًا  
مِنْ غُلَمَانِهِ شُجَاعًا عَلَى سَبِيلِ الزِّيَارَةِ . وَوَقَعَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى الْفَتْكِ بِعَلِيِّ عِنْدَ  
خُرُوجِهِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ فَلَمَّا أَمْضَى عَزَمَهُ ، دَهَشَ ؛ فَلَمْ يَجْهَزْ عَلَيْهِ ،  
وَأَصَابَتْ الْمَدْيَةَ يَدَهُ ؛ فَقَبَضَ عَلَى يَدِهِ ؛ وَأَرَادَ الْغُلَامُ الْعِبَادِيُّ أَنْ  
يَطْعَنَهُ ؛ فَتَنَشَبَ الرَّمْحُ فِي الْحَاظِ لَضِيقِ الْمَكَانِ . وَثَابَ لِعَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ  
رِجَالُهُ ؛ فَقَتَلَ الْغُلَامَ ، وَفَرَّ حَسَنٌ بْنُ مُجَاهِدٍ رَاكِضًا . وَاسْتَبَلَّ الْجَرِيحُ  
بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَاسْتَقَلَّ بِأَمْنٍ أَنَّهُ . وَطَالَتْ أُنَامُهُ . وَصَاهَرَ أَمْرًا وَقَتَهُ  
عَلَى بَنَاتٍ لَهُ كُنَّ آيَةً فِي الْجَمَالِ .

وَكَانَ نَاجِحَ الشَّعْبِ فِي أَبْوَابِ الْجَبَايَةِ وَالْإِكْتِسَابِ ؛ فَلَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ  
وَجَّهَ إِلَى مِصْرَ مِنْ كِبَاً ضَخْمًا مَمْلُوءًا طَعَامًا عَامَ الْمَجَاعَةِ الْمَضْرُوبِ بِهَا الْمَثَلُ

في البلاد عام ٤٤٦ ؛ فعاد إليه مملؤاً مالا وذخيرة . وجرى بينه وبين جاره وصهره ابن هود ما يطول شرحه ، حتى استولى على بلاد دانية . ثم حاصره بها إلى أن سأل أن يُسلمه في نفسه وولده ، وينزل له عن القصر ، تاركاً إيّاه بفرسه وزينته . فكان ذلك في سنة ٤٦٨ . ونقله إلى مرقسطة ، وأقطعته إقطاعاً يمونه ويقيم أوده . فكان آخر العهد به .

## ايام الاميرين مبارك ومظفر العامريين

### وخبّر خيرة الصيقل العامري

كان هاذان الفتيان قد ترقيا من وكالة الساقية ببلنسية إلى ملك الحضرة ، وإقامة رسوم السلطان بها لأنفسهما على أفخم الوجوه . وظهر من سياستهما وتقارُضهما صحة الألفة طول حياتهما ما فانا به في معانها أشقاء الأخوة وعشاق الأحبة ، إذ نزلنا معاً بقصر دار الإمارة ، مختلطين تجتمعهما مائدة واحدة من غير تمييز في شيء إلا الحرم خاصة . وكان التقدم لمبارك في المخاطبة برسوم الإمارة ، لفضل صرامة ونكراء كانتا فيه ، قصر عنها مظفر بدماثة خلقة ، وانخطاطه لصاحبه في سائر أمره ، على تحليته بكتابة سادجة وفروسيّة . فبلغا الغاية من اقتناء الأسلحة ، والآلات الملوكيّة ، والحيل المغربات ، ونفيس الحلي والحلل ، وإسادة البناء للقصور . واشتمل هذا الرأي على جميع أصحابها ومن تعلّق بها من وزراءها وكُتّابها . ولم يعرض لهما عارض اتفاق ، بتلك الآفاق ؛ فانغمسا في النعيم على قمر رؤوسهما ، حتى انقضى أمرهما .

ومن الذي يدل على ما ذكر من اشتراكهما في السلطان الاشتراك الذي لا مزية فيه لأحدهما ولا انفراد دون صاحبه ، وهو من غرائب

ما اتفق لهما ، قول أبي عمرو بن كراع ، يمدحهما : [الطويل]

أنورك أم أوقدت بالليل ناركا لباغ قراك أم لباغ جواركا  
ورباك أم عرف المجامر أشعلت بعود الكباء والألوة ناركا  
ومبسك الوضاح أم ضوء بارقي حداة دعاوي أن يجود دياركا  
وطرة صبح أم جبينك سافراً أعرت الصباح نوره أم أعاركا  
وأنت أجرت الليل ، إذ هزم الضحى كتائبه ، والصبح لما استجاركا  
فللصبح فيما بين قرطيك مطلع وقد سكن الليل البهيم خماركا  
فيا لنهار لا يغيظ ظلامه وبيا لظلام لا يغيظ نهاركا  
ونجم الثريا أم لآل تقسمت يمينك إذ ضمختها أم يساركا  
بسلطان حسن في بديع محاسن يصيد القلوب النافرات نفاركا  
وجند غرام في ضلوع صباية تقلدن أقدار الهوى واقتداركا  
هو الملك لا بلبس أدرك شأوها مداك ولا الزباء شقت غباركا  
وقادمة الجوزاء راعيت موهناً بحر هواك أم توسست داركا  
وطيفك أسرى فاستثار تشوئي إلى العهد أم شوقي إليك استثاركا  
ومرتد أنفاسي إليك استطارها أم الروح لما رد في استطاركا  
إذا الحظ بمن علم الكتاب حداك لي أم الفلك الدوار يحمي ادكاركا  
وكيف كتبت الليل وجهك مظلماً أشعرك أغشيت السنى أم شعاركا  
وكيف عسفت البید لا في طعائن ولا شجر الخطي حف شجاركا  
ولا أدن الحي الجميع برحلة أراح لها راعي المخاض عشاركا  
ولا أرحيت خوص المهاري مجيبة صهيل جياذ يكتنفن قطاركا  
ولا أذكت الركبان عنك عيونها حذار عيون لا ينمن حذاركا  
وكيف رضيت الليل ملبس طارق وما ذر قرن الشمس إلا استناركا

وكم دون رحلي من بروجٍ مشيدةٍ  
وقد زارت حولي أسودٌ نهامتٌ  
وأرضي سيولٌ من خيولٍ مظفر  
بحيث وجدت الأمن يهتف بالنا  
هلمني إلى سيفين والحدُّ واحدٌ  
هلمني إلى طرفي رهان تقدما  
هلمني إلى قطبي نجوم كتاب  
وحي على دوحين مدّ نداهما  
وبشارك قد فازت قداحك بالنا  
شريكان في صدق المنا وكلاهما  
هما سبعا دعواك يا دعوة الهدى  
وسلا سيوفاً لم تزل تلتظي أذى  
ومنها بعد مدح كثير :

ولست بيدع حين قلت لهمني  
فلله صدق العزم آية غرة  
ويا خلّة التسويف قومي فأغندي  
فقد آن إعطاء النوى صفقة الهوى  
ويا ستر البيض النواعم اعلمي  
ودونك أفلاذ الفؤاد فشري  
صرفت الكرى عنها بغبقى السرى  
فإن وجبت للمعربين وجوبها  
وإن خلع الليل الأحائل فاخلعي  
إلى الملكين الأكرمين عذاركا

بلنسية مثنى الأماني فاطلي  
سينيك زجري عن بلائ نسيته  
وأظفر سعي بالرضى من مظفر  
وحمداً يميني قد تملأت بالنا  
وقل لسماء المزن إن شئت اقلعي  
ولا توحشي يا دولة البأس والندی  
مساءك من نوريها وابتنكاركا

واختص بهذين الرئيسين من كتاب الحضرة ، الذين ضاقت عنهم  
بسبب الفتن ، طائفة من الفضلاء البلغاء ، لو كيد الذمام المستحکم  
في دولتهم ، كابن التاكروني وابن مهلب وابن طالوت : رتبهم في  
دولتهم مرتبة مشيخة الوزراء بقرطبة ؛ فكانا يرجعان إليهم في الرأي  
والمشورة والتدبير . ومضت أمورهما ومن معها خارجة عن طاعة  
صاحب قرطبة وغيره ، رادة لدعوته . وآثروا ما آثره الناس من  
التفرّد بقطعتهم ، وجروا مجرى من حولهم من ملوك الأطراف في  
استكفاف أمراء الفتن إلى آخر أيامها .

قال المؤرخ : وكان موت مبارك منها بانه ركب يوماً من قصر  
بلنسية ، وقد تعرض له أهلها مستغيين من مال افترضة ؛ فقال :  
« اللهم ! إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه ، فلا تؤخر عقوبي  
يومي هذا ! » وركب إثر ذلك ؛ فلما أتى القنطرة ، وكانت من  
خشب ، خرجت رجل فرسه من حدها فرمى به أسفلها ، واعترضته  
خشب ثانية شدت وجهه ، وسقط الفرس عليه ؛ ففاضت نفسه ، وكفاهم  
الله أمره . واثارت العامة بهم ؛ فانتهبوا القصر ، وقتل مظفر .  
وانقضت أيامها .

وأما خيرة الصيقل ، فتأمر بشاطبة ، وهي المعقل المنيع ؛ فدبر

'مبارك' الحية عليه ، كما ينفرد بإمارة الجماعة دونه . وكان خيرة' السخاء أغلب' الخلال عليه ؛ فأحبته الرجال وأملوه ؛ واستقر عند انقراض الدولة العامرية بشاطبة ؛ فامتنع بها ، ودبر أمره . واتفق أن اجتاز بيننسية بمبارك أحد المذكورين ؛ فتلقاه 'مبارك' ، وبالغ في إكرامه ، ودعاه إلى طعامه ؛ فأجابه 'مطمئناً' ، وأكل عنده ؛ فذكروا أنه درس له 'سماً' في بعض ما أكله ؛ فانصرف إلى شاطبة قد أنكر نفسه ، واستعز به وجهه ، وهلك إلى أيام قليلة .

وتفرّد نائبه عبد العزيز بن أفلاح السلطاني بضبط القلعة وتديبر أمر من فيها من الجند . وكان له الخطاط إلى 'مبارك' ؛ فلم 'يهجه' ، وقنع منه بذلك ، وخلّاه على حاله ، إلى أن تصير أمرها بعد ذلك إلى يد 'مجاهد' العامري . واشتد سلطان 'مبارك' بتلك الجهة ، واستضم الرجال . ولأذ به 'ليبيب' الصقلبي العامري ، صاحب 'طرطوشة' ، وقد طمع فيه 'منذر' بن يحيى ، وواصل استخراجه ؛ فخرج إليه بنفسه في نحو خمسمائة فارس من نقاة الجندين ؛ فظهروا على 'منذر' وهزموه هزيمة شنيعة ؛ وقتل ابن عمه وصفيّه 'محارب' بن عيسى التّجبي . وانصرف 'مبارك' على إثر ذلك إلى بلنسية ، وقد استفحل أمره ، وملك جماعة الموالي ، ودنوا له ، إلى أن كان من هلاكه ما ذكر .

وهؤلاء ثبهاء 'مقتسمي' الملك من بعد الجماعة بالأندلس ، وكبار الممالك العامرية . ونحن نذكر بعدهم من أمكن من مشاهير الرؤساء من الطائفة المغربية المسماة عند مؤرخي الأندلس بالطائفة البربرية .

## ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية

وقد تقدّم ما كان من اختصاص كل واحد من رؤساء القبائل الغرّيبين

بالأندلس بوطن من أوطانها عند مظاهرة سليمان بن الحكم وتعلّثهم على الجماعة . ونحن الآن نذكر منهم كلاً على انفراد ، ونبدأ بكبيرهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي .

## دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي

قد تقدّمت الإشارة إلى ما كان من قدوم زاوي بن زيري بن مناد على باب بني أمية ، وما كان من حرص الحكم بن عبد الرحمن على لحاق أصناف المغاربة وفتح باب القبول عليهم في ذلك ، وما كان من اعتدال ابن أبي عامر في هذا الغرض وعمّله بالاحتياط فيه ، وتخلّي ابنه المظفر عبد الملك بعده فيه ، لأمر فرغ عنه 'مسبّب' الأسباب 'سبحانه' . فكان ممن ورد على الأندلس على عبد الملك بن المنصور من رؤساء الصّنهاجة وأبناء ملوكها بالتخوم الإفريقية والحدود القبلية زاوي بن زيري وقومه ، جالياً أمام صولة باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري ، لأسباب تذكّر عند ذكر ملوك صنهاجة إن شاء الله .

وخبر تلقّيه وقدمه وإيجاب حقّه شهير . فلما انشقت العصا بانقراض الدولة العامرية ، وناث البرابرة والقبائل المغربية بدولة ابن عبد الجبار الإخافة والحمل للفترة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة ، اضطرّوا إلى الانجماع والانحياز والذّيات عن أنفسهم ، والتفّوا على سليمان بن الحكم ، وزحفوا به إلى قرطبة ، وكشفوا الوجوه في مناصبة جبيع أهل الأندلس ، وهم منهم بمنزلة نصف المعشار أو أقل ، شأن المعول على الموت ، الباني على تقويت الحياة . ولم تزل الوحشة تعظم ، والفترة تغلظ ، والعداوة تتأكّد ، حتى لم تبقى بقية ترجى ، ولا مهادنة تلتقى . وخربوا الأندلس تحريباً لم يقتصر على المال دون البلاد دون الأنفس ؛ فتركوها كأنما

أُطْلِقَتْ بِغَانِيهَا النَّارُ ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ صَاحِبُهُمْ بِمَقَرِّ الْخِلَافَةِ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ زِمَامُهُ ، وَلَحْكُمِهِمْ يَرْجِعُ نَقْضُهُ وَإِبْرَامُهُ ، طَلَبُوهُ بِالْبِلَادِ الَّتِي يَجْرُونَ بِهَا أَوْلَادَهُمْ وَحَرَمَاتِهِمْ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى فَوَائِدِهَا فِي حَاجَاتِ أَقْوَانِهِمْ ، إِذْ لَا يَأْمَنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ غَالِوِ الْبَلَدِيِّينَ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ . فَكَانَ زَاوِي ابْنُ زِيرِي مَنْ اسْتَأْثَرَ بِكُورَةِ الْبَيْرَةِ وَجِيَّانَ .

### أَيَّامُ زَاوِي بْنِ زِيرِي بْنِ مَنَادِ الصَّنَهَاجِيِّ

يُكْنَى أَبُو مُنْتَى . وَكَانَ لَيْثَ الْحُرُوبِ ، وَفُلَّ الرِّقَاعِ ، وَرَجُلَ الْقَبِيلِ قَاطِبَةً دَهَاءً وَحَزْمًا وَحَصَافَةً وَنَكْرَاءً وَصَبْرًا وَإِقْدَامًا وَرَأْيًا . وَكَانَ لَهُ فِي حُرُوبِ أَبِي يَزِيدَ مَخْلَدُ بْنُ كَيْدَادِ الْحَارِجِ عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ بِإِفْرِيقِيَّةٍ غَنَاءٌ كَبِيرٌ ، إِذْ كَانَتْ قِبَائِلُ صَنْهَاجَةٍ مُتَقَلِّدَةً آرَاءَ الشَّيْعَةِ ، مُخَالِفَةً لِقِبَائِلِ زَنَاطَةَ فِي انْخِيَازِهِمْ إِلَى الطَّائِفَةِ الْأُمَوِيَّةِ لِتَحْقِيقِ جُلٍّ مَلُوكِهِمْ يَوْمئِذٍ مِنْ آلِ تَخَزَرٍ بَوَلَاءَ عُثْمَانَ بْنِ عَقَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - . وَكَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الصَّنَهَاجَةِ وَقِبَائِلِ زَنَاطَةَ مُتَّصِلَةً بَيْنَ غِلَالٍ وَسَجَالٍ ، إِلَى أَنْ انْتَقَلَ مُلْكُ الشَّيْعَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَأَسْنَدَ الْمُعْزُ مِنْهُمْ أَمْرَ الْمَغْرِبِ إِلَى بُلُقَيْنَ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ زِيرِي بْنِ مَنَادِ الصَّنَهَاجِيِّ ، إِذْ لَمْ يَرْجِعْهُ فِيهِ غَيْرُهُ عِنْدَهُ ؛ وَوَصَّاهُ بِمَا يَفْعَلُهُ فِي أُمُورِهِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَرْفَعِ السِّيفَ عَنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ ، وَلَا الْمَغْرَمَ عَنْ الرِّعْيَةِ ، وَأَنْ لَا يُولِّيَ الْأَمْرَ أَحَدًا مِنْ بَنِي عَمِّهِ ، إِذْ يَرَوْنَ أَنَّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ ؛ فَامْتَثَلَ بُلُقَيْنُ أَمْرَهُ ، وَوَضَى بِهِ وَلَدَهُ . فَلَمَّا تَصَيَّرَ الْأَمْرُ إِلَى بَادِيسَ بْنِ الْمَنْصُورِ بْنِ بُلُقَيْنَ الْمَذْكُورِ ، ضَاقَهُ أَعْمَامُهُ وَأَعْمَامُ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يُعْطِهِمْ مِنْ نَفْسِهِ الضَّمَّةَ . وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ قُتِلَ فِيهَا عَمُّ أَبِيهِ مَآكْسَنُ بْنُ زِيرِي بْنِ مَنَادٍ . فَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ لِاتِّصَالِهِمْ بَيْنَ عُدُوِّ زَنَاطَةَ وَسُلْطَانِ قَوْمِهِمْ .

فَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ زَاوِي ، وَجَازَ صُحْبَتَهُ إِلَيْهَا ابْنَتَا أَخِيهِ مَآكْسَنَ : حُبَاسَةَ وَحَبُوسَ . وَتَلَقَّاهُمُ الْمَنْصُورُ بِكُلِّ بَرٍّ ، وَتَرَحَّبَ وَفَرَّ جَزِيلًا . وَكَانَ ذَرْعُهُ يَتَّسِعُ لَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا يَتَبَسَّطُونَ عَلَيْهِ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْحَقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا بِلَادَهُمْ يَعْرِفُونَهَا ؛ فَكَانُوا بِذَلِكَ تَحْتَ مَوْجِدَةٍ وَأَحْقَادٍ كَامِنَةٍ عَلَى الدَّوْلَةِ وَأَهْلِهَا . فَلَمَّا انْشَقَّتِ الْعَصَا ، ذَهَبُوا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ . وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ بِهِ الْإِلْمَاعُ مِنْ إِيقَاعِ زَاوِي بْنِ زِيرِي بِجَيْشِ الْخَلِيفَةِ الْمُرتَضَى بِظَاهِرِ بَلَدِهِ غَرْنَاطَةَ ، وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى مَحَلَّاتِهِ ، وَعَزْمِهِ عَلَى الْإِنْصِرَافِ إِلَى بَلَدِهِ . وَكَانَ وَقُوعُ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ الْمُعْزِ بْنِ بَادِيسَ ، بَعْدَ إِذْ نِ مِنْهُ لَزَاوِي ؛ وَقَدِمَ بَلَدَهُ عَلَى رَغْبِي وَبِرٍّ فِي قَوْمِهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ هُنَاكَ . فَكَانَ خُرُوجُ زَاوِي مِنَ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٤٢٠ .

وَتَمَسَّكَ بِمَجْلٍ سُلْطَانَهُ مِنْ كُورَةِ الْبَيْرَةِ ابْنُ أَخِيهِ حَبُوسُ بْنُ مَآكْسَنَ ، يَسْعَى مِنْ كَبِيرِ قَطْرِ الْبَيْرَةِ وَفَقِيهِهِ ، ابْنُ أَبِي زَمَنِينَ ، إِذْ قَصَدَ بَعْدَ تَوَدُّعِ زَاوِي بْنِ زِيرِي بَمَرْمَسَى الْمُنْكَبِ إِلَى حِصْنِ آثَرٍ . وَقَدْ كَانَ حُبَاسَةُ أَخُوهُ قُتِلَ فِي الْفِتْنَةِ بِقَرْطَبَةِ .

### دَوْلَةُ حَبُوسِ بْنِ مَآكْسَنَ بْنِ زِيرِي بْنِ مَنَادٍ

وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمُ حَبُوسِ بْنِ مَآكْسَنَ بِغَرْنَاطَةَ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ٤١٤ ، اسْتَظْهَرَ عَلَيْهَا بِجَاعَةً مِنْ قَوْمِهِ وَجَمَّةً وَافِرَةً مِنْ قَبِيلِهِ ؛ فَبَنَى مُلْكًا شَامِخًا ، وَغَلَبَ نَظَرَآءَهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى كُورَتَيْ جِيَّانَ وَقَبْرَةَ وَمَا دُونَ ذَلِكَ ، وَحَمَى رَعِيَّتَهُ مِنْ سَائِرِ الْمُتَنَزِّهِينَ بِجُوزِهِ . وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ٤٢٩ . وَوَلَّى بَعْدَهُ الْأَمْرَ ابْنُهُ بَادِيسَ .

## دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها

وكان تَصَيَّرُ المُلْكُ إلى باديس بن حبوس بتسليم له من أخيه بلقين ابن حبوس شقيقه . ولَقِبُ باديس : أبو مَتَاد . وتسمَّى المظفر بالله ، الناصر لدين الله . وتناهى أمره في الجلالة ؛ وأذعنت له الأعداء ، وانضافت إلى إبالته البلاد ، إلى أن ملك كُورَةَ رِيَّةَ وقِنَسْرِينَ . وعظمت حُبَابَتُهُ ، وضخم أمره ، وتعددت جيوشه . وأُتِيحَ له الظهورُ على زُهَيْرِ القَتَى أمير المَرِيَّةِ ، حسباً مرَّ في ذكر زُهَيْرٍ ؛ فحصل من ذلك ما لا كفاة له .

ومن كلام ابن حيَّان قوله : وأما أَرْفَعُ أَملاك البرابرة في هذا الوقت شأنًا ، وأشدَّهم سلطانًا ، وأكثرهم رجالًا ، وأوسعهم أعمالًا ، فباديس بن حبوس من سلطان صِنْهَاجَةٍ ومُسْتَخْدِمِ الكثير من قبائل رَنْزَانَةٍ ، المُمْتَدُّ سُلْطَانُهُ اليوم على ما بين أطراف كُورَتَيْ بَسْطَةِ وجِيَّانَ ، إلى بابِي مَالِقَةٍ وإِسْتِجَّةَ ، وما تحت ذلك من إقليم قُرْطُبَةٍ ؛ أُمِلَى النصر العزيز على الأعداء إِمْلَاءً واختيارًا ؛ فلبسه بغياً واستكبارًا ؛ وأسَاءَ الانتقام ، ولم يُقِلْ العَثْرَةَ ؛ وأخذ بالظُّنَّةِ ، وأسرف في العقوبة ، وشدَّ يَدًا بالعَصِيَّةِ ، وتقلد الحِيَّةَ الجَاهِلِيَّةَ ، واستأثر بالقسوة والجَبَرِيَّةَ ؛ فأسْلَفَ في ذلك كلَّه أخباراً مأثورة .

واستولى على دولة باديس كاتبه الإسرائيليُّ ابن نَعْرَالَةَ ، ثم وَلَدَهُ يوسُفُ بَعْدَهُ ؛ فكانت بيده أمواله ، وبعين لحظِهِ أحواله ، وبمرأى ومستمع منه أفعاله الخفية وأقواله . وكان قد نشأ لباديس وَلَدُهُ المسمَّى بلُيُثَيْنَ ؛ فرسَّحَهُ لولاية عنده ، ولقبه سَيْفُ الدولة ؛ وكان مُنَحَرَفًا عن اليهودي المذكور ، مُنْكَرًا استيلاءه على المُلْكِ ، وتنويعه باليهود من قَوْمِهِ ، وانطلاق يَدِهِ على المسلمين . ولا يزال يبعث فيه إلى أبيه بما تنهيه

إلى اليهودي وتبادِرُ به إليه عُيُونُهُ في القَصْرِ وجَوَاسِيْسُهُ ؛ فأعمل الحيلة على بلقين باستدعائه إلى مجلس شراب احتفلَ له ، وسقاه كَأْسَ مُنَمٍّ قضى منه نَحْبَهُ .

ولما بحث باديس عن أمره ، صرف الإسرائيليُّ التهمة إلى طائفة من فتيان وَلَدِهِ وجَوَارِيهِ وقرباته ، عاثَ فيهم باديس قَتْلًا وإبادةً ؛ ففرُّوا عنه ، وفسدت له قلوبهم ، وخبت ضمايرهم . وعظَّم استيلاء اليهودي وزير باديس ، إلى أن طرق جَاهَهُ الاعتِلالُ ، وأسرع إلى حاله الاختِلالِ ، وكثرت فيه الأقوال . ورمى بمُدَاخِلَةِ ابن صَادِحِ صاحبِ المَرِيَّةِ في تَصْيِيرِ مُلْكِ باديس إليه .

وحَفِظَتِ القصيدةُ المنسوبة إلى المَوْلَى العابد أبي إِسْحَاقِ الإلبيريِّ - رضي الله عنه - التي يقول فيها مخاطباً باديس ، ومُحَرِّضاً على اليهودي :  
[ المتقارب ]

ألا قُلْ لصِنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينَ      بُدُورِ الزَّمانِ وأُسْدِ العَرِينِ  
مقالةً ذي مَقَّةٍ مشفقٍ      يعدُّ النصحِ زُلْفَى ودينِ  
لقد زلَّ سَيْدُكُمْ زَلَّةً      تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ  
تَحْيَرُ كَاتِبَهُ كَافِرًا      ولو شاءَ كان من المؤمنينِ  
فَعَزَّ اليهودُ به وانتخوا      وتاهوا وكانوا من الأَرْدَلِينَ  
ونالوا مناهم وجازوا المدى      وقد جاز ذاك وما يشعرون  
فكم مُسْلِمٍ راهِبٍ راغِبٍ      لأَرْدَلِ قَرْدٍ من المُشْرِكِينَ  
وما كان ذلك من سعيهم      ولكنَّ منَّا يقومُ المُعِينِ  
فهلَّا أَقْتَدَى فيهم بالأولى      من القادة الحيرةِ المُتَّقِينَ  
وَأَنزَلَهُمْ حيث يستاهلون      ورَدَّاهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ  
وطافوا لَدَيْنَا بِأَفْوَاجِهِمْ      عليهم صغارٌ وذلٌّ وهون

ولم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيعوا على الصالحين  
أباديس أنت امرأة حاذق تُصيبُ بظنِّك مرمى اليقين  
فكيف تحبُّ فراخ الزنا وقد بعَّضوك إلى العالمين  
وكيف استنمت إلى فاسقٍ وقارنته وهو بثس القرين  
وقد أنزل الله في وجهه يُحذِّر من صحبة الفاسقين  
فلا تتخذ منهم خادماً وذُرهم إلى لعنة اللاعنين  
فقد ضجَّت الأرض من فسقهم وكادت تمد بنا أجمعين  
وكيف انقردت بتقريبهم وهم في البلاد من المُعدين  
على أنك الملك المرتضى سليلُ الملوك من الماجدين  
وأن لك السبق بين الورى كما أنت من جلَّة السابقين  
ولماني احتللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين  
وقد قسوها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين  
وهم يقبضون جباياتها وهم يخلصون وهم يقصون  
وهم يلبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضاعها لابسون  
وهم أمناكم على سرِّكم وكيف يكون أميناً خؤون  
ويأكل غيرهم درهماً فيقصي ويدنون إذ يأكلون  
وقد ناهضوك إلى ربكم فما يُنصعون وما يُنكرون  
وقد لابسوك بإسحارهم فما تسمعون ولا تبصرون  
وهم يذبحون بأسواقنا وأنتم لإطريقهم آكلون  
ورخم قردهم داره وأجرى إليها غير العيون  
وصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائلون  
ويضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون

ولو قلت في ماله أنه كالك كنت من الصادقين  
فبادر إلى ذبحه قربةً وضع به فهو كبش سين  
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين  
وفرَّق عراهم وخذ ما لهم فأنتم أحق بما يجمعون  
ولا تحسبن قتلهم غدره بل الغدر في تركهم يعثون  
فقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين  
وكيف تكون لنا همّة ونحن خمول وهم ظاهرون  
ونحن الأذلة من بينهم كأننا أسانا وهم يحسنون  
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنتم رهين بما يفعلون  
وراقب إلهك في حزبه فحزب الإله هم المُفلحون

فتار بهم صنهاجة؛ وقد تيقنوا إعراضه عنه وعمله على نكبه؛  
وزحفوا على داره. وقد تبعته العامة؛ فاقتحموها، وانتهبوها. وأخفى  
اليهودي نفسه في بيت ملثان فحماً، وسود به وجهه وتكر؛  
فأخرجوه، وقتلوه، وصلبوه على باب المدينة. وقُتل في هذا اليوم آلاف  
من اليهود؛ وذلك في سنة ٤٦٩ وقيل سنة ٤٦٥.  
وولي بعده حفيده عبد الله، ابن ابنه بلقين الذي اتهم اليهودي  
بقتله بالسُّم.

### دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس

ولما توفي باديس بن حبوس، اتفق خدام دولته وأشاخ قبيله على  
تقديم عبد الله بن بلقين؛ فأخذوا له البيعة على الناس، ولقبوه المُظفر  
بالله، الناصر لدين الله، وعدلوا إليه عن عمه ولد باديس، الكائن بولاية



من أبيه بدمية جَيَّان ، وذلك لما رآو به من سوء سجيته وانهاكه واجترأته على سَفْكَ الدماء .

وكان عبدُ الله هذا منذ ولايته الأمرَ صبيّاً صغيراً ، لم يُقاربَ الحلم ؛ فهو لذاك ثَمَنٌ يشتمل عليه شَرَطُ كتابينا مَمَّن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وغرناطة إذ ذاك حافلةٌ بالأعلام ، وصدور الإسلام ، وحملة السيوف والأفلام . وانفرد بترية عبد الله وتديير ملكه الوزيرُ سِمَاجَةَ الصَّنْهَاجِي ؛ فاستقلَّ سياسته . وكان باديسُ قد جعل أخا عبد الله تَمِيمَ بن بُلُقَيْنَ بمالقة ؛ فجرتُ أمورهم على سبيل من السداد وحُسن السيرة . وطمع ابنُ عبادٍ فيما بأيديهم حين بلغه مهلكُ باديس ؛ فحشد واستكثر ، ووصل إلى غرناطة ، وابتنى على ستّة فراسخٍ منها حصناً لتجديد رابطته فيه ، مُضَيِّقاً على من بالحضرة ؛ فلم يحلَّ بطالعٍ لاضطلاع سِمَاجَةَ بالأمر وضَّته لأطرافِ الملك . وكان سِمَاجَةَ حازماً ، شديد السطوة ، مرهوب العقاب ، جواداً ، شجاعاً ، فاضلاً ؛ ذكرَ عنه الغرناطيون أنه اشتدَّ في منع اتخاذ الحُرِّ ، وجعل بإزاء ذلك القتلَ غريمةً لم يحلَّ عقدها ولا نسخ حكمها ؛ فبينما طائفةٌ من أبناء الأعيان وصدور الطلبة أولي الوجوه الحِسان على راحةٍ لهم بحجة المصلّى القديم خارج القِصبة ، إذ أظلمهم سِمَاجَةَ فجأةً ؛ فسقطَ في أيديهم ، وأيقنوا بالهلكة ؛ فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم ؛ فأنشده :

يَلِينَا نَحْنُ بِالْمُصَلَّى نَسْقَى وَجَنَاحَ الْعِشِيِّ فِيهِ جَنُوحُ  
إِذْ أَنَا سِمَاجَةَ يَتَلَألَا رُدِّي فِي الشَّرْقِ مِنْ تَجْلِيهِ نُوحُ  
فَطَفِقْنَا نَقُولُ بَعْضُ لِبَعْضٍ أَغْبُوقُ شَرَابُنَا أَمْ صَبُوحُ

قال : فخبِل سِمَاجَةَ ، وأنس الصبي ، ووعد بالإحسان ، وانصرف من طريقه ، إغضاءً ونعافلاً . ولم يزل سِمَاجَةَ يدبّر أمر عبد الله والسعود

تُسَاعِدُهُ ، والأمرُ ينوءُ به ساعده ، إلى أن بلغ عبد الله ، وأراد الاستبداد بحاله ؛ وضاق بِسِمَاجَةَ ؛ فرحل عنه إلى كنف جاريهم صاحب المَرِيَّة ، وقد مهد لنفسه عنده فاستقرَّ لديه بحال ثروة وغناء . وأقام عنده إلى آخر عمره .

وكان عبدُ الله بن بُلُقَيْنَ جَبَاناً ، مُعْتَمِدَ السيف ، متكسلاً عن الحِيل ، زاهداً في النساء ، مَوْصُوفاً بالضعف ؛ لكنَّه يكتب ويشعر ويتحدث فيما تحدث فيه الطلبة . وقفتُ على ديوان بخطه أَلَفَهُ بعد خَلْعِهِ بمدينة آغَمَات ، وقرَّرَ فيه أحواله والحادثةَ عليه ممَّا يُستظرف من مثله : أَنُحْفِي بِهِ خَطِيبُ الْمَسْجِدِ بِأَغَمَات - رحمه الله .

ولما اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من بعد الواقعة بملك النصارى يوم الزلاقة ، سارعاً في خلع رؤساء الأندلس ، وبادياً منهم بعبد الله حفيد باديس ، وقد حرَّكه إليه إغراء طائفةٍ من خدامه لحقت به ، واتصلت به عنه الاستعداد واتخاذ البلاد وتجديد الأسوار ومُراسلة صاحب قشتالة ( وتجننى عليه تجننى الذئب على المعزى ، حسباً يتمثل به الناس ) ، إذ قال لها مُتَسَبِّباً لأكْلِهَا : « سَمَرِي ذَنْبَكَ ؛ فَإِنَّكَ تُحَرِّكِي عَلَيَّ بِهِ ! » فقالت : « وَأَيُّ ذَنْبٍ لِي يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ » فقال لها : « أَوْ تَكْذِبِيَنِي يَا فَعَّالَةَ ! » ووثب عليها ، فأكلها ) ؛ فوجه الجيش إلى مُنازلته ، وقصده بنفسه ، وتبادرَ إليه الرعايا مُعلنين بطاعته .

ولما رأى اختلال حاله ، ونكول أهل بلده عن الدفاع عنه ، استشار صناعه ؛ فأشاروا له بالخروج إلى الأمير يوسف ، والإلقاء باليد إليه ؛ فكان ذلك ؛ فتلَّقاه هو وأُمُّه على فرسَحين من المدينة ؛ فترجَّل عبدُ الله ، وسأله العفو ؛ ففعا عنه ، وأمره بالركوب ، فركب ، والتفتُ به الحيل ؛ فأُنزل في مضربٍ مُعَيَّن له . وأمر بثقاف القصر ، وخاطب أهل البلد بما أَرْضاهم من ضمان العدل والرفق وإفاضة الخير والذب عن الحوزة . وكان

تَلْعُ عبد الله بن بُلْقَيْنَ حَفِيدِ بَادِيسَ يَوْمَ الْأَحَدِ عَشْرَةَ لَيْلَةً تَخَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٤٨٣ .

## أَيَّامُ تَمِيمِ بْنِ بُلْقَيْنِ بْنِ بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ

وكان بَادِيسَ قد جعل تَمِيمًا هذا بِمَالَقَةٍ مِنْ عَمَلِهِ لِنَظَرِ رَجُلٍ مِنْ شِيُوخِ صِنْهَاجَةٍ لَصِغَرِهِ ، إِلَى أَنْ بَلَغَ ، وَاسْتَبَدَّ ، وَتَسَمَّى بِالْمُنْتَصِرِ بِاللَّهِ . وَكَانَ سَهْمًا ، شَدِيدَ الْجُرْأَةِ ، بَعِيدَ الْاِعْتِدَالِ ، سَيِّئَ الْمُلْكَةِ فِي الرَّعْيَةِ . وَهُوَ الَّذِي صَنَعَ ثَرِيًّا الْفِضَّةَ بِمَسْجِدِهَا ؛ وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى الْيَوْمِ ، إِلَى أَنْ تَمَلَّكَ يَوْسُفُ بْنُ تَاسُفَيْنَ غِرْنَاطَةَ ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ الشُّكُوى بِتَمِيمٍ مِنْ أَهْلِ مَالَقَةٍ . وَوَرَدَ فِي شَأْنِهِ عَلَى الْأَمِيرِ أَبُو الْمُطَرِّفِ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ ؛ فَرَفَعَ حُكْمَهُ وَأَكْبَلَهُ بِسَبَبِ الشَّكَايَاتِ . وَنُسِيَ عَنْهُ أَنَّهُ أَطْلَقَ لِسَانَهُ عِنْدَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ فِي جِهَةِ السُّلْطَانِ ؛ فَخَصَّهُ بِالْجَلَاءِ إِلَى السُّوسِ ، وَأَسْكَنَ أَخَاهُ عَبْدَ اللَّهِ بِمَدِينَةِ آغْمَاتٍ ، إِلَى أَنْ عَفَا عَنْ تَمِيمٍ ؛ فَسَكَنَ بِمَرَاكُشَ حَتَّى مَاتَ بِهَا سَنَةَ ٤٨٨ . فَانْقَضَى أَمْرُ بَادِيسَ وَعَقِبَهُ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ . وَالبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ !

## أَيَّامُ شَيْخِ زَنَانَةَ

## مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْوَرْدَسَنِيُّ الْبَرْزَالِيُّ

وكان هذا الرَّئِيسُ يَلِي بَادِيسَ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرَةِ فِي جَلَالَةِ الشَّانِ وَقُوَّةِ السُّلْطَانِ ، بَقِيَّةُ أُمَرَاءِ الْبَرْبَرِ الْمُسَلِّطِينَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَأَعْظَمُهُمْ شَأْنًا فِي الدَّهَاءِ وَالرَّجُولَةِ ، وَأَبْصَرُهُمْ بِتَدْيِيرِ الْعَسَاكِرِ ، وَأَرْبَطُهُمْ جَأَشًا عَلَى الْخُطُوبِ الْمُثْقَلَةِ . وَكَانَ مَشْهُورًا بِذَخِيرَةِ عَتِيدِهِ مِنْ صَامَتِ الْمَالِ ، لَمْ يَزَلْ يَجْمَعُهَا حَاطَطًا

لَهَا بِالْبُخْلِ الشَّدِيدِ ، وَاسْتَظْهَرَ أَنَّهَا عَلَى الْخُطْبِ الْعَتِيدِ .

وَكَانَ قَدُومُ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ زَنَانَةِ الْقَاطِنِينَ بِأَرْضِ الْمَرْبِلَةِ وَالزَّوَابِ الْأَسْفَلِ لَعَهْدِ لِحَاقِ جَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الزَّوَابِ بِيَابِ بَنِي أُمَيَّةَ ، إِذْ كَانَ هَذَا الْبَيْتُ صَدِيقًا لَهُ وَظَهِيرًا ؛ فَبَنَى بِهِمُ الْمَكَانُ مِنْ بَعْدِهِ . وَلَمَّا هَلَكَ جَعْفَرُ ، أَقَامُوا جُنْدًا عَلَى عَادَتِهِمْ إِلَى حِينَ وَقَعَ الْفِتْنَةُ الْمَعْرُوفَةُ ؛ فَكَشَفُوا فِي الْحَرْبِ عَنْ أَعْضَادِهِمْ ، وَاسْتَقَرَّ قَرَارُهُمْ بِمَدِينَةِ قَرْمُونَةَ وَإِسْتَجَّةَ وَالْمُدُورَ ، وَغَلَبُوا عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ . وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ يَطُولُ الْكَلَامُ إِنْ اسْتَقْصَيْنَاهَا . وَتَوَفَّى رَأْسُهُمْ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ جَمْعٍ ضَخْمٍ مِنْ قَبِيلِ نَجِيبٍ ، وَخَزِينٍ مِنَ الطَّعَامِ ، لَمْ يَجْمَعْهُ أَمِيرٌ قَبْلَهُ فِي الْفِتْنَةِ . وَصَارَ أَمْرُهُ إِلَى وَلَدِهِ إِسْحَقَ .

## أَيَّامُ إِسْحَقَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِقَرْمُونَةَ

وَرَأْسُ إِسْحَقَ بَعْدَ مَهْلِكِ أَبِيهِ ، وَهُوَ فِي حَدِّ الْكُهُولَةِ . كَانَ مَشْهُورًا بِالْحَزْمِ وَالْكَفَايَةِ وَالْبَأْسِ وَالْفُرُوسِيَّةِ ، يَتَحَلَّى بِشُعْبَةٍ مِنْ شُعْبِ الْكِتَابَةِ ، وَيَضْبُطُ شَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ ، وَيَقْرَأُ الدِّفَاتِرَ الْقَرِيبَةَ . وَهُوَ دُونَ أَبِيهِ مُحَمَّدَ فِي الْقِسْوَةِ وَالْفِظَازَةِ ، وَأَذْهَبُ مِنْهُ فِي قَرُطِ الْعَصَبِيَّةِ . وَكِلَاهُمَا عَلَى ذَلِكَ مَوْصُوفٌ بِالْعِفَّةِ وَالزَّاهَةِ وَالْبُعْدِ عَنْ آفَاتِ الْمُلُوكِ الشَّائِنَةِ ، مَعَ اسْتِشْهَارِهَا بِالنَّكَوبِ عَنِ الْجَمَاعَةِ وَاعْتِقَادِهَا بِمَذْهَبِ النَّاكِرِينَ مِنْ فِرَاقِ الْإِبَاضِيَّةِ الْخَوَارِجِ ، يَسْتَأْثِرَانِ بِذَلِكَ هُمَا وَقَوْمُهُمَا مِنْ بَنِي بَرْزَالٍ ؛ أَعْمَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ . هَذَا كَلَامُ ابْنِ حَيَّانَ .

وَلَمْ تَزَلْ الْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ مِنْ قِبَائِلِ بَنِي دَمَرٍ وَكُورَةَ مَوْرُورٍ وَالْمُعْتَصِدِينَ عِبَادًا إِلَى أَنْ ضَاقَتْ أَحْوَالُهُمْ بِقَرْمُونَةَ ، وَاضْطَرُّوا ؛ فَكَتَبَ رَأْسُهُمُ الْعَزِيزُ بْنُ إِسْحَقَ بَعْدَ هَلَاكِ إِسْحَقَ ، فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ ، إِلَى

ابن دنثون أن يعطيه قَرْمُونَة وأنظارها لِيَتِمَكَّنَ من نكاية عدوّه ابن عباد منها ، على أن يعطيه المأمون بن دنثون عَوْضاً في بلاده الجوفية . فاتقفا على ذلك ، وخرج العزيز بن إسحق من قَرْمُونَة إلى الحصن المدور ؛ وقبض رجال ابن دنثون [ ما في المدينة . وبعد ذلك خاطب المعتضد بن عباد بن دنثون ] في السرّ يقول له : « إن قَرْمُونَة قريبة من بلدي وبعيدة من نظرك وبلادك . فاصرفها إليّ ، وأجعل يدي مع يدك على تلك قرطبة حتى أصيرها لك . » وكانت قرطبة أمينة ابن دنثون عمره ؛ فأجاب إلى ذلك ، وتوثق منه ، وأخلى له قَرْمُونَة ، فشحنها ابن عباد بالأطعمة والرجال ؛ ولم يف لابن دنثون بشيء مما ارتبط إليه . وجرت بينهما من الأحاديث في أمر قَرْمُونَة ما تقدم ذكره في اسم ابن جهور . ولم يستقل العزيز بن إسحق بالمدور لضعفه وضيقه ؛ فتلاشى وانقرض أمره .

### خبر سائر رؤساء الطائفة البربرية

وهذان البيتان من هذه الطوائف المغربية كانا أسنبة بالملوك والأمراء . ويستوي من بعدهما من أمراء البرابرة في الحال منهم بيت أبي ثور بن أبي قرّة بن دوناس اليفرنّي ، أمير الفريق من بني يفرن المتغلبين على كورة تاكرنتا لأول الفتنه . وكان جسوراً ، جشعاً ، مقداماً ، عطشاً من كل خلة تدل على فضيلة ، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رجاله وحصانة قلاعهم ، شارعاً في لذاته ، لا ينفق درهماً أحداً ، على دأبيه في الباطل ، فوق طوقه .

ومنها : عبدون بن خزّون الرنداجي أمير بني إرنيان ؛ وبطونهم

١ هنا وقع إسقاط جملة في جميع الأصول لتكرار عبارة « ابن دنون » ؛ وقد سددنا الحثل سيقاً للمعنى .

من القبائل الزناتية المتغلبين على كورة شدونة لأول الفتنه ، النازلين بقصة قلشانة ؛ قام بسططانه وراثه من والده أحد أكبر البرابرة المتأمرين لما خرجوا عن الجماعة ؛ وهو فتى دمت أنيث ماكر ، عطل من الفضائل ، لا تضاف إليه منها خلّة صالحة ، إلا أنه رفق بقومه وأخذ عفوهم ؛ فاستقاموا له .

ومنها : محمد بن نوح بن أبي تزيدي الدمري ، صاحب كورة مؤرور وراثه عن أبيه وجده ، فتى غر ، حديث عهد بالإمارة ، جاهل ، جندي ، خلوا من الفضائل ، موصوف بكيس وليانة .

قلت : وجميع من ذكرنا زاحمهم المعتضد بن عباد بمنكب العز والصبر والسلطة ؛ فأرداهم تارة بالقهر والغلبة ، وتارة بالحيلة . وكان في آخر أيامه قد صرف وجه السياسة إلى استألتهم بالصلوات والمودة ، إلى أن وجه إليهم في الزيادة ليتجمل بهم في إغذار ؛ فأتوه في أحسن زي وأفخم أبهة . وقد كانت تكررت زيارتهم له أفذاذاً قبل ذلك ؛ فجاءوا إليه مباهين في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم ؛ فأكرمهم ، وأمر بتطييب الحمام لهم ، وحملهم إليه عبيده ؛ وهم الثلاثة الأمراء المذكورون : أبو ثور ، وابن نوح ، وابن خزرون . فلما دخلوا الحمام ، وقعدوا بإزاء حوضه ، أمر ؛ فبني عليهم خلف دفة الحمام ؛ ولما فرغ من البناء ، أمر موقد النار بالزيادة والإحراق ؛ فالتهب الحمام ، ولم يجدوا مخرجاً منه . فكان آخر العهد بهم . وأقام ذلك الحمام عطشاً إلى آخر أيام العباديين . ووجه العساكر إلى بلادهم ؛ فاحتوى عليها . ونزل باقيهم إلى إشبيلية ؛ فصاروا من رجاله .

ولم يبق له معانيد إلا ما كان ممن بشدونة وأركش ؛ فإن أميرهم محمد بن خزرون كان قد تخلف عن دعوة ابن عباد ؛ فزادهم في استئصالهم ، وبنى عليهم حصناً شده بالحيل والرجال ؛ وضاق عليهم أمرهم ؛ فطارحوا

على باديس بن حبوس ، واتفقوا على أن يعطوه قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد سدونة ، ويبيع منهم طعامهم المختزن بسوم معروف ، على أن يعطيهم باديس بلدأ يسكنونه تحت كفه . فم ذلك ، وبعث معهم عسكرياً ضخماً . وخرج بنو إرنيان بأموالهم وحرهم ؛ فكانت جملة دوابهم نحو خمسمائة بغل . وكان بنو إرنيان قطعة كبيرة ؛ فلما أبعدوا عن القلعة التي خرجوا منها نحو عشرين ميلاً ، عارضهم ابن عبّاد بفحص سلب ؛ ف وقعت الحرب ؛ فلجأوا إلى ربوة كانت قريباً منهم ، وحطوا ألقاهم إلى الصباح . وكان ابن عبّاد قد أكن لهم كميناً ؛ فلما حيت الحرب ، خرج عليهم الكمين ، وطبؤه هادرة ، وأعلامه خافقة ، وخيله متناسقة ؛ فلما رأوا ذلك ، سقط في أيديهم ، وضعت قلوبهم ؛ وثاب الظفر لابن عبّاد ؛ فهزمهم ، ولم يعب في اتباعهم . وهلك في هذه الحرب أكثرهم ، إذ قاتلوا على أموالهم وحرهم حتى أيدوا . وقُتل أميرهم محمد بن خزرون بعد أن أمر غلامه بقتل امرأته لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه ؛ ف قطعها بالرمح ، وهي راكبة ؛ فسقطت ؛ وفعل ذلك بأخته . وقُتل قائد باديس الذي كان معهم ، وركب السيف أعناق من معه . ودخل ابن عبّاد قلعة أركش وسائر بلاد سدونة ، واتصل نظره إلى آخر بلاد غرب الأندلس ، وقتل ، واستأصل سافة القوم ؛ فلم يبق بالأندلس منهم باقية . فسبحان الحي الذي لا ينقض شأنه ، ولا يبيد سلطانه !

قلت : وهذه جبهة من رؤساء الطوائف وثوار البلاد بالأندلس من بعد انقراض الدولة الأموية ؛ وعلى حين استقرار الدولة المرابطية ، وتغلب سلطانها الأمير يوسف بن تاشفين ، خلا الجو من جميعهم . وكان فيهم الفاضل ، والمعلوم ، والمجهول ، كما يكون فيمن كثر عدده ،

واختلف في السير مقصده . ولا شيء أشبه بالدول كلها ضعت ، وتفرقت كلمتها واختلفت ؛ وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت ، بالارض المتحدة بالمقاتي والحضر ؛ والثوار فيها بمنزلة العشب الناجم ، والبقل الناجم ، الذي يُعندم عند قوة الفلاح ، واضطلاحه ، وقيامه على الأرض ، واتصال مباشرته ، وإزالة ما يشوش المزدرع من العشب الغاصب ، ومن الحشيش الناصب ؛ فإذا اشتغل عنه لضعف ، أو مرض ، أو قلّة ذات يد ، ألقى غالباً على الأرض ، مهلكاً للفلاح ، مُبيداً للمال ؛ فلم تدع الدولة ذات القبيل والدين الأصل منها شيئاً مذكوراً ، بعد أن شتت الدنيا بهم دهوراً ، ولقي الإسلام بهم وبالآ وتبورا . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

## ذكر تصيير أمر الأندلس إلى ملوك لمتونة

المدعوين بالموايطين ، على سبيل الإشارة والإلماع

لورود الكلام فيهم بمحلّه من دار ملكهم بالمغرب إن شاء الله تعالى ؛ وذكر ما آلت إليه الحال بالفتنة ، واقتسام أمراء الطوائف أقطار الأندلس .

ومن لدن تفرق شمل الإسلام ، وانثقت عصاه ، وتبددت كلياته ، لم يكن همّ عدو الإسلام إلا استرجاع البلاد والأقطار ، واستضافة العمالات ، وافتتاح القلاع ، والاستيلاء على الثغور ، تارة في سبيل المشاركة والاستجارة ، وتارة في سبيل المسالمة والمنازعة ، وتارة بالغلاب والمنازلة . وقد وقع من ملوكهم التكالب والتنافس ؛ فصاحب قشتالة وليون يضم ما جاوره ويطويه طي السجّل ؛ وصاحب برجلونة

١ كذا في الأصول ، وفيه تصحيف ظاهر .

يسري فيما يليه سري النار في المشيم . وحسبك أن هشام بن الحَكَم ، وهو  
 'سلالة' الأيكة وبقية الدين والحشمة ، والبعيد المرمى من الدنية ، خرج  
 في أيام فتنته ومحنته ابن عبد الجبار تسليماً على مائتي موضع ، وحازها  
 العدو ؛ وحينئذ موه بالحرركة إلى نصره ؛ ولم يفعل ؛ ثم سلك من بعده  
 سبيله إلى أن استولى على طليطلة وما إليها سنة ٤٧٨ . وحسبك بها فجعة  
 وأعظم بها مصيبة ! وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون ، وعن عواقب  
 الإسلام لاهون ، حسبها قال أبو الحسن بن الجندب مدح الأمير يوسف :

[ البسيط ]

في كل يوم غريب فيه معتبر نلقاه أو يتلقانا به خبر  
 أرى الملوك أصابتهم بآندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تذر  
 قد كنت أنظرها والشمس طالعة أو صح للقوم في أمثالها النظر  
 ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا  
 وكيف يشعر من في كفته قدح يحدو به ملهياه الناي والوتر  
 صمت مسامعه من غير نغمته مما تثر به الآيات والصور  
 تلقاه كالفلج معبوداً بجلسه له خوار ولكن حشوه خور  
 من حوله كل مغتر وما علموا ان الذي زخرقت دنياهم غرر  
 فقل لمن نام : أصبحت انتبه فلقد مضى بك الليل نجاً وانقضى السحر  
 وانظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأيد والظفر  
 يرعى الرعايا بطرف ساهر يظ كما رعاها بطرف ساهر عمر  
 ردوا موارد قد أوردتهم حنفاً بها الأنام ولكن ما لكم صدر  
 كأنني بكم قد صرتم سراً وما لكم في الورى عين ولا أثر  
 أماتكم قبل موت سوء فعلكم وكيف بالذكر أن لم تحسن السير  
 وإلى هذا العهد ، لم يبق إلا نفس خافيت ، وعُدِم النصير بالمغرب

لتبدد الكلية واقتسام أيدي الثوار إياه ، من ملوك الحزريين ،  
 والزنتيين ، والبرغواطيين ، والأزداجيين ، والمدناريين ، إلى أن  
 شاع في المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء ، واستيلاؤهم على المغرب ،  
 وأنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس بفيقه ، وأنه إسلام جديد ؛  
 فحدقت إلى سمته العيون ، وضرفت إليه الوجوه ؛ ثم ارتفع إليه الصراخ ؛  
 ثم أعلت الإشارات ؛ ثم مدت الأيدي ، إلى أن كان من تنفس المخلق  
 بمجاورة ملك لمتونة ما كان ؛ فانتعشت برهه ، وأقامت مدة .  
 فسبحان من يقول : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا  
 يُرْجَعُونَ .

قلت : ولما استولى ملك قشتالة إدفونش بن فرذلند<sup>١</sup> على  
 مدينة طليطلة ، دار ملك الروم ، وعلى الثغر الجوفي ، وانتظمت له  
 البلاد ، وقد كان أخوه سانشيه وأبوه فرذلند قبله ، راض له ذلك  
 بما ألقي بكل كلكله على صاحبها يحيى بن دنثون الملقب بالمأمون سنة ٤٩٥ ،  
 ونازله ، وألح عليه ، وضعف أمر المسلمين حتى لم يقدرُوا إلا على التحصن  
 والاحتجار ؛ وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحوال الموضع  
 الذي قد قصده ، ويخليهم وما يريدونه من معاشهم ؛ فإذا كثرت  
 الغلات ، استكثر من الاحتشاد ، وفرض على رعيته أمماً من الفلاحين لضم  
 الأقوات ؛ فيحاول منها ما كان المسلمون يستفيدونه لأنفسهم ، وينقل  
 ذلك على ظهور محلاته ورعيته إلى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين لسيورها  
 محلاته عند الحاجة لذلك ؛ وضرب الجزية عليهم بما شاء . فلما هلك فرذلند ،  
 وولي ابنه سانشيه ، ذهب الناس في إجراء عادته من المال ؛ فقال : « إِنَّمَا  
 كان ذلك المال لفرذلند ؛ وهو ثابت أبداً حسناته ؛ لا يرول ؛ وإنما

١ في الاصل : « إدفونش بن سانجه بن فرذلند » ؛ وهو خطأ من المؤلف ، لأن إدفونش  
 السادس كان ولد فرذلند ، وسانجه كان أخاه شقيقه ؛ فصححنا النص الأصلي للضرورة .

نُصَالِحُكُمْ عَلَى مَا يَخْتَصُّ بِي ! » فَأَضْعَفَ الْعَدَدَ . ثُمَّ هَلَكَ شَانِجُهُ ،  
وَوَلِيَ بَعْدَهُ إِذْفُونَشُ أَخُوهُ هَذَا ؛ فَسَارَ بِسِيرَةِ أَخِيهِ ، وَأَضْعَفَ  
الْعَدَدَيْنِ . فَكَانَتِ الرِّعَايَا تَحْتَمِلُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ زِيَادَةً إِلَى أَمْوَالِ الْحَيَاةِ  
الْمُسْتَقْضَاةِ بِالْعُنْفِ ، الَّتِي يُقِيمُ مِنْهَا مَلُوكُهُمْ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ . فَضَعَفَ الْإِعْتِمَادَ ،  
وَحَلَّتِ الدِّيارُ .

وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التماسد والتنافس  
والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات . فلم تتصل لهم  
في الله يدٌ ، ولا نشأ على التعاضد عزمٌ ، ولا توجهٌ ، إلى الاستكثار قصدٌ ؛  
لأنما كان وكدهم في التماس المحل من وده ، وإبراز الفضل من حظوته ،  
والتنفق عنده ، والتواضع إليه ، والاستظهار به ؛ وقد قعد للتضريب بينهم  
والمفسدة ، وأطل بذروة التغلب والتحكم ، مفتوح اليد ، مقبول  
المزايدة واجتلاب الفائدة ، إلى أن استولى على طليطلة كما قلنا . فأفترط  
في التعاطف ؛ وحق له ذلك بما استروحه من استرجاع ما حازه الفتح  
الأول . وعرض عليه شيعته يومئذ أن يلبس التاج ، ويعيد عادة من  
سلف من ملوكهم في القديم ؛ فأرجاهم بذلك إلى أن يستولي على دار  
ملك المسلمين بقرطبة ؛ وقد حسب ذلك حاصلاً في يده ، وواقعاً في  
مدته .

ثم مال على جهة ابن عباد كبيرهم ، يحصل شوكته ، ويخطب بملكته ،  
ويطرق حماه ، مُتَنَاهِيّاً في الوعيد ، متراًمياً إلى المرمى البعيد . ووصله  
رسوله اليهودي المَعِينُ لِقَبْضِ الضرائب ، وتجريع المسلمين كؤوس  
المصاب ؛ فنزل بظاهر إشبيلية في موكب من فرسان سلطانه ، وكتاب  
ديوانه ؛ وأبرز له المال ، فلم يرض عيَّارَه ، وأقدم أن مولاه لا  
يقنع في السنة المقيلة إلا بالبلاد ؛ وجمع بلسان الصولة ما ساء ابن عباد .  
ولما نُقِلَ إليه كلامه ، لم يملك زمام نفسه ، وأمر بالقبض عليه وعلى من

معه ، وأنفذ الأمر بقتل اليهودي وأسر من معه . وبذل في نفسه أموالاً  
خطيرة ؛ فلم يصغر إليه ، وشفى منه نفسه . ثم خاطب ملك النصارى  
يشرح له عذره ، وقد آسف به لا يقبل العلاج ، ولا يعرف الصلاح . وقام له  
الإذفونش في ركائبه ، وصرف عزمه إليه .

وقد كانت الأخبار اتصلت بخروج الأمير يوسف بن تاشفين من  
الصخراء في أمة جديدة الإسلام ، شديدة الاعتزام ، مظهرة للقيام بالحق  
ومجاهدة من زاغ عن الشريعة ، وأنه قد طوع المغرب ، ورد الكلمة  
في أكثره واحدة ، كما قلنا . فترجح لديه استدعاؤه والاستصراخ به  
والتطرح عليه ، وعرض ضرورة الإسلام على دينه وامتناعه . واستشار  
أولياءه في ذلك ؛ فقال له ولده الرشيد ما معناه : « حاول الأمر بجهدك  
مع النصارى ، ولا تستعجل بإدخال من يسلبنا الملك ويشتت الشمل .  
فالناس من علمت ! » فقال المعتمد : « يا ولدي لأن أموت راعياً  
بالمغرب خيرٌ عندي من أن أردد الأندلس دار كفر ؛ فتكون اللعنة  
علي من المسلمين أبد الدهر ! » فقال : « يا أبتِ افعل ما أراك الله ! »  
فخاطب المعتمد يوسف بن تاشفين غرة جمادى الأولى من سنة ٤٧٨ ،  
يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس .

ولما ورد عليه الخطاب ، جمع عليه قومه وأخوته ؛ فقال لهم : « ما  
تروْنَ في هذا الأمر ؟ » فقالوا : « هذا الرجل قد استنصر بنا على عدو  
الدين ؛ ووجب علينا وعلى كل مسلم نصره ! » وقد كان اتصل به من  
فضلاء الأندلس عبد الرحمن بن أسباط ، وخدمته ونصحته في أحوال  
أهل الأندلس ؛ فاستشاره ؛ فقال له ابن أسباط : « الأمر لله ولكم ، غير  
أن عندي ما نلقيه إليكم : وهو أن الأندلس منقطع يعمر منه المسلمون ،  
ويعمر باقي الروم . فإن جزت إليها وحصلت في حكم أهلها ، لم  
يكن لك شيء في نفسك . وهذا الرجل الذي انتصر بك لم يتقدم بينك وبينه

ما يوجب الحجل منه . فاستناب إليه بأن الجواز لا يمكنك إلا أن يتخلى لك عن الجزيرة الخضراء ؛ تجعل بها رجالك وأجنادك وعدتك ، ويكون منها الرجوع إلى وطنك بيدك متى شئت ! » فشكره على ذلك ، وأجاب المعتمد يأذن له في الوصول إليه ويعلق إجابته بما ذكر . فجاز إليه المعتمد سنة ٤٧٨ ؛ بأسطول الأندلس جوازاً فخماً ، اختار لمصاحبه في سفره الخواص والأعيان ؛ واستخلف ولده الرشيد بإشبيلية ؛ وشيعة الناس إلى محل ركوبه البحر .

وفي ذلك يقول شاعره ، بل بعض شعرائه ، عبد الجليل بن وهبون في قصيدته التي أولها :

عزم تجدد فيه النصر والظفر وفكرة خمدت من دونها الفكر  
عساك خلعت حباب الماء من زرد تعود الخوض فيه طرْفك الأثير  
أو قلت في المدح خرصان مفرقة تحارب الجيش أو مصقولة بتو  
هي البسالة إلا أنها شرف تنفي الحذار وبما يؤثر الحذر  
لا تحمل الدين والدنيا على غرر فليس محمد في أمثالها الغرر  
إن كان ثوبك مختصاً بلبسه فقد تعلق من أذالك البشر

فلما قضى غرضه مشدود اليد بعنده ، معلق الآمال بإنجاز وعده ، وقفل إلى بلده ، تخلى عن الجزيرة الخضراء بما فيها من بهيمة وأنعام ، وعلوفة وطعام ؛ وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ .

### دولة الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس

ولما اجتاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، لقي طاغية الروم ، وأوقع به وقعة الزلاقة ، منسوبة إلى موضع اللقاء من أحواز بطليوس . ثم أعاد بعدها إلى المغرب . ثم أجاز ثانية ، ونازل حصن

ليبط من كثورة تدمير ؛ وتعذر عليه فتحه ؛ فقفل إلى بلاده المرأشية ، وقد وجد على ملوك الأندلس ، وانتههم بالإغراض في أضره . وداخله الناس في شأنهم ، ودست إليه السعايات بهم ؛ فأعاد الجواز ثالثة سنة ٤٨٣ ، وشرع في خلعيهم . فتم له ذلك ؛ فتوفي سنة ٥٠٠ ؛ وولي بعده الأمر ولده علي .

### دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين

#### بالأندلس

فتجددت له بيعة أهل الأندلس . وشرع في الجواز إليها أخريات تلك السنة ؛ فباشراً أموراً ، ورتب أحوالها ، وهلك الطاغية في السنة الثانية لولايته ؛ فتمهدت البلاد . ثم أجاز البحر ثانية ؛ ففتح مدينة طلبيرة ؛ ثم أجاز ثالثة ، ونازل قلنرية ؛ ثم قفل عنها وأجاز رابعة لإصلاح الأمور بقرطبة ؛ وولّى ولده تاشفين غرناطة ؛ وضع الله له في الجهاد الصنائع الجميلة والآثار الكريمة . ثم استدعاه في سنة ٥٣٣ ؛ فولاه عنده . وتوفي الأمير علي لسبع خلون من رجب سنة ٥٣٣ .

### دولة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف

#### بالأندلس

واستقل الأمير تاشفين أمر الأندلس بعد موت أبيه ، بما دهبه من حروب المهدي واستيلائه على المغرب ؛ فلم يلتق إلى الأندلس رأساً . وجاء القدر ، من إتيان الهزائم عليه وتكبر السداد إياه ، بخلاف ما جرى به الأمر أيام إمارته وجهاده بالأندلس ، ليقتضي الله أمره ، إلى

أَن هَلَكَ فِي السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ لِرَمَضَانَ سَنَةِ ٥٣٩ . وَعَادَتْ هَيْفٌ إِلَى أَدْيَانِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ الْكَلِمَةُ إِلَى سَانِهَا ، وَلَفَحَتْ جُدْرَ الثَّوَارِ ، وَأَصْبَحَتْ الْأَنْدَلُسُ دَارَ الْبَوَارِ . وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ :

[الوافر]

إِذَا غَابَ الْهَزْبُ الْوَرْدُ يَوْمًا أَخُو الْفَتَكَاتِ وَالنَّفْسِ الْبَيْسَةِ  
وَلَمْ يَجْمَعْ الْقَرِيسَةَ مُسْتَطِيلًا تَرَاخَمَتِ الذِّبَابُ عَلَى الْقَرِيسَةِ

## ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين

### اللمتونيّين من الملوك والرؤساء والثوّار

وَتَعَدَّدَتِ الثَّوَارُ وَالْمُنْتَزِعُونَ فِي أَعْقَابِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ، مِثْلَ ابْنِ وَزِيرٍ ، شَيْخِ أَهْلِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَبِي مُحَمَّدٍ سِدْرَايَ ، وَيُوسُفَ الْبَيْطَرَوْنَجِيَّ ، النَّائِرَ بَلْبَلَةَ ، وَلَيْسِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبَ سَنْتَرِينَ ، وَأَبِي الْقَمَرِ بْنَ عَزْزُونَ صَاحِبَ شَرِيشَ ، وَابْنَ عِيَّاضِ الْأَمِيرِ بَشْرَقِيَّ الْأَنْدَلُسِ ، وَعَلِيَّ بْنَ عَيْسَى بْنِ مَيْمُونٍ صَاحِبَ قَادِسَ ، وَالْوَهْبِيَّ النَّائِرَ بَلْبَلَةَ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُجَّامِ صَاحِبَ بَطْلَيْئُوسَ ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَجَرٍ ، وَالشُّكْيَانِيَّ ، وَمُرِينَ الدَّابِيرِ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُ خَبَرٌ وَدَوْلَةٌ عَلَى قَدَرِهِ وَقَدْرُ عَمَلِهِ وَمَا مَدَّ اللَّهُ لَهُ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ غِيٍّ أَوْ رُشْدَةٍ . وَإِنْ جِئْنَا نَتَّبِعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، نَخْرُجُنَا عَمَّا أَرَدْنَا . فَلَنَقْتَصِرَ عَلَى طَائِفَةٍ فَوْقَ هَؤُلَاءِ فِي الشُّهْرَةِ ، مِثْلَ حَدِيثِ ابْنِ قَسِيٍّ بِاخْتِصَارٍ .

### أيام أبي القاسم بن قسي مدعي الهداية

كَانَ ثَوْرَةُ هَذَا الرَّجُلِ أَوَّلَ ثَوْرَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ فِي أَعْقَابِ الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ ؛ وَتَسَمَّى بِثَوْرَةِ الْمُتْرِيدِينَ ، إِذْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ شَيْخًا مِنْ مَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ ،

الْمُسَمَّى اتِّبَاعُهُمْ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ بِالْمُتْرِيدِينَ . وَقَدَرُهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ مَعْرُوفٌ ؛ وَلَهُ كِتَابٌ « سَلَخُ التَّعْلِينَ » وَغَيْرُهُ . وَكَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ قَدْ كَثُرَتْ يَوْمَئِذٍ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، لَا سِيَّمَا بِمَدِينَةِ سَلْبٍ ؛ وَكَثُرَ خَوْضُهُمْ فِي الْكُتُبِ التَّصَوُّفِيَّةِ وَمَوْضُوعَاتِ الْغَلَاةِ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَالْكَفِّ بِرِسَائِلِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَانْتَشَرَ هَذَا الرَّأْيُ بِشَلْبٍ وَلِبْلَةَ وَنَظَرَ مَرْتَلَةَ ، وَهِيَ بَلَدُ أَبِي الْقَاسِمِ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ قَسِيٍّ ؛ وَكَثُرَ جَمْعُهُمْ ، وَوَقَعَ الْحَدِيثُ بِهِمْ ؛ وَحَذَرُوا صَاحِبَ الدَّوْلَةِ ؛ فَتَفَرَّقُوا . وَاسْتَقَرَّ جَدُّ نَحْلَتِهِمْ بِالْمَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ بِهَا رَئِيسُ هَذَا الشَّانِ وَدِخْلَتُهُ ، وَالْمَشْهُورُ فِيهِ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيفِ . فَأُعْلِمَ عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ بِذَلِكَ ؛ فَوَجَّهَ عَنْ ابْنِ الْعَرِيفِ وَأَبِي الْحَكَمِ بْنِ بَرَجَانَ نَظِيرَهُ فِي الْحِلَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَمْثَالِهِمَا ؛ فَفَرَّقَهُمْ . وَكَانَتْ وَفَاةُ الشَّيْخَيْنِ بِمَرَاكُشَ سَنَةِ ٥٣٧ .

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ قَسِيٍّ هَذَا فِي زَمَانِ فَتَاهِ وَشَبَابِهِ مُشْرِفًا بِسَلْبٍ مِنْ عَمَلِ إِسْبِيلِيَّةٍ ، إِلَى أَنْ أَظْهَرَ ، وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ ، وَتَطَوَّفَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَابْتَنَى رَابِطَةً بِقَرْيَةِ جَلَّةٍ مِنْ قَرْيِ سَلْبٍ ، كَانَ يَجْمَعُ بِهَا دَائِرَتَهُ الَّتِي دَارَتْ بِهَا عَلَى الْأَنْدَلُسِ دَائِرَةُ السُّوءِ ؛ وَادَّعَى الْوِلَايَةَ ، وَتَسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ ؛ وَكَثُرَتْ مَخَارِقُهُ . وَاشْتَهَرَ عَنْهُ أَنَّهُ حَجَّ مِنْ لَيْلَتِهِ وَيُنَاجِي بِمَا شَاءَ ، وَيَنْفِقُ مِنَ الْكُونَ . وَتَتَابَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالرَّحِيلِ ؛ وَاتَّصَلَ بِهِ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيُوتَاتِ وَالْأَجْنَادِ ، مِنْهُمْ ابْنُ وَزِيرٍ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَابْنُ عَنَّانِ فَارِسَ جِهَةِ يَابُورَةَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنْ أَهْلِ سَلْبٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي حَبِيبٍ ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ أَعْيَانِ ذَلِكَ الصُّقْعِ الْغَرْبِيِّ . وَاللَّمْتُونِيُّونَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْحَالِ قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ مَوَادُّ الْغَرْبِ بِمَا دَهَمَهُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَهْدِيِّ ، وَأَجْهَفُوا بِالنَّاسِ بِسَبَبِ اجْتِيَاكِ جُنْدِهِمُ بِالْأَنْدَلُسِ . وَتَحَامَلَتْ عَلَيْهِمُ النَّاسُ ، وَتَوَفَّرَتْ دَوَاعِي الشَّتَاتِ بِفَتْرَةِ الْخَوْفِ ، وَاسْتَهْدَفُوا الْخَلْعَ ، وَكَثُرَ التَّعَدِّيُّ فِي الطَّرِيقِ وَالِدَّوَابِيرِ فِي السُّبُلِ ، وَالْفَتَكُ بِالرَّفَقِ . وَأَوْعَزَ أَبُو



القائم بن قسي إلى أحد من طائفته أن ينتهر الفرصة في حصن مُشَقُّوط ؛ فاهتبل الغيرة فيه ، وتغلَّب عليه في سؤال من عام ٥٣٨ . وبأدرة المرابطون بجيَّته قبل أن يستعيد ؛ فأنزله منه وقتلوه .

وكان ابن قسي يُعَالِطُ أصحابه ، ويقول : « إِنَّمَا مثله كالْفَجْرِ الكاذب ؛ وبعده يطلع الفجر الصادق ويصبح النهار ! » ثمَّ خاف ابن قسي عند القبض على المذكور ؛ فخرج إلى جهة مرثلة من حصون العرب بكورة سدونة ؛ فاستقرَّ عند قوم يُعرفون ببني السنة ؛ وكان من أصحابه رجلٌ يسمَّى محمد بن يحيى ويُعرف بابن القابلية ؛ وكان فريدَ دهره صرامةً ودهاءً وشجاعةً وبلاغةً ، رسائله مشهورة وفصاحته مذكورة ، رمى به غرضه وجعله سيفَ ثورته وعَصَدَ دولته وتغلَّبَ به ، وعيَّنه لعدوِّ مرثلة ؛ فخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابن قسي بقرية الجوزة من قطر مرثلة في سبعين رجلاً من المريدين . وكان قائدُ حصن مرثلة قد واعدَ رجلاً من أهلها على الإتيان إليه في الليل برشوة على حال استتارٍ من أهل الحصن ، وقدَّم الوصاية بذلك إلى بوابه ؛ ونفى إليهم الخبر ؛ فأوهموا باتخاذ رفقة صعدَ بها بعضهم إلى الحصن ، ولم يشكَّ صاحبه أنها رفقة ميعاده الحيث ؛ ففتح الباب . واقتحم القومُ الحصن ؛ فملكوه . وبأدرة محمد بن القابلية إلى تسكين الناس وضبط الحصن . وزحف إليه المرابطون بتلك الجهة ؛ فلم يغنوا شيئاً ، وارتحلوا بعد تخريب قطر مرثلة . وتداعت عامة ما يجاورها إلى الثورة ؛ فقام أهلُ يابرة ملتفتين على ابن وزير عميدهم . وتوجَّه ابن قسي إلى مرثلة ؛ فاحتلَّ بقصبتها المنيعه غرة ربيع الأول عام ٥٣٩ ، وبثَّ الحين عقيدته ، وتسمَّى إماماً ، وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين . واتَّصل به الأشرار ، وأجزَلَ العطاء من غير عملٍ ولا خراج . وكان ، إذا أعطى ، يحشو بيده من غير عدد ؛ وكان أصحابه يقولون للناس : « إِنَّ المال يتكوَّن عنده إذا فرغ . »

ومن النوادر في ذلك أنَّ رجلاً من البادية قال لبعض أصحابه ، وقد أعطاه : « عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين ؟ » ولم يكن عليه طابع غير ذلك . ونُقِلَ له هذا الحديث ؛ فكان آخر العهد بذلك الرجل .

ثمَّ إنَّ بعض أصحاب ابن قسي اختلفوا عليه ، وفَسَدَ ما بينهم وبينه ؛ فنازعه ابن وزير بشلب ، وأخوه بياجة ، وصرفوا الدعوة إلى ابن حمدين بقُرطبة ، وقد دعا إلى نفسه ، وتسمَّى بالقاضي الخليفة ، حسباً يُذكر . فعزم ابن قسي على اللحاق بأمير المؤمنين ؛ فخطب الأمير عبد المؤمن ابن علي ؛ فلم يجدَّ عنده قبولاً لتعاليه في الخطاب عليه ؛ وجعل الخطَّ لنفسه بوصف الهداية بضاعة القوم ؛ فأعاد واعتذر ؛ وتجرَّك في عقبها . فكان لقاؤه إيَّاه في ربيع الآخر من عام ٥٤٠ . وتحفَّى عبد المؤمن به ، وأكثرَ وفادته . ثمَّ انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحدين ، وهو أوَّلُ عساكرهم وبأكورة تغلبهم ، حسباً يأتي ذكره .

ثمَّ إنَّه ، لما اضطربت الأحوال بالدولة المؤمَّنية بالماسي مدَّعي الهداية في دولتهم ، وانتقض عليهم كثير من البلاد ، رجع عن دعوتهم ؛ ولم يكن إلا أن تاب أمرهم وقتل الداعي القائم عليهم بماسة . فتورط بما جَنَّاه من القطيعة ، واضطرَّ إلى مُداخلة صاحب قلمرية من النصارى المعروف بابن الرنق ، وألطف مهاداته ، ووصل التعلُّق بحبله على ديدن أمثاله من الثوار ؛ فقبل صاعيته ، وبعث له بفرَس من مراكبه وثرنس ورُمح .

وتوقَّع أهلُ شلب عائدة هذه المُداخلة ؛ فنظروا لأنفسهم في الإراحة منهم ؛ فشغلوا ولده الحسين بن أحمد بن قسي بنزوة أعدوها له ؛ فأقْبَضَ بعضهم برجلٍ مكتوفٍ كآتته قبض عليه من الدائرة والأشرار ، واستأذنوا على مُقدِّم الحرس ؛ فعندما دخل إلى البلد يستأذن في أمره ،

اقتحمت الطائفة الحِصْنَ ؛ فقتلوا أحمد بن قسيّ ، ورفعوا رأسه على الرمح المَهْدَى من قِبَل الروم . واستلَّ ابنُ المُنْذِرِ بِشِلْب إلى أن صيرها إلى مُلْك الموحِّدين ، في خبرٍ يطولُ شرحُه .

وكان قَتْلُ المذكور في جُمادى الأولى من سنة ٥٤٦ . وخبرُه يقتضي طولاً . وما صدر عنه من الرسائل في مخاطبة أهل الأندلس ، وما تضمنت من المخارق والدعوى المذكور . ومن شعره في غرض ما كان بسبيله :

[الطويل]

إذا صفر الاصفار جافى فإنما يحيى بهول ما يمر وما يحلى  
وشهراً ربيعٍ فيهما كل آية وعند جُمادى ينقضي أمدُ الحيل

ومن شعره وكان يقول : « أنشدني ربِّي في المنام ! » : [الكامل]

ارْدُدْ على قوس العلى أوتارَه وارمِ العدا بسهامها العقَّارَه  
وأنفض يدك بِشِلْب مِفْتاح البلا د المنجات وأمها المختارَه  
ويكون ذاك إذا تكاثرت العدا وتعلَّات قنُ الجبال نصارَه

ولما نُقِدَ عليه قوله في نصارى « نصَّارَه » ، غضب ، وقال : « كذا قال لي : قُلْ نصَّارَه ! » فمضى على هذه السبيل .

## أيام أحمد بن حمدين الأمير القاضي بقرطبة

وهو أحمد بن محمد بن أحمد التَّغْلِيّ . دخل الأندلس جدُّهم في طالعة بلنج ؛ فنزل بآغه ، وبها تناسلهم . ولي القضاء بعد أخيه بقرطبة سنة ٥٢٩ ؛ وعزله الأميرُ عليُّ بن يوسف . فلما ثارت العامة بقرطبة ، واستطالت الأيدي لضعف قاضيها إذ ذاك أحمد بن رُشد ، اضطرَّ أبو جعفر بن حمدين إلى الخروج للناس لردِّ العامة وتسكينِ الثائرة . وكان سَهْماً ، يبيش في صدره

الأمر الذي برز فيه ؛ فظهر يومئذٍ ، وفرَّ ابنُ رُشد مُسْتَعْفِياً عن القضاء . وتعطلَّت الأحكام بقرطبة أزيدَ من سنة ، سُخْطاً من الأمير على أهلها . ثم أذن لهم في اختيار قاضٍ ؛ فاتفقوا على ابنِ حمدين هذا سنة ٥٣٦ ؛ فاستمرَّ على القضاء إلى سنة ٥٣٩ . وثارت العامة بوالي البلد الرئيس أبي عمر اللُّمْتُوني ، وخلعوا دعوة المُلُتَمِّين ، واتفقوا على مُبايعة القاضي أبي جعفر ابنِ حمدين ؛ فبايَعَه الخاصَّة والعامة بالمسجد الجامع من قرطبة خامسَ رمضان من سنة ٥٣٩ المذكورة ؛ وسكن قصرَ الخلافة ، وتسمَّى بأمير المسلمين وناصر الدين . وزحف إليه أحمد بن عبد الملك بن هود ، المستقرُّ عند صاحب قشتالة حسباً وقع ذكرُه في دولة بني هود ؛ وكان قد أسنَّ ، وبلغ زمن الشيخوخة عند العدو ؛ فأقبل إلى قرطبة بُدَاخلة العامة ؛ وفرَّ عنها بعد اثني عشر يوماً . وعاد إليها ابنِ حمدين من مستقرِّه ببعض الحصون ؛ فاستقام له الأمرُ ودَوَّن الدواوين ، وجنَّد الأجناد ، ورسم الخطَّط ، ومخاطبَ العصاة بالأندلس ؛ فاستقلُّوا ببلادهم ، واعترفوا ببيعتِهِ .

واستمرت أيامه أحد عشر شهراً . ثم دبر حُسادَه المكيدةَ عليه ؛ فكتبوا إلى يحيى بن غانية عميدِ العصابة اللُّمْتُونيَّة ، وهو بدار مُلُكِهِم إشبيلية ؛ فتحرك إليهم في جُمادى الآخرة من عام ٥٤٠ . وبرز ابنُ حمدين إلى لقاءه ؛ فالتقيا بأحواز إستيجة ؛ فكانت على ابنِ حمدين الهزيمة ؛ اتَّبعه ابنُ غانية ؛ فدخل قرطبة في الثاني عشر لشعبان من السنة . وفرَّ ابنُ حمدين إلى بَطْلَيْوُس ؛ فأجاره صاحبها . ثم تدرَّج إلى أن لحق بِحِصْن أنْدُوجَر المجاور لقرطبة . وتحرك ابنُ غانية إليه ؛ فنازلَه ، وواصل حصاره نحواً من شهر ، إلى أن استصرخ ابنُ حمدين طاعة الروم ، ووعدَه بما أطمعَه ؛ فحثَّ إليه السيرَ وتخلَّصه ؛ وقتل ابنُ غانية إلى قرطبة . وأخذ ابنُ حمدين أثرَه بالنصاري ؛ فدخلها عاشرَ ذي الحِجَّة من عام ٥٤٠ . واعتصم ابنُ غانية بالمدينة بعد أن عاثَ الروم في شرقِها بما هو معلوم ؛ فذكروا أنه في

مدة مُحاصرة الطاغية لابن غانية بقرطبة انصلت الأخبار بصاحب قشتالة بما كان من جوائز جيش الموحدين إلى الأندلس، وظهور دعوتهم بإشبيلية؛ فاقضى رأيُه ورأيُ أرباب الشورى من قومه أن يستبقي ابن غانية، ويهادنه، وينصبه سداً في وجه القوم؛ فترددت بينه وبين ابن غانية المحاوراة، وتم له العرض على شروط من مالٍ وبلادٍ التزمها له ابنُ غانية؛ وأفلح عنه.

وانصرف ابنُ حمدين خائباً في ظلِّ صاحب قشتالة؛ فأقام بحصن فرنجلوش، وقصد عبد المؤمن بن علي؛ فأقبل عليه، وأحسن وعده، واستعجل الرجوع من عنده؛ فاستقرَّ بمالقة، وقد ثار بها حليفه وصنيعه أبو الحكم بن حسون قاضيا، واستجمع بها، والتفَّ بصبابته. ونهض إلى قرطبة؛ فبان وهنه، وأخفق مسعاه؛ فعاد إلى مالقة إدراجاً. وساعد ابنُ حسون بها على مُحالفة الموحدين؛ فدعا إلى نفسه.

وتوفي ابنُ حمدين بمالقة في التاسع عشر لرجب سنة ٥٤٦؛ ودُفِنَ بقبلي مسجدھا. ولما استولى الموحدون على مالقة، نبشوا لحدَّه وصلبوه، وهو بحاله لم يتغير بعد عشرين شهراً. وزعم بعض المؤرخين أن المنجمين في زمانه حكموا على مولده بأنه يُصلب؛ وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه بقرطبة؛ فصدَّقته الأيام، لكن بعد وفاته — تجاوزَ الله عنه!

## أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بمالقة

وهو الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون؛ اشتهر بكُنْيته.

قال ابن خميس في تاريخه: كان أبو الحكم قد نشأ على مبيع سلفه

من الوجاهة والنباهة، وعلو المكانة، وشرف الذات، وبعد الصيت، وطلب العلم. وولي القضاء بمالقة عند عمى قاضيا أبي محمد الوحيد سنة ٥٣٨. ثم دعا إلى نفسه لما تكاثبت القضاة؛ واستبد، وحصر اللامتوثقين بالقصبة، إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر. وتملك القصبة، وانتقل إليها، وتسمى بالأمير، وأقام سالماً طريقة القضاء مع الإمارة؛ وقلد أخاه أبا الحسن جيشه، وولاه بلد قرطمة وما إليها. وله بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره.

والتح عليه من مجاوره من المرابطين بانتقميرة وغيرها؛ فواصلوا الغارات عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الرُوم؛ ولزمه المال؛ فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التديير عليه؛ فدخلوا رجلاً شهماً من خدّامه، كان قائد الرجال ببابه، يُعرف باللوشي، وتواعدوا معه على يومٍ معلوم ثاروا فيه؛ وتعلّب المذكور على الأبواب، وملك القصبة. وسد ابن حسون على نفسه في القصر، وقاتل عنه؛ فلما أيقن بالهلكة، وقد قتل أهل البلد أخاه عند الهيج والثورة، ذهب إلى قتل من بداره من بناته، غيرةً عليهن؛ فامتنعن منه في العرف والبيوت؛ واشتد الأمر؛ فأطلق النار في كتبه وذخيرته؛ فأحرقها؛ ثم شرب سماً؛ فلم يفعل فيه؛ فذلق رُمحاً وتحامل على سينانه إلى أن خرج من ظهره؛ ولم يُجهز عليه. ودخل القصر؛ فوجد مشحطاً في دمه، يجود بنفسه؛ ثم مات ليومين. وكان ذلك في يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام ٥٤٧. وصليبت جثته، وحمل رأسه إلى مراکش.

واستولى الموحدون على مالقة بعده؛ فبيع بناته وأهلُه؛ وتسرى بعضهم جيلةً من أهل الدولة. كتب الله لنا محسن العاقبة!

## أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز بيلنسية

ولما استقلَّ ابنُ حمدين بقرطبة ، ثار الناسُ ببلنسية ، وخلعوا اللسثونيين ، واجتمعوا إلى القاضي ابن عبد العزيز بها ؛ فالتزم بيعتهم بعد نفاذ وتوقف لم يسعه إلا القيام بالأمر . وقد كان اللسثونيون لجأوا إلى معقل ساطبة ؛ فاحتشد ابن عبد العزيز ، وتأهب لزوئها ؛ فكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة ٥٣٩ . ولما ضاق بأهل ساطبة الحصار ، وأغورَّهم الغوث ، اهتبل الغيرة عبد الله بن حمو بن غانية ؛ فخرج في طائفة قليلة من أنجاد قومه ، وتعرَّف بذلك ، واتَّبع أثره ؛ فنجَّ وحده ، وقصد الساحل . فذكروا أنه صانع صياداً للوحوت ببعض آلتيه ، وركب جفثته ؛ فأوصلته إلى أحواز المريَّة ؛ فقصدها القائد محمد بن ميمون صاحب الأسطول وصيعة الملتئين ؛ وقد كان وقى لهم ، وامتنسك بدعوتهم ؛ فجهَّزه إلى مدينة ميورقة ؛ فألحقه بأبيه حمو بن غانية . ومن هنالك تأثَّلت بميورقة العصابة الميورقية التي تعب فيها عبد المؤمن .

وملك ابن عبد العزيز ساطبة ، وانضاف إليه لِقْنَت وما إليها ؛ فضخمت جملته ، واتسعت طاعته ، إلى أن ضاقت جبايته ، وكرهته رعيته ؛ وثار به الخوف في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٤٠ ؛ فصابروهم إلى الليل ، وترامى من السور ؛ فذهب لوجهه . وتلاعبت به الأيام إلى أن توفيَّ مشرفاً بمرَّاكش سنة ٥٧٨ .

وَمِنْ أَسْمَاءِ بَنَاتِهِ

## أَيَّامُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَشِيقٍ بِمُرسِيَّة وَمَا إِلَيْهَا

قد تقدَّم ذكرُ من حديث ابن رَشِيق وابن عمَّار ؛ وهو أن المعتدَّ ابن عبَّاد ، لما وجَّه إلى مُرسِيَّة وزيره محمد عمَّار ، عندما دخلت في طاعته ، فتملَّكها وتقبَّض على ابن عبد الرحمن بن طاهر أميرها ، خالف المعتد ، واستقلَّ بنفسه ، وفرَّ ابن عمَّار إلى ابن دنثون . فلما شرع ابن عبَّاد في مطالبة ، وشكا أمره إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، وقد جاز إلى الأندلس المرة الأولى ، بادَرَ ابن رَشِيق بتصيير المدينة إلى طاعة الأمير يوسف ، وخطب له بمنابرها ؛ فلم يسع ابن عبَّاد المراجعة ، ولا فصل يوسف بن تاشفين الخطَّة ؛ فلما قفل إلى مرَّاكش ، انتهر ابن عبَّاد استكانة الطاغية ، وتحرك طمعه فيما بيد ابن رَشِيق . فحشد من بعمالته ، واستكثر ، واحتفل ، واستضاف من بقرطبة من جيش ولده ، وأعمل السير مُورياً بغزو حصن لبيط من حصون النصارى المجاورة لمُرسِيَّة ، ونزل بساحة ابن رَشِيق ؛ فاحتفل ابن رَشِيق في بيته وضيافته ، وجاهره بالاستبداد ؛ ولم يلقه ؛ فتلوَّم المعتد أياماً . ولما يئس منه ، رحل عنه ، بعد أن قنع منه بضريبة يؤدِّيها إليه مُسانهةً ، وخيل يجهَّزها إليه عند الحاجة . وأقام ابن رَشِيق بِمُرسِيَّة . فلما جاز يوسف ابن تاشفين في المرة الثانية ، ونزل حصن لبيط من حصون الروم بجهة مُرسِيَّة ، وحضر عنده أمراء الأندلس ، شكا ابن عبَّاد بن رَشِيق . وحضر ؛ فاحتجَّ عن نفسه . ووجب الحكم الشرعي عليه ؛ فأمر بإسلاسه إلى ابن عبَّاد ؛ فأنفذه في حكم الثقال إلى لوزقة . وانتزى قرابته وأهله بـمُرسِيَّة ؛ فانقطعت الميرة ، وساءت حال المحلَّة ؛ فأقلعت . ونقل ابن رَشِيق إلى الإعتقال بإشبيلية ؛ فبقي بها إلى أن دخلها الملتزمون على ابن عبَّاد . فخرج من ثقافه .

## أيام الامير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر

بُوسِيَّة

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الحشاشي .  
وكان من أهل البيوتات الكبيرة بُوسِيَّة ، استَقْضِيَ بها ؛ ثُمَّ تَقَلَّدَ رِياسَها  
عندما أقام ابنُ حَمْدٍ بن بقرطبة في أواخر سنة ٥٣٩ ؛ فضبط الأمور  
بُوسِيَّة ، مُشارِكاً فيها لقائدها المعروف بالثَّغْري . وتغلَّب على أُرْيُولَةَ  
وجيَّاتِها . فلما تمكَّن من أمره ، قبض على الثَّغْري ، وقد ضاق وسعه  
عن مُداراته ؛ فكمَّل استبداده وظهر على أموال للمُتُونِيَّين ، استعان بها .  
ولما ثار ابنُ أَضْحَى بَغْرِنَاطَةَ ، واستعصى عليه أمرُ المُلْتَمِين بِقَصَبَتِها ،  
استصرخ بآبَن أبي جعفر هذا ، ووَعَدَهُ بما أَطْمَعه ؛ فتجرَّك نحوه في عسكرٍ  
وافرٍ ينيف على أَلْفِي فارِس ، فيهم أعلامُ فُقْهَاء الشَّرْق وكُتَّابِهِمْ  
وشُعْرَائِهِمْ . وكانت بينه وبين جُيُوش اللِّمُونِيَّين المُضْهِرين إِلَيْهِ وقِيعَةٌ  
عظيمةٌ بظَاهِرِ المَدِينَةِ ، صدقت فيها عليه الهزيمة يوم الجمعة ثلاث خلَوَن من  
شهر ربيع الأوَّل عام ٥٤٠ . وذكر بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كان لا يثبت على الظَّهْر ،  
فيسقط عند الركض ؛ وسمعه بعضُ الجندِ يخاطِبُ طَبَّالاً ، يقول له :  
« اضرب الطبل ؛ فَإِنَّ فيه مَهَابَةً ! » فكان الجندُ بعد ذلك يعبثون بقوله .  
وحَزَّ رأسه وأَدْخِلَ المَدِينَةَ . وانْقَضَتْ حاله هذه .

## أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الامير القاضي

بَارِيُولَةَ

وهو أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن سعيد بن عاصم ،

أحدُ الرُّسَاء الحُسَبَاء ، أُولِي السَّلَف والنباهة ، المتداولُ للقضاء ثم الإمارة ؛  
قام برياسة بَلَدِهِ للعَهْد المذكور ، وقصده الناس ، وامتدحوه وأشادوا  
بذكره ، حسبا يظهر من شِعْرِ أَبِي بكر بن حَبِيس في مدحه في القصيدة  
الشهيرة التي يَصِفُ فيها الصيد والجوارح ، التي أَوَّلُها : [ الطويل ]

يعزُّ بك الإسلامُ والدين والفَخْرُ وتخدمك الأقلام والبِضُّ والسُرُ  
وهي شهيرة . واتَّصَلَت الرِّياسة في عقبه ، إلى أن تغلَّب الروم على بَلَدِهِ  
في الدولة النَّصْرِيَّة . ودخل غرناطة من وَلَدِهِ الرَّئيسُ أَبُو الحسن خِجَل ؛  
وكان مجالساً للسلطان بَغْرِنَاطَةَ ، غريبَ الزِّيِّ والوقار ، حَسَنَ الحِظِّ ، جميل  
الرُّوَاء . وكانت وفاته بَغْرِنَاطَةَ مُسْتَأً سنة ٧٠٦ .

أيام القاضي

## المُتَأَمِّر يوسف بن عبد الرحمن بن جزري

رأس في الفتنة بِجَيَّان ؛ وهو المدعوُّ بالرَّئيس أبي الحَكَم ؛ وكان عنده  
حِظٌّ من الطُّبِّ وخطُّ حَسَنٌ . توفِّي سنة ٥٨٩ . وعندِي أَن القاضي  
المُتَأَمِّر بها غيره .

## أيام الامير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي

ابن مَوْدَنِيَش ، أمير شَرْق الأندلس

كان أبوه سَعْدٌ إِمِيرَ إفِرَاغَةَ وما والاها من ثَغُور شَرْقِ  
الأندلس . وكان ما تقدَّم به التعريف من مُنازلة ابنِ رُدْمِيرِ إِيَّاهُ بِإِفِرَاغَةَ ؛  
وَأَحَانَ الله الطَّاعِيَةَ في مَنَاحِهِ بظَاهِرِها على يدِ بِحْيِ بن غَانِيَةِ ، بعد أن

أَسْفَى عَلَيْهَا ؛ فَظَهَرَ مِنْ سَعْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَبْلَهُ مِنَ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْبَلَاءِ مَا اشْتَهَرَ بِهِ ذِكْرُهُ وَعَلَا صِيْنُهُ .

ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا وَلَدَهُ هَذَا أَخْبَأَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَأَوْضَعَ بِمَا كَانَ مِنْ مُصَاهِرَتِهِ ابْنَ عِيَاذٍ ؛ فَأَعَدَّ السَّيْرَ إِلَى مَحَلِّ كُتُورَتِهِ مُرْسِيَّةً وَمَا إِلَيْهَا ؛ فَمَلَكَهَا فِي الْعَشْرِ الْوَسْطِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ٥٤٢ . فَثَبَّتَ قَدَمَهُ فِي الرِّيَاسَةِ ، وَخَلَصَتْ لَهُ ضَائِرُ الْجُنْدِ لِلْمَلَأَمَةِ الطَّبِيعَةِ . وَصَاهَرَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هَمُّشُكٍ ، أَوَّلَ ثَوْرَتِهِ ، عَلَى بِنْتِ إِبْرَاهِيمَ . فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ ، وَتَمَّتِ الْمُعَاوَضَةُ . وَبَادَرَ بِتَوْجِيهِهِ إِلَى الطَّاعِيَةِ ؛ فَعَقَدَ سُلْطَانًا عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ الْبِلَادِ : حَسَنَ مَنَابُ صَهْرِهِ ابْنَ هَمُّشُكٍ فِيهِ ، وَنَجَحَتْ سَاطِئُهُ . فَأَمَّنَ الشَّرْقُ ، وَرَغِبَ أَهْلُ الْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ فِي طَاعَةِ ابْنِ سَعْدٍ ؛ فَعَظُمَ أَمْرُهُ ، وَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ . وَخُطِبَ مُسَالِمَةٌ عَدُوَّ اللَّهِ بَيْرَجِيلُونَةَ ؛ فَتَمَّتْ كَذَلِكَ الْأَرْبَعَةُ الْأَعْوَامُ عَلَى ضَرْبَةِ مِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالِ حَشْمِيَّةٍ .

فَلَمَّا صَفَا لَهُ الشَّرْقُ ، ثَارَ عَلَيْهِ مِنْ أَصْهَارِهِ ابْنُ هِلَالِ يَوْسُفَ بْنَ هِلَالٍ بِحِصْنِ مَطَرْنِيشٍ ؛ فَأَقَامَ سَوْقَ الْفِتْنَةِ عَلَى بَلَدْنَسِيَّةٍ ، وَأَخَذَ حِصْنَ الصُّخَيْرَةِ ، وَتَمَلَّكَ مُورَتَكَةَ ، وَأَوْقَعَ ابْنَ مَرْدَنِيشٍ وَقِيعَةً انْهَزَمَ ابْنُ مَرْدَنِيشٍ بِهَا . ثُمَّ اسْتَرْجَعَ ؛ وَسَاعَدَهُ الْجَدُّ فِي جَرِيدَةٍ جَهَّزَهَا بِيَعُضِ الْأَطْرَافِ لِلضَّرْبِ عَلَى مُورَتَكَةَ ، مَوْضِعِ يَوْسُفَ الْمَذْكُورِ ، وَافْتَقَتِ الْبَائِسُ مُتَوَجِّهًا فِي خَوِيصَّتِهِ إِلَى بَعْضِ الْحُصُونِ ؛ فَتَمَلَّكَتْهُ أُسِيرًا . وَأَمْرَعَهُ بِهِ إِلَى مُورَتَكَةَ ، وَأَمَرَ بِمُخَاطَبَةِ زَوْجِهِ فِي التَّخَلُّصِ عَنِ الْحِصْنِ وَإِلَّا نَزَعَتْ عَيْنَهُ ؛ فَلَمْ يَصْدُقِ الْوَعِيدَ ؛ فَفُتِّتَ عَيْنُهُ بَعُودٍ مِنَ الْأَرْضِ ، بَعْدَ أَنْ تَلَكَّأَ .

فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ غَرِيبَ السَّيْرِ فِي الثَّوَارِ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْقُوَّةِ فِي نَفْسِهِ ، شَدِيدَ الْأَسْرِ فِي تَرْكِيْبِ بَنِيَّتِهِ ، أَصِيلَ الشَّهَامَةِ وَالْفَرُوسِيَّةِ ، يُنَادِمُ كِبَارَ الْأَبْطَالِ وَمَشَاهِيرَ الْفُرْسَانِ وَمَسَاعِيرَ الْحُرُوبِ ؛ فَيُعَاقِرُهُمُ الْحُمُرَ ،

وَيُعَاطِيهِمُ الْكَأْسَ ؛ وَرُبَّمَا هَزَّهُ الْارْتِيَاخُ ؛ فَأَفْضَلَ حَتَّى بَآئِيَةَ شَرَابِهِ وَفَرَشَ مَجْلِسَهُ ، وَانْهَمَكَ ؛ فَكَانَ يُرَاقِدُ أَزِيدَ مِنْ مَائَتِي جَارِيَةٍ تَحْتَ خَافِ وَاحِدٍ . وَمَالَ إِلَى اتِّخَاذِ زِيِّ الرُّومِ ، مِنَ اللَّتْبَاسِ الضَّيِّقِ ، وَرُكُوبِ الْبَرَازِينِ الْهَمَالِيَجِ ، وَاتِّخَاذِ السَّرُوجِ الضَّخْمَةِ الْقَرَارِيْسِ . وَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى تَدْيِيرِهِ ، وَرَتَّبَ مِنْهُمْ أَعْوَانًا وَجُنْدًا ، أَفْرَدَ لَهُمْ بُمْرِسِيَّةَ مَنَازِلَ فِيهَا الْخَانَاتُ وَالْبَيْعُ . وَاضْطُرَّ إِلَى الْمَالِ ؛ فَتَحَصَّفَ الرِّعْيَةَ بِكُلِّ وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْجُورِ ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْقَبَالَاتِ ، وَرَسَمَ بِدَائِعَ مِنَ الْمُكُوسِ ، وَقَرَّرَ فِي الْمَوَاشِي عَدَدًا يُلْزِمُ الْمُتَيْنِ ، وَفَرَضَ عَلَى الْأَدَمِ وَالْبَقُولِ وَالْحُبُوبِ مَعَاوِنَ ثَقِيلَةً تُقَارِبُ أَصُولَ الْأَثْمَانِ .

وَتَحَرَّكَ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْدَنِيشٍ إِلَى بِلَادِ الْمُوَحِّدِينَ ؛ فَتَغَلَّبَ عَلَى جَبَّانٍ وَأَبْدَةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُ بَيَّاسَةٌ ؛ وَنَازَلَ قَرْطَبَةَ ؛ ثُمَّ إِسْثِيلِيَّةَ عَامَ ٥٥٤ . وَأَلْحَ بِالضَّرْبِ عَلَى قَرْطَبَةَ حَتَّى جَاءَ مُحَاوِلُ الْفَلَاحَةِ إِلَى حَرْثٍ مَنَزَلَهُ بِدَاخِلِ الْحَضَرَةِ . وَتَمَلَّكَ مَدِينَةَ إِسْتِجَّةَ ؛ وَحَاوَلَ لَهُ دَابِيرُ يُعْرَفُ بِابْنِ شَرَاخِيلَ عَدُوَّ قَرْطَبَةَ ؛ فَتَمَلَّكَهَا . وَجَهَّزَ إِلَيْهِ الْمُوَحِّدُونَ الْجَيْشَ ؛ فَفَرَّ مِنْ بِالْحِصْنِ لِقَصَبَتِهَا ؛ فَخَيَّمَ بِإَزَائِمَا ، وَاسْتَنْزَلَ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ قَصَبَتِهَا عَلَى حُكْمِهِ .

وَفِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ عَامِ ٥٥٧ ، وَجَّهَ صَهْرَهُ الْقَائِدَ أَبَا الْحَسَنِ بْنَ هَمُّشُكٍ إِلَى مُحَاصَرَةِ غَرْنَاطَةَ ؛ فَدَخَلَهَا لَيْلًا . وَامْتَنَعَ الْمُوَحِّدُونَ بِقَصَبَتِهَا ؛ فَغَرَضَ عَلَيْهِ ضُرُوبُ الْحَرْبِ ، وَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدِ ابْنِ الْخَلِيفَةِ بِجَيْشٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَمَعَهُ وَالِي إِسْثِيلِيَّةِ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ ؛ فَكَانَ الْقَاءُ بَظَاهِرِ غَرْنَاطَةَ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِمَرْجِ الرُّقَادِ ؛ فَانْهَزَمَ الْمُوَحِّدُونَ أَقْبَحَ هَزْمَةٍ ؛ وَتَمَادَى الْحَصَارُ مِنْ فِي قَصَبَةِ غَرْنَاطَةَ . وَتَجَدَّدَ الْعَزْمُ عَلَى تَجْيِيزِ جَيْشِ الْمُوَحِّدِينَ لِإِصْرَاحِ مَنْ فِيهَا ؛ فَكَانَ كَذَلِكَ ؛ فَتَوَفَّرَتْ الْعَسَاكِرُ بِمَالَقَةِ . وَتَسَامَعَ بِذَلِكَ ابْنُ مَرْدَنِيشٍ ؛ فَأَمَدَّ صَهْرَهُ نَفْسَهُ . وَوَصَلَتْ الْجِيُوشُ الْمُوَحِّدِيَّةُ ؛ فَاضْطَرَبَتْ . فَدَارَ مَنْ بَظَاهِرِ غَرْنَاطَةَ ، وَبَيَّتَتْ جَيْشَ ابْنِ

مَرْدَنِيْش ؛ فانهزم مع الفجر من تلك الليلة ؛ فلم يَثْنِ عَنَّا ؛ وكان المُوَحِّدُونَ أَمْلَكَ بِالْحَضْرَةِ . ثُمَّ أَخَذَ أَمْرُ ابْنِ مَرْدَنِيْش فِي الْإِدْبَارِ ؛ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِلْمُوَحِّدِينَ هَزِيمَةٌ بِفَتْحِ الْيَنْدُونِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ مِنْ ذِي حِجَّةِ عَامِ ٥٦٠ ، وَنَازَلُوا مُرْسِيَّةً ؛ ثُمَّ أَقْلَعُوا عَنْهَا .

وَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ هَمْشُكُ بِسَبَبِ ابْنَتِهِ الْكَائِنَةِ تَحْتَهُ ؛ فَاخْتَلَّ أَمْرُهُ . وَمَالَ ابْنُ هَمْشُكُ إِلَى الْمُوَحِّدِينَ . وَتَوَالَّى عَلَيْهِ الْحِصَارُ ، وَأَذْرَكَ الْجَهْدُ ، وَلَزِمَتْهُ الشَّكَايَةُ . فَقَضَى عَلَيْهِ عَقِبَ انْصِرَافِهِ مِنْ مُنَازَلَةِ جَزِيرَةِ سُفَرٍ ، بِأَذْرِ إِلَيْهَا بَعْدَ إِقْلَاعِ السِّدِّ عَنْهَا ، وَعَجَزَ عَنْ قِتَالِهَا ؛ فَفَكَرَ إِلَى مُرْسِيَّةٍ ؛ فَتَوَفَّى عَاشِرَ رَجَبٍ مِنْ عَامِ ٥٦٧ . وَاسْتَوْسَقَتْ طَاعَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالشَّرْقِ ، وَشَمَلَتْهُ دَعْوَتُهُمْ .

### أَيَّامُ يَوْسُفَ بْنِ هَلَالٍ صَهْرِ ابْنِ مَرْدَنِيْشِ

كَانَ يَوْسُفُ بْنُ هَلَالٍ صَهْرُ الْأَمِيرِ شَجَاعًا حَازِمًا ، أَحْظَاهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ، وَصَاهِرَهُ ، وَجَعَلَ لِنَظَرِهِ حِصْنَ مُطَرِّشَةَ وَمَوَاضِعَ كَثِيرَةً . وَفَسَدَتْ طَاعَتُهُ ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ ، وَنَكَبَهُ ، وَغَفَبَهُ ، وَاسْتَخْلَصَ مَا كَانَ لِنَظَرِهِ ، وَتَرَكَهُ . فَأَعْمَلَ الْحِيلَةَ ، وَلَحِقَ بِمُورَتَلَّةَ ، وَثَارَ بِهَا ؛ وَعَاقَدَ صَاحِبَ بَرْجِلُونَةَ عَلَى تَصْيِيرِ مَا يَمْلِكُهُ إِلَيْهِ ؛ فَأَعَانَهُ بِخَيْلٍ مِنَ النَّصَارَى ، لَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ بِهَا وَيُوَالِي الضَّرْبَ عَلَى بَلَنْسِيَّةٍ ، وَيَشْجِي أَهْلَهَا . وَتَلَّكَ الصَّخْرَةَ وَالصَّخِيرَةَ وَغَيْرَهُمَا ، وَأَوْقَعَ بِابْنِ مَرْدَنِيْشِ وَقِيعَةً أَنْهَزَمَ ابْنُ مَرْدَنِيْشِ فِيهَا . ثُمَّ اسْتَرْجَعَ ابْنُ مَرْدَنِيْشِ ، وَسَاعَدَهُ الْجِدُّ فِي جَرِيدَةِ خَيْلٍ وَجَهَّاهَا بِبَعْضِ الْأَطْرَافِ لِلضَّرْبِ عَلَى مُورَتَلَّةَ الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ ؛ فَلَقِيتِ الْبَائِسُ ابْنَ هَلَالٍ مُتَوَجِّهًا فِي خُوَيْصَتِهِ إِلَى سَنْطَبِيْطُورٍ ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَسَيَّقَ إِلَى ابْنِ مَرْدَنِيْشِ ؛ فَأَسْرَعَ بِهِ إِلَى مُورَتَلَّةَ ، وَطَلَبَهُ بِإِخْلَافٍ ، وَإِلَّا نَزَرَتْ

عَيْنُهُ ؛ فَأَبَى ذَلِكَ . فَأَمَرَ ابْنُ مَرْدَنِيْشِ ؛ فَأُخْرِجَتْ عَيْنُهُ الْيُمْنَى بَعْدَ . ثُمَّ قَرَّبَ مِنْ مُورَتَلَّةَ وَطَلَبَ بِإِخْلَاءِ الْحِصْنِ ؛ فِدَعَا بِوَجْهِ وَطَلَبَهَا بِإِخْلَاءِ الْحِصْنِ أَوْ تُخْرِجَ عَيْنُهُ الْأُخْرَى ؛ فَحَصَلَ عَلَى التَّكْذِيبِ ، وَلَمْ يُجِِبْهُ أَحَدٌ ؛ فَأُخْرِجَتْ لِلْحَيْنِ عَيْنُهُ الْأُخْرَى . وَسَيَّقَ إِلَى سَاطِبَةِ ؛ فَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ٦٤٣ . وَقَدْ تَكَرَّرَ بَعْضُ حَدِيثِهِ .

### أَيَّامُ الْمُتَأَمِّرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مَفْرَجِ بْنِ هَمْشُكٍ

وَكَانَ جَدُّ إِبْرَاهِيمَ مُفْرَجٌ أَوْ هَمْشُكُ نَصْرَانِيًّا مَقْطُوعَ أَحَدِ الْأُذْنَيْنِ ، أَسْلَمَ . وَكَانَ مَعْرُوفَ الشَّجَاعَةِ : إِذَا رَأَاهُ النَّصَارَى فِي الْحَرْبِ ، قَالُوا : « هَمْشُكُ ! » وَمَعْنَاهُ : هَذَا مَقْطُوعُ الْأُذْنِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ دَلِيلًا بِالْأَرْضِ وَفَارِسًا نَجْدًا ، خَدَمَ مَعَ النَّصَارَى ، وَتَقَرَّبَ إِلَى ابْنِ غَانِيَّةَ بِقَرْطَبَةِ ؛ وَسَافَرَ رَسُولًا بَيْنَ ابْنِ حَمْدَانَ وَبَيْنَ مَلِكِ قَسْتَالَةَ ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِنْتِزَاعِ بِحِصْنِ سَقُوبِشَ ؛ ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى سَقُورَةَ ، وَمَلَكَهَا . فَغَلِظَ أَمْرُهُ ، وَسَاوَى مُحَمَّدَ بْنَ مَرْدَنِيْشِ ، وَدَاخَلَهُ حَتَّى عَقَدَ مَعَهُ صَهْرًا عَلَى ابْنَتِهِ ؛ فَاتَّصَلَتْ لَهُ الرِّيَاسَةُ وَالْإِمَارَةُ . وَكَانَ سَيِّفًا لِصَهْرِهِ ، مُسَلِّطًا عَلَى مَنْ عَصَاهُ ، إِلَى أَنْ فَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا . وَخَدَمَ الْمُوَحِّدِينَ آخِرَ أَيَّامِهِ ؛ فَكَانَ أَذْعَى الْأَسْبَابِ إِلَى خُرُوجِ الْأَمْرِ عَنْ ابْنِ مَرْدَنِيْشِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَمْشُكٍ جَبَّارًا ، قَاسِيًا ، فَظًّا ، غَلِيظًا ، عَظِيمَ الْجُرْأَةِ وَالْعَبَثِ بِالْخَلْقِ ، يُخْرِقُهُمُ بِالنَّارِ ، وَيَطْرَحُهُمُ مِنَ الشَّوَاهِقِ ، وَيَفْصِلُ أَعْضَاءَهُمْ بِحَالِ الْحَيَاةِ . رَأَاهُ بَعْضُ الصَّالِحِينَ فِي النَّوْمِ وَسَأَلَهُ عَمَّا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ :

[ الْبَسِيطُ ]

مَنْ ضَرَّاهُ الْعَيْثُ فِي الدُّنْيَا بِخَلْقَةٍ مِّنْ يَصُورُ الْخَلْقُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ فَلْيَصْبِرِ الْيَوْمَ صَبْرِي تَحْتَ بَطْشِهِ مَغْلًا يَمْتَطِي جَمْرَ الْغَضَا فَرُشًا

وكان قدومه على مراكش أوائل عام ٥٧١ هـ ؛ وأُسْكِنَ مِكْنَسَة ؛  
ثم هلك بها عن قريب من هذا التاريخ .

## أيام أحمد بن ملحان

### بوادِي آس

وكان أحمد بن محمد بن ملحان الطائي الوادي ياشي معروف الكفاية ،  
مُظْلِعاً بِالْعَمَلِ . فلما دعا ابن حمدين إلى نفسه ، واقتدى به غيره ، ثار  
بوادِي آس ، وتلقب بالمتأيّد بالله ، وحصّن القصبَة ، وأخذ بالحزم ؛ ولم  
يكلّ أمره إلى غيره . وخاض به الفتنة خوض الجرّاة ؛ فأُتِيَ على كثير من  
الأنفس والأموال ، واقتنى كثيراً من المال والذخيرة ، واستعان على غناه  
بالفلاحة وإثارة الحرث . فكان أغنى أهل زمانه . وظهر على كثير بما  
يجاور بِلَدَه كمدينة بسطة ؛ وبها اليوم له عَقِبٌ . واستخدم جُمْلَةً من  
مشاهير أهل العِلْم والأدب ، كآبي بكر بن طُفَيْل ، وآبي الحَكَم  
هرودُس . ودخل في طاعة الموحّدين لما ضيق به ابن سعد وطمع فيما بيده ؛  
وكان خروجه إليهم عنها سنة ٥٤٦ . واستُعْمِلَ بمراكش في اشتغال  
البُحَيْرَة وَبِنَائِهَا وإجراء مائها . ونكّب ؛ وجرت عليه مِحْنَةٌ استهلكت  
ما بيده . وتوفّي بمراكش على هذه السبيل .

فهذا ما حضر من مشاهير الثوار بأعقاب دولة اللّٰمْتُونِيّين على الاختصار .

## ذكر تصيير أمر الأندلس

إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعوّين بالموحّدين ، على  
سبيل الإلماح والإحالة ، إذ الكلام فيهم يستوفى  
عند ذكر دولتهم بالمغرب إن شاء الله

قلتُ : ولما اضطرب أمر المرابطين من لَمْتُونَة بالأندلس ، وضعفوا ،  
وكثرت الفتن والثوار ، واغتم العدو ذلك ، فاستولى على البلاد ، واشتهر  
ظهور الدولة المؤمّنية والطائفة المهدية بالمغرب ، وافتتحوا دار الملك  
مراكش ، واستأصلوا أرباب الأمر ، تعلّقت آمال المسلمين بهم ،  
واستصرخهم الناس ، وثاروا بن بيلادهم من المرابطين ، سوء جوارٍ وجباً  
في الإدالة وتبدّل الملوك ؛ وقلّ أن رأوا أيلةً أنفع أو أجرى في قتال  
العدو من لَمْتُونَة . فأجابهم صاحب الدعوة الأمير عبد المؤمن بن عليّ ،  
وبعث إليهم جيشه لنظر إبراهيم بن براز المسوفي في شعبان من سنة ٥٤١ .

## دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس

ولما أطاع عبد المؤمن بن عليّ الكثير من البلاد الأندلسية بجهة الغرب :  
إشبيلية ، وشَرِيش ، ولَبْلَة ، تحرّك إلى الأندلس في ذي القعدة من عام  
٥٥٥ . واحتلّ بجبل الفتح في الشهر المذكور . ووفد عليه أهل الأندلس ،  
وأنشدته الشعراء ، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن صاحب الصلاة :

[الطويل]

تلاً من نور الخلافه بارق أضاءت به الأفاق والليل غاسق



وأشرفت الدنيا به فكأنما من البشر في كل الجهات مشارق  
وفي ذلك يقول أبو عبد الله الرضائي، شاعر الأندلس في وقته، قصيدته  
الشهيرة التي وصف فيها جبل الفتح؛ وهي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور  
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها ليلاً لساو ولم تثبت لغرور  
فيضته القدح من نور النبوة أو نور الكرامة تجلو ظلمة الزور  
ما زال يقضمها التقوى بوقدها صوام هاجرة قوام كييجور  
حتى أضاءت من الإيمان عن قبس قد كان تحت رماد الكفر مكفور  
نور طوى الله زند الكون منه على سقط إلى زمن المهدي مذخور  
وآية كإيالة الشمس بين يدي غزو على الملك القيسي مندور  
يا دار دار أمير المؤمنين بسفح الطود طود العلي بورك في الدور  
ذات العمادين من عز ومملكة على الأساسين من قدس وتطهير  
ما كان بانك بالواني الكرامة قصر على مجمع البحرين مقصور  
مواطء من نبي طالما وصلت فيها الخطا بين تسبيح وتكبير  
حيث استقلت به نعلاه بوركنا فطبت كل موطوء ومعبور  
وحيث قامت قناة الدين ترفل في لواء نصر على البرئين منشور  
في كف منشور البردين ذي ورع على التقى وصفاء النفس مفطور  
يلقاك في حال غيب من سريره بعالم القدس مشهود ومحطور  
تسم الفلك من شط المجاز وقد نودين: يا خير أفلاك العلا سيري  
فيسرن يحملن أمر الله من ملك بالله منتصر في الله منصور  
تومي له بسجود كل تحركة منها ويوليه حمداً كل تصدير  
لما تسابقن في بحر الرقاق به تركن شطينه في شك وتحير

أهز من عطفه اثناء مسرور أم خاض من لجه أحشاء مذخور  
كأنه سالك منه على وشل في الأرض من مهج الأسياف متطور  
من السيوف التي دانت بسطوته وقد رما نار هيجاه بتسغير  
ذي المنشآت الجوارى في أجرتها شكل الغدائر من سدل وتضفير  
أغرى المياه وأنفاس الرياح بها ما في سجاياه من لين وتعطير  
من كل عذراء سبلى في ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور  
تخلها بين أيدي من مجادفها يغرفن في مثل ماء الورد مبخور  
وربما خاضت التيار طائرة بمثل أجنحة الفتح الكواسير  
كأنما عبرت تحتال عاتمة في زاخر من ندا ينه معصور  
حتى رمت جبل الفتحين من كتب بساطع من سناه غير مبهور  
لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور  
من شامخ القدر في سحابه طلس له من الغيم جيب غير مزور  
معبراً من ذراه عن ذرا ملك من شامخ القدر في سحابه طلس  
تسمي النجوم على تكليل مفرقه في الجو حائمة مثل الدنانير  
وربما مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه مجدور  
وأرد من ثناياه بما أخذت منه معاجم أعواد الدهاير  
حنك حلب الأيام اسطرها وساقها سوق حادي العير للغير  
مقيد الخطو جوال الخواطر في عجيب أمره من ماض ومنظور  
قد واصل الصمت والإطراق مفتكراً بادي السكينة مغبر الأساير  
كأنه مكن بما تعبّره خوف الوعدين من دك وتسير  
أخلق به وجبال الأرض واجفة أن يطمئن غداً من كل محذور  
كفاه فضلاً أن انتابت مواطئه نعلاميك كريم السعي مشكور

مستنشفاً بهما ريح الشفاعة من  
ما انفك أملٌ أمرٍ منه بين يدي  
حتى تصدئ من الدنيا على رمق  
مستقبل الجانب الغربي مرتقباً  
لبارق من حسام سله قدراً  
إذا تألق قيسياً أهاب به  
ومنها

ما عن في الدين والدنيا له أرب  
ولا رمى من أمانيه إلى غرض  
حتى كأن له في كل آونة  
يميز الجيش ملتقاً مواكبه  
من الأولى خضعوا قسراً له وصغوا  
من بعد ما عندوا دهرأ فما تركوا  
بقية الحرب فاتوها وما بهم  
ومنها

إذا صدعت بأمر الله مجتهداً  
لا يوهلن لتقليل أخو سبب  
فالبجر قد عاد من ضرب العدا ييساً  
وإنما هو سيف الله قلده  
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت  
ولما قضى وطره من إصلاح أحوال الأندلس والنظر في مهماتها  
وحسن علائها ، وقدّم أولاده بقواعد الأندلس ، قفل عنها إلى مراكش

لتوطيد ملكه ؛ وقد اتصل به ما أوجب ذلك . فتوفي -- رحمه الله  
ليلة الخميس عشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ . وعهد إلى ولده يوسف

## دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالاندلس

وكان ملكاً كبيراً ؛ جاز إلى الأندلس ، واستخلص بلاد سعاد بن  
مردنيش ، وفتح حصن بليج من حصون الروم . وانصرف إلى المغرب  
بعد أن قرّر أمور الأندلس . ثم جاز في سنة ٥٨٠ ، ونازل مدينة  
سشتين ؛ فأصيب بجراحة من قبل حامية النصارى لم تخطه ؛ فكانت  
منها وفاته بمحلة غزاته ، ليلة الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ٥٨٠ .  
وقام بأمره ولده يعقوب .

## دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

### بالأندلس

وكان ملكاً جليلاً فاضلاً ورعاً . فتح البلاد الإفريقية ، واستخلص  
ميورقة ، وأوقع بطاغية الروم الوقعة العظيمة المنسوبة إلى الأراك : بلغ  
عدد القتلى بها ثلاثين ألفاً . وواصل العدو وعقد السلم . واستأن الله  
به في ربيع الأول سنة ٥٩٥ . وولي بعده ولده الناصر .

## دولة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف

### بن عبد المؤمن بالاندلس

وكان ملكاً كبيراً . فتح ميورقة ثانية من يد الميوريقي . وتحرك

بى إفريقية ؛ فدونحها ومهدّها . ثم قفل إلى الأندلس . وعظمت نكايّة  
العدوّ . والتقى بملك النصارى مغلوب أبيه يوم الأرك ؛ فكانت على  
المسلمين الهزيمة الكبررى المنسوبة إلى العقاب . ولم تستقل الأندلس بعدها  
العشرة ؛ وكانت يوم الإثنين الثامن لصفر من سنة ٦٠٩ . وجاز إلى المغرب ،  
واحتشد ، واستكثر ، ولم يبق غاية ، وعزم عزماً لم يتقدّم لملك  
قبيله ، إلا أن الدهر قطع عليه أمّله . فتوفى في شعبان من سنة ٦١٠ .  
ولم يعد بعدّهم إلى الأندلس أحد من ملوك الموحّدين ، إلى أن  
انقرضت أيّامهم . فيلغى أن نقف عنده ، ونستوفي من بقي من أملاكهم  
بوضع ذلك من الكلام في ملوك المغرب . فليستظره هناك من أرادّه .

## ذكر الثوار والطوائف والمتملكين

### من بعد دولة الملوك آل عبد المؤمن بالأندلس

قلت : وقد كانت أيدي هذه الدولة المؤمينة أنفتت الأرض من  
عشب الثوار ؛ فلم تترك منها عيناً إلا صيرته أنرا ، ولا حبراً إلا  
ردّته خبراً . واتفتت الأمة على كعوة واحدة . ثم إنهم ضعفوا  
واختلفوا ؛ ولو شاء الله ، ما اختلفوا . فثارت الثوار ، وكثرت الغوار ،  
واشتعلت للفتن النار ، وضوّت البلاد طي برود الكفار . فكان على  
آخر هذه الدولة منهم من يذكّر .

## بقية اخبار بني مردنيس بشرق الاندلس

ولما أفرط الأمر بظهور محمد بن سعد بن مردنيس ، ووقعت بينه وبين  
الموحّدين الحروب المشهورة ، أجاز البحر الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن إليه سنة ٥٦٧ ؛ وكان قد قسّد ما بين ابن سعد وبين خدامه  
وكثير من قرابته ؛ فاضطرب أمره . وكان قد أركب النصارى ، واجتاح  
لهم مالا ضاقت عنه جبايته . وفر عنه أخوه الرئيس أبو الحجاج بن سعد ؛  
فقسّد فكره وساء ظنه ، وأوقع بوزرائه . فهلك بمرض الذبول في رجب  
هذا العام .

وتولّى الأمر بعده ولده أبو القمّر هلال بن محمد بن سعد ، وبادر  
بالتخلّي عن مرسية ، والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة . فوجه الأمير  
أبو يعقوب إلى مرسية السيّد أبا حفص أخاه . وقدم هلال بن محمد  
إشبيلية مستهلاً رمضان من السنة . فذكروا أن الأمير محمد بن سعد  
لما يئس من نفسه ، وعلم بتصير ملكه إلى الموحّدين ، أشهد على نفسه  
بإيضاء يوسف بن عبد المؤمن عدوّه على ولده وأهله ، ورغب منه في قبول  
ذلك . وجلب إليه ولده بعد موته ؛ فرق لهذا القصد الأمير أبو يعقوب ،  
واهترأ لرعي هذه الوسيلة ؛ فتزوج ابنة أبي عبد الله بن سعد ، وخلط  
أهله بنفسه . وأورثهم ذلك ملك البلاد الشرقية زمناً غير يسير .  
وكان لإعراسه بنت ابن سعد ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة  
٥٧٠ ؛ وولع بها ، وتغلّبت عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب  
الخليفة للزرقاء المردنيسية . واتفق لقومها من البخت بسبها ما لم  
يتفق لثائر ولا مخالف ملك من إعادته إلى ملكه . فأنفذ تقديم الأمير  
أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيس على بلنسية وجبّاتها ، وقدم  
غانم بن محمد ، ابن أخيه ، على أساطيل العدو بسبته . وأمّسك هلالاً  
بحضرته أثير الرتبة لدينه .

## أيام الأمير

### أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وبنه

واستقرت ولاية الرئيس أبي الحجاج بالبلاد الشرقية مدة حياته إلى أن هلك في سنة ٥٨٢ . وتخلّف جُملةً من الولد الرؤساء . فمنهم : أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة . هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشرقية في أخريات دولة الموحدين . فلما انشقت العصا من لدن وفاة المستنصر ، خاضوا في الفتنة مع الخاضعين ، واستقرت الرئاسة في أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف بن سعد . وكان مدافع قد استشهد شاباً ، وفي حياة أخيه أبي السلطان عزيز بن سعد صاحب جزيرة شقر . فلما أزمع السيد أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية ، والاعتصام ببعض معاقلها ، ليكون أقدر على ضبط أمره ، وامتعت عليه ، وألجأه الاضطراب إلى اللحاق بصاحب أرغون ، بادر الرئيس أبو جميل ببلنسية من مستقره يومئذ بمدينة أبدّة ؛ فدخلها يوم الإثنين السادس والعشرين لصفر سنة ٦٢٦ ؛ وسكن القصر ؛ وأخذ البيعة لنفسه أوّل ربيع الأوّل من السنة ، داعياً للعباسي بيغداد . ثم دخلت دانية في بيئته ؛ فاتسع عمله ، ورجت ساحته ؛ وتلك في رجب من هذه السنة حصن قرْبُنيرة ، ودخلت جنبالة في بيئته . فضخم ملكه ، واشتهر جهاده ، إلى أن كانت عليه الواقعة بأنيسة من ظاهر بلنسية ، هلك فيها من المسلمين ما لا يحصى إلا الله ؛ وكلب عليهم عدو الشرق ، ويثسوا من نصره أهل الأندلس وأهل المغرب ؛ فتعلّقوا ببيعة الأمير أبي زكرياء بتونس ، واستصرخوه ، وأطعموه بفتح

الشرق . وصدر من الاستنصار المنظوم في ذلك القصيدة الشهيرة من نظم الكاتب أبي عبد الله بن الأبار التي أولّها :

أذكرُ بحبّيك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجتها دَرساً  
حسباً يأتي في اسم الأمير أبي زكرياء بحلّه إن شاء الله . ولم يصل جوابه وإمداده إلا والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٣٥ . وواصل عدو الله جافقه ملك أرغون مُنازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدة القتال ؛ وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، والنصارى تتوارد أمدادهم ، إلى أن نفذت الأقوات ، واستولى الجوع ، وضعفت القوى ، وأكملت الجلود والزقوق . وبلغ الكتاب أجله ؛ فكانت المروضة على إسلام البلد ، والخروج عنه في الرابع عشر لصفر من السنة ، بعد سنة المنازلة . وخرج الأمير أبو جميل والشهود ؛ وعقد الصلح بعدها على دانية وقلبيّة . وكان الرُزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً ، والخطب فيها أليماً . وفي ذلك يقول القاضي أبو المطرّف بن عميرة :

ما بال دمعك لا يني مدرارُه أم ما لقلبك لا يقرّ قرارُه  
أللوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطّت دارُه  
أم للشباب تقاذفت أوطانه بعد الدنو وأخلفت أوطارُه  
أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثة خلت أعصارُه  
بحر من الأشجان عبّ عبابه وارتح ما بين الحشى زخارُه  
في كل قلب منه وجند عنده أسف طويل ليس تحبو نارُه  
أما بلنسية فمئوى كافرٍ حفت به في عقرها كفسارُه  
زرع من المكروه حلّ حصاده بين العدى وغداة لجّ حصارُه  
وعزيمة للشرك جعجع بالهدى أنصارها إذ خانه أنصارُه

قُلْ كَيْفَ تَلْبَثُ بَعْدَ تَزْيِيقِ الْعَدَى آثَارُهُ أَوْ كَيْفَ يُدْرِكُ ثَارُهُ  
مَا كَانَ ذَاكَ الْمِصْرُ إِلَّا جَنَّةً لِلْجُنَّ تَجْرِي نَحْتَهُ أَنْهَارُهُ  
طَابَتْ بِطِيبِ نَهَارِهِ آصَالُهُ وَتَعَطَّرَتْ بِنَسِيمِهِ أَشْجَارُهُ  
وَتَأَلَّفَتْ أَوْقَاتُهُ وَتَفَسَّحَتْ أَرْجَاؤُهُ وَتَفَتَّحَتْ أَنْوَارُهُ  
أَمَّا السَّرَارُ فَقَدْ عَدَاهُ وَهَلَ سَوَى قَصْرِ السَّمَاءِ يَزُولُ عَنْهُ سَرَارُهُ  
قَدْ كَانَ يَشْرُقُ بِالْهَدَايَةِ لَيْلُهُ فَالآنَ أَظْلَمَ بِالظَّلَامِ نَهَارُهُ  
وَدَجَا بِهِ لَيْلُ الْخُطُوبِ فَصَبَحَهُ أَعْيَا عَلَى أَبْصَارِنَا إِسْفَارُهُ  
إِيَّاهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَإِنَّهُ نَبَأٌ يَرْجِعُ لَوَعْيِ تَذْكَارُهُ  
عَاطِيَتِي ذَكَرَ الْجَلَاءِ وَإِنَّهُ جَلَاءٌ أَنْسَى إِذَا اتَتْ أَخْبَارُهُ  
وَقَدَحَتْ زَنْدَ أَسَى لَهُ بَيْنَ الْحَشَى عَمَلٌ تَلَاقَى مَرْخُهُ وَغَفَارُهُ  
وَلَقَدْ نَطَقَتْ بِقَتْنِ الرَّدِّ الَّذِي رَاقَتْ نَضَارَتُهُ وَطَابَ نَضَارُهُ

ولم يطل الزمان بالشُّرْقِ أَنْ أَنْهَارَ ، وَأَجَابَ الْكَفَّارَ . فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ  
بَيْنِي مَرْدَنِيَشَ . فَهَمَّ بَيْنَ قَتِيلِ شَهِيدٍ ، وَمُتَّقِلٍ مِنْ ثُوْنُسٍ إِلَى إِيَالَةِ  
التَّوْحِيدِ .

## أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب

### بمُوسِيَّة

وكان هذا الرجلُ صَدْرَ الْبَلَدَةِ ، وَالْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ بِهَا فِي أُمُورِ الْعَقْدِ  
وَالْحُلِّ . وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالنَّسْكِ ، وَأُولِي التَّقْوَى وَالْبِرِّ ، كَثِيرَ  
الْحُشُوعِ ، مَعْرُوفَ الْخَيْرِ ، كَثِيرَ الصَّدَقَاتِ ، مُسْتَعِلاً بِالْعِبَادَةِ ، مُلَازِماً  
بَيْتَ اللَّهِ . ثُمَّ إِنَّ السُّلْطَانَ الْمُسْلِطَ عَلَى مَنْ لَمْ يُضِفْهُ اللَّهُ إِلَى عِبُودِيَّتِهِ مِنْ  
بَنِي آدَمَ اسْتَنْزَلَهُ ، لِقَبُولِ الْإِمْرَةِ بِمُوسِيَّةٍ وَمَا إِلَيْهَا ، مَعَ قَطْعِ صَبِيِّ الْمَهْدِ

وَرَضِيْعِ الشَّدْيِ بِسُوءِ عَقْبِي مِنْ يَتَحَمَّلُ ذَلِكَ يَوْمئِذٍ . فَقَامَ بِالْأَمْرِ ، وَهَجَرَ  
الْمَسْجِدَ ، وَنَشَبَهُ بِالْمُلُوكِ ، وَسَبَحَ فِي بَحْرِ الْحَوْضِ عَلَى كَثْرَةِ الْمَنَازِعِ ،  
وَعَدِمَ الْمَالَ ، وَكَلَّبَ الْجُنْدَ ، وَقَلَقَ الرِّعْيَةَ . فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ فِي الْمَحْرَمِ  
مِنْ سَنَةِ ٦٣٦ ؛ وَبَيَعْتُهُ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الْمُطَرِّفِ بْنِ عَمِيرَةَ سَهِيرَةً .

وَلَمْ يَقُمْ بِالْأَمْرِ حَتَّى قَعَدَ . وَكَانَتْ عَلَيْهِ لِلنَّصَارَى وَقِيعَةٌ لَمْ يُحْكَمْ فِيهَا  
الْمَصَافَ ، وَلَا عَرَفَ الْقِتَالَ ، فَهَلَكَ فِيهَا جَمِيعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْهَنْتِ  
الْبَلَدَ ، وَكَرَّهَتْهُ إِلَى أَهْلِهِ . وَفِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٣٦ ،  
اسْتَدْعَى أَهْلَ مُرْسِيَةِ الْأَمِيرِ أَبَا جَمِيلَ بْنَ مَرْدَنِيَشَ ؛ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ  
طَوْعاً . وَهَاجَتِ الْعَامَّةُ ؛ فَدَخَلَتْ قَصْرَ ابْنِ خَطَّابٍ ، وَانْتَهَبَتْ مَا فِيهِ عَلَى  
اخْتِلَافِهِ مِنْ فَرَشٍ وَثِيَابٍ وَآتِيَةٍ وَمَالٍ . وَقُبِضَ عَلَيْهِ ؛ وَبَقِيَ مُعْتَقَلاً إِلَى  
أَنْ قُتِلَ بَعْضُ زَوَايَا الْقَصْرِ لَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ الْمُوفِي عَشْرِينَ لِرَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ٦٣٦ .  
وَأُخِذَتْ بِهَا الْبَيْعَةُ لِلْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا صَاحِبِ ثُوْنُسٍ ؛ وَانْتَظَمَتْ لَهُ الْبِلَادُ  
الشَّرْقِيَّةُ . فَبَضِيَ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ .

## أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي

### بمُورِقَةٍ

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ طَبِيعَةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ . وَتَلَوْنَ بِهِ الدَّهْرُ ،  
وَجَالَ الْأَنْدَلُسَ وَإِفْرِيقِيَّةَ بَرْهَةً . ثُمَّ دَخَلَ جَزِيرَةَ مَنُورِقَةَ مُشْرِفاً بِهَا .  
ثُمَّ نَالَ بِهَا الرِّيَاسَةَ لَمَّا افْتَرَقَتِ الْكَلِمَةُ وَاخْتَلَّ أَمْرُ الْمُوَحِّدِينَ . وَحَسَنَ بِهَا  
تَدْيِيرُهُ ، وَعَلَا قَدْرُهُ ، وَأَعْظَمَتِهُ الْمُلُوكُ . وَكَانَ بَعِيدَ الْهَمَّةِ ، اجْتِلَاباً لِأَهْلِ  
الْعِلْمِ ، وَاصْطِنَاعاً لَهُمْ ، وَافْتِكَاراً لِمَنْ تَحَصَّلَ مِنْهُمْ بَيْدِ الْعَدُوِّ . وَلَدَيْنَهُ  
حَظٌّ جَزِيلٌ مِنْ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَقَرَضَ الشَّعْرَ وَحَسَنَ الْخَطَّ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ  
شَدِيدَ الْقِسْوَةِ وَالْعِقَابِ ، مُسْتَهِيناً بِالْدَّمَاءِ .

حدثني الشيخ السري أبو الحسين التلمساني ، وكان عمه أبو عبد الله البرقي كاتباً لابن حاكم بمنورقة ، قال : كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر . وكان قد اجتمع المحدث ابن مفلح للرواية عنه وسامع كتاب البخاري عليه ؛ اغتم ذلك لئيه . قال : فينا الكتاب يُقرأ إذ أتى إليه برجل قد شرب الخمر ؛ فأمر به ؛ فضربت عنقه . قال : فطوى ابن مفلح الكتاب ، وحلف أن لا يُسمع عليه منه حديث ؛ وقال : « حفظك الله ! تطلب رواية السنة وتصحيحها ، وتتعدى حدود الله هكذا ! والله ! لا سمعت مني حرفاً أبداً ! » فقال : « يا فقيه ! هذه الجزيرة كثيرة الغن ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ؛ فيضيعون الاحتواس ؛ فيظهر علينا العدو ! » فقال له : « هذا شيء لا يخلص عند الله ! لم تترك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلا أعطته حقه ! » وانصرف عنه . ودامت ولايته بمنورقة ، مقصوداً من الفضلاء والأدباء ، حسباً يظهر من ترسيل أبي المطرف وابن الجئان وغيرهما ، نحواً من خمسين سنة ، إلى أن توفي في حدود عام ٦٨٠ . وورث رياسته بعده ولده أبو عمر .

## ايام ابي عمر حاكم بن سعيد بن حاكم الاموي

### بمنورقة

وكان أبو عمر أفضل من أبيه في دماثة الخلق ، والعفة عن الدماء والأبشار ، والاجتناب للعظائم ، مع حسن الخط ، ورواية الحديث ، وقرض الشعر ، إلا أنه لم يستقل استقلال أبيه ، ولا نهض نهضته . فانصرف أطباع العدو البرجلوني المجاور لثغره إلى تملكه ؛ فم له ذلك ، وثقت قدره الله فيه ، سنة ٦٨٦ . فاستولى على الجزيرة ، وأجلى عنها

المسلمين . ولحق أبو عمر بسبته ، وقد رفع إليها رمة أبيه ، بعد أن كان نزل بالمنورية . ووصل إلى غرناطة ، وأقام بها أياماً تحت جراية أميرها .

وحدثني من رآه ورأى عنه من شيوخنا أنه كان رجلاً قويم السمات والهدي ، جميل الرواء ، عظيم الوقار والتودد . وله أولاد كالنجوم جمالاً ووسامة . وكان نساؤه وخدمته يلبنسن عفتاً حمراء منسدةً عليهن في زي غريب . وركب البحر هو ، وبنوه ذكورهم وإناتهم ، وحاشيتهم ، قاصداً تونس ؛ وقد بذر بها والده ذماماً وأثله حظوة . فعدا عليهم البحر بأحواز الجزائر جزائر بني مزغنا . فرعوا أن صاحب المركب عزم عليه في ركوب الشاني الذي يتبع المركب ، وقد انتفى فيه الأعزة عليه ؛ فقال له أبو عمر : « ومن معي ؟ » فقال : « لا سبيل إلى ذلك فلتنعن بنفسك ! فهو الذي تقدر عليه لك ! » فرجع إلى الطارمة حيث بناته وكرامته ، وسد غلقها عليهن وعلى نفسه ؛ فلم ينج منهم أحد - نفعهم الله بالشهادة ! - وكان ذلك في أخريات العام المذكور أو في العام بعده .

وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية ؛ ولكنها أنسب إليها منها إلى غيرها ، إذ لم تزل راجعة إليها ، وثابتة لأحكامها ؛ فهذا وجه المساحة ، كما أضيف صليته إلى إفريقية .

## دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي

وهذا الرجل هو الذي تعين صاحب الأندلس من بعد انقراض دولة الموحدين ، وملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمنيرة وما إلى ذلك ، بحال اجتماع وافتراق ، وانتزاع من أهلها عليه وشقاق . وكان يدعى بأمير المسلمين ، ويلقب من الألقاب السلطانية

بِالْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ . وَكَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ الَّذِي تَقَدَّمَ  
الْحَدِيثُ فِي دَوْلَتِهِ . وَلِأَجْلِ ذَلِكَ ، يَقُولُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُرْجٍ الْكُحْلِيُّ مِنْ  
قَصِيدَةٍ يمدحه بها :

فَتَحَتْ بِلَادَ اللَّهِ دُونَ مَشَقَّةٍ وَمَا عَرَفَتْ أَرْبَابُهَا حَادِثًا نَكْرًا  
وَلَا بُدَّ مِنْ فِتْنَةِ الْبَقِيَّةِ عَاجِلًا وَيُعْجِلُ لِلْأَشْيَاءِ خَالِقُهَا قَدْرًا  
وَكَمْ زَهْرَةٌ فَتَحَتْ وَهِيَ كَامَةٌ وَلَمْ تَجْنِ غَيْرَ الْبَيْضِ مِنْ فَتْحِهَا زَهْرًا  
أَمْثَلَ ابْنَ هُودٍ آخِذًا بِتَوَاتِهِ وَمَنْ كَانَ مَوْتُورًا فَلَا يَدْعُ الْوَتْرًا  
وَإِنْ كَانَ مَغْضُوبًا فَإِنْ مُحَمَّدًا بِصَارِمِهِ الْهِنْدِيُّ قَدْ رَدَّهَ قَهْرًا  
وَنَادَى عَلَى مُلْكٍ تَقْهَقِرُ مُدَّةٌ وَعَادَ إِلَى مَا كَانَ فِي مُدَّةٍ أُخْرًا  
فِيُوشِعُ رَدَّ الشَّمْسِ فِي جُرْبَانِهَا وَمَا بَعْدَتْ نُورًا وَلَا نَقَصَتْ قَدْرًا  
قَضَى رَبُّهُ أَنْ يَمْلِكَ الْأَرْضَ آخِرًا فَقَدَّمَهُ فَضْلًا وَأَخَّرَهُ عَصْرًا  
وَكَمْ آخِرٍ قَدْ جَاءَ بِالْفُضْلِ أَوَّلًا وَهَلْ تُجْعَلُ الدُّنْيَا سِوَاءً مَعَ الْآخِرِ  
فَفِي رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ كَوْنَهَا وَمَا صَحَّحَتْ إِلَّا أَوَاخِرَ الْعَشْرِ

وَكَانَ شَجَاعًا ، كَرِيمًا حَيِيًّا وَفِيًّا ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ، سَلِيمَ الصَّدْرِ ،  
قَلِيلَ الْمُبَالَاةِ بِالْأُمُورِ ، مُحَدِّدًا ، لَمْ يَنْصُرْ بِهِ جَيْشٌ ، وَلَا وَفَّقَ لَهُ رَأْيٌ ،  
لِغَلْبَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ وَاسْتِعْجَالِهِ الْحَرَكَاتِ وَنَشَاطِهِ إِلَى لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ مِنْ غَيْرِ كَالِ  
اسْتِعْدَادٍ . وَكَانَ خُرُوجُهُ مِنْ مُرْسِيَّةٍ تَاسِعَ رَجَبِ سَنَةِ ٦٢٥ ، وَظَهُورُهُ  
بِالصُّخُورِ مِنْ جِهَاتِهَا فِي نَفَرٍ يَسِيرُ مِنَ الْأَجْنَادِ . وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَشْعِرُونَ  
ذَلِكَ ، وَيُرْتَقِبُونَ ظُهُورَ طَالِبِ الْأَمْرِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، وَاسْمُ أَبِيهِ يُوسُفٌ ؛  
وَهِيَ الْعِلَّةُ الْمَحْرُكَةُ بَعْدَهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَحْمَرِ . وَجَرَى  
عَلَى النَّاسِ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْمُؤَحِّدِينَ امْتِحَانٌ شَقِيٌّ بِهِ قَوْمٌ بَيْنَ وَاقِفٍ  
هَذَا الْاسْمِ أَسَاؤُهُمْ أَوْ أَسَاءَ آبَائِهِمْ . وَقُتِلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَخْصَانِ مِنَ  
أَهْلِ جَبَّانٍ .

وَيُقَالُ إِنَّ شَخْصًا بَيْنَ يَنْتَحِلُ عُلُومَ الْحَدَّثَانِ لَقِيَ ابْنَ هُودٍ ؛ فَامْعَنَ  
النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ ، وَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ،  
وَاطْلُبْ كَامِينَ سَعْدِكَ ! وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِكَ . فَانْهَضَ إِلَى  
الْمُقَدَّمِ الْعُسْتِيَّ ! » وَكَانَ الْعُسْتِيُّ رَجُلًا صُعْلُوكًا ذَائِعِرًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ ،  
وَتَحْتَ يَدِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَتْحَادِ الرِّجَالِ وَسِبَاعِ الْبَرَاذِيرِ ، قَدْ اسْتَهْرَ أَمْرَهُمْ . فَهَضَّ  
إِلَى الْمُقَدَّمِ الْعُسْتِيَّ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ؛ فَارْتَبَطَ مَعَهُ عَلَى أَنْ يُؤَلِّيَهُ قِيَادَةَ  
الْأُسْطُولِ بِالْأَنْدَلُسِ ، إِذَا تَمَّ لَهُ الْأَمْرُ ؛ وَقَالَ : « نَسْتَفْتِحُ الْأَمْرَ بِمُغَاوَرَةٍ  
إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ بِاسْمِكَ وَعَلَى سَعْدِكَ ! » فَفَعَلُوا ، وَجَلَبُوا كَثِيرًا مِنْ  
الْغَنَمِ وَالْأَسْرِ . وَانْضَافَ إِلَى ابْنِ هُودٍ طَوَائِفُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ، وَبَايَعُوهُ  
بِالصُّخَيْرَاتِ ، كَمَا ذَكَرَ ، مِنْ ظَاهِرِ مُرْسِيَّةٍ .

وَأَوْقَعَ بِهِ جَيْشُ الْمُؤَحِّدِينَ وَشَرَّدهُ . ثُمَّ ثَابَ إِلَيْهِ نَاسُهُ ، وَعَدَلَ إِلَى الدُّعَاءِ  
لِلْعَبَّاسِيِّينَ ؛ فَتَبِعَهُ الْفَيْفُ . وَوَصَلَهُ تَقْلِيدُ الْمُسْتَنْصِرِ الْخَلِيفَةِ بَيْغَدَادَ .  
فَاسْتَبَصَرَ النَّاسُ فِي دَعْوَتِهِ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ ، وَمَلَكَ الْقَوَاعِدَ . وَوَفَّى لِلْعُسْتِيِّ  
بِعَهْدِهِ ؛ فَوَلَّاهُ أُسْطُولَ إِسْبِيلِيَّةٍ ، ثُمَّ أُسْطُولَ سَبْتَةِ مُضَافًا إِلَى  
إِمْرَتِهَا وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا ؛ وَثَارَ بِهِ أَهْلُهَا بَعْدَهَا وَخَلَعُوهُ ، وَفَرَّ أَمَامَهُمْ فِي  
الْبَحْرِ وَخَفِيَ أَثَرُهُ ، إِلَى أَنْ تَحَقَّقَ اسْتِقْرَارُهُ أَسِيرًا فِي الْبَحْرِ بِغَرْبِ  
الْأَنْدَلُسِ ؛ وَدَامَ أَسْرُهُ زَمَانًا ؛ ثُمَّ تَخَلَّصَ فِي سَنَةِ الشَّيْخُوخَةِ ، وَمَاتَ  
بِرِبَاطِ آسْفِيٍّ .

وَجَرَتْ عَلَى ابْنِ هُودٍ هَزَائِمٌ شَهِيرَةٌ وَوَقَائِعٌ مَذْكُورَةٌ ؛ وَأَوْقَعَ بِهِ  
السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ نَصْرِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ آخِرُهُنَّ سَنَةَ ٦٣٣ أَوْ ٦٣٤ . وَكَانَ  
الْمُلَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَأْمُونِ إِدْرِيسَ أَمِيرَ الْمُؤَحِّدِينَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٦٣٥ ؛  
فَهَزَمَهُ الْمَأْمُونُ هَزِيمَةً كَبِيرَةً ، وَلَازَمَهُ مِنْهُ بِمُرْسِيَّةٍ ، وَامْتَنَعَ بِهَا ، إِلَّا أَنْ  
الْمَأْمُونُ شَغَلَهُ أَمْرُ الْفِتْنَةِ الْوَاقِعَةِ بِمَرَّاكُشَ ؛ فَصَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهَا ، وَثَابَ  
الْأَمْرُ لِابْنِ هُودٍ ؛ فَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ الْمَرْيَّةِ ، ثُمَّ غَرَّ نَاطِقَةً ، ثُمَّ مَاتَ .

رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله ! » وجاء في الحديث أن العباس دخل على النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم - فخفض النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم - صوته ؛ فقيل له : « يا رسول الله ، رأيناك خفضت صوتك لما دخل العباس ! » فقال : « إن جبريل أمرني أن أخفض صوتي عنده ، كما أمركم أن تخفضوا أصواتكم عني . » وفي الحديث : إن جبريل - عليه السلام - هبط على النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم - وعليه قباء وعمامة أسودان ؛ فقال له : « يا أخي ! ما هذه الصورة التي ما أراك هبطت علي في مثلها ؟ » فقال له : « شعار ولد عمك العباس . وليأتين على أمتك زمان يعز الله فيه الإسلام بهذا السواد ؛ وسيلكون الأبيض والأحمر ، والأصفر والأخضر ، والحجر والمدر ، والصف والمنجر ، والسرير والمنبر ، والدنيا إلى المحشر ، والخلافة إلى المنشر ! وعليهم تقوم الساعة ! »

والحمد لله الذي اجتنى من هذه الدعوة العباسية الشماء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إماماً ألقى ولاه في القلوب والأرواح ، واستوعاه ، فوجدته لأُمَّته خير راع ، وأوضح للناس من اعتقاده ووجوب طاعته سنناً قويمًا ، وجعله كما قال عز وجل : « وكان بالمؤمنين رَحِيمًا » ، سيدنا ومولانا إمام المرسلين ، وخليفة الله في الأرضين ، ووارث الأنبياء والمرسلين ، والمفتوح الطاعة على الخلق أجمعين ، الممنون بإيالله المقدسة على العالمين ، مولانا أبا جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين - ، إمام تحلت أجياد المنابر بجواهر شريف دعوته ، وترصعت تيجان المآثر بلآلي معدلته وحسن سيرته ، ونزلت السكينة على العباد والبلاد بالسكون تحت وارِفِ ظلال رَأْفَتِهِ المقدسة ورحمته ؛ فالناس وادِعون في كنف عيم مكارمِهِ وعواطفِهِ ، والحلائق راتِعون في رياض جسيم مواهبِهِ وعوارِفِهِ . فأدام الله أيامه الزاهرة دواماً يخلق أثواب الأعوام وهو جديد ، وجعل

دَعْوَتَهُ القاهرة مقرونة بالدوام والتخليد ، إلى يوم الوعيد . ولما انتهى إلى علومه الشريفة - زادها الله شرفاً وقداً - ما عليه مجاهد الدين ، محمد بن يوسف بن هود ، من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان ، والتزام شروط الولاء الذي هو علامة متانة الدين وكمال الإيمان ، والتصدي لمقارعة الناكبين عن محبة الحق والهدى ، والتجرد لمرابطة من حاد عن السنة والإجماع اللذين بهما يسترسد ويهتدى ، اقتضت آراؤه الشريفة المقدسة النبوية الإمامية الظاهرة الزاكية المجددة المعظمة المكرمة المستنصرية - زادها الله جلالاً متألقي الأنوار ، وشرفاً رفيع المنار ، واقتداراً تجوب جباهه جنوب الآفاق والأقطار - أن يقلده أمر جزيرة الأندلس وما يجري معها من الولايات والبلاد ، ويسوِّغه ما يفتح من ممالك أهل الشرك والعناد ، تقليداً صحيحاً شرعياً ، وتسويغاً صريحاً إمامياً ، وإنعاماً يصفو عليه لباس فخاره الفضفاض ، وتصفو لديه موارد مواهبه النيرة الحياض .

وقد أمره - صلوات الله عليه - بأوامر تهيئه إلى سبيل الرشاد ، وتحظيه برضى الله الذي هو أنفع الذخائر في الدنيا ويوم يقوم الإشهد ، وما توفيق أمير المؤمنين الإمام بالله : عليه يتوكل وإليه ينسب !

أمره بأن يتدرع شعار تقوى الله الذي هو خير لباس ، ويستشعر خيفته التي تجعل له كما قال عز وجل : « نوراً يمشي به في الناس » ؛ فإن تقوى الله تعالى هي المنجاة لمن توردهاوي الآثام والعصيان ، والسبب الذي يعتصم به من كان من العناية الأزلية بكان ؛ قال الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب . »

وأمره أن يجعل كتاب الله تعالى مناراً يرجع إليه في حل المشكلات ، ومضباحاً يستضيء بمراشده في الأحكام المشتبهات ، فإنه الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ، والنور الساطع الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه



وفي سنة ٦٢٧ ، تحرك بفضل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإضراخ ماردة ، وقد نازلها العدو وحاصرها ؛ ولقي جيش العدو بظاهرها وطاغيتها ؛ فلم يتأن - زعموا - حتى دفع بنفسه العدو ، ودخل في مصافه ؛ وفقدته الناس لما غاب عنهم ؛ فلم يرجع إلّا وقد انهزموا مُدِيرِينَ . وكانت هزيمة شنيعة . واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ .

وفي سنة ٦٢٩ ، غلبك إشبيلية ، وولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سائماً الملقب بعماد الدولة . وتلك مالتة وعرة ناطة عام ٦٢٥ . وفي سؤال من هذه السنة ، جنح إلى طاعته الرئيس أبو زكرياء وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد ، وخرجا عن طاعة ابن عمهما الأمير أبي جميل ؛ وأخذاه للبيعة على ما بأيديهما .

وفي سنة ٦٢٩ ، فتح الجزيرة الخضراء عنوة ؛ وقد كان انضم إليها بقايا المغربيين ؛ فأجازهم إلى المغرب ، وصح له تملك الأندلس ، وأطاعته سبنة ؛ وملك رباط الفتح بسلا أيتاماً .

وفي أوائل العشر الوسط من سؤال ، ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو جهة وادي آش ؛ فأسرى ليله ، ولحق العدو على ثمانين ميلاً ؛ فاستأصله السيف ، ولم يفلت منه أحد . وفي سنة ٦٣١ ، وردت عليه الهدية والتقليد من المستنصر العباسي ببغداد . وقضى على الناس كتابه بصلّى العيد من غرناطة بموافقة اجتماع من الناس لطلب الغيث واستسقائه . وكان الأمير ابن هود يومئذ لايساً السواد ، والراية السوداء بين يديه ؛ فنزل المطر يومئذ ، واستبشر الناس . وكان يوماً مشهوداً وصنعاً غريباً . وأمر بعد انصرافه أن يكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد .

ونص الكتاب ، وكانت العلامة فيه بعد ثلاثة أسطر أو نحوها :

« توكلت على الله الواحد القهار ! الحمد لله خالق الإنسان من صلصال

كالفخار ؛ ومالك أزمته الأفضية والاقدار ، ومكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار ، المتعالي بوجدانيته عن الأشباه والأنظار ، المتنزه بكبريائه عن تمثيل الأوهام وتكثيف الأفكار ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ! سبحانه ! هو الله الواحد القهار !

والحمد لله الذي اختار محمداً - صلى الله عليه وسلم - من أطيب قریش غصراً وأرومة ، وأزكاه أصلاً وجرثومة ، وأكرمها خؤولة وعمومة ، ابتغى والكفر قد ظهر فنيقه والشرك قد قامت سوقه ، والضلال قد استطارت بروقه ، والشيطان قد استظهر حزبه وفريقه ؛ فصنع بالحق وأظهره ، ودحض الضلال ودمره ، ورفع لواء الإيمان ونشره ، وأمات الباطل وأقبره ، وأحيا الدين الحنفي وأنشره . فصلّى الله عليه ، وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتبعة ؛ وعلى صحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، صلاة دائمة متصلة غير منقطعة ، ما وخذت قلوب براكب ، وأضحك الروض بكاء السحاب ؛ وعلى عمه ابن عبد المطلب خير الأعمام ، وكافل الأيتام ، وصاحب زمزم والمقام ، والمخصوص بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، المستنزل ببركته أنوار الغمام ، عن جذب العام ، ومن قال في حقّه سيد الأنام ، محمد خاتم النبيين - عليه أفضل الصلاة والسلام : « يا عم فيكم النبوة والخلافة لا يُنازعكم فيها منازع إلا أكبه الله لوجهه . ولا يزال الأمر في ولدك حتى يسلموه إلى عيسى بن مريم . » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . فمَنزلي ومنزله في الجنة تجاهين ، وعمي العباس بيننا مؤمن بين خليلين ! اللهم اغفر للعباس وولد العباس ومحبّي وولد العباس مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادرهم ! اللهم احفظه في ولده وأخلفه فيهم واحفظ ذريته من كل سوء واعزهم بعونك ونصرك ما بقي منهم باق ! » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم لا يدخل قلب

سبل السلام . قال الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

وأمره أن يعمل بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - في مصادر أموره وموارده ، وبإجماع المسلمين في جميع مناحيه ومقاصده ، فإن اتباع السنة يرسده إلى منهج الحق وسبيله ، والإجماع يوضح له معاني كتاب الله وأحكام رسول الله . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وأمره أن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء ، وأرباب الديانة الصالحة ، ومشاورة العقلاء الألباء ؛ فإن مجالسة العلماء لقاح الخواطر ، ومعاشرة الصالحين فيها رادع عن اتباع الأهواء وزاجر ، ومشاورة الألباء تقدر بها زناد التوفيق في النواهي والأوامر . قال الله تعالى : « وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

وأمره بأن يحسن السيرة في رعيته ، ويسكنهم أرحب كنف من حنوه وشفقته ، ويساوي بينهم في مجالس نظره وحكومته ، ولا يفرق في التفاتيه بين القوي والضعيف ، ولا يميز بما يقتضيه العدل والإنصاف بين المشروف والشريف ، ويقوي الحكماء على ما يوجبه الشرع ويقتضيه ، ويأمرهم بإقامة القسطاس الذي يحبه الله ويرضيه . قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

وأمره أن يقتدى ، في جميع أموره وتصرفاته ، بحسنات وسكناة ، بما أمره الله تعالى في كتابه المكنون ، الذي لا يمسه إلا المطهرون ، من قوله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وأمره أن يعتد في مجاهدة الكفار الملاعين ، وأحزاب الشيطان المشركين ، ما أمر الله تعالى به في قوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » واعلموا أن الله مع المتقين » ، وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

فليكن مجاهد الدين بهذه المراسد مقتديا ، ولما هيج أوامرها المطاوعة مقتفيا ؛ فإنه إذا اتبع هداها ، وامتل مراسمها واحتداها ، وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله عليه وعلى الخلائق اعتقاد مفروض طاعته ، وطوق أعناقهم بالتزام شروط مولاته وعبوديته ، سيدنا ومولانا خليفة الله في أرضه ، والقائم بسنة دينه وفرضه ، أبي جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين - فازت قداحه ، وتضاعفت من أقسام السعادة الراحنة متاجره وأرباحه ؛ فإن ذلك عند ذوي الديانات المتينة أحكم الأوامر وأوثق العرى ، والذخر الذي يجده كل موفق مسعود يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، إن شاء الله . وكتب في العشر الوسط من ذي القعدة سنة ٦٢٩ هـ .

ووصله عن الديوان العزيز ، وهو المعبر به عن رتبة النائب عن العباسي من الأعجام في ذلك التاريخ : « عن الديوان العزيز النبوي أرفع منازل السعداء الفائزين منزلا ، وأحمد مقامات الأبرار المتقين تمهيدا وتأثلا ، وأسسى هضبات السعادة الراحنة يفاعا وقللا ، وأضفى جلايب المواهب الأزلية مدارع وحللا ، وأرحب مواطن العناية الإلهية التي لا يبغى ذو الديانات المتينة عنها حولا ، وأعظم حيازة فضيلة قوله عز وجل : « فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى » ، هو ما أضفى الأمير ، الإصفه صلا الكبير ، الأجل الماربط المتأغر الغاري مجاهد الدين مجد

الإسلام ، جعل الأمان ، تحجيم الدولة ، عزز الملة ، منعين الأمة ، فخير الملوك ، قاميع المستعركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، زعيم الجيوش ، شرف الأمراء ، تابع الخواص أطال الله بقاءه ، وأدام علوه ونعمته باعتقاد وجوبه موارد خلوص معتقده ، وأوضح بسلوك منهجه آثار صدق يقينه ونحس تعبده ، واحتوى على قصبات رهان التوفيق بازوم لاجب محجته وقوية جدده ، ونور الله تعالى أرجاء عقيدته الصالحة بأنواره التي هي علامة كمال توفيقه ووفور رُسده ، من طاعة من لا يقبل تعالى إلا بطاعته الإعمال ، وموالاة من موالاته عنوان استمرار السعادة والإقبال ، وتباعة من تباعته ذخراً نافع يستظهر به كل ذي حظ عظيم في الحال والمآل ، ومخالصة من

[ هنا وقع بياض في جميع النسخ الموجودة من هذا التأليف ]

وماله إلى مدينة تونس ؛ ثم إنه استراب بمن لدته من فرسان النصارى وحذر منهم التغلب على ما بيده ؛ فدنس - زعموا - إلى الأمير الغالب بالله يشير عليه بمطالبة وحصاره ؛ ففعل وبأدر إليه ونازله أياماً عدة . وتوَدَّ بينهما أبو عبد الله بن مهيب حتى أحكم الشروط ، ونازل إليه ابن الرميمي ؛ ولحق بتونس بعد ذلك . وعرفني بعض الشيوخ من أهل المرية أن السلطان ، لما دخل المرية ، جاز ابن الرميمي البحر في جفن أعداءه لذلك ؛ فلم يشعر به إلا وقد أنفذ في البحر ، بعد أن أحرق ما يخاف اتباعه به من الأجنان ، والقصد أن ابن الرميمي استقر بتونس وتأكل بها ؛ وبها حمائم ينسب إليه اليوم . وتغلب الغالب بالله على المرية بعده ؛ وذلك في وسط سنة ٦٣٥ .

## ذكر الخلاف بين ابن نصر وبين بني اشقيلولة

وقد ذكروا أن الغالب بالله كان له صهر من أهل بلده ، يماثل له ، يعرف بابن اشقيلولة : ظاهره على أمره ، ووقع بينهم اتفاق على قسمة ما يتحصل لهما من الملك . فلما استقر بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الأمر ؛ فقال له : « أنا أمي ، لا أكُتُب ! وعزك عزِّي ومُلكك ملكي ! » فأسكنه بالقصبة ، وقدمه على الجيش ، إلى أن توفي الرئيس أبو الحسن ؛ وخلف ولدين : إبراهيم أكبرهما ، والرئيس أبا محمد يتلوه ؛ فصاهرهما السلطان على ابنتيه : مؤمنة وشمس ؛ وهما إذ ذاك بحضرته ، والرئيس أبو إسحاق أكبر الولدين قد استحق رتبة والده . ثم أولد الرئيس أبو إسحاق من بنت السلطان ولدين : علياً وعبد الله ؛ فولاهم السلطان مدينة وادي آش وما إليها . وولد للرئيس أبي محمد ( بعد أن كان السلطان ولأه مالة لوقاة أخيه السلطان بها ، وهو إسماعيل بن يوسف بن نصر أبي الرئيس أبي سعيد ، إذ لم يكن له في الوقت ولد يسد مسده ؛ وكان ولد الرئيس أبو سعيد صغيراً ) أولاد أربعة : علي ، ومحمد ، ويوسف ، وفرج .

واستمرت الأحوال وطاعتهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدتهم جارية ، إلى أن كبر ولد السلطان وولي عهده ؛ فنافس المذكورين ، وقلق بهم ؛ وحذروه وأنفوا من غضه واحتضامه ؛ فأظهروا الامتناع بوادي آش ومالقة على عهد جدتهم السلطان ، وما عدلوا عن تمويله ، ولا استبدوا بنقش سكة ولا تقديم قاض ، إلى أن هلك السلطان الجد ، وصار أمره إلى ولده الذي نفروا عنه . فعظمت الفتنة ، واشتدت المحنة ، وكثر الخلاف ؛ ونازلهم ؛ واستعانوا عليه بالنصارى ، وكشفوا الوجوه في

مَعْصِيَّتِهِ . وَكَثُرَ بِسَبَبِهِمُ الثَّوَارُ بِقُمَارِشٍ وَأَنْتَقِيرَةَ وَلَوْشَةَ ، إِلَّا أَنَّ السُّلْطَانَ ، لَسَعَةِ ذُرْعَهُ وَوَفُورِ دِهَانِهِ وَكَثْرَةِ مَالِهِ ، اضْطَلَعَ بِذَلِكَ كُلَّهُ . وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ الْإِلْمَاعُ بِهِ مِنْ إِجَازَةِ السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يَوْسُفَ إِلَى الْجِهَادِ ؛ فَاسْتَجَنَ بِهِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ ، وَتَعَلَّقُوا بِجَرْمَتِهِ ، وَبَادَرُوا بِفُرْسَانِهِمْ وَرِجَالِهِمْ إِلَى خِدْمَتِهِ وَجَمَعَهُمْ ؛ وَالسُّلْطَانُ عَدُوَّهُمْ بِجَلْسِهِ بِالْجَزِيرَةِ ؛ فَجَبَّهَوْهُ . وَلَمَّا عَظُمَ عَلَيْهِمْ ، وَطَلَبُوهُ لِلْمُبَارَاةِ ، كَانَ الرُّومُ فِي الْحَقُوقِ الْمَجْهُودَةِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ دَاعِيَةً بَيْنَ السُّلْطَانَيْنِ إِلَى الْوَحْشَةِ فِي الْحَالِ .

وَلَمَّا تَكَرَّرَ التَّلَاقُ فِي حَرَكَاتِ الْجِهَادِ ، وَأَمَكَنَ السُّلْطَانُ ابْنَ نَصْرٍ الْخُرُوجَ عَنِ الشُّكُوفِ فِيهِمْ ، وَفَرَّرَ لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مَا يَتَوَقَّعُ الْوَطَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ ، فَتَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ تَتَكَرَّرَ رَاسِمٌ ، وَأُشِيرَ عَلَيْهِمْ بِرَدِّ مَالِقَةٍ إِلَى دَعْوَتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِجَدْمَتِهِ ؛ وَكَانَتْ وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ خَالِيَهُمْ حُرُوبٌ أَجَلَّتْ عَنْ قَتْلِ فَرَجٍ مِنَ الْأَخَوَةِ الْأَرْبَعَةِ ؛ فَانْجَرَفَتْ أُمُّهُ أُخْتُ السُّلْطَانِ عَنْ أَحْيَا بِسَبَبِهِ الْخِرَافُ لَمْ يَسْتَصْلِحْهَا بَعْدَهُ ؛ فَرَضَوْا بِالْخُرُوجِ عَنْ مَالِقَةٍ لَعْنَتِهِ لِعِلْمِهِمْ بِمَوْقِعِ ذَلِكَ مِنْ نِكَايَتِهِ ؛ وَانْتَقَلُوا إِلَى سَكْنَى مَعْقِلِ قَرَطَمَةَ بِجَمَلَتِهِمْ . وَتَصَيَّرَتِ الْمَدِينَةُ إِلَى السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يَوْسُفَ ؛ وَقَصِدَ إِلَيْهَا ، وَأَعْجَبَ بِهَا ، إِذْ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الدُّنْيَا ظَرْفًا وَحَضَارَةً ؛ وَأَقَامَ بِهَا عِيدَ التَّحَرُّرِ : أَجْمَلَ مَا سُمِعَ بِمِثْلِهِ مِنْ عَامِ ٦٧٥ .

وَكَانَ وَصُولُهُ إِلَيْهَا سَادِسَ شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ ؛ ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا ، وَقَدْ اسْتَحْفَظَ عَلَيْهَا عُمَرُ بْنُ مَحَلِّيٍّ الْبَطْنِيُّ ؛ وَكَانَ أَخُوهُ طَلْحَةَ مُسْتَقِرًّا فِي خِدْمَةِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ ، أَثِيرًا لَدَيْهِ ؛ فَدَاخَلَ أَخَاهُ عُمَرًا فِي صَرْفِهَا عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَعَوَّضَهُ بِإِلَائِهَا مِنْهَا بِالْمُنَاسَكَةِ . ثُمَّ إِذَا ذَلِكَ . وَبَادَرَ عُمَرُ بِالْقَبْضِ عَلَى خِدَامِ السُّلْطَانِ ؛ وَمِنْ جَمَلَتِهِمُ الرَّئِيسُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَشْقِيلُولَةَ ، كَانَ قَدْ احْتَالَ عَلَيْهِ عُمَرُ قَبْلَ ذَلِكَ وَاعْتَقَلَهُ ؛ وَصَرَفَ الدَّعْوَةَ إِلَى صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ فِي السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ لِرَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ٦٧٧ ؛

وَبَادَرَهَا فَأَحْكَمَ ضَبْطَهَا ؛ وَانْتَقَلَ عُمَرُ إِلَى الْمُنْكَبِّ ؛ وَمَا زَالَ السُّلْطَانُ يُجَاوِلُ بِهَا أَمْرَهُ وَيُسَالِمُهُ حِينًا ، وَيُحَارِبُهُ حِينًا . وَنَازَلَ حِصْنَ شَاوْبَانِيَّةَ ، وَرَمَاهُ بِالْمِجَانِيْقِ ، إِلَى أَنْ اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى عُمَرَ ؛ فَأَظْهَرَ الْإِنَابَةَ ، وَطَلَبَ مِنْ يَقْبُضَ الْحِصْنَ ؛ فَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ أَحَدَ بَنِي عَمِّهِ وَبَنَدًا يُرْفَعُ فِي ذُرْوَتِهِ ؛ فَقَبِضَ عُمَرُ عَلَيْهِ ، وَأَقْسَمَ أَنَّهُ ، إِنْ رَمَى عَلَيْهِ حَجَرًا ، لِيُطْرَحَنَّ الرَّئِيسَ مِنَ السُّورِ ؛ وَاسْتَعَاثَهُ ؛ فَرَفَّقَ عَلَيْهِ وَأَقْلَعَ عَنْهُ ؛ وَقَدْ ضَاقَ بِهِ ذُرْعُهُ . وَوَالَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلَاطَفَتُهُ ، وَأَكَّدَ طَبْعَهُ ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَى بَيْتِهِ ، وَاسْتَدْعَاهُ إِلَى الدَّخُولِ بِهَا . فَلَمَّا قَارَبَ الْحَضْرَةَ ، أَغْرَى بِهِ أَعْدَاءُ نُحُوتِهِ مِنْ بَنِي رَحُو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ فَتَلَقَّوْهُ ، وَقَتَلُوهُ . وَأَرَاخَهُ اللَّهُ مِنْهُ . وَكَانَ عُمَرُ بْنُ مَحَلِّيٍّ أَحَدَ أَفْرَادِ الرِّجَالِ وَحَزَمَتِهِمْ ؛ أَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ ، وَنَوَادِرُهُ مَأْثُورَةٌ .

وَشَرَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي اسْتِدْعَاءِ النَّصَارَى لِسَدِّ بَحْرِ الزَّقَاقِ وَنُزُولِ الْحَضَرَاءِ ؛ فَتَزَلَّهَا الْعَدُوُّ ثَامِنَ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ ؛ وَكَانَتْ بِهِمُ الْوَقِيعَةُ الْبَحْرِيَّةُ عَلَى أَيْدِي الْأَسْطُولِ الْغَرَبِيِّ وَالسَّبْتِيِّ . وَأَقْلَعَ الْعَدُوُّ عَنْهَا بَعْدَ الشَّهْرِ خَائِبَ السَّعْيِ . وَأَجَازَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَنَشَأَتِ الْوَحْشَةُ الْعُظْمَى ؛ فَجَهَّزَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَلَدَهُ إِلَى الضَّرْبِ عَلَى بِلَادِ ابْنِ نَصْرٍ ؛ وَنَازَلَ مَرْبَلَةَ وَحَاصَرَهَا ، وَرَمَاهَا بِالْمِجَانِيْقِ ؛ وَجَازَ بِنَفْسِهِ ؛ فَتَنَازَلَ مَالِقَةَ ، وَقَدْ صَارَ أَمْرُهَا إِلَى الرَّئِيسِ أَبِي سَعِيدٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ . وَكَانَتْ عَلَيْهَا حَرْبٌ عَظِيمَةٌ بَلَغَتْ فِيهَا حَمَلَاتُ الْجَيْشِ الْمَرِينِيِّ إِلَى أَنْ صَادَمَتِ الْأَسْوَارَ رُؤُوسُ الْخَيْلِ ، وَأَعْدَرُوا بِاعْتِرَاضِهَا دُونَهُمْ . ثُمَّ نَزَلَ عَنْهَا بَنَدٌ بِالْإِسْمِ ؛ فَتَزَلَّهَا يَوْمًا إِلَى الْحَضَرَاءِ . وَتَمَادَّتِ الْأَيَّامُ بَيْنَ حَرْبٍ وَسِلَاحٍ وَحِيلَةٍ وَإِذْعَانٍ .

وَصَرَفَ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ نَصْرٍ وَجْهَهُ إِلَى احْتِثَاتِ الرُّؤَسَاءِ الْأَشْقِيلُولِيِّينَ ، وَالْإِرَاحَةِ بِمَنْ بَقِيَ بِبِلَادِهِ مِنْهُمْ . وَقَدْ كَانَ الرَّئِيسُ أَبُو

إسحاق شيخ بنيهم لحق بمن بالقة منهم ؛ فخرجوا له عن حصن قمارش ، وأفر دوه فيه ؛ وهو معقل الأندلس الذي لا يُرام ؛ وكان الملوك من بني حشود وغيرهم قد قدروا قدره واتخذوا به مساكن تناسب الملك . ولم يزل الرئيس أبو إسحاق إلى أن هلك ، وانتقلت طاعة قمارش إلى ولديّه بوادي آش ، يضبطه لهم ثقة من خواصهم يُعرف بابن الرامي ؛ فاحتال السلطان عليه بَدْخلة رجالٍ من حرسه خمسين ، بذل لكل واحدٍ منهم خمسين ديناراً من الذهب ؛ فثاروا به ، وبادرهم الجيش ؛ فكان أملاك به ؛ وبعد ذلك حصّته بما هو عليه إلى اليوم .

وصرف السياسة إلى من بقي منهم بوادي آش ؛ فلأن لهم جانباً ، وسوءَ عنهم سلّمه ، ووالى عليهم إحسانه وبرّه ، حتى غرّهم بذلك ، وظنوا سلامة صدره ، وركنوا إلى جميل اعتقاده ؛ وعند ذلك جدّد السلّم مع صاحب قشتالة ؛ وهم مع السلطان خالهم بأحسن أحوالهم من الرضى والألفة . ففقد على بلدهم الصلح ، وأدخلهم في جملة ، وهم يعتبّطون بذلك ، ولا يستريحون به ، حتى إذا كمل ، بعث إليهم ، وأخبرهم بعقد البيعة لولده ، وطلبهم بالانتقال عن مدينتهم إلى حضرته ، وفسح لهم الوعد في بحال كرامته ورعايته ؛ فبادرُوا بالركون إلى ملك قشتالة ، وطلبوا الرجوع لجهته ؛ فأجابهم بتعذر ذلك وعدم إمكانه ، إذ بلادهم قد انتظمتها معاقد السلطان ، وأن إيواءهم نكث للسلّم والعهد . فسقط في أيديهم ، وعجزوا عن المال والطعام الذي يُصدرون به عدوهم ، ووجهوا رسولهم إلى ملك أرغون ؛ فصرفهم ، واعتذر ببعْد الشقة وتوسط بلاد قشتالة دونهم .

وحشد السلطان أهل البلاد لمنازلتهم ؛ فلجأوا إلى القيام بدعوة ملك المغرب ، وكتبوا له البيعة ، ووجهوا إليه رسولهم ، وهو إذ ذاك بمراكش ؛ وجرت في ذلك بين السلطان أمير المسلمين وبين صاحب

الأندلس محاوراً أجلت عن تعويضهم من وادي آش بقصر كُتامة . وانتقلوا إليه بأموالهم ورجالهم وأهلهم في أوائل عام ٦٨٧ . ولما استقرت وادي آش بيد أمير المسلمين بالمغرب ، جعل فيها ثقتَه . ولم يمر زمنٌ غير كبير حتى خدع عنها ذلك الثقة وانصرف إلى سلطانه ؛ فتطرقته الظنة ؛ فضربت عنقه .

ولما استقر هؤلاء الرؤساء بالمغرب ، حذّروهم السلطان ابن نصر على ملكه ، وتوقع إغرائهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه ؛ فاستدعى حينئذ الطاغية إلى سدّ فرضة المجاز بطريف . فكان نزول الطاغية بها في أوائل شهر جمادى الأولى من عام ٦٩١ ؛ وقتلها العدو حسباً هو معروف . وشق الحطب على المسلمين ؛ وساءت النفوس ؛ وندبت الشّعراء . ولولا خوف الإطالة ، لأطنبتنا في هذه الأمور . وهذا المقدار من التعريف بخلاف هؤلاء القوم كافٍ إن شاء الله .

### حديث امتسك بني الحكيم برندة

ولما حدث ما وقعت إليه الإشارة في أمر طريف ، وعبر السلطان صاحب الأندلس البحر مستقيلاً من ذنبه ، وعاد إلى الأندلس لتجديد الجهاد ، ومنازلة طريف ، واجتمع الأيدي على استرجاعها ، وجاز السلطان أمير المسلمين أبو يعقوب البحر عام ٦٩٣ ، تخلف السلطان عن مباشرة طريف ، مُعْتَرِضاً بمرض أصابه ؛ ووجه بالجيش ولده ؛ فتلّوهم بالقة ؛ وطال على الجيش المربنيّ الأمد في محاصرة طريف ، وظهر عدم المساعدة والكسل عن الإعانة ، وأظلم الأفق ؛ وأقبلت أجفان العدو لسدّ بحر الزقاق . فأجلت الحال عن انصراف أمير المسلمين الملك المربنيّ عن الأندلس ورفضها ؛ فجعل أمر رندة إذ ذاك إلى الوزيرين الأخوين أبي زكرياء

وأبي إسحاق ابني أبي القاسم بن الحكيم ، وسُوِّغَتْ لهما . ولما طالبَ السلطانُ ابنُ نَصْرٍ بصرَهما ، أبوا ذلك ، واستمسكوا بها ؛ فأمر جيشَ مائقة بالضرب عليها . ووقعت بها الفِئنة في البلاد الغَربيَّة ، وتماذت الحالُ إلى أوائل عام ٦٩٥ . فلما أَعُوَزَت السلطانَ الحيلةُ ، داخلَ أخاهما الوزيرُ القائمُ بأمرٍ وَلَدَهُ بَعْدَهُ ؛ وكان يومئذٍ متولِّي كِتَابَتِهِ ؛ فأخذوا لأنفسهم شروطاً عامَّةً لمصلحة القطر ، وشاملةً للكافة من أهله : منها أن لا يلي بلدهم أحدٌ من قرابة السلطان ، وأن لا ينزل غازٍ من المغاربة بدار من دُور المدينة ، وإسقاطُ التبعات . وتمكَّن منها السلطان مُنْتَصَفَ جمادى الثانية من سنة ٦٩٥ .

## خبر انتزاع الرئيس أبي الحجاج بن نصر

### بوادي آش

وفي عام ٧٠٢ ، اقضى النظرُ تأخيرَ الرئيس أبي الحجاج ، صهر السلطان أبي عبد الله ثالثِ الأمراءِ النصرين وزوجِ أُخْتِهِ ، عن مدينة وادي آش لأمرٍ نَقِمَهُ عليه إذ ذاك بِمَحْضَرَتِهِ ؛ فركبَ حينه ، وأسرعَ اللحاقَ بها ، وبَقَصَبَتِها ثِقَتُهُ ؛ فكان أَمْلَكَ بِأَمْرِها . ولما سَاعَ قَصْدُهُ وتوجَّهَ إليها ، استركبَ الجيشَ لمُبادَرَتِهِ . وكتبَ له عهداً يتضمَّنُ تقريرَه بها وتَسْئَلِيَّ أغراضه خَوْفَ اشتعالِ الفِئنة . ولما شرعَ في الامتناع ، عند وصوله ، فطن أهلُ البلد لما يريدُه ؛ وقد لدغوا من جُحْرِ التفاق الذي استأصلَ أموالهم وأنفسهم زَمَنَهُ القريبَ العهدِ ؛ فبادَروا إليه ، وأحاطوا به قَبْلَ استعداده ؛ فتملَّكوه عنوةً ، وقبضوا عليه ؛ ولم يصل الجيشُ إلَّا وقد قضي فيه الأمرُ ، وأُوصِلَ بالقيود إلى باب السلطان ؛ فأمر ابنُ عمِّه محمد بن علي بن أحمد المعروفَ بالرئيس العَرُوسِ ، صهرَ السلطان أيضاً ، بِضَرْبِ عنقه بيده ، ابتلاءً

لطاعته ومكرُوها حُبِّبَ إليه ، إذ كان السلطانُ مُنَحَرِفاً عن قرابته . فبُضِيَ على هذا السبيل .

\*\*\*

وفي أثناء هذا المَرَجِ ، وهيجانِ هذه الفِئنة ، وانفرادِ كلِّ يدٍ بما ملكَتْ ، استولى العدوُّ على مدائن جليلة ، وقلاعٍ حصينة منيعة ، وثغورٍ شريفة ، وعمالات نصيبة ، ورُبُوعٍ آهلة ، وأطرافٍ بعِزِّ الإسلام الذي وطَّنها شاهدة ، مثل مدينة قَلْهَرَّة ، وأَنْتَيْشَة ، ومَدِينَة سَالِم ، والمدينة البِيضاء مدينة سَرْقُسْطَة ؛ ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على مدينة طُلَيْطُلَة ، وكانت من الأندلس محلَّ المَرَكَزِ من الدائرة ؛ ثم بَطْلَيْوَس ، وبَلَنْسِيَة ، ومِيُورَقَة ، وسَنْتَرِين ، وأُسْبُونَة ، وطَبِيرَة ، ولَبْلَة ، وجَبَل العِيُون ، وكُورَة بَاجَة ؛ ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على أُنْدَة ، وبِيَّاسَة ، وبَابِرَة ؛ ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، على عهد ابن هُود الأخير ، على نحو خمسمائة بَلَدٍ منها ساطبة ، ودَانِيَة ، ومَارِدَة ، والكُرَّس ، ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، بين تَنَازُعِ ابن هُود وابن نَصْر ، على قُرْطُبَة ، وإشْبِيلِيَة وما إليها ؛ ثم ، في مدَّةٍ بَعْدَها ، من يَدِ ابن نَصْر الأول ، على مُرْسِيَة وَجِيَّان وَلَوْرَقَة ، وشَرِيش . وكم تبع هذه الأمَّهات من بَنَات ، وهَتِكَت من حرَمَات ، وترك الإسلام من عيون وجنَّات ! وفيما أذَرَ كَنَاهُ ، على قَلْعَةِ يَحْضِب من بعد أُطِيْبَة ، ووَبِيرَة ؛ ثم الجزيرة . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله !

ومَن اعتقد أنَّ هذه البُقعة الأندلسيَّة ، التي لاذ بها العدوُّ ، ففسدها نسفاً ولقها لِقاً ، كَسِوَاهَا من بَقَاعِ الأرض جَمالاً ونُصرة ، وانفِيساحاً ونِعْمَةً ، وتَشْيِيداً وَمَنْعَةً ، وناساً وَحَيَوَاناً ، وَخَلْقَةً وَخُلُقاً ، وعادةً وَزِيّاً ، وَنَبلاً وإدراكاً ، وصناعاتٍ وَأَنْقَاباً ، وبُأساً وشَهامة ، وظَرْفاً ولطافة ، فَقَدَ ظَلَمَها حقَّها وبَحَسَها زُنْها ! والشاهدُ الصَّلَاتُ والمَوْضُوعَاتُ ، وما صُنِّفَ في العُلَمَاءِ مِنَ الطَّبَقَاتِ ، وما نُقِلَ عن مَوَاقِفِ الحروب ، وما دُوِّنَ من

المنظوم والمنثور . فوا أسفني عليها من معالم أعلام ، ومغاني إيمان وإسلام !  
يجبر الآن شواهدُها عن الغائب ، وراهنُها عن الغابر ؛ كما قال :

[ الطويل ]

كبرِدِ الباني قد تقادم عَهْدُهُ      ورفعته ما شئتَ في العَيْنِ واليَدِ  
لطف الله بما بها من بقيَّة !

رَجَعَ التَّاريخ إلى نَسَقِهِ من ذِكرِ أمراء بني نَصْر

## دولة الامير ابي الوليد اسماعيل بن فرح بن نصر

وقد تقدّم تصويرُ المُلِكِ إليه من أبي الجيوش نَصْر بن محمد ، وانصرافه إلى وادي آس سَحْلَوْعاً . واستقرَّ الأمرُ في يده . وفي خامس عشر شهر المحرم من عام ٧١٥ ، أظهرَ السلطانُ نَصْرُ المخالفةَ لطائفةٍ لحقت به من قرايته وخُدّامِ أبيه ؛ فكشف عن وجه المُتَنابِذَةِ ، وأبدى نَاجِدَ الشَّرِّ . وتحرّكَ السلطان أبو الوليد ، فنازله في أوائل صَفَر من العام ، وأقام محاصراً إيَّاه خمسة وأربعين يوماً . ثم قفل إلى حضرته . واستدعى نَصْرُ جيشَ النصارى ، وأمرهم يومئذٍ راجِعُ إلى ابن السلطان سَانِجُ بن إِذْقُونَشْ كافِلاً لابن أخيه . وخرج جيشُ السلطان من غرناطة إلى التضييق على وادي آس . واتفق وصولُ الطاغية إلى أحوازها بجيشه واستصحاب ميرة طعام لتقويتها من بلاده ؛ وخفي على المسلمين أمرُهُ إلى أن كان اللقاء مُكَافَحةً بوادي فَرْتُونَةِ من أحواز وادي آس ؛ وقد عبر المسلمون إلى العدوَّ نَهْراً صَعْباً . وكانت على المسلمين الهزيمة المشهورة ؛ واعترضهم الروادي ؛ فكانت بهم الدبرة ؛ فاستلجم منهم سبعمائة فارس . وامتلأت الأندلس حزنًا وصراخاً .

وتغلّب العدوُّ للحين على حصن قَنْبِيل ومُنْتِمَاس وبَجَاج . وتحرك

في العام بَعْدَهُ إلى أحواز الحَضْرَاء ؛ فأفسد الزرع ، واكتسح المواشي ، وشترَ لاستيصال المسلمين ، إلى أن أجمل الله صُنْعَهُ للإسلام ؛ فتحرك الطاغية ، وعنه دُونَ جُوان كبيرُ النصرانية وولَدُ السلطان الجَدُّ ؛ فنزلوا المَرَج من غرناطة . واجتمع المسلمون لِمُدافَعَتِهِمْ ؛ ففتحهم الله النصر عليهم . ظهرَ يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى . وقُتِلَ في الهزيمة أميراهم جُوان وبيطْرُهُ ؛ واستولى المسلمون من دوابهم وأمتعتهم وأسبابهم على ما يعي الحصر . وغزّا - رحمه الله - إلى مَرْتُش من بلاد الروم القريبة من حَضْرته ؛ فدخلها عنوةً ، وأعمل فيها السيف ، وقفل ؛ فاحتلَّ الحَضْرَةَ يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رجب عام ٧٢٥ .

ولثالث يوم دخوله ، فتك به ابن عمّه محمد بن إسماعيل ، أخو الرئيس أبي سعيد بن إسماعيل بن نَصْر ، فتَكَتْهُ الشُّعَاء التي قدّمَ بِمِثْلِهَا العَهْدُ جرأةً وإقداماً ؛ فطرح نفسه عليه وهو مارٌّ بين السَّطَاطِينِ إلى تحلِّ السلام عليه ، والوزير بين يديه ، وضربه بِجَنْجَرٍ كان مُلصَقاً بذراعه مُعدّاً لذلك ، قد تولّى له شحذه يومئذٍ الشيخ أبو الحسن بن كُمَاسَةَ المُتَأَخِّرُ الحياة إلى اليوم ، حسبما يعرف الناس . وعندما سقط السلطان ، اختلط أصحابُ الرئيس الغادر سيوفهم ، وتعاونوا بها الوزير ، وقد كُرَّ لصيحة السلطان ؛ فاشتغلوا به ، بحلال ما رُفِعَ السلطانُ من بين أيديهم واحتُمِلَ إلى منزله ؛ فظنّوا به السلامة وسقطوا ؛ فقتلَ منهم جملةٌ علقت رؤوسهم بسور القلعة . وفجعوا الإسلام من السلطان برجلٍ مُؤثِّرٍ للجَدِّ صحيح القصد من أهل الخير والبرِّ - رحمه الله ! وولي الأمر بَعْدَهُ ولَدُهُ مُحَمَّد .

## دولة محمد بن اسماعيل بن فرح بن نصر

بويغ له يوم توفّي أبوه ، وهو صَبِيٌّ صغيرٌ ، سنّه نحو تسع سنين ؛ فلم

يختلف عليه يومئذٍ أحدٌ ؛ وبأدر إلى يبعته الفقهاء والعلماء والصلحاء والفضلاء وأهل الجهاد وكواف البلاد ، وجمعهم يومئذٍ موفور ، وشأنهم في الخير مشهور . وهو أول من بويغ من هذا البيت النصري بحال الصغر وحدادة السن ؛ وهو ممن أملينا الكتاب بسببه ممن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام .

وكان على عهد بيعته عمه حاضراً بحال الاكتهال وبقية بينهم وإفرة الرجال ؛ وكان هذا الأمير وإفراً مدركاً ؛ فولئى خدام أبيه كفالته وتديبر أمره والذب عنه . وثار عليه عمه ، ونازعته الملك بمظاهرة شيخ الغزاة إياه ، حسباً يذكّر : وهو أن الشيخ أبا سعيد عثمان بن أبي العلى ، لما تصير الأمر إلى الولد ، وناب عنه وكيل السلطان الفقيه العدل محمد ابن أحمد المحروق مضطجع الشيخ ، احتقر الدولة ، وسامها إعمال غرضه وإنفاذ أمره وقبول شفاعته . ووقع التوقف في بعض ؛ فعلن الموجدية به والعتب عليه ؛ وقطع أن صاحب الدولة لا بد أن يقصد منزله لاسترضائه ، فيتصرف فيه على حكمه . ولما حذر ذلك الوكيل ، أوغز إلى الرجال بالحرء أن تضرب على يده ، وتمعه في سبيل نصح السلطان عن الخروج من معقله ؛ فزادت الموجدية . وأظهر الشيخ الانصراف عن الأندلس ، وهو لا يطرّق الإمكان لتسويغ ذلك . فلما عسكر بظاهر البلد ، اغتممت غضبته وأمر أن يمنع من دخول المدينة رجاله . وقدّم على الغزاة يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق نظيره ؛ فلم يسع الشيخ إلا التصميم إلى مرسى المرية ؛ وشرع منها في مخاطبة ملوك الجهات التي يقصدها بمجملته . فتناقل الكل عن قبوله . وكان وصوله إلى مرسى المرية في الثامن عشر لصفر من عام ٧٢٧ .

وفي الحادي عشر من جمادى الأولى ، داخل أهل حصن أندراش من عمل المرية ، وهو قطر الجبابة ؛ واستدعى عم السلطان الذي صرف

بعد بيعته ابن أخيه إلى تلمسان ؛ فوصل إليه وبايعه . وتوجه ولد الشيخ إلى صاحب قشتالة ؛ فحرّكه إلى جهة رنّدة ؛ فاستولى على حصن وبرة وما إليه من الحصون . وغام جوف الفينة ، وما أعدّه ملوك بني نصر للشدائد من عُدّة . وكانت بين جيش الحضرة وبين المذكور موافقات هلك فيها ولد الشيخ . وفصل الخطّة ما كان من قتل الوكيل صاحب الأمر بتديبر أمر سلطانه عليه ، وقد قهره وأجلى عنه طائفة مختصة من ممالك أبيه ؛ فاغتاله ، وقد دخل دار الجدّة ، يفاوضها في المهمات على عادته ، مملوك كان حدّثان ممن أعفِيَ منهم ، هجماً عليه وقتلاه بين يدي الجدّة العجوز ؛ وذلك عشيّ اليوم الثاني من محرّم سنة ٧٢٩ . وقد كانت السلم تمت بين الفريقين في رمضان من السنة قبله .

وصرف العم إلى تلمسان ، يوسع من استدعاه ذماً ؛ واستدعى الشيخ إلى رسمه من الخطّة ومكانه من الخطوة ، ثاني يوم الكائنة ؛ فأقام الرسم إلى حين وفاته في ذي القعدة من سنة ٧٣٠ . قُتِبَ الأمر في يده ، وخيَّب الله سعي من بغى عليه ، إلى أن ترعرعَ وظهر ؛ فكان مثلاً في الفروسيّة . وعبر البحر قاصداً باب السلطان الجليل ، وإلبد الملوك وكبير السلاطين ، المولى المقدّس أبي الحسن ، مُستَضِرّاً على عدوّ الإسلام ، ومُستَدْعِياً إلى جهاد عبدة الأصنام ؛ فتلقاه بما هو معروف من الفضل والبر ، وخلق المجد ، والنائل المعمم ، والصلوات الشاذّة عن الحصر ، بين المال والدبر ، والجياد الغرّ ، والسلاح المكلّل بالدرّ ؛ ووصل يديه ، وأعجبه ولده . ونازل جبل الفتح ؛ ففتح الله له . وبأدره العدو قبل أن يعلق أصل الإسلام في ترابه ، ويستقرّ نضله في قرابه ؛ فتوجه بجيش المسلمين إلى إصراخه ، وبذل الأعمال الصالحات في خلاصه ، وحاول العدو حتى ألقع عنه ؛ ففازت يد الإسلام به .

فلما تمّ ذلك ، دبّر بنو أبي العلى إدريس بن عبد الله ، وقد ساءهم ما كان



من غدره خُدَّامه ، وعيَّنوا أخاهُ يوسفَ لمكانه ؛ واختاروا بعضَ أعلاجِهِ للإجهازِ عليه ، ليبرؤوا من أمرِهِ . وحينَ تمَّ ذلك ، تعرَّضوا له أثناءَ طريقِهِ قافلاً إلى مالقة في بعضِ أساطيلِهِ ؛ وقد وصل إلى الوادي المنسوب إلى السقَّائين برسمِ ركوبِهِ ؛ فأوقَعوا به بضفَّة وادي السقَّائين يومَ الأربعاء الثالث عشر من شهر ذي الحِجَّة عام ٧٣٣ . وبقي --- رحمة الله عليه ورضوانه --- خلل ما فُرعَ من بيعة أخيه ، منطروحاً مُعرَّي من ثيابه ، مسلوباً إلا من فضل الله وثوابه . ثمَّ عطفوا عليه ، فاحتبلوه ، ودفنوه بمالقة ؛ وما صلُّوا عليه ولا غسلوه . وفي ذلك يقول شيخنا القاضي أبو بكر بن شيرين --- رحمه الله :

[ الحفيف ]

عَيْنُ أَبْكِي لَمِيتَ غَادِرُوهُ فِي ثَرَاهِ مَلَقَى وَقَدْ غَدِرُوهُ  
دَفَنُوهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا غَسَلُوهُ  
إِنَّمَا مَاتَ يَوْمَ مَاتَ شَهِيداً فَأَقَامُوا رَسْماً وَلَمْ يَقْصِدُوهُ

ولما فرغوا من قتله ، وإحكامِ عُدَّته وختله ، بدَّتْ لهم سيئاتُ ما عملوا ، وعلِموا من قبيحِ صنيعِهِم ما جهلوا ، وعن العواقبِ ذهلوا ، لما أمهلوا ؛ واجتمعوا بعد أيام من دفنِ أسلَّته ، وحطَّ علائهُ ، وكفرانِ نعيهِ وآلائهِ ؛ فحشدوا صفاتِ دينهِ بالظفر ، وكتبوا فيه عقداً بالكفر ، شهد فيه جملةٌ من أعلامِهِم ، ونفثتْ سُمُّ المِدادِ في رَقَّةِ أساوِدُ أعلامِهِم ؛ ولم يقنعوا بعد الكلامِ الرغيبِ إلا بكَلومِ كلامِهِم . أعظمَ الله أجرَهُ ، كما أعظمَ نَجْرَهُ ، وضاعَفَ ثوابَهُ ، كما طَهَّرَ من زورِهِم أثوابَهُ ! فلَقَدَ عبرَ البحرَ لغيرِ غَرَضٍ ، إلا ما كان من إقامةِ جِهادٍ مُفْتَرَضٍ ؛ وَلَقَدَ ارتكبَ في خلاصِ الجَبَلِ بنفسِهِ الذنِيسةَ الخطرَ ، حتى قضى منه الوطرَ ؛ وَلَقَدَ أَظْلَهَ شهرُ الصَّوْمِ حَيَّاهُ اللهُ بِنَعِيهِ ونُصْرَتِهِ ، وهو إذ ذاك يسكنُ بالقصرِ خارجَ حَضْرَتِهِ ؛ وكان معزوراً مزاجهُ ، يُردِيهِ احتراقُ

الفضلِ واحتياجُهُ ؛ فكانتِ الصَّبِيَّةُ تتَّصلُ مرافِقِهِم من لدُنِ العَصْرِ ، بينَ البلدِ وبين القَصْرِ ؛ فكلَّمَا سمِعوا النداءَ ، أشاروا بالأثوابِ ، لِمَنْ يُمَتِّعُهُم من تلكِ الأبوابِ ، فيبادِرُوا إليه بالماءِ وقد قاربَ الفوتُ ، وشافَهَتْ حياتَهُ الموتُ ، من غيرِ أن يستهلَّ عليه قضاءَ اليَومِ ، ولا الرخصةَ في الصومِ ، وإن بلغَ عذرُ المجهودِ ، وخانَ العهدُ ، فقد أظهرَ الحُكْمَ العَدْلَ للخضمِ والشهودِ ، وأحكمَ الحاكمينَ ، وأسرعَ الحاسبينَ .

وكان على عَهْدِ بَيْعَتِهِ ، وعقدِ صَفَّتِهِ ، أعلامٌ مشاهيرٌ ، فَجَرَّ القضاةُ ، كقاضي الجماعة أبي بكر بن مَسْعُودِ المَحَارِبِيِّ الدِّينِ بشالَّةَ ؛ وابْنَهُ قاضي الجماعة بَعْدَهُ أبي يحيى ؛ والقاضي المُسِنَّنُ أبي جعفر الشاطِئِي ؛ والقاضي الأصيل أبي عثمان بن مَسْعُودَةَ ؛ والقاضي البقيَّةُ أبي الفرج الوادِيَّاشِي ؛ والقاضي الحاجُّ أبي جعفر بن قَعْنَبَ ؛ والقاضي أبي عبد الله بن العَرِيفِ ؛ والقاضي أبي بكر بن الزُّبَيْرِ ؛ والقاضي أبي محمد بن زكرياء ؛ والقاضي الوزير أبي عامر بن ربيع ؛ والقاضي أبي الحسن بن الزُّبَيْرِ ؛ والقاضي أبي الحجاج بن أبي الأخوص ؛ والقاضي أبي الحسن بن أبي العيش ؛ والقاضي أبي عمر بن مَنظُور ؛ والقاضي الشَّهيدُ أبي عبد الله بن بكر ؛ والقاضي الحبيب أبي عبد الله بن عيَّاش ؛ والقاضي الفقيه أبي بكر بن مَنظُور ؛ والقاضي المورِّخُ أبي بكر بن عُبَيْدَةَ ؛ والقاضي الحاجُّ أبي محمد النَّفْزَرِي ؛ والقاضي المُرابِطُ أبي عبد الله بن عبد الوَهَّابِ ؛ وقاضي الجماعة أبي جعفر بن بَرَطَال ؛ وصَدْرُ القضاةِ أبي البركات بن الحاجِّ ؛ والقاضي أبي إسحاق بن شُعَيْبٍ ؛ والقاضي أبي عبد الله الرُّعَيْنِي ؛ والقاضي أبي عبد الله بن حَدَّاسٍ ؛ والقاضي أبي عبد الله بن جابر .

ومن الخطباءِ والصُّلَحاءِ والصُّوفِيَّةِ والفُقَرَاءِ والمُقرِّئين والعُلَماءِ ، مثلَ الشيخ الإمام القِيَجَاطِي ؛ والولي أبي إسحاق بن أبي العاصي ؛ والشيخ العابد أبي عبد الله السَّاحِلِي ، والخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات

البَلَنْسِي\* ؛ والخطيب أبي بكر الطَّنْجَالِي\* ؛ وأبي محمد بن أبي المَجْد  
الأَرْجُونِي\* ؛ والخطيب أبي عبد الله بن العَرَبِي\* ؛ والخطيب أبي علي القُرَشِي\* ؛  
والخطيب ابن سُعَيْب المَرِّي\* ؛ والفَرِيشِي\* الرُّنْدِي\* ؛ وأبي الأصْبَغ  
البَسْطِي\* ؛ وأبي عبد الله البَيَّانِي\* المِفْثِي\* ؛ والفقهاء البَارُونِي\* العَزْمِي\* ؛ وأبي  
عبد الله الطَّرْسُونِي\* ؛ وشيخ البَيَّازِين ابن غالب حَفِيد أبي أحمد الوَلِي\* ؛  
وإمام الشَّاذِلِيَّة أبي عبد الله العَنْجَسِي\* ، وعيسى بن عُدْرَةَ الأَنْدَرُشِي\* ؛  
وأبي علي بن المَحْرُوق الصُّوفِي\* ؛ وأبي الحسن بن المؤدِّن المُرَادِي\* ؛ وأبي  
عبد الله بن الفقيه الغَرْنَاطِي\* ؛ وأبي عبد الله بن الفَخَّار النُّحَوي\* ؛ والمحدث  
أبي الحُجَّاج السَّاحِلِي\* ، وأبي محمد بن سَلْمُون سَيِّخ الصُّوف الحَلَقِي\* ،  
وأبي عبد الله بن الصَّبَّاح متبوع بوادي القطر الأَنْدَلِسِي\* ، ومثني من العُدُول  
المشاهير ، وأعلام الجماهير ، تضيق عن إعدادهم السطور المكتوبة ،  
والأوراق المجلوبة .

ومن شيوخ الكُتَّاب المُبْرزين في علوم الآداب ، المخصوصين بالحِكْمَةِ  
وفصل الخطاب ، مثل شيخنا أبي الحسن بن الجَيَّاب ؛ وشيخنا الشريف  
القاضي أبي القاسم الحَسَنِي\* ؛ وشيخنا أبي بكر بن شِيرِين ؛ والشيخ أبي بكر  
ابن المُرَاطِيط ؛ والوزير أبي بكر بن ذي الوزارَتَيْن ابن الحَكِيم ؛ والقاضي  
الحَضِر ابن أبي العافِيَةِ ؛ وأبي إِسْحَاق بن جَابِر ؛ والشيخ أبي جعفر بن  
صَفْوَان ؛ والوزير أبي عبد الله بن عاصِم ؛ والمُفْلِح أبي عبد الله اللُّؤشِي\* ؛  
وكاتب الجليش المحدث أبي الحسن التَّلْمِيسَانِي\* ؛ وصاحب الأشغال المحدث  
أبي القاسم بن الهَكَّا المَالَقِي\* ؛ والوزير أبي عبد الله بن المَحْرُوق الأَشْعَرِي\* ؛  
ما منهم مَقهورٌ على البَيْعَةِ بَغْلَةً قَبِيل ، ولا مُجْبَرٌ على اقْتِحَام سَبِيل ،  
ولا مدَّعي ضرورة ، ولا مستحفظ تَقِيَّة مشهورة ، ولا مُهاجِرٌ بدينه عن  
بقعة مهجورة . وعمُّ الوَلَد المُبَايَع حَاضِر ، وإلى سَخْنة عينه ناظِر ؛  
والقَرَابَةُ صَامِتُون ، وفي قسمة الله باهِتُون ؛ وكافِلُ الوَلَد جَرِيحٌ مَخْبُول ،

وعِلْجٌ مَجْهُول ، ومُؤَثَّقٌ مَهْبُول\* ؛ والرَّابِعُ مأْهول ، والقولُ مَقْبُول ،  
وسنُّ الوَلَدِ غَيْرٌ مَجْهُول . وما ثَمَّ إِلَّا تَرَاخُمٌ على الشَّهَادَةِ ، وتَهَالُكٌ  
في ابتغاء الحِسْبَةِ أو في الهَوَادَةِ ، وتَسْلُكٌ بالعَادَةِ ، وتسليمٌ فيما ظَهر لولي  
الأمر من الإرادة . فَمَتَّى نَبَسَ أَهْلُ الأَنْدَلُسِ بِإِنْكَارِ بَيْعَةِ صَيِّ صَغِير ،  
أو نِيَابَةِ حَاجِبٍ أو وزير ؛ فَقَدْ عَمُوا وَصَمُوا ، وحَصَرُوا بِرَبْعِ الإِنْصَافِ  
فَأَعْرَضُوا وما أَلَمُوا ، وبما سَنُوهُ لغيرهم ذَمُّوا ؛ ولم يكفِ مَبَايَعَةَ الصَّيِّ  
غَيْرَ البَالِغِ ولا القُرَشِيَّ المَرْفُوعِ في الذَّرَاعِ ، المستَعْدُّ به للنَّزَالِ في سَبِيلِ  
الله والقِرَاعِ ؛ وتقْدِيمِهِ لم يَسْتَوْفِ للحلم زَمَانًا ، ولم يعرف بَعْدُ خُتَانًا ، حتى  
قُتِلَ ظُلْمًا وَعُدُوَانًا ، وأُشْهِدَ فيه بالكُفْرِ زُورًا وبُهْتَانًا ، وجلا العَوَارِ  
على الأَقْطَارِ ، وخلد العار في الأَسْطَارِ ، ولم يَسْتَزِلَّ القَبِيحَ بَعْدَ الفَصْلِ ، وتحكيم  
النَّصْلِ ، واقتدى بِالصَّمِّ البُكْمُ ، وأخَّرَ ثبوت المَوْجِبِ إلى أن فرغ من  
الحُكْمِ . اللَّهُمَّ لا تَفْضَحْنَا بِالأَلْسِنَةِ الشَّارِدَةِ ، والأَلْسِنَةِ المُنْكَرَةِ  
للحَقِّ الجاحِدة ، واجْعَلْنَا مِمَّنْ اسْتَعَانَ بِكَ على هَوَاهُ ، واشتغل بِشَأْنِهِ عن  
شَأْنِ سِوَاهُ ! والله دَرُّ القَائِلِ :

[الكامل]  
لَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِكَ فَانْهَاجًا عَنْ غِيَّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ  
لَا تَنْهَى عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ  
وَمَنْ قَوْلَ سَيِّخُنَا أَبِي بَكْرٍ ، فِي رِثَاءِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ : [الرمل]

استقلًا	ودعاني	طائفًا بين المغاني
وانعما بالصبر إنسي	لا أرى ما ترويان	
قضي الأمر الذي في شأنه	تستفتيان	
ومضى حكم إله	ما له في الحكم ثان	
مات يوم السلم قعصًا	مدرة الحرب العوان	

ي خليلي أعينا  
واذكرا سابعة النع  
واذا صليتما يو  
ما علمنا غير خير  
لا نبالي ما سمعنا  
غير ما قالوا اعتقدنا  
وغداً يجمعنا المور  
ورضى الله هو المط  
وأخو الصديق لعمرى  
وهوى النفس غناء  
وعلى البغضاء يطوى  
بأبي الله أشلا  
لفتى ما كان بالو  
يمزج الماء نجيعاً  
ليس بالهيابة الـ  
أبيض الوجه تراه  
أي سيف لضراب  
ذو نجار خزرجي الـ  
ذكره قدشاع في الار  
لا تراه الدهر إلا  
عن صهيل الخيل لا يد  
إن أملت هبة طا

يصدع الليل بقلب  
يا لها من نوبة لو  
وشباب عاجلوه  
لم يجاوز من سنه الـ  
دوخ الاقطار غزواً  
حكّموا فيه الطّبيـه  
ان يكونوا غادروه  
تشرب الأرض دماً  
وتحييه بتسليـه  
فالمعالي اودعته  
وغواصي المزن يرضع  
ضاع سرح الثغر لما  
وأعير الأسد الور  
عاطياني أكؤس الحز  
حملة دون صلاة  
أوما كانوا له يد  
لا تهينوه فما كا  
عجباً والله من اب  
بت أهديها إليه  
ذاك جهدي ان احسا  
ويقال الرشح موجو  
وعهود الناس شتى

وهي النعمة حقاً شكرها في كل آن  
اتخذ يا فارس الخير ل فغير الله فان  
والمعالي تطلب الثا ر وتأني بالأمان  
وهي الأرحام لا تذ سى ولو بعد زمان  
أنت من رحمة غفماً ر الخطايا في ضمان  
وهو مو في الخصم ان شا ء وزاناً بوزان  
والذي أفشى قبيحاً حفظه عض البنان  
سلم الله على من فيه ذو جهل لحاني  
وجزاه بجهاد جاء منه ببيان  
ربنا أنت خير بخصيات الجنان  
ويداك الدهر فينا بالندی مبسوطتان  
وبحال العفو رحب والرضى غض المجاني  
فتعمدنا برحمى وقبول وأمان  
واجمع الشمل على أف ظل حال في الجنان

## دولة يوسف بن اسماعيل

### ابن فرج بن إسماعيل بن نصر

رني ساعة قتيل أعز بواني السفائين من ظاهر الجزيرة الخضراء ،  
عقب إقلاع ملك قشتالة عن الجبل ، بمحاولة أخيه . واتفق الناس على  
بيئته . وكانت سيته يومئذ قد توسطت من المراهقة ، إلا أنه لم يظهر ذلك  
بعد عليه لحياه وسكناه بيئت الحرة الصالحة أمه ؛ وغلبت النعمة

والترف على بدنه . فلما تصير له الملك ، تبين فيه ظهور ذلك المعنى  
بانتخاذ أم الولد .

وكان لأول أمره كثير الصمت والسكون ، لا يتناول شيئاً من  
ملكه ، ولا يفيض في غير أمور قصره ، ولا يُمضي اختياره إلا في  
مائدة طعامه داخل باب قصره ، وبين من يلزمه من صبيته ، إلى أن  
استقل ، ونهض بالكل منته ، وعظمت حنكته ، وتوفرت تجربته  
ثم اشتمل على ، وسني يومئذ قريبة من سته . فأُسند إلي جميع أمره ،  
وفرغ لي من تدييره ، واستراح إلي بسيرة وجهه ، وسفرني إلى ملك  
المغرب في مهم أمره . وبلغ من لطف منزلي لديه ما يبلغ مثلي من  
مثله . وهذا الباب الكريم المريني اليوم من الأعلام الذين باشروا تلك  
الحال من يقررها ، متعجباً بما يتهيا بباب ملك يخدم ، أو يسوغه  
سلطان لذي مقام معلوم .

حدثني صدر الشرفاء وعلم الجلساء أبو القاسم بن قاضي الجماعة أبي  
علي الحسن بن يوسف الحسني ، قال : سأل مني الحاجب أبو عبد الله بن  
أبي عمر ، وهو من تخدمومة السلطان المرحوم أبي عنان ، جلدة بين العين  
والأنف ، أن نجري بين يدي سلطانه حديثاً غريباً باشرته من غرائب  
حظوتك عند سلطانك بما شاهدته عند السفارة إليكم ؛ فاستطردت الكلام  
إلى أن أُلتمت بكم . قال : فظن السلطان أبو عنان لغرضنا ؛ فأخذ ينحني  
على الجميع من خديم ومخدوم ، ويُنكر الإخلال بالرتب وإهمال الأدب ،  
جاريماً من عكس الغرض بما اختاره من المذهب .

وكان السلطان أبو الحجاج — رحمة الله عليه — من جلئة الملوك فضلاً  
وعظماً واعتدالاً ؛ وبأشرف نفسه الوقعة العظمى بطريف ، مؤاسياً لأمير  
المسلمين ملاقي التمهيص في سبيل الله ؛ وقصد نصره ؛ فحسن القول عنه لذلك ،  
ولقيت أيامه شدة لتملك العدو قلعة يحصب الجزيرة الخضراء . ثم

تَوَفَّاهُ اللهُ عَلَى يَدَي تَمْرُورٍ هَجَمَ عَلَيْهِ بِالْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ مِنْ حَمْرَائِهِ ، وَفَدَّ خَفِيَ مَكَانَهُ ، يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ عَامِ ٧٥٥ ، فِي الرُّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الصَّلَاةِ ؛ فَطَعَنَهُ بِسَكِّينَ كَانَ قَدْ أَغْرَى بِشَحْذِهَا وَعِلَاجِهَا . وَقُبِضَ عَلَيْهِ ؛ فَاسْتَفْهِمَ ؛ فَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ مُخْتَلَطٍ ، وَقُتِلَ . ثُمَّ أُحْرِقَ بِالنَّارِ . وَاحْتُمِلَ السُّلْطَانُ إِلَى مَنْزِلِهِ ؛ فَلَمْ يَسْتَقِرَّ إِلَّا وَقَدْ قَضَى - رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ مُحَمَّدٌ .

## دولة محمد بن يوسف

### ابن إسماعيل بن فرج بن نصر

بُويعَ صَبِيًّا لَا أَنْتَرَ فِيهِ لِإِنْبَاتٍ ، وَلَا حَرَكَةَ تَدَلُّ عَلَى بُلُوغٍ ، إِلَّا أَنَّ سِنَهُ سَارِعَةً فِي زَمَنِ الْمُرَاقَبَةِ عَلَى الْمُعْتَادِ لِبَعْضِ الْأُرْبَةِ ، وَقَاصِرَةٌ عَنْهَا فِي بَعْضٍ . وَتَمَّتْ لَهُ الْبَيْعَةُ فِي حِفْلِ مَشْهُودٍ ، وَجَمَعَ لَغِيْرِهِ غَيْرَ مَعْهُودٍ ؛ فَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ إِثْنَانٍ . وَبِيعَتْهُ مَشْهُورَةٌ ، مِنْ إِمْلَائِي ؛ اتَّصَلَ خَبَرُهَا بِالسُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي عِنَانَ ؛ فَأَوْجَبَهَا وَغُبَطَ فِيهَا ، حَسْبَمَا تَثَبَّتْ بِهِ فِي كِتَابِ « رِيحَانَةِ الْكُتُبِ » وَغَيْرِهِ . وَتَمَّتْ أَيَّامُهُ عَلَى أَتَمِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَمَانِ ، وَخَضِبِ الزَّمَانِ ، إِلَى الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ سَنَةِ ٧٦٠ . وَكَانَ التَّغْلِبُ عَلَى دَوْلَتِهِ الْأُولَى ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْأُمْرِ أَخُوهُ إِسْمَاعِيلُ ، حَسْبَمَا تَثَبَّتْ مِنْ كُتُبُنَا : فِي كِتَابِ « الْإِحَاطَةِ » وَ « اللَّامِحَةِ الْبَدْرِيَّةِ » فَلَمَّا نَظَرَهُ هُنَاكَ مَنْ أَرَادَهُ .

## دولة اسماعيل بن يوسف

### ابن إسماعيل بن فرج بن نصر

وَكَانَ فَنِي وَسِيمًا ، حَسَنَ الْخَلْقِ ، مُنْحَطًّا فِي لَذَائِهِ ، لَا اسْتِثْنَاءَ غَيْرَ النَّجَبَاءِ بِصَحْبَتِهِ . اسْتَجَلَبَ لَهُ الْحِظُّ قَرِيبَهُ ، وَحَفِيدَ عَمِّ أَبِيهِ ، وَزَوْجَ أُخْتِهِ ، لِيَجْعَلَهُ سَبَبًا لِحِظِّهِ ؛ فَتَمَشَّتْ الْأُمُورُ بِاحْتِدَاءِ السَّيْرَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ هَيْبَةَ الْأَمْرِ السُّلْطَانِيَّ ارْتَفَعَ حِجَابُهَا ؛ وَوَقَعَ التَّحَاوُدُ وَالشَّنَآنُ بَيْنَ السَّبَاعِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ . وَأَحْكَمَ صِهْرُهُ الْمُتَوَثَّبُ بِاسْمِهِ التَّدْبِيرَ عَلَيْهِ ، وَنَذَّرَ بِهِ ؛ فَأَكْذَبَ الْخَبْرَ شَأْنَ أُولِي الْغَدْرِ الَّذِينَ بَلَغَ لِلدَّالَةِ مِنْهُمْ الْكِتَابُ ، وَصَمَّتْ آذَانَهُمْ أَنْ يَدْخُلَهَا الْعِتَابُ ؛ وَشَدَّتْ الْأُمُّ يَدَهَا مِنْ زَوْجِ ابْنَتِهَا عَلَى السَّرَابِ الْغَرَّارِ ، وَالزُّبُقِ الْفَرَّارِ ، مَقْدَارِ النَّاقَةِ ، وَمَعْدِنِ الْجَنُونِ وَالْحِمَاقَةِ . فَهَجَمَ عَلَيْهِ بِحِلِّ سَكْنَاهُ ، وَأَحَاطَ بِهِ ، وَقَدْ اهْتَبَلَ غِرَّتَهُ ، وَهُوَ مُتَبَدِّلٌ فِي بَعْضِ قُصُورِهِ مَعَ شِرْذِمَةٍ لَا تُدَافِعُ عَنْهُ ؛ وَاعْتَصَمَ بِبُرْجٍ فِي الْقَصْرِ . ثُمَّ أُلْقِيَ بِيَدِهِ طَامِعًا فِي الْعُودِ إِلَى الثَّقَافِ الَّذِي أَلْفَهُ . فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ إِلَيْهِ ، أَشَارَ الدَّائِرُ بِقَتْلِهِ ؛ فَقُتِلَ ، وَقُتِلَ مَعَهُ أَخٌ لَهُ صَغِيرٌ اسْمُهُ قَيْسٌ ؛ وَذَلِكَ فِي عَشِيِّ لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ عَامِ ٧٦١ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ الْمُتَوَثَّبُ عَلَى مُلْكِهِمْ .

## دولة محمد بن اسماعيل

ابن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر

واستقر الملك بيد ابن عمهم هذا ، مُعِيل التوثب والمُقدِّم على العظيمة ، أشبه الناس في خلقه وسيرته بمحمد بن عبد الجبار المتوثب على دولة هشام بن الحكم وهادم الدولة العامرية ، حسباً شهيداً به التاريخ . وكان هذا الفتى مقداماً ، شاطراً ، بريئاً من التزمت ، خالطاً نفسه المعابر ، آخذاً إليها بطريقتي الفتيان والحرافسة ، سخي اليد ، مهذب الخلق ؛ أنكحهُ السلطان أبو الحجاج بنته لمُرب المحلل من القرابة خاصة ، مع الغض عن العيوب . وهلك السلطان ؛ فنالهُ خمول وإقصاء جملة عن التدبير على ولده ؛ فأعانتَه حظية السلطان أمٌ ولده المعدول عنه يوم الولاية ، المسماة برِيم . وكثراً قد غفلنا عن الاحتياط على المال ؛ وخزائنه يومئذٍ بمحل سكنتي السلطان لنظر هذه المرأة ؛ فرزأت منه ما صيرته في سبيل التدبير ؛ وأحكم هذا الصبي الصهر أمره بُدخاله كلٍ مُنحرفٍ عن الدولة ، أو حُسودٍ من حُساد الله بالنعمة ، أو مُستطيلٍ للمدة أو مطولٍ بالولاية ، أو مُترجّعٍ من العزلة ؛ وداخلٍ مشايخ المدينة وأعيان الحضرة ؛ فلم يُبق إلا حاطباً في حبله ، ومحرّضاً له على فعله ، ملكاً للعافية وجهلاً بمغيبات الفتنة ، كأنه عرض عليهم تصوير الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، أو إلى أبي جعفر المنصور ، أو هشام الرضى .

أما سائرهم رجلاً ، فإمام عقاله ، مُعلّقاً على الأمور قسطاس دينه ، يقول له بلسان حاله أو مقاله : ما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة لأهل الله ! بل بينهما ما بين الحرام والحلال ، والرشد والضلال ! فتسوّر

القلعة بالرجال ، مُحْكِمًا لذلك ، ليلة الثامن والعشرين من رمضان من سنة ٧٦٠ . وفرّ الموثوب به محمد ، إذ كان خارج القلعة ؛ فلحق بوادي آش ؛ ثم اتصل بالمغرب . وتم له الأمر إلى أن استخلصه لنفسه ، ولم يقصر فيه في اجتاده .

وألح الله له وقعة على النصارى بظاهر وادي آش يوم السبت التاسع عشر لشهر ربيع الأول سنة ٧٦٣ ، لم يتقدّم العهدُ بمثلها لمثله ، نيف الأسرى فيها على ألف ومئين ، فيهم الكبار والفرسان الدارعة ، أذخلوا الحضرة في الجبال ، تضيق عنهم الطريق والفضاء العريض ؛ فاستولت الأيدي على أسلابهم ، وكان صنعاً لا كفاء له ، تسببت عنه موجدة صاحب قسّالة ؛ وحرّضه على استدعاء عدوه من المغرب لما فرغ الله عنه من أمره . ولما أجاز إليه البحر ، واستقل عدوه برنّدة ، اضطرب أمره ، واقتضى رأيه الفائل اللحاق بصاحب قسّالة في طائفة عديدة بمن خاف على نفسه وتوقع من طالب الأمر المطالبة بذنبه ؛ فكان ذلك من غير عهد اتّخذهُ لنفسه ولا ذمام أسلفه ليَقْضي الله فيه قضاءه ؛ فلم يُرعَ قصده ؛ وتقبّض عليه وعلى من معه ، مخالفاً في ذلك لرأي قومه ، وقتلَ بيده ، بعد أن مثل به بطلياطة من ظاهر إشبيلية ، ثاني رجب من السنة . وألحق به طائفة تنخلها من صحابته ، وأسر سائرهم ، واستخلص ما كان عند الجميع من ذخيرة . وانتهى أمره على هذا السبيل . وعاد بعده الأمير أبو عبد الله مخلوعه إلى دار ملكه .

## دولة محمد بن يوسف

ابن إسماعيل بن فرج بن نصر

وكان قد أعمل الحركة من مدينة رنّدة إلى أحواز مالقة ؛ فيسر الله له

أمرها ، إذ كان قد استظهر بالطاغية ، وحصل بسببه على جملة من حصون المسلمين ، خاس الطاغية فيها بعهدده ، وأمسكها لنفسه . فسهل ذلك مع قضاء الله دخول مالقّة . وعند ذلك ، أزمع عدوؤه الفرار من دار ملكه ؛ واتصل به الخبر . فأعمل السير إلى الحضرة ، وعاد إليها زوال يوم السبت لموفي عشرين جمادى الثانية من سنة ٧٦٣ . فاستقرت بها قدّمه إلى الآن . واشتعلت الفتن بين صاحب قشتالة وبين أخيه ، بما أوجب الهدنة وأن ظهر المسلمون على طائفة من بلاد العدو في سبيل إعانة بعضه على بعض ، بما هو معروف .

واختصت بموازرتة ومظاهرتة على أمره ، وبذل الجهد في نصحه ، والغيرة على دينه ، وجميل ذكره ، تارة بالعتاب ، وأخرى بالكتاب ، إلى أن ترجع عزمي على الهجرة ، وإعمال الرحلة ؛ وأنا أجرد فصولاً أقرر فيه حالي ، ليكون من اتصل به الخبر بعدي ، أو شك في قصدي على عهدي ، حاصلاً على اليقين من أمرّي ، والبيئة من عذري ، حتى لا يَبْوءَ بإثمّي ، ولا يغمس اليد في ظلمي ؛ وإن فعل كُنت قد خرجت عن العهد بالبيان ، وعوّلت في المثوبة على الرحمان ؛ وأنا أقسم بالله أنني لا أتعمد في الخبر طريق البهتان ، على أن المتجاوز في مثلها يفضحه قرب الزمان ، ومباشرة المعاصر لهذا الشأن ؛ فنقول :

أمّا حديث مالي بباب هؤلاء الأمراء من سلف ، وفي دولتهم من حظ ، وإلى ملكهم من وسيلة ، وفي أبوابهم من تجلّة ، فقد تضمن ذلك مع شهرته كتاب « الإحاطة » وكتاب « المباخر الطيبة » في المفاخر الحطّيبية . ولما صار الأمر إلى هذا الرجل باستدعاء إشارتي ، وأمسكت يده للناس يومئذ بإذلاً في تثليث إرثه جهدي ، بلغت الخطوة منتهائها ، والدرجة التي تؤمّل بأبواب الملوك إلى الآماد وأقصاها ، إلى أن وقع الكياد على الدولة . وكان ما هو معلوم من تسوّر القلعة وتحويل الحالة ؛ وكُنت

ليمتدّ ساكناً بقصر ابنتيّته بالشرعية القديمة من شرقي المدينة ، كُنت أسكنه أكثر فصول السنة ؛ وكان الشيخ مولاهم رضوان العبد الصالح بالقلعة مقيمًا لرسم حفظ الأمانة ، والسلطان منتقل إلى جنته خارج البلد في سبيل الراحة . فلما استولى المتوئّب على دار الملك بن معه من رجال الكريمة ، قصد دار الشيخ ؛ فقتله . وأخرج الأمير ؛ فأجلسه . واتصل الخبر بأخيه السلطان ؛ فلحق بوادي آش . وتعلّل إلى المحلّ الذي بيت فيه ثقات الولد القائم بدار الملك ؛ فاستصحبني إليه بأمانة . فابتدأ الأمر في من حيث وقف أبوه ، إذ كان يشاهد لطف تحلّي منه وترفعي عن حظّ الخدمة في مدّة أخيه بعده ؛ والصبي مغلوب على أمره ، وللعصابة الدليلة التصرف في ملكه ؛ فراهم تحلّي منه ، وقالوا : « إنّما كان هذا الكدح المعتمد والخطر المرتكب لأن يجعل الملك ثانية في يد هذا الرجل ، يأخذ منّا ثار دولته ، ويقضي حسيقة سلطانه . » فقرّروا له . وقد امتنع أخوه بوادي آش ، وأجاره أهلها أنني أحطب في حبله ، وأعمل الحيلة في جبره . وتقبض عليّ ، وانتهب قليل ما يعلم لي وكثيره ، وتافهه وخطيره ، وأعمل التدبير في الإراحة منّي ، والاحتياال في تسبب هلاكي ، مع أن اللطاف الله لم تخلي حال الشدة من ترفيل اعتقال ، وتخلص جفوة مقال .

وجرت بين صاحب الدولة وبين المتصيّر إليه ملك المغرب يومئذ السلطان المولى المقدّس أبي سالم - رحمة الله عليه ورضوانه - المفاوضة في استجلاب المستقر بوادي آش إلى المغرب بقصد ابتغاء الهدنة ، ورفع الفتنة . فلما تم ذلك ، جعل الحديث في أمر عمة ، والإشارة بخلاصي ؛ وبعث الله لي من حيث لا أحسبه في الكون جدّاً وحيّة ؛ فتم بعد لجاج ، وإثارة عجاج ؛ واستخلصني الله . فكُنت عني بنان النكبة ، وفُتحت بالفرج أقفال الشدة . وكان قدومي على السلطان أولى الناس

بزفتي ، وصحبة رسوليه الخليق باعترافي وشكري ، وخَرَجتُ لا أملكُ  
إلا نفسي ، وفضلَ ربي مكنطوفاً بي ، باستصحاب أهلي وولدي ؛  
وقدِمتُ عليه تلوّ المخلوع وكلانا مطوّق المن . وانشدته يومئذ القصيدة  
المشهورة ، محرّضاً له على نصر من قصد بابّه ، واعتمد جنابه ، والمَشُورُ  
يومئذٍ قد جَمَعَ الدنيا بما حَمَلَتْ ، وأَشْيَاخُ المَغْرِبِ وأعلامه قد  
اجتَمَعَتْ واحْتَفَلَتْ ؛ وهي :

سلا هَلْ لَدَيْنَا مِنْ مُخْبَرَةٍ ذَكَرَ      وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الزَّهْرُ  
وَهَلْ بَاكَرَ الْوَسْمِيُّ دَاراً عَلَى الْوَى      عَفَتْ آيُهَا إِلَّا التَّوَهُّمُ وَالذِّكْرُ  
أَقُولُ فِيهَا :

أَقُولُ لأطعاني وقد غالها السُّرَى      وَآنَسَا الْحَادِي وَأَوْحَشَا الزَّجْرُ  
رَوَيْدُكَ بَعْدَ الْعَسْرِ يُسْرَانُ أَبْشِرِي      بِإِنْجَازِ وَعْدِ اللَّهِ قَدْ ذَهَبَ الْعَسْرُ  
وَلِلَّهِ فِينَا سِرٌّ غَيْبٍ وَرَبُّمَا      أَتَى النِّفْعُ مِنْ حَالِ أُرِيدَ بِهَا الضَّرُّ  
وَلِنْ تَخْنُ الْأَيَّامُ لَمْ تَخْنِ النَّهَى      وَإِنْ يَخْذُلُ الْأَقْوَامُ لَمْ يَخْذُلِ الصَّبْرُ  
فَقَدْ عَجِمْتَ عُوداً صَليباً عَلَى الرَّدَى      وَعَزَمًا كَمَا تَضِي الْمَهْنَدَةُ الْبَتْرُ  
وَلِنْ عَرَكْتَ مِنِّي الْخُطُوبُ مَجْرَباً      نَقَاباً تَسَاوَى عِنْدَهُ الْحَلُوفُ وَالْمَرْ  
إِذَا أَنْتِ بِالْبَيْضَاءِ قَوَّرْتِ مَنْزِلِي      فَلَا اللَّحْمُ حِلٌّ مَا حَيْثُ وَلَا الظَّهْرُ  
زَجَرْنَا بِإِبْرَاهِيمَ بُرْءَ هُمُونَا      فَلَمَّا رَأَيْنَا وَجْهَهُ صَدَقَ الزَّجْرُ  
بِمَنْتَخِبٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كُلَّمَا      دَجَا الْخُطْبُ لَمْ يَكْذِبْ لِعَزْمَتِهِ فَجْرُ  
تَنَاقَلَتْ الرِّكْبَانُ طَيْبَ حَدِيثِهِ      فَلَمَّا رَأَتْهُ صَدَّقَ الْخَبْرُ الْخَبْرُ  
نَدَى لَوْ حَوَاهَا الْبَحْرُ لَدَى مَذَاقِهِ      وَلَمْ يَتَعَقَّبْ مَدَّةً أَبَدًا جَزْرُ  
وَبَأْسُ غَدَا يَرْتَاعُ مِنْ خَوْفِهِ الرَّدَى      وَتَرَفَلْ فِي أَثْوَابِهِ الْفَتَكَةُ الْيَكْرُ

١ راجع القصيدة بتامها في « اللعة البدرية » ( ص ١١٠ - ١١٣ ) .

أطاعته حتى العُصْمُ فِي قَتْنِ الرِّبَا      وَهَشَّتْ إِلَى تَأْمِيلِهِ الْأَنْجُمُ الزَّهْرُ  
وَمِنْهَا :

قَصْدَانَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَلَى النُّوَى      لِنَتَصَفَّنَا مِمَّا جَنَى عَبْدُكَ الدَّهْرُ  
كَفَفْنَا بِكَ الْأَيَّامَ عَنْ غُلُوبِهَا      وَقَدْ رَابَنَا مِنْهَا التَّعَسُّفُ وَالْكَبَرُ  
وَعُذْنَا بِذَلِكَ الْمَجْدِ فَانْصَرَمَ الرَّدَى      وَلِذُنَا بِذَلِكَ الْعِزْمِ فَانْهَزَمَ الذَّعْرُ  
وَلَمَّا أَتَيْنَا الْبَحْرَ يَرْهَبُ مَوْجُهُ      ذَكَرْنَا نَدَاكَ الْغَمْرَ فَاحْتَقِرَ الْبَحْرُ  
خِلَافَتِكَ الْعِظْمَى وَمَنْ لَمْ يَدِنْ بِهَا      فَلِيَأْمَانُهُ لَغَوٌ وَعِرْفَانُهُ تَكْرُرُ  
وَوَصْفِكَ يَهْدِي الْمَدْحُ قَصْدًا ثَوَابَهُ      إِذَا ضَلَّ فِي أَوْصَافٍ مَنْ دُونَكَ الشَّعْرُ  
وَمِنْهَا :

وَهَذَا ابْنُ نَصْرِ قَدْ أَتَى وَجَنَاحَهُ      مَهِيضٌ وَمَنْ عَلَيْكَ يَلْتَمِسُ الْجَبْرُ  
غَرِيبٌ يَرْجَى مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ      فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ قَدْ جَاءَكَ الْفَخْرُ  
فَفَزْ يَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بَبِيْعَةٍ      مُوثَقَةٌ قَدْ حُلَّ عَقْدَتِهَا الْغَدْرُ  
وَمِثْلُكَ مَنْ يَرْعَى الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا      بِيَا لِمَرِّينِ جَاءَهُ الْعِزُّ وَالنَّصْرُ  
مَرَامُكَ سَهْلٌ لَا تُؤَوِّدُكَ كَلْفَةٌ      سَوَى عَرَضٍ مَا أَنْ لَهْ فِي الْعَلَى خَطْرُ  
وَمَا الْعَمْرُ إِلَّا زِينَةٌ مُسْتَعَارَةٌ      تَرَدُّدٌ وَلَكِنْ الثَّنَاءُ هُوَ الْعَمْرُ  
وَمَنْ بَاعَ مَا يَفْنَى بِيَاقٍ مَخْلُودٍ      فَقَدْ أَنْجَحَ الْمُسْعَى وَقَدْ رُبِحَ التَّجْرُ  
وَهِيَ طَوِيلَةٌ ؛ اخْتَصَرْتُهَا لَطَوَلُهَا وَشَهْرَتِهَا .

ثُمَّ تَوَجَّحَ لَدَيَّ السَّكُونُ إِلَى الْعَافِيَةِ ، وَالتَّمَتُّعُ بِالْبَقِيَّةِ ؛ فَجَنَحْتُ إِلَى  
السُّكْنَى بِمَدِينَةِ سَلَا ، حَيْثُ طُنِبَتِ الْحَرَمَةُ رِوَاقِهَا ، وَأَقَامَتِ الْحَسَنَةُ بِسَبَبِ  
الضَّرِيحِ الْمُقَدَّسِ . أَسْوَاقُهَا يُقْبَرُ عَيْنِي بِهَا النَّعْمُ ، وَيُنْظَرُ فِي الْمَجْدِ وَالْكَرَامِ ؛  
فَلَا أَعُدُّ مِنْ عُمْرِي إِلَّا أَيَّامَ مَقَامِي بِهَا ، وَسَكُنَايَ فِيهَا ، تَقَرُّغًا إِلَى مَا  
أُرِيدُهُ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ . وَعَافِيَةٌ شَامِلَةٌ ، وَجَنَّةٌ عَاجِلَةٌ ؛ وَصَاحِبِي يَقُومُ



العزم في شأني ويقعد ، ويقرب ثم يبعد ، ويستحشي إلى صحبتته ، ويجعلني عمدة في وجهته ؛ فلا يجحد في بقية ، ولا لمطاردة الأمل قبلته مسكة ، إلا ما كان من رأي وإشارة ، وإهداء نصيحة .

وراضاني أخيراً على الناس عهدي ، واقتضاء حظي بالقدوم عليه ، أن جبر الله كسرته ، ورد أمره مع ولده ، وانصرف إلى طبيته التي سمرت ليله وحشتها على صاحب اللطف الحفي ، بعد أهوال تشيب لها الذوائب ، وتذلّل لعدو الدين تهون عنده المصائب ، وقاني الله موافقها ، وكفاني مخازيها . لم يزل يغطني بها ، ويُقرّر غناية الله في الصون عنها .

وما راعني إلا كتاب المستولي على دولة المغرب عمر بن عبد الله بن علي - رحمه الله ، وكانت تأكيدت بيني وبينه الصبغة ، وتوثقت من رعيه وبره العقدة بها ، يخبرني بما انتهى إليه أمره بغرناطة ، ويرى ما عندي في زيارته والوصول إليه مع ولدي ؛ فعزمت على الوفاء بعهده ، وأسرعت إلى قصده ، بعد أن قررت عند المذكور وبين يدي سلطانه عزمي على تعجيل الأوبة ، وعلمي على إسراع العودة ، وتركي الأهل والولد تحت جناح الحرمة ، والجوار المريئي الوافي بالذمة . وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت ، القاطع بالقوت ؛ وقد دالت الدولة في أمة ليس فيها إلا مذنب بقول أو عمل ؛ والمال معدوم ، وبناء المثلك مهديم ، والألقاب قد ذهبت رسومها ، والأحوال قد تغيرت صفاتها ، والدنيا قد اختلفت مألفاتها ، والخدام المتغلبون على الدولة قد سفكوا الدماء واتبعوا الحسائف وأطاعوا المطامع بحيث عادت الثورة ، فلولا دفاع الله كانت القضية . فشمرت لإصلاح القلوب وسد الحسائف ، وتأنيس الشارد وتأمين الخائف ، وإرضاء الجند وتوفير المال ، ومحاولة عدو الدين . وقد اقتضيت خطه بالسراح إلى أمد معلوم حل ؛ فنقلني إلى غيره ، واستدرجني بسواه ؛ وقد عادت مع

ذلك عوائد العافية ، وفُتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة ؛ فصدقت الملوك ، واطردت الفتوح ، ودرت المنوح ، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد ؛ فلا يسعه جحده ، ويعرفه من الكتب في الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته .

وفي كل آونة وساعة ، وأثناء كل تفرّد وخلوة ، بعد أن كبر الولد ، واستراح من هم الحرص الخلد ، أخطب نفسي ؛ فنقول لها : « يا مشؤومة ! أما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا الكل على ضعفك ، وأوسعت هذا الشعب في فكرك ، وعمرت بهذه الخطوط حظ ربك ، وتعرضت لأن تسخطي الطالب المنوع بحبيته ؛ وتسخطي المعطي بما يرى أنك قد منعت من الزيادة في عطية ؛ وتسخطي الأجنبي بالقبول على عدو ، والميل إلى ضده ، وبالإعراض عن صديقه ؛ وتسخطي الجاني بإفقاد العقوبة في جنائته ، والمجنّي عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه ؛ وتسخطي الجيش باختباره وعرضه ، ومنع المدفوع إليه في غير حقه ؛ وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية وأخذها بالإعداد لعدوها في الشدة ، من تحصين ثلثة ، وإعداد عدّة ، واختزان ماء أو قوت لشدة ؛ وتُعادين طلاب الولايات إذ يحا منها ربع عددهم ، وأنت مضطرة إلى مطل وعدّة ، وارتقاب مداولة ؛ وتُعادين الأهل والقرابة والولد بمنع الأيدي والعدل في الشهوات ، وسد أبواب الشفاعات ؛ وتُعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم ؛ وتُعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها ، ويضر بالدولة إمضاؤها ؛ وتُعادين ولد السلطان وحظيته ، فكلّ منهم مطلب يختص به ، وطور مثلك بعيد عن التهجّم فيه والافتيات على صاحب الدار ؛ وتُعادين السلطان بعدله في الشهوات ، والقيام دونه دون كثير من الأغراض ، ومخالفة أمره بحظيه بحسب الهوى من الخدام ، وتقريبه في باب إفساد الأموال ،

إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له والأمن من إرادته الحق الذي يجب له بعد أن علت السن وكبر الولد وتأثّل العزّ . »

وهذا كلّهُ بعضٌ من كلٍّ ، وقليلٌ من كثيرٍ ؛ فلا تجد عنه حُجّة ، ولا شيءً عنه مُدافعة . وصِرْتُ أَنْظُرُ إلى الوجوه ؛ فَأُلْمِحُ الشرَّ في نظراتها ، وأعتبرُ الكلمات ، فَأَتَبَيَّنُ الحسائف في لغاتها ؛ والصبغة في كلّ يوم تستحکم ، والشرُّ يتضاعف ، ونعمة الولد تُطْلَقُ لسانَ الحسود ، وشيع الكلاب المُطيفة في تهيج حسائف النور الجائعة والأسود ؛ والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كلّ يومٍ وليلةٍ يفتنون في الأطراء والمديح ، وتحسين القبيح ، والمحالّات في الغيِّ ، والتقربُ بالسَّعي ؛ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَتَنَاقَلُونَ الإشارات بالعيون ، والمُعَامَزةَ بِالْجُفُون ، والمخاطبةَ بِالْفُؤُوز ؛ فإذا انصرفوا ، صرَّفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ؛ فقلُّبُوا الأُمُور ، ونقلُوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعلَّلُوا بِالْأَحْلَام ، وقواطع الأحكام .

وَكُنْتُ وَصَلْتُ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وليَ وَرْدٌ مِنَ اللَّيْلِ ، ووظيفةٌ من الذِّكْرِ ، وحَظٌّ مِنَ الْخَيْرِ ، ضَايَقَنِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فَضُولُ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ فَهَجَرْتُ السَّبْحَةَ ، وَطَلَّقْتُ الْوَرْدَ ، وَمَا طَلْتُ الْفَرَضَ بِوَقْتِهِ ، وَعَمَّرْتُ الزَّمَانَ بِمَا لَا يَغْنِي عَنِي مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؛ فَلَا مَتْعَةَ بِالْمَطْعُومِ لِاخْتِلَالِ الصَّحَّةِ ، وَلَا بِالنِّسَاءِ لَذَهَابِ الشَّيْبَةِ وَضِيقِ زَمَانِ الرَّاحَةِ ، وَلَا بِاللِّبَاسِ لِتَبَدُّلِ الْكِبَرَةِ ، وَلَا فِي اكْتِسَابِ الْمَالِ لِضَعْفِ الْأَمَلِ ؛ وَلَمْ أَكُ قَطُّ إِذَا سَبَّحْتُ بِسَاعَةِ : وَلَا سَرَفْتُ إِلَيْهِ هِمَّةً ، وَلَا عَمِلْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا فِي الْوَطَنِ فَضْلٌ يُوصلُ إِلَيْهِ ، وَصِرْتُ أَسْهَرُ اللَّيْلِ ، وَأَتَوَقَّعُ الشَّرَّ ، وَأَقِفُ لِلدُّنْيَا مَوْقِفَ الْمُتَوَقِّفِ فِي تَلَقِّي السِّلَاحِ مِمَّنْ وَبَسْرَةٍ ، وَلَا حُصُولَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا عَلَى قُوَّةٍ مَكْدُودَةٍ ، وَلَا يَعْزُزُ فِي قَرْبَةٍ ، وَلَا يَفْقَدُ بَيْنَ أُمَّةٍ . وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ حِبَالَ الْعِزِّ وَالْكَسَلِ ، وَسَقُوطَ الْأَمَلِ ، وَتَوَقُّعَ الشَّرِّ ، وَفَسَادَ الْفِكْرِ ، وَجَمْعَ الْمَطَالِبِ كُلِّهَا ، وَالْأَمَالَ بِأَمْرِهَا ،

وَالْغَايَاتِ بِاجْتِمَاعِهَا ، فِي حُصُولِ رَاحَةٍ ، وَمَتْنِي خُلُوةٍ ، وَقَطَعَ مَا بَقِيَ لِلْعُمُرِ مِنْ بَرَهَةٍ فِي دَارِ أَمْنٍ وَخُلُوةٍ مِنْ شَغَبٍ .

وَصِرْتُ أَتَخَيَّلُ ذَلِكَ ، وَأُمَثِّلُ الْفُوزَ وَالْحُصُولَ عَلَيْهِ كَمَا يَتَخَيَّلُ مَجْنُونُ بَنِي عَامِرٍ الظَّفَرَ بِلَيْلِي وَالْانْفِرَادَ بِهَا ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ لِمَهْوَى يَرْدِي ، وَلَا سَبْعٍ يَعْتَدِي ، وَلَا وَادٍ يُغْرِقُ ، وَلَا نَارٍ تُحْرِقُ ، عَمَى الْمَهْوَى ، وَاحْتِجَابِ النَّمَى ، وَتَأْمِيلِ السَّمَى ؛ كَأَنَّ سَعَرَ الرَّاحَةِ رَخِيصَ ، وَمَطْلَبَ الْخُلَاصِ لَا يَعْثُرُ عَلَيْهِ تَخْصِيصَ ، وَلَا يَتَعَيَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْيِصَ . وَسَبْجَانِ الَّذِي يَقُولُ : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . فَأَلْحَحْتُ عَلَى السُّلْطَانِ ، تَارَةً أَطْلُبُهُ بِإِنْجَازِ وَعْدِهِ ، وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ ، وَاقْتِضَاءِ مُضْمَنِ خَطِّهِ ، وَتَارَةً بِالْعَمَلِ عَلَى اكْتِسَابِ بُغْضِهِ ، وَالْجَفَاءِ الَّذِي يَحِلُّ عَقْدَةَ اغْتِبَاطِهِ ، وَيَذْهَبُ الْحَظُّ مِنْ بَاطِنِهِ ؛ بَلَغْتُ فِي ذَلِكَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مُحْكِمٌ مِنْ عَقْلِهِ ، وَلَا مُحَافِظٌ عَلَى نَفْسِهِ ، وَهُوَ يَحْمِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ الْمُظَاهَرَةِ بِي عَلَى أَمْرِهِ ، وَعِلْمِهِ بِحُلِّي مِنَ الصِّيَانَةِ لِلْمُلْكَةِ ، وَالتَّنَظَّرِ بِعَيْنِ الْأَبْوَةِ لِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ يَذْهَبَ الْقَشْرُ وَيَنْكَأَ الْفَرْحُ .

وَتَابَ لِي النَّظَرُ بِإِزْمَاعِ الْفِرَارِ عَنْهُ ، وَمُصَانَعَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ ذَلِكَ بِالتَّأَنِّي لَهُ وَالْإِنْخِطَاطِ فِي هَوَاهُ ؛ وَشَرَعْتُ فِي عَقْدِ السَّلَامِ مَعَ الْعَدُوِّ لِسِنِينَ ، وَرَتَّبْتُ الْأَمْرَ تَرْتِيبَ الْأَبَاءِ لِلْبَنِينَ ، وَرَجَوْتُ إِحْسَانَ اللَّهِ لِي « وَاللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » ؛ وَقُلْتُ : « أَحِجُّ نَفْسِي ، وَأَقْضِي فَرَضِي ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ بِغَيْرِي ، وَأَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُحْكِمًا مِنْ أَمْرِي ! » فَاقْتَضَيْتُ مِنَ الْمَوْلَى الْمُقَدَّسِ أَبِي فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - ، وَقَدْ اتَّصَلَ بِي فَضْلُ دَوْلَتِهِ ، وَطَهَارَةُ نَشَأَتِهِ ، وَاعْتِدَالُ طَرِيقَتِهِ ، عَهْدًا مُخَلَّطًا مِنْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ فِي أَغْرَاضِي مِنْ إِقَامَةٍ ، نَحْتِ حَرَمَةٍ ، وَإِعَانَةٍ عَلَى نَحْجٍ وَزِيَارَةٍ ، وَمُبَالَغَةٍ فِي شَفَاعَةٍ أَوْ تَسْوِيعِ قَفُولٍ

بِالْأَنْدَلُسِ بْنِ سَيْدَتٍ وَعَوْدَةٍ .

وتيسر الحاق ببلاده ، والحصول بجبل الفتح من إيلاته ، والجواز  
بِسَبْتَةِ غُرَّةِ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ سَنَةِ ٧٧٣ فِي أُسْطُولِهِ وَتَحْتَ أَقْصَى مَا  
يُؤْمَلُ مِنْ بَرِّهِ ، وَفَارَقَتْ الْأَهْلَ وَالْمَالَ وَالْوَالِدَ وَالْجَاهَ الَّذِي بَلَغَ  
الْأَمَدَ لَا لِدُنْيَا ثَانِيَةً ، نَعْتَاظُهَا مِنَ الْمَطْلَقَةِ ، وَلَا خِدْمَةَ نَسْتَأْنِفُهَا عَوَضَ  
تِلْكَ الْمَطْرَحَةِ ، وَلَا لِفِرَارِ أَمَامَ جِنَايَةٍ ، وَلَا لِفَتْكَةٍ فِي مَالٍ جِبَايَةٍ ، وَلَا  
لِقَوِيَّتِ مَعْقِلٍ لِعَدُوِّ الْمِلَّةِ ، وَلَا لِسَفْكَ دَمٍ يَطْلُبُنِي بِتَبْعَةٍ ، وَلَا لِحَيَاةٍ  
فِي أَهْلِ ، وَلَا لِسَعْيٍ عَلَى مَلِكٍ ، نَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ! إِنَّمَا نَلْجَأُ  
قَصْدِي بَعْدَ تَبْخِيلِهِ فِي الْفِرَارِ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَالتَّفَادِي مِنْ حِمْلِ الْكَلْفَةِ ،  
وَالِاسْتِغَالِ بِمَا يَعْنِي ؛ لَكِنْ فِي ظِلِّ الْعَافِيَةِ ، وَتَحْتَ سَحَابِ النُّعْمَةِ وَذِمَّةِ  
الْحَرَمَةِ . نَسْأَلُ الرَّقِيبَ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ ، إِنْ كُنْتُ قَدْ سَأَبْتَنِي فِي ذَلِكَ  
سَائِيَةً ، أَنْ لَا يُسْتَعْنَى بِالْبَقِيَّةِ ، وَلَا يَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ الْحَاقَةِ .

لَكِنْ لَمْ يَحُلْ هَذَا كُلُّهُ مِنْ اقْتِيَابِ عَلَى الْقُدْرَةِ ، وَغُرُورِ بِالْحَوْلِ  
وَالْقُوَّةِ ، وَتَحَكُّمِهِ عَلَى اللَّهِ فِي تَحْسِينِ الْعَاقِبَةِ ؛ فَوَقَعَ فِيهِ التَّنْقِصُ مَا لَمْ يَفْقَدْ  
فِيهِ اللُّطْفُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، وَلَا عَدَمَتِ إِقَالَةُ الْعَثْرَةِ وَحُسْنُ الْكَفَايَةِ .  
وَكَانَتِ النِّيَّةُ صَرَفَ الْوَجْهِ إِلَى مَدِينَةِ سَلَا حَتَّى أَبْلُغَ النَّفْسَ رَيْقَهَا ،  
وَأَخْطَبَ لِأَفْكَارِي هَدَوَّهَا . ثُمَّ أَمَدَّ الْيَدَ إِلَى ثَمَرَةِ الْمِجْرَةِ ، وَأَمْرَعَ فِي  
الرَّحْلَةِ ؛ فَاتَّصَلَ بِي ، وَأَنَا بِطَنْجَةِ ، كِتَابُ وَلَدِي ، وَقَدْ اسْتَوْحِشُوا ،  
وَرَأَيْتُهُمْ اسْتِيحَاشُ السُّلْطَانِ ، وَتَوَقَّعُوا الْإِغْرَاءَ بِهِمْ ، وَتَطَرَّقُوا الشَّرَّ إِلَيْهِمْ ؛  
فَصَرَفْتُ وَجْهِي إِلَى الْبَابِ الْعَزِيزِيِّ فِي سَبِيلِ اسْتِخْلَاصِهِمْ ، وَقَدِمْتُ عَلَيْهِ  
بِتَلْبِيسَانِ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ لِرَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ . فَتَلَقَّانِي بِمَا يَلِيقُ بِحَسْبِهِ وَشَرَفِ  
مَذْهَبِهِ مِنْ إِرْكَابِ الْخَاصَّةِ ، وَرَفْعِ الْحِجَةِ ، وَرَعْيِ الْوَسِيلَةِ ، وَدَنُو الْجُلْسَةِ ،  
وَإِجْرَاءِ النُّعْمَةِ ، وَبَادَرَ إِلَى طَلَبِ الْأَهْلِ بِأَعْمَالِ بَنَانِهِ ، بِحَسَبِ مَا رَسَمْتُهُ  
مِنَ الْعِبَارَةِ ؛ وَتَلَقَّيْتُ رِسَالَهُ مِمَّنْ فَرَرْتُ عَنْهُ مَا يَرْقُ لَهُ ذُو النَّفْسِ الْحُرَّةِ ،

وَيُؤْثِرُهُ مَبْتَغِي الْوَسِيلَةِ مِنْ إِسْأَالِ الْعَبْرَةِ ، وَاسْتِظْفَاعِ الْفَرَقَةِ ، وَتَقْرِيرِ مَا  
كَانَ لِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمُحَافَظَةِ وَالْمُودَّةِ ؛ وَاعْتَرَفَ بِبِرَائَتِي فِي وَطَنِهِ مِنْ  
التَّبَعَةِ ، وَصَرَفَ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ قَاضِيًا لِلْحَاجَةِ ، مُقَدِّرًا فِي الطَّرِيقِ  
بَنِيَّةَ الْجَرَايَةِ .

وَشَرَعْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى وَجْهِي الْحِجَازِيَّةِ ؛ فَعَلَقْتُ لِي الْوَعْدَ  
بِتَوْجِيهِ الرُّبْعَةِ ، وَالشَّرُوعَ فِيمَا يَخْصُ ذَلِكَ مِنَ الْعَزْمَةِ ؛ فَأَخَذْتُ فِي تَقْدِيرِ  
الْإِقَامَةِ ، وَانْتِظَارِ رَكْنِ الرَّحْلَةِ . وَبَلَغَ الْخَبْرُ هَذَا الْإِخْتِصَاصَ وَالِاصْطِفَاءَ ،  
وَالْمُزِيَّةَ عَلَى الْجُلْسَاءِ ، وَإِعْمَالَ الثَّوَاءِ بِهَذَا الْبَابِ السَّامِيِّ الْعَلَاءِ ؛ فَعَجَزَ مِنْهُ  
الصَّبْرُ عَنْ تَحْمُلِ الْغِيَرَةِ ؛ وَارْتَفَعَ ، وَحُكِمَ الْمَسْلَّةُ ، وَقَطَعَ بِأَنْتِي بَنِيْتُ فِي  
الْبَابِ الْمَرْبِئِيِّ عَلَى الْخِدْمَةِ . وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ فِي جِهَتِي كُتُبُ السَّعَايَةِ ، مِمَّنْ  
جَلَا عَنْ وَطَنِهِ مِنَ الْقَرَابَةِ ، وَقَرَّرَ عِنْدَهُ مُبَالِغَةً وَلَدَهُ فِيهِ بِالْإِذَايَةِ ؛ وَأَعْمَلَ  
مِنْ لَدَيْهِ مِنَ الْخُدَّامِ الَّذِينَ خَلَا لَهُمُ الْجَوْ مِئْتِي ، وَسَرَحَتْ حُجْلُهُمْ بَعْدَ  
رَحِيلِ صَقَرِي أَقْصَى الْقُدْرَةِ فِي إِفْسَادِ حَالِي لَدَيْهِ بِأَنْوَاعِ السَّعَايَةِ ، وَفُتُونِ  
النَّكَايَةِ ، سَدَّأَ بِؤْمُتِهِمْ مِنَ الرَّجْعَةِ ، وَيُجِيرُهُمْ مِنَ الْقُفُولِ وَاللَّقِيَةِ . فَتَأَتَّى لَهُمْ  
مِنْ ذَلِكَ مَا خَلَصَ لِي أَجْرُهُ ، وَعَظُمَ لَدَيْهِمْ وَزَرُّهُ ، لَا بِشَهَادَةِ عَدْلٍ  
مَقْبُولٍ وَلَا ثَبُوتِ خَطِّ مَعْرُوفٍ ، إِنَّمَا هِيَ أَلَاقِي رَاشِهَا الْمَوَى وَبَرَّأُهَا ،  
مَعَ بَرَاءَتِي مِنْ لَقْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، وَمَوْحِدَاهَا وَمِثْلَاهَا ، زُورٌ وَحَسَادٌ ،  
وَبُضَائِعُ أَسْوَاقِ فُسَادٍ .

وَاسْتَبْلَغَ الْمَجْهُودُ فِي اسْتِفْسَادِ هَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَيْهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ . فَمَا  
وَجَدَ السَّعْيُ حِلًّا ، وَلَا أَلْفَتْ الْمَكَايِدُ رَحْبًا لَدَيْهَا وَلَا أَهْلًا ؛ فَعَادَ  
التَّشْفِيَّ عَلَى النَّعَمِ ، وَإِهَانَةِ الرَّمَمِ ، وَإِحْرَاقِ الْمُصَنَّفَاتِ ، وَمَحْجُورِ الْحَسَنَاتِ ،  
وَتَغْيِيرِ الصَّدَقَاتِ . وَكُنْتُ ، لِعُرُورِي بِالزَّمَانِ ، وَثِقَتِي مِنْهُ بِالْأَمَانِ ، أَظُنُّ  
أَنْ لَا سَبِيلَ لِلدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَلَا تَطَرُّقَ لَهُ إِلَيَّ ، وَأَنْ مُفَارِقَتِي لِمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ  
إِنَّمَا هِيَ مُفَارَقَةُ أَبِي لَوْلَدٍ ، وَقَلْبِ الْحَلَدِ ، وَأَنْ عَقَارِي الْمُورُوثِ

والمكتسب جَارٍ تَجَرَّى الوقف الذي لا يُبدَّل ، وصريح الشريعة الذي لا يتأوَّل ، وأنَّ فوائدَه تلحق بي حيث كنتُ من المعمور ، فلا أُكَلِّف رزقاً ولا أعمل جهداً لغرور ؛ واستحكمتُ صيغته لمُساعدة الأيتام ، والثقة برعِي الدمام .

ثمَّ ذُكِّ الجبل العاصم من الطوفان ، والممسك للأرض عند الرجفان . فكان موتُ المولى المرحوم أبي فارس الذي أَوْيْنَا إليه ، وعوَّلْنَا عليه ، ووَثَّقْنَا بوَعْدِهِ ، وتمسَّكْنَا بعهْدِهِ ؛ فانخرق الحِجَاب ، واستأسدت الذئاب ، واستنسرت البغاث والذباب ، وظنَّ أنَّها الداهية التي لا ترفع ، وأنَّ الوَطَن بعده إنَّما هو السراب البلقع ، وأنَّ وَلَدَ السلطان لا تتعده بيعة ، ولا تقوم له دولة ، ولا تستقيم لولده دعوة ، ولم يعلموا ما خبأ الله لفَيْئَةِ الإسلام من عِمَاد خلف الذاهب ، ومَنَار أبان بعد أَفول البدر المذهب ، وأنَّ الله سبحانه سدَّ مسدَّه بالوزير الذي خلف العماد ، وصان الحرم والأولاد ، وحفظ البلاد والعباد ، وأقام الحجَّ والجهاد ، المعروف الحقَّ المشهور الجدَّ المتميِّز في حلبة الأمر العكويِّ بالسبق ، والحسام الذي فتح جبال الغرب وصحاري الشرق . ووقعتُ بينه وبين صاحبي المراسلة والمُكَاتَبَة ، والمُحَاوَرَة والمُخَاطَبَة ، ودسَّ الأَغْرَاء ، وتحاملت السفراء . ووصلت الوزير البراءة بخطَّه سالكة سبيل التلطُّف بكلِّ اعتبار ، معلَّقة رسوم الودِّ بأمر غير كبار ، مقررّاً أنَّ خطره مع مُداخلتهم إيَّاي لا يتصف بقرار ، ولا يتجاوز ذلك إلى تحكُّم باستقهار ، ولا جهل بما لحزمة الباب المربنيِّ من علوِّ المقدار .

وعرض الوزيرُ ذلك عليَّ فسَهَّلْتُهُ ، ومَحَضْتُ فيه نصحه ، واختَرْتُهُ رأياً ، وبذلتُ في سَهْلِهِ سَعْياً . وقد سَأَلْتُ الرجلَ ثمَّ يطأ بي أَرَبَ شِلَاً ، ولا اقتحم عليَّ مُسْتَكْرَهاً ؛ إنَّما غَرَضُهُ انصرافي واشتغالي بشأني . فإمَّا أن نُسَافِرَ فيستريح من قربي ، وما تتوقَّع ظنونه من

أجلي ؛ أو أعمل على اللحاق به بعد قضاء وطري من حجِّي . وإمَّا أن تضطرَّني الحاجة إلى استفادته واستصلاحه ، ويضيق صدري ؛ فأَرْضَى بتحكيمة . وسألته أن يجمع بين الغرضين بانصرافي إلى سُكْنَى مدينة سَلا ، وأقسمتُ له على إثاري إيَّاه ، وعدم رضائي بسواه ؛ فجاءت عواصِف الأنفاس العالية ، ورسختُ جبال الهِمَم السامية ، ووقع لما جئتُ به الإنكار ، وفي شأن فسادهِ الإيراد والإصدار ، وعَظُمَتْ من تحمُّل ذلك الأنفة ، ولم تَرْضَهِ الملكة المؤتفة ؛ وأقسم أن لا يقرَّ في دولة مَرِّين على الهزيمة لها بيد الحطيطة ، حتى تكون لغيرها تابعية ، وليسواها مُصانعة . وانصرف الرسول عن ظاهر جمالة ، وعدة بإرفاد ومواصلة ، وإجراء عادة ، وإبداء في الجميل وإعادة ، إلَّا أنَّ سَمَاسِرَةَ الفَيْئَةِ ، وأعداء الدولة ، دسَّوا له أموراً من العمل على اجتياز مَنْ يطلب مَلِكُ الأندلس والعزمُ على إجازته ، وأنَّ الأمر فيه قد أبرم ، والتدبير قد أحكم ، من غير أن ينزل اللهُ بذلك سلطاناً ، أو يشغل به سِرّاً أو إعلاناً ؛ فأقدم إقدام المُسْتَمِيت ، وعاجل الألفة بالتشتيت ، وانقاد في هوى غضبه ، وجنى على نفسه وعلى وَطَنِهِ . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله !

هذا تقريرُ حالي ، في انتقالي وارتحالي ، الذي علَّقت به اليمين ، والدعاء والتأمين . فمن عذر فالله مثيبه ، ومن حمل بعدها ، فالله حسيبه ؛ فقد علم الصدق مَنْ يعلم السرَّ وأخفى ، ويقرب زلفى ، ويجزي الجزاء الأوفى ؛ فالدنيا أحلام ، والعمرُ مَنَام ، وإن جرت الأقدار ، وراب الإيراد والإصدار ، وتعاور الحُسن والإبدار ، فالدارُ الآخرة هي الدار ! وكأَنِّي بسرَّح الحياة قد اجتَوِي ؛ وبساط الوجود قد طَوِي ، وعند الله القسطاسُ الذي لا يجوز ، والحكم العدل الذي يرضى به البرّ والفجور !

## ذكر التعريف بما أمكن

### من ملوك النصارى بالاندلس على الاختصار

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بأخبار الأندلس ، وكان كثيراً ما يرد فيه ذكر ملوك قشتالة ، كان من كماله أن نلجع ببندة من ملوكهم ، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوق لذلك ، لا سيما الملوك ؛ فهي أبداً لأخبار الملوك متطلعة ، ولسماع أنبيائها متشوقة . وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مخطوئته ، وهو الحكيم الشهير ، طبيب دار قشتالة وأستاذ علمائها ، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي ، لما وصل إلينا في غرض الرئاسة عن سلطانه ؛ فقيّد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن ، وأستدرك ما أغفل ، إذ ليس بقادح في الغرض .

قال الحكيم : سألت أعزك الله وأدام كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة وقرع ملوكهم فأثبت لك ذلك بما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون الفنش قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فتقول :

ذكر في التاريخ المذكور أن الأرض المسماة الآن قرطون ، وفي الزمان القديم قانتطابرية كانت بأيدي ناس عظماء يُسمون دوقيش ؛ ونشأ بينهم نزاع وخلاف أوجب فراق أحد أولئك الرؤساء عنها ، واسمه بيلايه بن الدوق قافيلة ؛ وسكن بأرض أشطوريش ، وهي بين أرض ليون وغليسية . فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك ، في سنة ٩٢ من الهجرة ، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثم موسى بعده ، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس ، واتصل الفتح بأرض أشطوريش ، حيث كان بيلايه المتقدم

الذكر ، قام بيلايه لحماية الأرض ؛ واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال ؛ فحصى جهة أشطوريش ، ودافع عنها المسلمين . وعثت مدافعتة وحمايته قطر ليون وقطر برتقال ، واضطلع بذلك ، ورد عنه العرب ؛ وقد أنس بقتالهم وكثرت موافقاته إليهم . فأتى أهل تلك الجهات على تقديم ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه وبنيته ، وإن كان غريباً عن أرضه ؛ فكان ذلك سنة ٧٥٧ لتأريخ الصفر وبموافقة ٩٩ للهجرة . وهو أول من تسمى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب . ودام ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم مات وملك بعده ابن له يُسمى قافيلة ؛ وتماذى ملكه عامين ؛ ثم قتله دب تعرض له في الصيد ، ولم يحذره ؛ فأتى عليه . وولي الملك بعده صهر له من بنيته وأرضه اسمه دون ألفنش بن الدوق دون بيطره ، من أهل قانتطابرية ، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أم بيلايه ، وأعانته وخدمته ؛ فأكرمته بيلايه ، وزوجه ابنته . فلما هلك ، لم يوجد أولى به منه ؛ فملك في سنة ٧٧٢ ، بموافقة ١١٤ للهجرة . واتصلت مدته تسع عشرة سنة ؛ وكان يُسمى القاطوليقي لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم قاطوليقي .

ولما هلك ، ولي بعده ابنه المسمى فرويلة في سنة ٧٩١ للصفر ، وبموافقة ١٣٣ للهجرة ؛ وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وعقدت له البيعة بالأندلس تاسع ذي الحجة من سنة ١٣٨ .

ولما هلك فرويلة ملك بعده أخوه أيرلييه ، واستولى على أرض أشطوريش التي منها أصله وأرض غليسية وأرض برتقال وبعض ليون . وكان ملكاً كبيراً ؛ وكانت ولايته سنة ٨٠٠ للصفر ، بموافقة ١٤٨ للهجرة ، ومدته ست سنين . ثم هلك . وولي بعده شيله أخوه ثاني سنين . ثم ولي

بعده أخوه 'دون ألفننش' بن 'فرؤيلة'، وتسمى قاشتطه (ومعناه الملك الصالح) لعفاف وصلاح كان عليه عندهم؛ واتصل ملكه إحدى وأربعين سنة؛ وكان ابتداء أمره سنة ٨١٨ للصفرة؛ وثار عليه عم له، ابن جارية غير مسموورة، اسمه 'موريطاطه'؛ فخلعه وملك بعده خمس سنين. ثم ولي بعد هذا الخالع قريب له تغلب عليه اسمه 'برموده'، كان أول أمره قساً أي عالمياً فقيهاً في دينهم؛ وملك ست سنين. ثم عاد الأمر إلى المخلوع 'ألفننش' بن 'فرؤيلة' مدة، إلى تمام الإحدى والأربعين سنة المذكورة. ثم ملك بعده، لما هلك، 'رمير' بن 'دون ألفننش' القاطوليفه، المتقدم الذكر قبل هذا، اختياراً من الناس، وذلك سنة ٨٦٥ للصفرة. ثم ولي بعده ابنه 'أردونني' سنة ٨٦٥؛ وكانت مدته عشر سنين. ثم ملك بعده ابنه 'دون ألفننش' بن 'أردونني'؛ وتسمى ماغنه، أي الملك الكبير؛ وكانت مدته ستاً وأربعين سنة؛ وولي وزيراً له 'السن'؛ رحطه منكنه واتسعت مملكته؛ وهو الذي نقل دار ملك أبيه إلى 'ليون'، وتسمى ملك 'ليون'. وكان ابتداء ملكه سنة ٨٧٥، بموافقة ٢٤٨ للهجرة.

ثم ولي بعده ابنه 'دون غرسية'؛ وكان ابتداء ملكه سنة ٩٢٤ للصفرة، بموافقة سنة ٢٩٧ للهجرة؛ ومدته ثمان سنين. ثم ملك بعده أخوه 'فرؤيلة' سنة ٩٣٢، بموافقة ٣٠٥ للهجرة؛ وكانت مدته سنة واحدة وشهرين؛ وأصابه مرض الجذام؛ فلم يأت معه قيامه بالملك. ولهذا العهد نشأ بجهة 'ليون'، التي كان يحكم قشتالة من قبل ملكها، شتات واختلاف أوجب اقتطاع البلاد القشتالية عن ملك 'ليون'؛ فقدم أهلها على أنفسهم ربيعي من سنة ٩٣٢، حسب جرى عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عهد ملوك الطوائف؛ وتغلب القضاة، وسالموا ملك 'ليون' على أن يخدموه بثلاثمائة فارس متى احتاج لذلك؛ فقبل ذلك منهم، وقمع بطاعتهم. وكان أحدهما يسمى 'نونني' رجورة، والآخر لاين قائلبه. ومن

نونني رجورة تناسل ملوك قشتالة و'ليون' الذين استقر الملك في عقيهم على عهد.

رجع الحديث للملك 'ليون'. ثم ملك بعد 'فرؤيلة' 'دون ألفننش' بن 'دون أردونني' خمس سنين وثمانية أشهر؛ ثم زهد، وترهب، وأصابه وسواس؛ فقتل بعد ذلك عن الملك لأخيه 'رمير' سنة ٩٣٣؛ وكانت مدة ملكه عشرين سنة. وفي السنة الأولى من مدته، قام بقشتالة داعياً إلى نفسه القمزر 'دون قران غنصالس'، حفيد 'نونني' رجورة أحد القاضيين المذكورين قبل.

رجع الحديث ل'ليون'. ثم ملك بعد 'رمير'، 'أردونني' ابنه سنة ٩٥٨، بموافقة سنة ٣٣١ للهجرة؛ فكانت مدته خمس سنين وستة أشهر. ثم ثار عليه وخلعه أخوه 'دون سانش' سنة ٩٦٣ للصفرة، بموافقة سنة ٣٣٦ للهجرة؛ وكانت مدته اثنتي عشرة سنة.

وفي مدة سانش هذا الثائر بأخيه، خرجت قشتالة عن حكم صاحب 'ليون' جملة؛ واستقل القمزر المذكور 'قران غنصالس' بها؛ ولم يبق فيها للملك 'ليون' طاعة. وكان سبب ذلك أن القمزر 'دون قران غنصالس' حدث بينه وبين سانش سلطان نبارة مفاتنة؛ فغلبه القمزر وقتله. وملك بعده نبارة ابنه 'دون غرسية'؛ وكانت بنت ملك نبارة زوجاً لدون سانش؛ صاحب 'ليون'؛ وكانت تطالب القمزر بعداوة قتله لأبيها، وهي مع ذلك تخادعه وتربيه الصداقة؛ وكانت تعده بتزويج بنت أخيها 'غرسية' صاحب نبارة ولدي قتيله، لتزول بينهم العداوة رأساً؛ وداخلها زوجها ملك 'ليون' في استدعائه لحضور رأي كبير يستونه القمزر، تحضر فيه الملوك والأمراء لتقدير المصالحة الوقتية والأبدية؛ ففعل ذلك؛ ووعد القمزر بالوصول؛ فكتبت المرأة لأخيها صاحب نبارة أن يحاول أمره في طريقه، ويؤنسه، ويطلب

لقائه لعله يتأتى فيه ثأره . فلما قضى القُمز حاجته من حضور القُرْتِ ، ورجع قافلاً إلى بُرْغَش بَلَدِهِ من عمالة قَشْتَالَة ، طلب منه صاحب نَبَارَة الاجتماع ؛ فوقع الاتفاق على أن يستصحب كل واحدٍ منهما سبعة من الفرسان بدون سلاح . وجاء القُمز بحال طمأنينة على بغلة ، وفرسانه السبعة بين يديه ، حتى إذا قَرُبَ من مكان الوعد ، رأى صاحب نَبَارَة في خمسة وثلاثين فارساً يحملون السلاح ؛ فَأَيَقَنَ بالشرِّ ، وأعجلوه عن التحول إلى الفَرَس . فدخل جَنَّةً كانت بالموضع ، واعتصم ببرجٍ كان هنالك ؛ ودافع هو وناسه عن أنفسهم ؛ فقَاتَلَهُ صاحب نَبَارَة قتالاً شديداً بقيَّةَ اليوم إلى نصف الليل . ثم اقتضى أمانته على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل ؛ ونزل ؛ فاحتمله صاحب نَبَارَة إلى ناجية ؛ فأَكْبَلَهُ ، وبقي عنده سنة ونصف سنة . ثم رغب منه سراح فرسانه إلى قَشْتَالَة ؛ فسرَّحهم .

واتفق أن حلَّ بالموضع قُمزٌ معروفٌ من أرضٍ أخرى ؛ فطلب أن يزور القُمزَ الأسيرَ ، وأسفق لحاله ، ووعدته المشاركة الجميلة في أمره ؛ وطلب زيارة بنت صاحب نَبَارَة ، وهي التي كان القُمزُ الأسيرُ وَعَدَ بتزويجها . وعقدَ من ذلك حديثٌ حَثَّ له بسببه ؛ فأخذ معها في شأنه ، وضمن لها ، إن خلصته من أسره ، أنه يحملها معه إلى قَشْتَالَة ، ويتزوجها ، ويعرف لها قدرَ إحسانها إليه .

وللنصارى في أثناء هذا أحاديثُ وأشعارُ ومعانٍ ترجع إلى شطارة العشاق وارتكابهم الأخطار . فتمَّ ما ذهبت إليه من ذلك ، وذهب بها إلى قَشْتَالَة ، وتزوجها ، وعاد إلى مُلْكِهِ ، ووالى الحروب على صاحب نَبَارَة ، إلى أن أسره وانتصف منه ؛ وأقام في أسره ثلاثة أشهر . ثم تشفَّعت فيه بنته ؛ فأطلقه طَوْعاً . ثم طال الأمدُ ، واستدعى صاحب لِيُون القُمزَ مرةً أخرى لحضور قُرْتِ آخر ؛ فوصل إليه ، وهذا على

عَهْد المنصور محمد بن أبي عامر . وهم كلُّهم بين موافقه عن بلادهم لابن أبي عامر وبين تقيَّةٍ وسلَّم .

وقد كان القُمزُ غُنْصَالِسَ صاحب قَشْتَالَة فَسَدَ ما بينه وبين صاحب لِيُون ؛ فقبض عليه وأسرَه سنة ٩٧١ . ودبرت أيضاً زوجته بنت ملك نَبَارَة التي خلصته من الأمر الأوَّل الحيلة في خلاصه من هذه ؛ فسرت من بُرْغَش في خمسمائة فارسٍ مختارة ، تطوي المراحل ليلاً ، إلى أن كانت على ثلاثة فراسخٍ من لِيُون ؛ وتركت الفرسان في غياضٍ وجبالٍ ، وأقبلت في زيِّ راهبةٍ تقصد الحجَّ لثَلَثَ يَاقُوب . وأكْرَمَ السلطانُ صاحب لِيُون قدومها ، وتبرَّك بها ؛ فسألت منه أن تزورَ القُمزَ أسيرَه ، وتُسَافِرَ من الغدِ إلى الحجِّ ؛ فأذن لها في ذلك ؛ فأطالت معه الحديث . ثم أمرته يخرج في زيتها مع أحد خدَمَتِها يُخَاطِبُ الحرسَ عنها ؛ وبقيت هي راقدةً في سرير القُمزِ كأنه لم يبرح . فلما حصل في ظاهر البلد ، وجد الحيلَ تنتظره بكلِّ فَرَسَخٍ ، إلى أن وصل بجبلٍ خيَّله . ولما تعرف صاحب لِيُون ذلك ، شقَّ عليه ؛ ثم لم يسعه إلا أن وجهه إليه زوجته هذه مُفَرَّجة الشدائد . وكان هذا القُمزُ فارساً كبيراً ، لا نظيرَ له ؛ فشمَّرَ بعد ذلك في حرب صاحب لِيُون ، وأضاقه ، وغم أرضه ، إلى أن اضطرَّ على أداء حقوقِ كانت للقُمزِ قبله ، والتسليم فيما بيده ؛ فاستقلَّ القُمزُ بأرض قَشْتَالَة هُنَّ حينئذٍ .

رجع الحديث إلى ملك لِيُون . ثم توفي دون سانشيه ملك لِيُون . وولي بعده ولده رَمِيْرُه ، وهو صبيٌّ صغيرٌ من خمس سنين ، وذلك في سنة ٩٧٥ ؛ وكانت مدته خمساً وعشرين سنة . وتولَّتْ تدييرَ مُلْكِهِ والدته دُونَة طَرِيحَة وعمته دُونَة إلبيرة . وهلك القنْدُ دونَ فَرَّانِ غُنْصَالِسَ أيضاً في زمانه سنة ٩٧٨ ؛ فكانت مدة القنْدِ فَرَّانِ غُنْصَالِسَ نحواً من تسع وثلاثين سنة . ثم ثار عليه في غليسية دون بَرْمُودُه بن دون

أرْدُونِيَّةً وَمَلِكُهَا . ولما مات دُون رَمِيرُهُ الذي تقدَّم صبيّاً ، ودبرَّته أمُّه وعمَّتُه ، خلص الملكُ لدُون بَرْمُودُهُ بن دُون أرْدُونِيَّةٍ ؛ وكان مبتدأً مُلْكِهِ سنة ١٠٠٠ للصُّفَر ، ومُدَّةُ مُلْكِهِ سبع عشرة سنة . وعلى بَرْمُودُهُ هذا أَلَحَّ ابنُ أَبِي عامِرٍ بالغزوات ؛ وفي مُدَّتِهِ ومُدَّةِ مَنْ قَبْلَهُ ومن بَعْدَهُ قريباَ منه ، كان سُوْقُ ذلك الجهاد المحظوظ .

ثمَّ ملك بعد دُون بَرْمُودُهُ ابنُه دُون أَلْفُونَشُ سنة ١٠١٧ للصُّفَر ؛ وكانت مُدَّتُهُ سبعاَ وعشرين سنة . وملك بعده دُون بَرْمُودُهُ وَلَدُهُ سنة ١٠٤٤ لتأريخ الصُّفَر ؛ وكانت مُدَّتُهُ عشر سنين . وكان دُون بَرْمُودُهُ هذا قد تزَوَّج بنتَ قُنْدَرِ قَشْتَالَةَ واسمُها طَرِيحَةُ ؛ ويأتي خبرُه بَعْدَ . وعند هلاك دُون بَرْمُودُهُ ، انتقل الملكُ لنسل القُمَز دُون فَرَّانِ غُنْصَالِسِ حَقِيدِ القَاضِي الأوَّل نُونِيَّةٍ رَجُورَةَ المتقدِّم الذكر .

ولما انتقل ملكُ لِيُون إلى حَقِيدِ نُونِيَّةٍ رَجُورَةَ القَاضِي بِقَشْتَالَةَ ، بسبب البنت التي كانت زَوْجاً لِبَرْمُودُهُ مَلِكِ لِيُون وكونِه لم يعقب ، فنَدَّ كَرُّ عَقِبِهِ من هذا الجدِّ ، وهو الذي صار أصلاً وانقطع ما قبله ؛ فنقولُ : تولَّى القَاضِي الأوَّلُ نُونِيَّةٍ رَجُورَةَ سنةً واحدةً ، وهي سنة ٧٣٢ ؛ ثمَّ هلك ؛ فولي بعده ابنُه غُنْصَالِسِ نُونِس ؛ ثمَّ تولَّى بعده ابنُه القُمَز دُون فَرَّانِ غُنْصَالِسِ ، المتقدِّم الذكر ، تسعاً وثلاثين سنة ؛ ثمَّ تولَّى بعده القُمَز دُون غَرَسِيَّةِ فَرَّانْدِس ؛ ثمَّ تولَّى بعده ابنُه دُون سَانِجُهُ . وكان لدُون سَانِجُهُ ابنتانِ إحداهما تسمَّى دُونَةُ طَرِيحَةُ ، تزَوَّجَتْ دُون بَرْمُودُهُ صاحبَ لِيُون ، والثانية تسمَّى دُونَةُ إِلْبِيرَةَ ، تزَوَّجَتْ سَانِجُهُ مَلِكَ نِبَارَةَ ، ووددَ منه ابنتين كبيرُهُما دُون غَرَسِيَّةِ مَلِكِ نِبَارَةَ بعد أبيه ، والثاني دُون فَرَّانْدُهُ الذي هو أوَّلُ من تسمَّى مَلِكِ قَشْتَالَةَ . وكان لدُون سَانِجُهُ وَلَدٌ من عشيقَةٍ غيرِ مَهْورَةٍ اسمه دُون رَمِيرُهُ ، مَلِكِ أَرْضِ أَرَعُون . فمن نسل دُون فَرَّانْدُهُ

هم مَلُوكُ قَشْتَالَةَ إلى الآن ؛ ومن نسل دُون رَمِيرُهُ هم مَلُوكُ أَرَعُون . فلما توفِّي دُون سَانِجُهُ قُمَزُ قَشْتَالَةَ ، ولي بعده دُون غَرَسِيَّةِ ابنُه ؛ وكان ضعيفَ العقل ؛ اقتضى نَظَرُهُ التوجُّهَ إلى لِيُون ليتزوَّج بها أختَ مَلِكِهَا بَرْمُودُهُ ، وحمل معه صهرَه دُون سَانِجُهُ مَلِكِ نِبَارَةَ ؛ فنزل صاحبُ نِبَارَةَ بِفَحْصِ لِيُون ، ونزل دُون غَرَسِيَّةِ بداخلِ البلد ، وحدث بالبلد فِتْنَةٌ وهَرَجٌ قُتِلَ فيه . وقيل إنَّ قَتْلَهُ بإشارةِ سُلْطَانِ لِيُون . وقامت الحربُ لأجل ذلك بين صاحبِ لِيُون وبين صاحبِ نِبَارَةَ ؛ وقد انضافت إلى مُلْكِهِ بعد قَتْلِ صهرِه قَشْتَالَةَ سنة ١٠٦٦ للصُّفَر ؛ وكانت نحواً من ستِّ عشرة سنة ؛ وقتل طائفةً من الزعماء اثْبَهَتْ بالتدبير على صهرِه ؛ واستضاف أَرْضَهُمْ إلى أَرْضِ قَشْتَالَةَ ؛ وهي المسمَّاة ببلَدِ وَلِيد ، وسَنَطِمَنْقَش ، وما إليها ؛ فضخَّم مُلْكُهُ . ثمَّ تصالَّح مع صاحبِ لِيُون على أن يتزوَّج ابنُه دُون فَرَّانْدُهُ مع أختِهِ ، وأن يُسمَّى مَلِكِ قَشْتَالَةَ . وأعطاه أبوه جُزءاً كبيراً من أَرْضِ نِبَارَةَ ، وهي نَاجِرَةَ وما إليها . فلما توفِّي أبوه ، تحرَّك مَلِكُ لِيُون لِقِتَالِهِ ، وأصرخ المذكور أخاه القائمُ بعد أبيه بِمَلِكِ نِبَارَةَ ؛ فغلبا على صاحبِ لِيُون ، وهزمَاه ؛ وقُتِلَ في الحرب . فانصرف مَلِكُ لِيُون لدُون فَرَّانْدُهُ بن دُون سَانِجُهُ المتقدِّم الذكر .

ثمَّ قال الشيخ الحكيم : وإذ بلغنا إلى هذا الحدِّ ، فلننذكر الآن مَلُوكَ قَشْتَالَةَ وَلِيُون ، ونجعل إلى ذات اليمين عدَدَ الأولاد من عَقِبِ بَلَايُهُ ، وإلى ذات اليسار عدَدَهُمْ من عَقِبِ فَرَّانْدُهُ هذا المذكور . فنقول :

مَلِكُ دُون فَرَّانْدُهُ صاحبُ نِبَارَةَ وقَشْتَالَةَ وَلِيُون أربعين سنةً وستَّةَ أشهر ؛ وكان ابتداء مُلْكِهِ سنة ١٠٥٣ للصُّفَر ؛ وقسم مُلْكَهُ على أولاده الثلاثة ؛ فأعطى مَلِكِ قَشْتَالَةَ لدُون سَانِجُهُ وَلَدَهُ الأكبر ، وأعطى مَلِكِ لِيُون لدُون أَلْفُونَشُ ، وأعطى مَلِكِ غَلْبَسِيَّةِ وَبَرْدَقَالَ



لدون غَرْسِيَّة . فلما توفي دون فَرَّانْدُه ، ثار دون سَاجُجُه على أَخَوَيْه ، وأخذ منهما المُلْك ، وأمرهما . فأما دون غَرْسِيَّة ، فقيَّده بالحديد ، وسجنه في حصن ناجرة ؛ فبقي بها نحواً من ثمانين سنة . وأما أخوه دون أَلْفُنْشُ ، فجعله مُورنجاً في موضع عبادة على رسم الزُّهاد ، مُرَقَّباً عليه بموضع يُقال له سَفْقَنْد ؛ واحتال ، فهرب منه ، ولحق بطَلَيْطَلَة ، وبها يومئذ المأمون بن ذي النُّون ؛ فأواه ، وأجاره ، وسكن عنده ؛ وسكناه بطَلَيْطَلَة واطَّلَعَه على عَوْرانها هو الذي أَوْجَبَ تَمَلُّكُ النصارى بها ؛ وأقام عند ابن ذي النُّون إلى أن قُتِلَ أخوه سَاجُجُه بتدبير أخيه أَرَاكَة ، إذ داخلَتْ في قَتْلِهِ بَعْضُ فُرْسَانِه ، وقد خرج يتصيد ؛ فطارَدَ صَيْداً ؛ وذلك الفارسُ يَقْقُوهُ ؛ فلما انفرد به ، طعنه برُمحٍ كان له ، وقتله ؛ ورخص ؛ فلحق بالأخت المذكورة بمدينة سَمُورَة ؛ فاستجار بها . ووجهه عنه النصارى إلى طَلَيْطَلَة ؛ فولَّوه عَوْضاً منه ؛ وذلك سنة ١١٠١ . ولما ملك ، أنفذ الأمرَ بِقَتْلِ قاتِلِ أخيه ، وقال ما مَعْنَاهُ : « عَمَلٌ جَيِّدٌ وَعَادَةٌ سُوِّءٌ ! »

ثم توفي في شهر يونيه سنة ١١٤٧ ؛ فلم يترك وَلَدًا ؛ فولي المُلْك حفيده وَلَدُه وَلَدَه فَرْدَزَنْدُ .

وقال الحكيم فيه : هذا الحَفِيدُ المسمَّى بِأَلْفُنْشُ هو الذي تَمَلَّك طَلَيْطَلَة وما إليها . وكان ابتداء مُلْكِه سنة ١١٤٧ للصُّفَر . وكانت مُدَّتُه ستّاً وخمسين سنة . قال : وهو أوَّلُ من تسمَّى إِنْشِيرْدُور ؛ ومَعْنَاهُ سُلْطَانُ السُّلَاطِين ، إذ مهَّد جيوانه ، وافتتح دارَ مُلْكِ النصارى القُوط طَلَيْطَلَة ، واستخدم ملوك المسلمين بالأندلس .

قال ابنُ وَقَار : كان له سبعة من الملوك يخدمونه ، ولا يُعْصُونَ أَمْرَه بين مسلمين ونصارى . وفي مُدَّتِه خَرَجَتْ جِهَةٌ بُرْتُقَال عن حُكْم قَسْتَالَة في أوَّلِ أَمْرِه ، إذ كان صغيراً عند الولاية ؛ وكان جدُّه دون

أَلْفُنْشُ قد زوَّج بنتاً له مع أحد قرابته اسمُه أَنْشَرِيْق ، وأعطاه بُرْتُقَال ، وسماه دُوقاً . ثم ، لما هلك وولي بعده بُرْتُقَال ابنه ، توجه إلى الباب ؛ فولَّاه بُرْتُقَال ، وثبَّتْها له ؛ فلم يقدِّه أَلْفُنْشُ صاحب قَسْتَالَة وليُّون على أنَّ التَّهْي به . فمن نسَّله مُلُوك بُرْتُقَال إلى الآن ، حسبما يأتي إن شاء الله .

قلتُ : وهذا أَلْفُنْشُ المَعْمَر هو الذي طَعَى واستخوذ على ملوك المسلمين ، وضرب بين أمراء الطوائف ، إلى أن قبعه الله بِلَمْتُونَة ، وهزمه هزيمة الزُّلَاقَة على يد يوسف بن تاشفين ، حسبما يأتي إن شاء الله .

قال ابنُ وَقَار فيه : ثم قسم مُلْكَه قسَمَيْن ؛ فأعطى مُلْك قَسْتَالَة وَلَدَه سَاجُجُه ؛ وتسمَّى بِاسْمِ المُلْك في حياة أبيه خمس سنين ؛ وأعطى مُلْكَ لِيُون وَعَلِيْسِيَّة وَلَدَه دُون فَرَّانْدُه . ثم استمرت أَيَّامُ دون سَاجُجُه بعد موت أبيه عاماً واحداً . ثم توفي سنة ١١٩٨ ؛ وترك ابناً صغيراً من أربع سنين اسمه دُون أَلْفُنْشُ ؛ فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة . وهذا الصبيُّ المَعْمَر هو الذي جَرَتْ عليه الهزيمة المعروفة بِالْأَرَك على يد يعقوب المَنْصُور بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ - رحمه الله - سنة ١٢٣٣ للصُّفَر ، وفي شهر أَعَشْت . ثم دالت له الأَيَّام ؛ فكانت له على الناصر بن المنصور هزيمة العِقَاب ، التي لم تستقل العثرة بعدها بالأندلس ؛ وذلك ثامن عشر من يُولِيه من سنة ١٢٥٠ للصُّفَر . وكان هذا الملك الروميُّ بعيدَ الهِمَّة ؛ لبس من بعد الهزيمة عليه ثيابَ الحزن ، وأقسم أن لا يزيلها حتى يأخذ ثأره . فلما أُنْجَح له الظفرُ بالناصر بن المنصور ، رغب منه النصارى أن يرفع الحزن ؛ فقال : « وكيف وأنا لم أَتَصِف ؛ إنما غلبتُ ابْنَ من غلبني ! هُزِمْتِي في عنق الابن ، وهُزِمْتِي الأب في عنقي ! لم تُزِلْها عني غلبتي لغيره ! »

وكانت له ابنة اسمُها بَرْتُقَالَة ، زوَّجها ابن عمِّه دون أَلْفُنْشُ

مَلِكُ لِيُون ؛ فولدت له وَلَدَيْنِ أَكْبَرُهُمَا فَرَّانْدُهُ ، وَأَصْغَرُهُمَا دُونُ  
أَلْفَنْشُ ؛ فَمَلِكُ فَرَّانْدُهُ بَعْدَهُ قَشْتَالَةُ وَلِيُون . وَكَانَ أَلْفَنْشُ  
لِقَانَتِ مَلِيْنَةَ ؛ وَمَعْنَى الْإِقَانَتِ وَلَدُ السُّلْطَانِ . فَلَمَّا تَوَفَّى أَلْفَنْشُ ،  
وَلِيَ ابْنُهُ دُونُ إِنْرِيْقِ ثَلَاثَ سِنِينَ ، أَوَّلُهَا سَنَةُ ١٢٥٠ . ثُمَّ هَلَكَ بِحَجَرٍ  
أَصَابَ دِمَاغَهُ فِي لَعِبٍ مِنَ الصِّبْيَانِ عَامَ ١٢٥٣ ؛ فَرَجَعَ الْمُلْكُ لِأَخْتِهِ  
مَلِكَةِ لِيُون ؛ فَأَعْطَتْهُ وَلَدَهَا فَرَّانْدُهُ . فَهَذَا فَرَّانْدُهُ مَلِكُ  
قَشْتَالَةَ مِنْ أُمِّهِ وَمَلِكُ لِيُونِ مِنْ أَبِيهِ ؛ وَهُوَ الَّذِي تَمَلَّكَ قُرْطُبَةَ  
وإِسْبِيلِيَّةَ وَجِيَّانَ وَمُرْسِيَّةَ . وَحَسْبُكَ هَذَا الظُّهُورُ الَّذِي أَقَامَ الْبُرْهَانُ  
عَلَى أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَرْتَنُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا ! فَكَمْ اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَدَائِنُ الْعَظِيمَةُ  
مِنْ بِلَادٍ وَعَمَلَاتٍ وَمَنَابِرٍ وَمَسَاجِدٍ وَأَعْيَانٍ وَفُرُوسَانٍ وَعُلَمَاءٍ وَأَعْلَامٍ !  
« ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ! »  
وَهُوَ الْمَسْمُومُ بِالْأَحْوَالِ ؛ وَعَلَى عَهْدِهِ كَانَ قِيَامُ ابْنِ هُودٍ وَابْنِ تَصْرٍ وَغَيْرِهِمْ  
مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَهَلْكَ بَعْدَ اسْتِخْلَاصِ إِسْبِيلِيَّةَ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ كَهَنَةُ  
لِلرُّومِ تَرْمِزُ ، فَقَوْلُ : « الْأَسْوَدُ الْأَحْوَالُ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي الزَّيْتِ  
هَلَكَ ! » يَعْنُونَ إِذَا مَلِكُ إِسْبِيلِيَّةَ مَعَدِنَ الزَّيْتِ . وَكَانَتْ مُدَّتُهُ خَمْسًا  
وِثْلَاثِينَ سَنَةً ، وَابْتَدَأَ مُلْكُهُ مِنْ لَدُنِ ١٢٦٥ لِلصُّفْرِ .

وَوَلِيَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ دُونُ أَلْفَنْشُ سَنَةَ ١٢٩٠ لِلصُّفْرِ ؛ وَكَانَتْ مُدَّتُهُ  
ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ ؛ عِنْدَ تَوَلَّيْهِ دُونُ عَمْرَهُ ، وَخَافَ مِنْ  
أَنْ يَطْرُقَهُ الْمَوْتُ ؛ فَيَخْرُجُ الْمُلْكُ عَنْ عَقِبِهِ ؛ فَجَعَلَ الْمُلْكُ بَعْدَهُ حَفِيدَهُ  
مِنْ بَنِيهِ ذِي الْعَرَفِ . ثُمَّ وَلِدَ لَهُ بَعْدَ هَذَا وَلَدُهُ السُّلْطَانُ دُونُ جَانْجُهُ ؛  
فَلَمَّا كَبُرَ دُونُ جَانْجُهُ ، عَظُمَ عَلَيْهِ انْفِرَادُ ذِي الْعَرَفِ بِالْمُلْكِ دُونَهُ ؛  
وَلَمْ يَسَعِ الْأَبَ حُلُّهُ ؛ فَشَرَّ عَنْ مُخَالَفَتِهِ لِأَبِيهِ وَاسْتِخْلَاصِ الْمُلْكِ بِالسِّيفِ ؛  
فَخَلَعَ الْأَبَ ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ ، إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بِيَدِهِ إِلَّا قُرْطُبَةُ وَأَحْوَاظُهَا ؛  
وَاسْتَصْرَعَ عَلَيْهِ بِالْمَوْلَى السُّلْطَانُ الْمُتْرَابِطُ أَبِي يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ ، وَلَاذًا

بِهِ ، وَرَهْنٌ عِنْدَهُ تَاجَهُ ذَخِيرَةُ النَّصَارَى الْمُسْتَقَرَّةُ بِدَارِ مَرِينِ ؛ وَلَقِيَهُ  
بَصَخْرَةُ عَبَّادٍ مِنْ أَحْوَاظِ رُنْدَةَ ؛ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . وَيُقَالُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ،  
لَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ ، طَلَبَ بِلِسَانِ الزَّنَائِيَةِ الْمَاءَ ؛ فَغَسَلَ بِهِ يَدَهُ مِنْ قَبْلِ  
أَلْفَنْشُ أَوْ مُصَافَحَتِهِ .

وَالشَّيْءُ يُذَكِّرُ بِالشَّيْءِ . فَأُثْبِتُ حِكَايَةَ اتَّفَقَتْ لِي بِسَبَبِ ذَلِكَ ،  
أَسْتَدْعِي بِهَا الدُّعَاءَ مِمَّنْ يَحْسُنُ عِنْدَهُ مَوْقِعُهُمَا . وَهِيَ أَنَّ الْيَهُودِيَّ الْحَكِيمَ  
ابْنَ زَرْزَارَ ، عَلَى عَهْدِ مَلِكِ النَّصَارَى حَفِيدِ هَذَا أَلْفَنْشُ الْمَذْكُورِ ،  
وَصَلَ إِلَيْنَا فِي حَوَاجَتِهِ ، وَدَخَلَ إِلَيَّ بِدَارِ سُكْنَائِي مُجَاوِرَ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ  
بِحَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ ، وَعِنْدِي الْقَاضِي الْيَوْمَ بَغْرَنَاطَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ،  
وَبِيَدِهِ كِتَابٌ مِنْ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ السُّلْطَانِ  
الْكَبِيرِ الْمَوْلَى أَبِي الْحَسَنِ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ هَذَا قَدْ فَرَّ إِلَى صَاحِبِ قَشْتَالَةَ ،  
وَاسْتَدْعَى مِنْ قَبْلِهِ الْمُلْكَ ؛ فَسَهَّلَ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ مَا سَاءَ ؛  
وَرُبَّمَا وَصَلَهُ خِطَابُهُ بِمَا لَمْ يَقْنَعَهُ فِي إِطْرَائِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « مَوْلَايَ السُّلْطَانُ  
دُونُ يَطْرُقُهُ يَسَلِّمُ عَلَيْكَ ، وَيَقُولُ لَكَ : انْظُرْ مُخَاطَبَةَ هَذَا الشَّخْصِ !  
وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ بَابِهِ ، حَتَّى تَرَى خَسَارَةَ الْكِرَامَةِ فِيهِ ! »  
فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ ، وَقَرَأْتُهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : « أَبْلَغُهُ عَنِّي أَنَّ هَذَا  
الْكَلَامَ مَا جَرَّكَ إِلَيْهِ إِلَّا خَلُوكَ بِأَبِيكَ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ بِالْكِلَابِ  
وَبِالْأَسْوَدِ ، وَبِئْسَ تَغْسِلُ الْأَيْدِي مِنْهُمْ إِذَا قَبِلُوهَا ؛ فَتَعْلَمُ مِمَّنْ الْكَلْبُ الَّذِي  
تَغْسِلُ الْيَدَ مِنْهُ وَمِمَّنْ لَا . وَإِنَّ جَدَّ هَذَا الْوَلَدِ هُوَ الَّذِي قَبَلَ جَدَّكَ  
يَدَهُ ، وَاسْتَدْعَى الْمَاءَ لَيَغْسِلَ يَدَهُ مِنْهُ بِمَحْضَرِ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَنِسْبَةُ  
الْبَدْنِ الْإِنْسَانِيِّ كَنِسْبَةِ الْبَدَنِ إِلَى الْحَفِيدِ ! وَكَوْنُهُ لَجَأً إِلَى بِلَادِكَ لَيْسَ بِعَارٍ  
عَلَيْهِ . وَإِنَّكَ مَعْرُوضٌ إِلَى اللَّجَاءِ إِلَيْهِ ؛ فَيُكَافِيكَ بِأَضْعَافٍ مَا عَامَلْتَهُ بِهِ ! »  
فَقَامَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُسْتَقْضَى يَبْكِي ، وَيَقْبَلُ يَدِي ، وَيَصِفُّنِي بَوِيَّ اللَّهِ ، وَكَذَلِكَ  
مِمَّنْ حَضَرَنِي . وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَغْرِبِ رَسُولًا ؛ فَقَصَّ عَلَى بَنِي مَرِينِ خَبَرَ مَا

شاهدته مني وسمعه ؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه !

رجع الحديث . ثم هلك ألفونس . وولي الأمر بعده دون سانشيه ابنه سنة ١٣٢٢ للصفر ؛ وكانت مدته اثني عشرة سنة ؛ وهو الذي افتتح طريف ، ونازل الجزيرة ؛ وكانت الوقعة بأسطوله . ثم هلك ، وولي بعده قرأندة ، وهو صبي صغير دون عشر سنين ، في الثامن والعشرين لإبريل العجسي من سنة ١٣٣٣ للصفر . وهو الذي نازل الجزيرة ، وأخذ جبل الفتح ؛ وكانت مدته سبع عشرة سنة . ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بالقة ، نازل القبداق وهلك عليها . وولي بعده ابنه دون ألفونس في سابع ستنبر عام ١٣٥٠ ، وسنه ثلاثة عشر شهراً ؛ وتقدم لتربيته واليابة عليه عمه دون بطر ؛ وهو الذي وقعت عليه وقعة المروج بظاهر غرناطة ؛ وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن بين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب ؛ وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن عطته ، واحتيج إلى بناء البرج ؛ وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطُر إلى الكشف عن التابوت ؛ فألقي قد عفن ؛ واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ؛ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريد أساقفتهم . فلما أخرجت الرمة لتُنقل إلى التابوت ، أُلقي بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتت فيها يد مجاهدة يوم الوقعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وسألت الله بركة معلم بها ، وأمرت برده بمكان بنائه ، وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكايه الكفار إذا مروا به ، وتخليد الفخر للدين ما شاء الله . والله ينفع بالمقاصد الخالصة لوجهه الكريم !

ثم كبر ألفونس هذا ؛ فاستولى على ثغر وبرة عند فتنة الغزاة بأندرش ؛ ثم على بلد أطيبة ، والحفرة المنسوبة إليها . وأوقع بالمسلمين الوقعة العظمى بطريف . ثم نال قلعة تحصب على ستة فراسخ من الحضرة وملكها . ثم أملى الله له بشق عصي الأمة ، وما نال أمير المسلمين المرجو لنصرها من التمهيص بالقيروان ، واستبداد ولده عليه بملك المغرب ؛ فانتهر الفرصة في الأندلس ، ليأس أهلها من نصرة الإسلام ؛ فتحرك إلى إشبيلية ، ونازل جبل الفتح ، وشد حصاره إلى أن نزل اللطف الحفي بهلاكه عليه ، بعد ما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة ١٣٥٠ . للصفر ، بموافقة محرم من عام ٧٥١ ؛ فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة .

وتولى الأمر بعده ولده دون بطر . وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملته ؛ فاحنى على سلطان برجلونة إلى أن انتزع كثيراً من بلاده ، كدانية وقلعة أيوب ، وأريولة ، وغيرها ؛ ونازعه أخوه الملك ، وهو إنريق ، ابن أبيه من غشقة أولدها ولداً ، جملة لما شاء الله من شتات كلمتهم . وكرهت بطر النصرانية لكثرة الكلف واتصال الحركات والاستعانة بالمسلمين ؛ فخلع وفر إلى بلد أربونة من عمل صاحب الاغلطرة ، بعد أن انتهت دار ملكه بإشبيلية ، وعانت أيدي الرعية في خزائنه بجزء من عيئه . واستولى على البلاد أخوه إنريق ؛ فلقق بإشبيلية مستدعي من أهلها ؛ وأهطعت الأرض إلى طاعته . وأعان دون بطر ملك الجهة التي قصد ، وشر لنصره ، وتحرك في جمع كثير من أهل تلك الأرض ؛ وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ، ووفور العدة ، والقتال من بعد الاسترحال ، ولزوم الأرض على الكريمة . وكان اللقاء بين الطائفتين بناجيرة من أحواز نبالرة ؛ ف وقعت على إنريق الهزيمة المستأصلة ، وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شردمة قليلة ؛ وتلف كباره وخلصاته



وَمِنْكُمْ أَرْغَبُونَ إِلَى الْيَوْمِ . انتهى تأريخهم .

\*\*\*

وقد وَفَيْتَنَا بِبَعْضِ مَا أَرَدْنَا مِنْ هَذَا الْقِسْمِ ، وَسَامَحْنَا الْقَلَمَ فِيهِ ،  
لَكُنْ الْوَطَنُ ، الْوَاقِعُ فِيهِ التَّأْرِيخُ ، وَطَنُنَا الَّذِي لَا نَعْذِرُ بِهِ فِي جَهْدِ  
الْمَشْهُورِ مِنْ أَحْدَاثِهِ ، وَالْمَتَعَارِفِ مِنْ كَوَائِنِهِ ، مَعَ الْإِخْتِصَارِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ،  
وَقَصْدِ الْإِلْمَاعِ . وَبِتَلْوِهِ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَغْرِبِ مِنْ لَدُنْ  
أَحْوَازِ بَرْقَةِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى وَسَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ . وَاللَّهُ وَلِيُّ  
الْإِعَانَةِ سُبْحَانَهُ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ! وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ  
الْوَكِيلُ !

انتهى

القسم الثاني من

كتاب أعمال الأعلام ،

في من يُبَوِّعُ قَبْلَ الْإِحْتِلَامِ ، مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ ،

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

## الفهرس

### الفهرس الاول

#### في اسماء الرجال والنساء

احمد بن حسين الداني ٥٦	أ	ابن الآبار أبو عبد الله ٢٧٣
احمد بن الحسين بن قمي أبو القاسم ٢٤٨-٢٥٢		أبان بن عبد الله الأموي ٢٩ ، ٣٢
احمد بن حنبل ٨٦		ابراهيم بن أحمد بن الحداد ٥٠
احمد بن خالد ٤٩ ، ٥٠		ابراهيم بن احمد بن مفرج بن هشك ٢٦٠ ،
احمد بن دراج القسطلتي أبو عمرو ١٢٣ ،		٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٣		ابراهيم بن برّاز ٢٦٥
احمد بن رُشد ٢٥٢ ، ٢٥٣		ابراهيم بن حجاج الاشيلي ٢٧ ، ٢٨ ،
احمد بن سعيد بن حزم ٣٨ ، ٨٠ ، ١٠٦ -		٣٤ ، ٣٥
١٠٨		ابراهيم بن أبي الحسن بن اشقبولة أبو اسحاق
احمد بن سعيد بن محمد بن الحصار القرطي ٥٣ ،		٢٨٧ ، ٢٩٠
٥٥		ابراهيم بن عبد الله الزبيري القلاي ٤٩
احمد بن سليمان بن محمد بن هود المقتدر بالله		ابراهيم بن عبد الرحمن القيسي ٥٠
١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨		ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن الشرقي ٥٣
احمد بن عبادة ٤٩		الابري ٥٤
احمد (بن عباس) بن أبي زكرياء الوزير ٢١٦		الاجري ٥١ ، ٥٣
احمد بن عبد الله الباجي الاشيلي ٥٤		احمد بن ابراهيم بن أبي سفيان النافقي ٥٥
احمد بن عبد الله بن الحسن القرطي ٥٣		احمد بن ايوب بن أبي الربيع ٥٦
احمد بن عبد الله بن محمد بن عروس		احمد بن بُرد أبو حفص ( كاتب الرسائل )
الموروري ٥٤		٩١ ، ٩٥
احمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان ٤٤ ،		
٤٥ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٢٦		
احمد بن عبد ربه ( الشاعر ) ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٥		احمد بن بقي بن مخلد ٢٩
احمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الكلاعي ٥٣		احمد بن حجر الثائر ٢٤٨

أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عاصم ٢٥٨ ،  
 ٢٥٩  
 أحمد بن عبد العزيز بن عيشون ١٩١  
 أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود  
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٥٣  
 أحمد بن علي بن أحمد أنباغاني ٥٣  
 أحمد بن عمر بن عبد الله بن منظور ابن  
 خفيف ٥٦  
 أحمد بن عفيف القرطبي ٥٥  
 أحمد بن عيسى بن المكرم النافقي ٥٠  
 أحمد بن قمران ٥٠  
 أحمد بن محمد بن أحمد بن حدين ١٧٦ ،  
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨  
 ٢٦٤ ، ٢٦٣  
 أحمد بن محمد ابن حكيم ابو عمر ٨٠  
 أحمد بن محمد بن سليمان بن هود المستعين بالله  
 ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٤  
 أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي ٥٦  
 أحمد بن محمد بن عبد الله بن قاسم ٢٠٨  
 أحمد بن محمد بن عبد الله بن هاني ابن  
 الباب ٥٢  
 أحمد بن محمد القشيطي ٥٠  
 أحمد بن محمد بن مكبال الرضاقي القرطبي ٥٠  
 أحمد بن محمد بن ملحان ٢٦٤  
 أحمد بن مسلمة بن حجاج ٣٥  
 أحمد بن موسى ابو جعفر ( الوزير ) ١٣٦ ،  
 ١٣٧ ، ١٤١  
 أحمد بن هلال ٥٣  
 أحمد بن يحيى بن أحمد العاملي ابن الباق ٥٤  
 أحمد بن يوسف بن إسحاق الاستنجي ٥٤  
 أحمد بن يوسف بن الامام ٥١  
 ابن الاخر ٥٤  
 ابن أبي الاحوص ابو الحجاج ٢٩٩  
 ادريس بن عبد الله ٢٩٧  
 ادريس بن عبيد الله بن ادريس ٥٢  
 ادريس بن علي بن حمود ١٣١ ، ١٤٠ ،  
 ١٤٣ ، ١٤١  
 ادريس المأمون الموحد ٢٧٩  
 ادريس بن يحيى بن ادريس بن علي بن  
 حمود ١٤٢  
 ادريس بن يحيى بن علي بن حمود ١٤١  
 اذفونش ١٢  
 اذفونش بن فرذند ١٥٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،  
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦  
 اركة ٣٣٠  
 اردون بن اذفونش ( ملك جليقة ) ٢٠  
 اردونه بن رمير ٣٢٤ ، ٣٢٥  
 ارمقند ١١٥  
 ابن اسباط = عبد الرحمن  
 اسحاق ٥٨  
 اسحاق بن عطاف ٢٧  
 اسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي  
 ١٤٢ ، ٢٣٧  
 ابو اسحاق الاليري ٢٣١  
 ابو اسحاق ابن أبي القاسم ابن الحكيم ٢٩٢  
 اسلم بن عبد العزيز ٥٧  
 اساعيل بن اسحاق ابن الطحان ٥٠  
 اساعيل بن عباد الراسي ٥٦  
 اساعيل بن عباد بن محمد بن عباد ١٥٦  
 اساعيل بن عبد الرحمن بن دنون ١٧٧ ، ٢٠٥  
 اساعيل بن فرج بن نصر أبو الوليد ٢٩٤ -  
 ٢٩٥  
 اساعيل بن محمد بن عباد ١٢٠ ، ١٣٧ ،  
 ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٨  
 اساعيل بن يوسف بن اساعيل بن فرج بن نصر  
 ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧  
 ابن اشقيولة = ابراهيم بن ابي الحسن ، ابو  
 الحسن ، عبد الله بن ابراهيم ، علي بن

ابراهيم ، علي بن أبي محمد ، فرج بن ابي  
 محمد ، محمد بن ابي محمد ، أبو محمد بن  
 ابي الحسن ، يوسف بن أبي محمد  
 اصبح بن الفرغ بن الفارس الطائي ٥٢  
 ابن الاصبح = عبد الميمن بن مروان ،  
 مروان بن عبد الملك  
 أبو الاصبح ( وزير المستعين ابن هود ) ١٧٤  
 الآصلي ٥٤  
 ابن اضحى ( قاضي غرناطة ) ١٧٦ ، ٢٥٨  
 اعتماد ( جارية المتمد وأم ولد ) ١٥٩ ،  
 ١٦١ ، ١٦٤  
 ابن الاعرابي ٥١  
 أفلح الصقلي ٢١١  
 اقبال الدولة ( لقب علي بن مجاهد ) ٢٢٠  
 البيرة ( دونة ) ٣٢٧ ، ٣٢٨  
 الفنش بن اردونه ٣٢٤  
 الفنش بن الفنش ٣٣٦  
 الفنش بن ازريق ٣٣٦  
 الفنش بن برمودة ٣٢٨  
 الفنش بن بطر ٣٢٣  
 الفنش بن بطر ٣٣٧  
 الفنش بن جاش ٣٣٧  
 الفنش بن شاجه ٣٣٧  
 الفنش بن فراند ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،  
 ( وانظر ايضا اذفونش بن فرذند ) ٣٣٢  
 الفنش بن فراند ٣٣٤  
 الفنش بن فرويلة ٣٢٤  
 ابن الياس ٢٧  
 امرؤ القيس ٤٥  
 أمية بن محمد بن حمزة ٥٢  
 أمية بن عبد الرحمن بن هشام العراقي ١٣٨ ،  
 ١٣٩  
 الامين ١٣٢  
 ازريق ٣٣١  
 ازريق بن الفنش ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،  
 الانطاكي ٥٥  
 الانقر = يحيى التجبي  
 ابن الانطاكي ٥١  
 الانير = هاشم بن عبد العزيز  
 ايريليه بن الفنش ٣٢٣  
 ابن ائبن ٥٠  
 ايوب بن حبيب اللخمي ٦  
 ايوب بن عمر بن حفصون ٣٢  
 أبو أيوب الفريشي ٨٥ ، ٨٦  
 ابو أيوب ( عم الحكم بن هشام ) ١٥  
 البايجي ٥٣  
 البايجي = عبد الله بن محمد بن علي ، محمد بن  
 أحن بن عبد الله ، ابو الوليد  
 باديس بن جوس بن ماكسن الصنهاجي ١٤١ ،  
 ١٤٢ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ،  
 ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠  
 باديس بن منصور بن بلقين بن زيري ٢٢٧  
 الباروني العزمي ٣٠٠  
 ابن الباكيس = سليمان بن أيوب  
 ابن بجامة الاليري ٥٠  
 البخاري ٢٧٦  
 بدر ( مولى عبد الرحمن الداخل ) ٨  
 ابن برجان ابو الحكم ٢٤٩  
 ابن برطال ابو جعفر ٢٩٩  
 ابن بركة = محمد بن محمد  
 ابن برله = عبد الله بن محمد  
 برمودة ٣٢٤  
 برمودة بن اردونه ٣٢٨ ، ٣٢٩  
 برمودة بن الفنش بن اردونه ٣٢٨  
 برقالة ٣٣١

انبري ابو عبد الله ٢٧٦

ابن بسم ١٣٥ ، ١٩٠

النسطي ابو الاصم ٣٠٠

بشر الصقلي ١٠٩

ابن بشر ٥٤

بشرى الفتى ١٠٤

بشر الفتى ١٠٤

ابن بطال ( الثائر ) ٢٠٩

ابن بطال = محمد بن زكريا

بطرء بن الفئش ٣٣٥ ، ٣٣٦

بطرء بن جالمش ٣٣٧

بطرء بن شاذي ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧

ابن بكر ١١٧

ابن بكر ابو عبد الله ٢٩٩

ابو بكر بن اسحاق ابن السليم ٤٩

ابو بكر بن الحديدي ١٧٧ ، ١٧٩

١٨٢

ابو بكر الرميبي ٢١٧

ابو بكر بن عبد العزيز ابن روبرش

١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

ابو بكر ابن غازي ( الوزير ) ٢١

ابو بكر ابن القوطية ٥٠

ابو بكر بن محمد ابن الحكيم ٣٤

ابو بكر بن مسعود ٢٩٩

ابو بكر بن يحيى ٢٧

بلايه بن فافيلة ٣٢٢ ، ٣٢٣

بلج بن بشر القشيري ١٥٣ ، ٢٥٢

بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري

٢٣٠ ، ٢٣١

بلقين بن حبوس بن ماكسن بن زيري ٢٣٠

بلقين بن يوسف بن زيري ٢٢٨

بليق الفتى ١٠٤

ابن البهاء = خلف

البياني ابو عبد الله ٣٠٠

## ت

تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين

٢٤٧ ، ٢٤٨

ابن التاكسري ١٩٥ ، ٢٢٥

التجاني = محمد بن سعيد

التلساني ابو الحسن ٣٠٠

التلساني ابو الحسين ٢٧٦

تميم بن بلقين بن باديس بن زيري

٢٣٤ ، ٢٣٦

## ث

ثابت ٥٣

ثعلبة بن سلامة العاملي ٧

الثغري ( القائد برسية ) ٢٥٨

ثوابة بن سلمة الجذامي ٧

## ج

ابن جابر ابو اسحاق ٣٠٠

ابن جابر ابو عبد الله ٢٩٩

جاقمه ( ملك ارغون ) ٢٧٣

جانجه بن الفئش ٣٣٢

جامش ( ملك برجلونة ) ٣٣٧

جامش ابن بطرء ٣٣٧

ابن جبير = عبد الله بن محمد

ابن جحاف = جعفر بن جحاف

ابن الجدة ابو الحسن ٢٤٢

ابن جريج = عبد الرحمن بن سعيد

ابن 'جزئي' = يوسف بن عبد الرحمن

جعسوس ( لقب القاضي علي بن الحسن ) ٧٨

جعفر بن جحاف ابو محمد ١٨٢ ،

٢٠٣ - ٢٠٥

جعفر بن عثمان المصعفي ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٦٠ ، ٦١

جعفر بن علي ٤٢

جعفر بن علي ابن الاندلسي ٦٣ ، ٦٥ ،

٧٧ ، ٢٣٧

جعفر بن عمر بن حفصون ٣٢ ، ٣٣

جعفر الفتى ١٣٨

ابن أبي جعفر ( قاضي مرسية ) ١٧٦

ابن الجفان ٢٧٦

ابن جهم ٥٢

جهور بن محمد بن جهور ابو الحزم ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

٢٠٢ ، ٢٣٨

ابن جهور = جهور بن محمد ، عبد الرحمن بن

محمد ، عبد الملك بن محمد ، محمد بن جهور ،

أبو موسى

جوان ابن اذفونش ٢٩٥

جود ( أم علي بن مجاهد ) ٢١٩

ابن جودي = سعيد بن سليمان

جودر الصقلي ٦٠

ابن الجباب ابو الحسن ٣٠٠

## ح

ابن الحاج ٢٩٩

ابن الحارث ٥٤

حباسة بن ماكسن بن زيري ٢٢٩

حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي

١٢١ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ٢٢٩

ابن حبس ابو بكر ( الشاعر ) ٢٥٩

ابن حجاج = هاشم بن يحيى

ابو الحجاج بن نصر ٢٩٢ ، ٢٩٣

ابن الحجام = محمد بن علي

ابن الحداد = ابراهيم بن أحمد

ابن الحداد ابو عبد الله ١٩٠

ابن الحديدي = ابو بكر ، محمد بن يحيى

ابن سعيد

ابن 'حدير' ١٢٠

ابن 'حدير' = احمد بن محمد ، موسى بن

مروان

ابن الحداء = محمد بن يحيى

ابن حذلم ابو عبد الله ٢٩٩

حذيفة بن الاحوص القيسي ٦

الحرث بن عبد الرحمن الثقفي ٦

ابن حرييل = عبد الرحمن بن أحمد بن محمد

الحريري ٥٢

ابن حريش = الليث

ابن حزم ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

ابن حزم ابو محمد ١٤ ، ٢٦ ، ١٣٢

١٤٢ ، ١٩٤

ابن حزم ابو المفيرة ١٩٧

ابن حزم = أحمد بن سعيد

حسام الدولة ( لقب عبد الملك بن رزين )

٢٠٥ ، ٢٠٦

حسام بن ضرار - ابو الخطار

الحسن ١٣٢

حسن بن احمد بن عبد الودود ٦٣ ، ٦٤

الحسن بن حي = عبد الملك التجيبي ٥٣

الحسن بن سعد ٤٩

حسن بن علي بن حمود ١٤٠

الحسن بن القاسم بن حمود ١٣٣

حسن بن القاسم بن قنون ٦٦

حسن بن مجاهد العامري ٢٢١

حسن بن محمد بن ذكوان ٤٨

حسن بن يحيى بن علي بن حمود ١٤٠

ابن الحسن ٥٣

ابو الحسن ابن اشقيلولة ٢٨٧

ابو الحسن المريني ٢٩٨

حناء الشيرازية (أمّ المستكفي العباسي) ١٣٦  
ابن حسون = الحسين بن الحسين ، علي بن الحسين

الحسين بن احمد بن الحسين بن قسي ٢٥١ ، ٢٥٢

الحسين بن الحسين بن عبد الله بن حسون ابو الحكم ٢٥٤ ، ٢٥٥

ابن الحشاء = أبو زيد

ابن أخي حصاد (الناظر) ٢١٠

الحصار = أحمد بن سعيد بن محمد

حفص بن عمر بن حفصون ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤

أبو حفص بن عبد المؤمن بن علي ٢٧١

حكم بن بدر ٨٦

حكم بن سعيد بن حكم الاموي ابو عمر

٢٧٧ ، ٢٧٦

حكم بن سعيد القزاز ١٣٨

الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ١١٣ ، ١٢١

الحكم بن عبد الرحمن الناصر المستنصر بالله ٤١

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٦٠

٨٠ ، ١٠٤ ، ١٥٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٧

الحكم بن عبد الرحمن ٤٨

حكم بن عكاشة ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨

١٥٩ ، ١٧٨

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل

١٤ - ١٨

ابن حكم = حكم بن سعيد ، سعيد

ابن الحكيم أبو بكر بن ذي الوزارتين

٣٠٠

أبو زكرياء بن أبي القاسم

حماد بن عمار الزاهد ٥٥

حماس بن مروان ٤٩

حمام بن أحمد بن عبد الله بن حمام ٥٥

ابن حمام = حمام بن أحمد

ابن حمدان ٥٢

ابن حمدين = أحمد بن محمد بن أحمد

حمود بن غالية ٢٥٦

حيّ بن يحيى البصري أبو الصباح ٨

ابن حيّ = الحسن بن حيّ

ابن حيان حيان ابن خلف ابو مروان

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٠ ، ٨٠

٨٤ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٢٧

١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥

١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥

٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧

## خ

ابن خالد ٥١

ابن خالد = عبد الرحمن بن أحمد بن نصر

الخزاعي ٥١ ، ٥٢

ابن خزر = محمد بن علي بن محمد

خزرون الترنجاني ١٥٥ ، ٢٣٩

خطاب بن مسلمة الايادي ٥١

ابو الخطار حسام بن ضرار الكلي ٧

ابن الخطيب (المؤلف) ١٦ ، ١٧ ، ١٨

١٦٤ ، ٢١٧ - ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣٠٩ - ٣٢١ ، ٣٣٣ - ٣٣٤

ابن خفاجة ابو اسحق ٥

ابن خفيف = أحمد بن عمر بن عبد الله

خلف بن البناء الامي ٥٥

خلف بن حسين (أبو ابن حيان) ٧٠

خلف بن سعيد بن أحمد الازدي ٥٦

خلف بن عيسى بن سعد الخير بن أبي

درم ٥٤

خلف الفتي ١٠٤

خلف بن مروان الصخري ٥٦

خلف بن نجاح (القائد) ١٥٠ ، ١٥١

ابن خميس ٢٥٤

خييل ابو الحسن الرئيس ٢٥٩

خير بن شاكر ٢٧

خيرة الصيقل العامري ٢٢٢ ، ٢٢٥

٢٢٦

خيران الفتي العامري ١٠٤ ، ١٢١

١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤

٢٠١ ، ٢١٠ - ٢١٥ ، ٢١٦

## د

الداني = احمد بن حسين

ابن دحون = عبد الله بن يحيى

ابن دحي ٥٠

ابن دراج المصطلي = أحمد

ابن ابي درهم = خلف ابن عيسى

ابن دُرّي ٩٨

ابن دهلم ٥٥

الدينوري ٥٠

## ذ

ابو ذر ١٨٣

ابن ذكوان = أحمد بن عبد الله ، حسن بن

محمد ، محمد بن احمد ، محمد بن عبد الله

الذُّلفاء (أمّ المظفر عبد الملك بن ابي عامر)

١٠٩

ذو العرف ٣٣٢

## ر

الراضي بن اسمعيل بن عباد ١٦٣

ابن الرامي ٢٩٠

ربيع الاسقف ٣٨

ربيع القومس (متولي المعاهدين) ١٥

ابن ربيع أبو عامر ٢٩٩

ابن أبي ربيع = أحمد بن أيوب

الرجال = عبد الله بن عبد الرحمن

رُدْمير بن اردوث ٣٦

رُدْمير ابن شانجه ٦٣

ابن رُدْمير ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٥٩

الرشاطي ابو محمد ١٤٥

ابن رشد = أحمد

الرشيد بن المعتمد بن عباد ٢٤٥ ، ٢٤٦

الرسيد (لقب محمد بن معن بن صادق

التجبي) ١٩٠

ابن رشيق ٥٢

ابن رشيق = عبد الرحمن

الرصافي ابو عبد الله الشاعر ٢٦٦

رضوان (مولاي بني نصر) ٣١١

الرعيي ابو عبد الله ٢٩٩

ابن رفاعة ٥٠

ابن الرقيق ٩٤

رمير بن اردوث ٣٢٥

رمير بن الفنس بن بطر ٣٢٤

رمير بن شانجه ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

٣٣٧

رُميك ١٥٩ ، ١٦٤

رُميكية ١٥٩

ابن الرميي ٢٨٦

ابن الرنق (صاحب قلورية) ٢٥١

ابن رويش = ابو بكر بن عبد العزيز

ريّ قرحه (لقب رُدْمير بن شانجه)

٦٣ ، ٦٥

ريم ٣٠٨

ريوند ٣٣٧



عبد الملك بن رزيق بن هذيل بن خلف  
٢٠٦، ٢٠٥  
عبد الملك العامري ( جد بني عامر ) ٥٩  
عبد الملك بن عبد الرحمن بن معاوية الأموي  
المعروف بالنسي ١١  
عبد الملك بن عبد العزيز ( قاضي بلسية ) ٢٥٦  
عبد الملك بن قطن الفهري ٧٠٦  
عبد الملك بن متيوه ١٧٧  
عبد الملك بن محمد بن جهور ١٤٨، ١٤٩ -  
١٥١  
عبد الملك بن محمد بن أبي عامر المظفر ٧٠٠  
١٧١، ٨١، ٨٢، ٨٣ - ٨٩، ٩٠  
٩٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٩٣، ٢٢٧  
عبد الملك بن مروان بن الحكم ٩٠٦، ٩  
١٠، ٤٧، ٣٠٨  
عبد الملك بن منذر ٥٧  
عبد الملك بن هذيل التميمي ٤٩  
عبد المهين بن مروان بن الأصم ٥٥  
عبد المؤمن بن علي الموحدي ٢٥١، ٢٥٤  
٢٥٦، ٢٦٥ - ٢٦٩  
عبد الوهاب ( الثائر ) ٢٧  
ابن عبد الوهاب أبو عبد الله ٢٩٩  
عبدون بن خزرون الزنداجي ١٤٢  
٢٣٨، ٢٣٩  
ابن عبدون أبو محمد الوزير الشاعر ١٨٦ -  
١٨٨  
عبد الله بن الوليد القبطي ٤٩  
ابن عبيدة أبو بكر ٢٩٩  
عتاب بن مروان بن عتاب ٥١  
ابن عتاب أبو عبد الله ٥٧  
عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق المسكزي ٢١  
عثمان بن سعيد اللخمي الشذوني ٥١  
عثمان بن عتاق ١٠، ٢٢٨  
عثمان بن أبي العلي ٢٩٦

عثمان بن أبي نعمة الحنمعي ٦  
ابن عجب = عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد  
ابن العربي أبو عبد الله ٣٠٠  
ابن عروس = أحمد بن عبد الله بن محمد  
عريب ( المؤرخ ) ٢٠  
ابن العريف أبو العباس ٢٤٩  
ابن العريف أبو عبد الله ٢٩٩  
عز الدولة ( لقب أحمد بن محمد بن عبد الله  
ابن قاسم ) ٢٠٨  
ابن عزوز أبو القمر ( الثائر ) ٢٤٨  
عزير ٥٨  
العزير بن اسحق بن محمد بن عبد الله البرزالي  
٢٣٧، ٢٣٨  
عزير بن أبي مروان بن خطاب ٢٧٤ - ٢٧٥  
عزير بن يوسف بن سعد بن مردنيس أبو  
سلطان ٢٧٢  
ابن عسقلجة = عمر  
عطاف اللخمي ١٥٢، ١٥٣  
ابن عفيف ٤٩  
ابن عفيف = أحمد  
عقبة بن الحجاج السلوي ٦  
ابن عشاكة = حكم بن عكاشة  
العكي ٢٣  
العلاء بن مغيث الجذامي ٩  
ابن علقمة = محمد بن الحاج بن عبد الرحمن  
علي بن إبراهيم بن أبي الحسن ابن اشقيلولة  
٢٨٧  
علي بن أحمد ( الفقيه ) ٧٧  
علي بن الحاج ( القائد المراتبي ) ١٧٣  
١٧٥  
علي بن الحسن الملقب بجعسوس ٧٨، ٧٩  
٨٠  
علي بن الحسين بن عبد الله ابن حسون ٢٥٥  
علي بن حمود الادريسي الحنسي ١١٩، ١٢١

١٢٧، ١٢٨ - ١٢٩، ١٣٠، ١٤٠  
١٤٢  
علي بن أبي طالب ١٣٢  
علي بن علي بن نصر ١٦  
علي بن عيسى بن ميمون ٢٤٨  
علي بن كاشة ١٦  
عني بن مجاهد العامري ١٧١، ٢١٩  
٢٢٠، ٢٢١ - ٢٢٢  
علي بن أبي محمد بن أبي الحسن ابن اشقيلولة  
٢٨١  
علي بن يوسف بن تاشفين ١٧٤، ١٧٥  
٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢  
عماد الدولة ( لقب سالم بن يوسف بن هود )  
٢٨٠  
عماد الدولة ( لقب عبد الملك بن أحمد بن هود )  
١٧٤  
ابن عمار = محمد بن عمار  
عمر بن حفص بن جعفر المدعو بابن حفصون  
٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١ -  
٣٤، ١١٦  
عمر ( الخليفة ) ١٠  
عمر بن عباد الرعي ٥٤  
عمر بن عبد الله بن علي ٣١٤  
عمر بن عبد ربه المافري ٤٥  
عمر بن عبد العزيز ١٢، ١٤٤  
عمر بن عسقلجة ٧٨  
عمر بن محمد بن إبراهيم ابن الرافقي الابري  
٥١  
عمر بن محمد بن عبد الله ابن الأفطس المتوكل  
١٨٠، ١٨٤ - ١٨٦  
عمر بن محي الطوئي ٢٨٨، ٢٨٩  
عمر بن مضم الهترولي ٢٧  
أبو عمر بن عبد الله بن عبد البر النمري ٥٠  
أبو عمر بن عبد الرحمن القرداجي ٥٧

أبو عمر الفتوني ( والي قرطبة ) ٢٥٣  
عميرة بن الفضل ١٩٤  
ابن عميرة أبو المطرف ٢٧٣، ٢٧٥  
٢٧٦  
ابن عنان ٢٤٩  
أبو عنان ( السلطان الميري ) ٣٠٥، ٣٠٦  
عزير المقدم ١٣٤  
عنيسة بن سحيم الكلبي ٦  
العنجسي أبو عبد الله ٣٠٠  
ابن عون الله ٩٣  
عياض أبو الفضل ( القاضي ) ٤٤، ٤٩، ٥٧  
ابن عياض ( الامير ) ٢٤٨  
ابن عياض ( الثائر بمرسية ) ١٧٦، ٢٦٠  
عيسى بن أبي بكر بن مزين أبو الأصم ٢٠٩  
عيسى بن سعيد ( الكاتب ) ٧٥  
عيسى بن عذرة الاندراشي ٣٠٠  
عيسى بن العلاء التدميري ٥٢، ٥٣  
ابن عيسى ٥٢  
ابن أبي العيش أبو الحسن ٢٩٩  
ابن عيشون = أحمد بن عبد العزيز

## غ

غالب ( ملوك الحكم ) ٤٢، ٦١، ٦٢  
٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧٧  
غالب بن عبد الله بن تمام المافري ٥١  
غالب بن يوسف بن سعد بن مردنيس أبو  
المظفر ٢٧٢  
ابن غالب ( شيخ البيازين بفرناطة ) ٣٠٠  
غانم بن محمد بن سعد بن مردنيس ٢٧١  
ابن غانم = أبو طالب  
ابن غانية = جو، عبد الله بن جو، يحيى  
ابن غران = يحيى  
غرسية بن الفش بن اوردونه ٣٢٤

الزباب الفتى ١٠٤  
 زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ١٣٠ ،  
 ١٣١ - ١٣٨ ، ٢٢٧ - ٢٢٩  
 زبيدة بنت جعفر ٢٠ ، ١٣٢  
 ابن الزبير أبو بكر ٢٩٩  
 ابن الزبير أبو الحسن ٢٩٩  
 ابن زرب ٥٥  
 ابن زرب = محمد بن يقي ، يحيى بن محمد  
 ابن زرار اليهودي الحكيم ٣٣٣  
 ابن زكرياء أبو محمد ٢٩٩  
 ابن أبي زكرياء = أحمد بن عباس ، عباس  
 أبو زكرياء الحفصي ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥  
 أبو زكرياء بن عزيز بن يوسف بن سعد  
 ابن مردنیش ٢٨٠  
 أبو زكرياء بن أبي القاسم ابن الحكيم  
 ٢٩١ ، ٢٩٢  
 ابن زمرك ٧٨ ، ٧٩  
 ابن أبي زمين = محمد بن عبدالله بن عيسى  
 ابن زنفل = سعيد بن أحمد  
 زنون ( جد بني دنون ) ١٧٧  
 زهر الابادي ٥٦  
 زهير الفتى العامري ٤٨ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ،  
 ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٩٠ ، ٢١٥ ،  
 ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٠  
 ابن الزيات أبو جعفر ٢٩٩  
 زيادة الله الضبي أبو منصور ٩٤  
 زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد بن  
 مردنیش أبو جيل ٢٧١ ، ٢٧٢ ،  
 ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣٣٧  
 أبو زيد ابن الحشاء ٥٧  
 ابن أبي زيد ٥٣

أبو سعيد بن عبد المؤمن بن علي ٢٦١  
 ابن السقاء ( الوزير ) ١٤٩  
 السكري ٥١  
 ابن السكن ٥٤  
 ابن سلون أبو محمد ٣٠٠  
 ابن السليم ٢٧ ، ٥٤  
 ابن السليم = أبو بكر بن اسحق ، محمد بن  
 اسحق ، منذر بن اسحق  
 سليمان بن ايوب ابن بلكنايش ٤٩  
 سليمان البرزالي ١٢٨ ، ١٢٩  
 سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن  
 المستعين ١١٣ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١١٦ ،  
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،  
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ،  
 ٢١٠ ، ٢٢٧  
 سليمان بن ربيع الكلي ٥٥  
 سليمان بن عبد الملك بن أخضل ٢٤  
 سليمان بن عبد الرحمن المرتضى ١٣٤  
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الاموي ١١  
 سليمان بن عبد الملك بن مروان الاموي ٦  
 سليمان بن عمر بن حفصون ٣٣  
 سليمان بن محمد الشذوني ٢٧  
 سليمان بن محمد بن هود المستعين بالله ١٧٠ ،  
 ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠  
 سليمان بن هشام ١١٠  
 ساجة الصنهاجي ( الوزير ) ١٩٧ ، ٢٣٤  
 السمح بن ملك الخولاني ٦  
 سواجات البرغواطى ١٤١ ، ١٤٢  
 سوار ٣١  
 ابن سيدة ٢١٨  
 سير بن أبي بكر اللتوني ١٨٥  
 سيف الدولة ( لقب بلقين بن باديس بن  
 حبوس ) ٢٣٠

الشاطبي أبو جعفر ٢٩٩  
 ابن شاليب اليهودي ١٥٩  
 ابن الشامة ٥١  
 شانجه بن اذفونش ٢٩٤  
 شانجه بن الففش ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦  
 شانجه بن ومير ٣٢٥ ، ٣٢٩  
 شانجه بن غرسية ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،  
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٣٢٨  
 شانجه بن فراند ٣٣٠  
 شانجه بن فردلند ٣٢٨  
 ابن شبرين أبو بكر ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،  
 ٣٠١  
 الشجري ٥٦  
 ابن شراحيل ( الدابر ) ٢٦١  
 ابن شرف القيرواني ١٨٢  
 ابن الشرق = ابراهيم بن محمد بن ابراهيم  
 الشعي أبو المطرف الامير ٢٣٦  
 شعل الفتى ٧٦ ، ١٠٤  
 ابن شعيب أبو اسحق ٢٩٩  
 ابن شعيب المرسيني ٣٠٠  
 شفيح الفتى ١٠٤  
 الشكياتي ( النائر ) ٢٤٨  
 شمس بنت الغالب بالله النصري ٢٨٧  
 شنجول ( لقب عبد الرحمن بن محمد بن أبي  
 عامر ) ٦٦  
 الشنيطي أبو الحجاج ٢٠٩  
 ابن الشهيد ١٩٠  
 ابن شهيد = أبو عامر  
 ابن شية = محمد بن عبد الله  
 شيله بن الففش ٣٢٣

## ص

ابن صاحب الصلاة ابو عبد الله ٢٦٥  
صاعد بن الحسن البغدادي ابو الملا ٦٨ ،  
٩٤ ، ٧٢

صالح ٥٨  
صبح ( زوجة الحكم المستنصر وأم هشام المؤيد )

٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٤٢  
سمود بن داود بن دهاث ٥٦  
ابن الصفار = يونس بن عبد الله  
ابن صفوان أبو جعفر ٣٠٠  
صلاح الدين ٢٠  
الصميل بن حاتم ٧  
ابن الصنّاع أبو عبد الله ٣٠٠  
الصوّاف ٥٢  
ابن الصيرفي ١٨٩ ، ١٦٥ ، ١٥٧

## ض

الضبي = زيادة الله

## ط

طارق بن زياد ٣٢٣ ، ٥٩ ، ٦  
طالوت ( الفقيه ) ١٥  
ابن طالوت ( الكاتب ) ٢٢٥ ، ١٩٥  
ابن طاهر أبو عبد الله ( صاحب مرسية )  
٢٥٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٦٠  
ابن الطحان = اسمايل بن اسحق  
طرسوس المجوسي ١١٠  
الطرسوتي أبو عبد الله ٣٠٠  
طرفة الفتي ١٠٤  
طرمجة ( دونة ) ٣٢٨ ، ٣٢٧

ابن طفيل أبو بكر ٢٦٤  
طلحة بن محلي البطولي ٢٨٨  
طلحة بن يوسف بن سميد بن مردنيش ٢٧٢  
الطنجالي أبو بكر ٣٠٠  
الطوسي ٥١

## ظ

الظافر بن المعتد ١٥١  
الظافر ( لقب عبد الرحمن بن هشام بن عبد  
الجبار ) ١٣٤  
الظافر ( لقب عبد الملك بن محمد بن جهور )  
١٤٩  
الظافر ( لقب المعتد الاول ) ١٥٧

## ع

عاج ( الجارية ) ٢٥ ، ٢٤  
ابن عاصم أبو عبد الله ٣٠٠  
ابن عاصم = أحمد بن عبد الرحمن بن عليّ  
العاصي بن عبد الله بن محمد الاموي ٢٩  
ابن أبي العاصي أبو اسحق ٢٩٩  
ابن أبي العافية الحضرمي ٣٠٠  
العالي بالله ( لقب ادريس بن يحيى بن عليّ بن  
حمود ) ١٤١  
عبد الله القرشي التميمي القرطبي ٥٦  
عبد الله بن البّاد ١٠٢  
عبد الله بن محمد بن أزهر بن جبير  
الاستحي ٥١  
عبد الله بن محمد الصابوني المعروف بابن بزل ٥٠  
عبد الله بن محمد بن أبي عامر ٧٥  
عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النميري ٥٠  
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الامير الاموي  
٢٦ - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن اسد  
الجني ٥٤

عبد الله بن محمد بن عليّ ابن رفاعة الباجي ٥١  
عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الافطس ١٨٢ -  
١٨٣

عبد الله بن مروان ٩٩  
عبد الله بن يحيى بن دحون ٥٥

ابو عبد الله بن ابي الحجاج بن نصر ١٦  
ابو عبد الله بن عمر الحجاب ٣٠٥

ابن عبد البرّ ٢١٨  
ابن عبد البرّ النميري = عبد الله ، ابو عمر

عبد الجليل بن وهب ٢٤٦  
عبد الحميد بن منثور ٢٠٩

ابن عبد ربه = أحمد ، عمر  
عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج الاشيلي ٣٥

عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد ابن عجب ٥٣  
عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن حريش ٥٤

عبد الرحمن بن احمد بن نصر بن خالد ٥٥  
عبد الرحمن بن اسباط ٢٤٥

عبد الرحمن بن جريش ٢٤  
عبد الرحمن بن حبيب ( أمير أفريقية ) ٨

عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن  
الامير الاموي ١٨ - ٢٠

عبد الرحمن بن دنون ١٧٧  
عبد الرحمن بن رشيق ١٦٠ ، ٢٠١ ،

٢٥٧ ، ٢١٠  
عبد الرحمن بن سعيد بن جرج ٥٥

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر  
الاموي ٥٧

عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الاموي ٢٩  
عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ٦

عبد الرحمن بن عمر بن حفصون ٣٢ ، ٣٣  
عبد الرحمن بن متيوه ١٧٧  
عبد الرحمن بن محمد بن جهور ١٤٩ ، ١٥٠

عبد الرحمن بن ابي عامر المدعو بشنجون ٦٦ ،  
٧١ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٩ - ٩٨ ، ١٠٩ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١٩٣  
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لدين الله  
٢٨ - ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٦

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد  
الرحمن الناصر الملقب بالمرقي ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٨ ، ٢٢٩  
عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن قطيس ٤٨

عبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن صاعد ٥٢  
عبد الرحمن بن مختار القرطبي ٥٧

عبد الرحمن بن مروان الجليقي ٢١ ، ٢٧  
عبد الرحمن بن المشاط الرعيني ٥٣

عبد الرحمن بن معاوية الاموي الداخل ٧ ، ٦ -  
١١ ، ٢٩ ، ٣٢٣

عبد الرحمن بن هارون ابن القنازعي ٥٤  
عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ١٣٤ -  
١٣٥

عبد الرحمن بن يعقوب المنصور الموحد ٢٧٢  
ابن عبد الرؤوف = محمد بن هشام

ابن عبد الصمد ( شاعر المعتد ) ١٦٥ - ١٧٠  
عبد العزيز بن أفلح ٢٢٦

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر  
المنصور ٩٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ -  
١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٧

عبد العزيز ( بن محمد ) البكري ٢١٠  
عبد العزيز بن مروان ٥٠

عبد العزيز أبو فارس ( السلطان المريني ) ٨٠  
عبد العزيز بن موسى بن نصير ٦

عبد الكريم بن عبد الواحد بن ميث ١٢ ، ١٩  
عبد الملك بن أحمد بن محمد بن هود ١٧٣ ،  
١٧٤ ، ١٧٥

عبد الملك بن ادريس الجزيري ٧١ ، ٧٢  
عبد الملك بن أبي الجواد ٢٧

غرسية بن شانجه ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٣٢٥، ٣٢٩  
غرسية بن فرّانديس ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠  
الغشتي ( المقدّم ) ٢٧٩  
غنصالس نونس ٣٢٨  
ابن غومس ( القومس ) ٨٠، ٩٧، ٩٨

## ف

أبو فارس عبد العزيز ( للسلطان المريني )  
٣١٨، ٣١٧  
فافيلة بن بلايه ٣٢٣  
فائق الصقلي ٤٨، ٦٠  
الفتح ( صاحب القلائد ) ١٦٠، ١٨٥، ١٩١، ٢٠٦  
فتح الله بن يحيى ١٤٢  
ابن فحلون ٥٢  
ابن الفخار = محمد بن عمر  
ابن الفخار أبو عبد الله ٣٠٠  
ابن الفرّاء = محمد بن القاسم  
ابن فراس ٦٤  
فرّان غنصالس ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨  
فرّانده الاحول ٣٣٢  
فرّانده بن الفنش ٣٣٢  
فرّانده بن شانجه ٣٢٨، ٤٢٩، ٣٣٤  
ابن الفرج ( الوزير ) ١٧٩  
فرج بن كنانة ١٢  
فرج بن أبي محمد بن أبي الحسن ابن أشقيلولة  
٢٨٧، ٢٨٨  
فرذلد ( ملك افريجة ) ٢٣  
فرذلد ( أبو شانجه وجدّ اذفونش ) ٢٤٣  
ابن الفرزي ٤٠  
ابن فرّاس = العباس  
فرويلة بن الفنش ٣٢٣

فرويلة بن الفنش بن اوردونه ٣٢٥  
الفرّشي الرّندي ٣٠٠  
الفضل بن عمر بن محمد بن الافضل ١٨٦  
ابن فطيس = عبد الرحمن بن محمد بن عيسى  
ابن الفقيه الفرائطي ابو عبد الله ٣٠٠  
ابن فهد = محمد بن عبدون بن محمد  
ابن أبي الفياض ٧٧، ٧٧، ١٩٣  
ابن فهد = أبو محمد

## ق

القابسي أبو الحسن ٥٦  
ابن القابلة = محمد بن يحيى  
قاسم بن أصبغ ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣  
القاسم بن حمود ١١٩، ١٢١، ١٢٧  
١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢  
١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٥٣، ١٩٥  
القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الاموي ٢٦  
القاسم بن محمد بن محمد بن القاسم بن حمود  
١٤٢  
قاسم ( ابو أمّ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد  
الله بن قاسم ) ٢٠٨  
قاسم بن حمود المرواني ٩٥  
أبو القاسم بن الحسن بن يوسف الحسني ٣٠٠  
أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي ٢٢٨  
أبو القاسم مختار ٥٥  
أبو القاسم المقرئ ٨٥  
قاسطه ٣٢٤  
القالموليقة ٣٢٣  
ابن القبري = محمد بن وهب  
القبطي = عبيد الله بن الوليد  
القرشي ابو عليّ ٣٠٠

ابن قرمان = أحمد  
القرّاز = حكم بن سعيد  
قسطنطين الملك ٣٧  
ابن قسيّ ١٧٦  
ابن قسيّ = أحمد بن الحسين، الحسين بن أحمد  
ابن القطن ١٥٤  
ابن قطن ٥٣  
ابن قنّب أبو جعفر ٢٩٩  
ابن القليبة = سعيد بن يوسف  
ابن القنازعي = عبد الرحمن بن هارون  
ابن القوطية ٥٤  
ابن القوطية = ابو بكر  
القيجاطي ٢٩٩  
قيس بن يوسف بن اساعيل بن نصر ٣٠٧  
القيشيطي = أحمد بن محمد

## ك

الكلاعي = أحمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم  
ابن كاشة ابو الحسن ٢٩٥  
الكنبطور ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥  
كوثر الفتي ١٠٤  
الكوكب ( اسم بغل عبد الرحمن الداخل ) ٨

## ل

لاين قابله ٣٢٤  
لبّ بن سليمان بن محمد بن هود ١٧١  
ابن اللّباب = أحمد بن محمد بن عبد الله  
ابن لبابة ٤٩، ٥١، ٥٧  
ابن اللّباقي = أحمد ابن يحيى  
ابن ليون أبو عيسى ٢٠٩  
لبب الفتي العامري ١١٠، ١١١، ١١٢  
ليبد بن عبد الله ٢٤٨

اللوشي أبو عبد الله ٣٠٠  
اللوشي ( القائد ) ٢٥٥  
الايش بن حريش ٥٥  
ليلى ٤٥

## م

ابن المارغزا ( الكاتب ) ٧٨  
الماسي ( الكاثر على الموحدين ) ٢٥١  
ماغنه ٣٢٤  
ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي ٢٢٨، ٢٢٩  
مالك بن أنس ١٥، ٥٧  
مالك بن محمد بن عبّاد ١٦٤  
المأمون العباسي ١٦٢  
المأمون ( لقب عبد الرحمن بن أبي عامر ) ٩٠  
المأمون ( لقب القاسم بن حمود ) ١٣٠  
المأمون ( لقب يحيى بن اساعيل بن دنون )  
١٧٧، ١٧٨  
المأمون بن المعتد بن عبّاد ١٥٩، ١٦٣  
مبارك العامري ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦  
المتأيد بالله ( لقب أحمد بن محمد بن ملحان )  
٢٦٤  
المتني ١٢٣، ١٨٤  
المتوكل على الله ( لقب عمر بن محمد بن عبد الله  
ابن الأفضل ) ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦  
المتوكل على الله ( لقب محمد بن يوسف بن  
هود ) ٢٧٨  
المتوكل ( لقب يحيى حفيد المأمون ابن دنون )  
٢٠٢  
ابن متهوب = عبد الرحمن، عبد الملك  
مجاهد العامري أبو الجيش ١٩٠، ١٩٢  
١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٧، ٢٢٠

ابن أبي المنجد أبو محمد الأرجوني ٣٠٠

محارب بن عيسى التجيبي ٢٢٦

ابن المحروق أبو عبد الله ٣٠٠

ابن المحروق أبو علي ٣٠٠

محمد بن إبراهيم بن حجاج ٣٥

محمد بن أحمد بن سليمان بن هود المؤمن ١٦٠

١٧٦ ، ١٧٢

محمد بن أحمد بن عبد الله الباجي ٥٦

محمد بن أحمد بن عبد الله بن ذكوان ٥٦

محمد بن أحمد المحروق ٢٩٦

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن قاسم

٢٠٨

محمد بن أحمد بن محمد بن قادم بن زيد

القرطي ٥٢

محمد بن إدريس بن علي بن حود ١٤١

محمد بن إدريس بن يحيى بن علي بن حود

١٤٣ ، ١٤٢

محمد بن إسحاق ابن السليم ٤٨

محمد بن إسماعيل بن عباد أبو القاسم القاضي

١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ -

١٥٥

محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر

٣٠٨ - ٣٠٩

محمد بن إسماعيل المقرطي ١٠٢

محمد بن أضحى ٢٧

محمد بن بشير ١٤٦

محمد بن جهور بن محمد بن جهور ١٤٨ -

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١

محمد بن الحاج بن عبد الرحمن بن علقه ٥٠

محمد بن حسن بن عبد الله بن مذجج الزبيدي

٥٢

محمد بن حرزون بن عبدون ٢٣٩ ، ٢٤٠

محمد بن أبي دهم ٥٤

محمد بن زكرياء ابن برطال ٤٩

محمد بن سعيد بن مردئش ٢٥٩ - ٢٦٢ ،

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١

محمد بن سعيد التجاني ٩٩ - ١٠٢

محمد بن سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد

الرحمن الناصر ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

١٩٦

محمد بن سليمان بن محمد بن هود ١٧١

محمد بن شراحيل البانسي ٥٢

محمد بن عائشة ( القائد المرابطي ) ١٨٢ ،

٢٠٤

محمد بن عباد بن محمد بن عباد المعتمد ١٥١ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ - ١٦٥ ، ١٨٢ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٤٤ ،

٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧

محمد بن عبد الله البرزالي ١٣٧ ، ١٤٠ ،

١٥٥ ، ٢٣٦ - ٢٣٧

محمد بن عبد الله ابن ذكوان ٤٩

محمد بن عبد الله ابن شبة الاشيلي ٥١

محمد بن عبد الله بن عامر ابن ابي عامر =

المنصور ابن ابي عامر

محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمين ٥٢

محمد بن عبد الله بن القاسم الاستجي ٥١

محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري ٢٠٨

محمد بن عبد الله بن محمد بن الأفطس ١٤٣ ،

١٥٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣ - ١٨٤

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

الاموي ٢٩

محمد بن عبد الله بن محمد القاضي المعروف بابن

أبي جعفر ٢٥٨

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الامير الاموي

٢٠ - ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١

محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن

الناصر ١٣٤ ، ١٣٥ - ١٣٦

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صمادح

التجيبي ١٨٩

محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني

٣٣٣

محمد بن عبد العزيز بن يحيى ٥٠

محمد بن عبد الملك بن محمد بن أبي عامر المعتصم

٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٤ ، ١٩٥

محمد بن عبدون بن محمد بن فهد ٥٧

محمد بن عبيد الله بن الوليد المعطي ٢٢٠

محمد بن العراقي ١٣٤ ، ١٣٦

محمد بن عزيز بن يوسف بن سعد بن مردئش

٢٧٢ ، ٢٨٠

محمد بن علي بن أحمد الرئيس العروس

٢٩٢

محمد بن علي بن الحجام ٢٤٨

محمد بن علي بن محمد بن خزر المغراوي

٨٦ ، ٨٧

محمد بن عمار الوزير ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٩١ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٥٧

محمد بن عمر ( من أصحاب ابن قسي ) ٢٤٩

محمد بن عمر البكري القاضي ٦٨

محمد بن عمر بن الفقار ٥٤

محمد بن عيسى ( قاضي سبتة ) ١٢١

محمد بن عيسى بن حسين بن سيد الدار ٥٢

محمد بن عيسى المرتلي ٥٤

محمد بن القاسم بن هود ١٣٣ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٥٦

محمد بن القاسم بن القراء ٥٤

محمد بن محمد بن بركة الصابوني ٥٣

محمد بن أبي محمد بن ابي الحسن ابن اشقيولة

٢٨٧ ، ٢٨٩

محمد بن محمد بن القاسم بن هود ١٤٢

محمد بن مرتين القائد ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٨

محمد بن مرشد ٩٨

محمد بن معن بن صمادح التجيبي المعتصم بالله

١٩٠ - ١٩٢ ، ٢٣١

محمد بن المغيرة ١١٠

محمد بن مغيرة بن عبد الملك الاشيلي ٥٦

محمد بن المنذر ( الثائر ) ٢٤٨ ، ٢٤٩ -

٢٥٢

محمد بن موسى بن عدرون ٧٧

محمد بن ميمون ( صاحب الاسطول ) ٢٥٦

محمد بن نوح الدمري ١٤٢ ، ١٥٥ ،

٢٣٩

محمد بن هاني الشاعر ٤٢

محمد بن هشام بن عبد الجبار ٩٧ ، ٩٨ ،

١٠٣ ، ١٠٩ - ١١٤ ، ١١٥ - ١١٦ ،

١١٨ ، ١٢٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ،

٣٠٨

محمد بن هشام بن عبد الرؤوف الانصاري ٥٥

محمد بن وادع بن محمد القرطي ٥٢

محمد بن وهب التجيبي ابن القبري ٥٣

محمد بن الوليد بن أبي عامر ٥٩

محمد بن يقي بن زرب ٤٩

محمد بن يحيى بن زكرياء التميمي ٥٠

محمد بن يحيى بن سعيد ابن الحديدي ٥٢

محمد بن يحيى ابن القابلة ٢٥٠

محمد بن يحيى بن محمد بن الحداد ٥٥ ، ٥٦

محمد بن يعيش بن منذر الاسدي ٥٤

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢

محمد بن يوسف بن نصر بن الاخر الغالب

بأنه ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ - ٢٩١

محمد بن يوسف بن هود المتوكل ١٧٦ ،

٢٧٧ - ٢٨٦ ، ٢٩٣

أبو محمد بن أبان الاموي ٥٦

أبو محمد بن ابي الحسن بن اشقيولة ٢٨٧

أبو محمد بن أبي حفص الموحد ٢٦١

ابو محمد بن الشاق ٥٥  
 ابو محمد بن فيد القرطي ٥٦  
 محمود ( أمير الدائرة ) ١٣٤  
 مختار بن عبد الرحمن القرطي ٥٧  
 مخلد بن كيداد ٢٢٨  
 مدافع بن يوسف بن سعيد بن مردنيس ٢٧٢  
 ابن المراتب ابو بكر ٣٠٠  
 المرتضى ( لقب سليمان بن عبد الرحمن ) ١٣٤  
 المرتضى ( لقب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ) ١٣٠  
 ابن مرتين = محمد بن مرتين  
 ابن مرج الكحل ابو عبد الله ٢٧٨  
 ابن مردنيس = زيان بن مدافع ، سبع بن يوسف ، طلحة بن يوسف ، سعد ، عامر  
 ابن يوسف ، عزيز بن يوسف ، غالب بن يوسف ، غانم بن محمد ، محمد بن سعد ، محمد بن عزيز ، مدافع بن يوسف ، هلال  
 ابن محمد ، يوسف بن سعد  
 مروان بن الحكم ٤٧  
 مروان بن عبد الملك ٥٥  
 مروان بن محمد الجعدي ٧  
 المرواني القاضي ٥٢  
 بنت المروزية ( أمّ المستكفي العبّاسي ) ١٣٦  
 ابن مزين الدابر ٢٤٨  
 ابن مزين = عيسى بن أبي بكر ، موسى بن أبي بكر  
 المستعلي ( لقب القاسم بن محمد بن محمد بن القاسم )  
 ابن حمود ( ١٤٢ )  
 المستعلي ( لقب محمد بن ادريس بن يحيى بن علي )  
 ابن حمود ( ١٤٢ )  
 المستعين ( لقب أحمد بن محمد بن سليمان بن هود ) ١٧٢  
 المستعين ( لقب سليمان بن الحكم ) ١١٣  
 المستعين ( لقب سليمان بن محمد بن هود ) ١٧٠ الماعاني ٤٩

معاوية بن هشام الاموي ٩  
 المعتز ( لقب هشام بن محمد بن عبد الملك )  
 ١٣٩  
 المعتصم ( لقب محمد بن معن بن صادح التجي )  
 ١٩٠  
 المعتضد ( لقب عبيد بن محمد بن عبيد ) ١٥٥  
 المعتلي ( لقب يحيى بن علي بن حمود ) ١٣٣  
 المعتد ( لقب محمد بن عبيد بن محمد بن عبيد )  
 ١٥٦  
 المعزّي ١٨٤  
 المعزّ بن اساعيل الشيعي ٢٢٨  
 المعزّ بن باديس ٢٢٩  
 معزّ الدولة بن محمد بن معن بن صادح التجي  
 ١٩٢ ، ١٩١  
 ابن معمر السّعويّ ٢١٨  
 معن بن عبد العزيز بن صادح التجي أبو  
 الاحوص ١٨٩ ، ٦٤ ، ٦٣  
 المعطي = محمد بن عبيد الله بن الوليد  
 ابن مغيث = عبد الكريم بن عبد الواحد  
 مفرّج همشك ٢٦٣  
 ابن مفرّز ٢٧٦  
 مقاتل ( صاحب طرطوشة ) ١٧١  
 ابن مقبل = أبو الوليد  
 المقندر ( لقب أحمد بن سليمان بن هود ) ١٧١  
 المقرّي = أبو عمرو ٢١٨  
 ابن المكرم العافقي = أحمد بن عيسى ، سعيد  
 ابن عيسى  
 ابن المكوي ٥٤  
 ك. ب. ن. = ...  
 ابن مكيال = أحمد بن محمد  
 ابن الملاح = سعيد بن عبد الملك  
 ابن ملحان = أحمد بن محمد  
 المنتصر ( لقب قم بن بلقين بن باديس ) ٢٣٦  
 ابن منشور = عبد الحميد  
 منذر بن اسحاق بن السليم ٤٩  
 منذر بن سعيد البلوطي ٣٩  
 المنذر بن سليمان بن محمد بن هود ١٧١  
 المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الاموي  
 ٢٣ - ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١  
 منذر بن يحيى التجي ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٨٩  
 ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦  
 ابن المنذر الوزير ٣٤  
 المنصور ( لقب عبد الملك بن محمد بن جهور )  
 ١٤٩  
 المنصور محمد بن ابي عامر ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٨  
 ٥٩ - ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦  
 ٩٨ ، ٩٩ - ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١  
 ١١٢ ، ١١٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨  
 ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢  
 المنصور العبّاسي ابو جعفر ٥ ، ٩ ، ١٥٦ ،  
 ٣٠٨  
 المنصور بن عمر بن الافطس ١٨٦  
 المنصور بن الناصر بن علّاس ١٩١  
 ابن منظور أبو بكر ٢٩٩  
 ابن منظور ابو عمر ٢٩٩  
 المهدي ابن تومرت ٢٤٧ ، ٢٤٩  
 المهدي ( لقب أحمد بن الحسين بن قسي )  
 ٢٤٩  
 المهدي ( لقب محمد بن ادريس بن علي بن  
 حمود ) ١٤١  
 المهدي ( لقب محمد بن هشام بن عبد الجبار )  
 ١٠٩  
 المهب بن أحمد بن أبي صفرة التميمي ٥٦  
 ابن مهب الكاتب ٢٢٥  
 ابن مهب ابو عبد الله ٢٨٦  
 ابن أبي الموت ٥١  
 الموثّق ( لقب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن  
 أبي عامر ) ١٩٥

ابن المؤذن المرادي ابو الحسن ٣٠٠  
مورقة ٣٢٤  
موسى بن ابي بكر بن مزين ٢٠٩  
موسى بن عزرون ٧٨  
موسى بن مروان بن لحد ٢١١  
موسى بن نصير ٣٢٢، ٥٩، ٦  
ابو موسى بن أبي الحزم بن جهور المرشاني ٥٣  
الموفق ( لقب مجاهد العامري ) ٢٢٠  
مؤمنة بنت الغالب بالله ٢٨٧  
الميزاني ١٠٤  
ابن ميمون = علي بن عيسى ، محمد

## ن

النابلي ابو علي ٥٠  
الناصر ( لقب باديس بن جبوس بن زيري )  
٢٣٠  
الناصر ( لقب عبد الله بن بلقين بن باديس )  
٢٣٣  
الناصر ( لقب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله )  
٢٨  
الناصر ( لقب عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر )  
٩٠  
الناصر ( لقب علي بن حمود ) ١٢٨  
الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد  
المؤمن ٣٣١، ٢٧٠، ٢٦٩  
ابن نبيل = يحيى بن عمر  
نجاء العلوي ابو الفوز ١٤١  
نجاء الفتى ١٠٤  
النحاس ٥١  
نصر الفتى ١٠٤  
نصر بن محمد بن نصر ٣٣٧، ٣٣٤، ٢٩٤  
ابو نصر بن يحيى اليحصبي ٢١٠  
نظام الدولة بن احمد بن محمد بن قاسم ٢٠٨

هلال بن محمد بن سعد بن مردنيس ٢٧١  
أبو هلال = يوسف  
ابن الهمداني ١١١  
ابن همشك = ابراهيم بن أحمد ، مفرج  
ابن الهناء أبو القاسم المالقي ٣٠٠  
الهيثم بن عبيد الكلاني ٦

## و

واثق الفتى ١٠٤  
الوادياني ابو الفرج ٢٩٩  
واضح الصقلي ٤٨، ١٠٤، ١١٢، ١١٤  
١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨  
ابن واهد = يحيى بن عبد الرحمن  
الوحيدي أبو محمد ٢٥٥  
ابن وداعة ١١٨  
ابن الورد ٥١، ٥٤  
ابن وزير ( الناظر ) ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠  
٢٥١  
ابن وزير ( جد المؤلف ) ١٥  
ابن وضاح ١٢، ٥٧  
ابن وقار = يوسف  
الوليد بن عبد الملك بن مروان الاموي ٦  
٤٢، ٣٢٢  
ابو الوليد البافجي ٥٧  
ابو الوليد بن مقبل ٥٦  
وهب ٥٠  
وهب بن محمد بن محمود الاموي ٥٣  
وهب بن مسرة ٥١، ٥٢  
ابن وهبون = عبد الجليل  
الوهبي ( الناظر ) ٢٤٨

## ي

باقب ٦٧  
يحيى بن أحمد اليحصبي ٢١٠  
يحيى بن اسماعيل بن دنون المأمون ١٤٩،  
١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩  
١٧٧ - ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٩٦  
٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٣٠  
يحيى التيجي الانقر ٢٧  
يحيى التراس ١٠١  
يحيى بن حسن بن علي بن حمود ١٤٠  
يحيى بن سلامة الكلبي ٦  
يحيى بن عبد الله البشبي ٥٧  
يحيى بن عبد الرحمن بن واهد ٤٩  
يحيى بن علي بن حمود ١٢٧، ١٣١، ١٣٢  
١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٥٥  
يحيى بن علي ( ملك الزاب ) ٤٢  
يحيى بن عمر بن حسين ابن نبيل ٥٥  
يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق  
٢٩٦  
يحيى بن غانية ٢٥٣، ٢٥٤  
يحيى بن غران ٢٠٩  
يحيى بن محمد بن عبد الله بن الافطس ١٨٤  
يحيى بن محمد بن زرب ٤٨  
يحيى ( أبو منذر بن يحيى ) ١٩٦  
يحيى بن منذر بن يحيى ١٧٠، ٢٠٠  
يحيى بن واسنو الامير ١٩١  
يحيى حفيد يحيى بن اسماعيل بن دنون ١٧٩ -  
١٨٠، ٢٠٣، ٢٠٤  
يحيى بن يحيى الراوية ١٥  
ابو يحيى بن احمد بن صادق التيجي ١٨٩،  
١٩٠  
ابو يحيى بن أبي بكر بن مسعود المعاري ٢٩٩

## الفهرس الثاني

### في اسماء الاماكن

٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥	ابدة Ubeda ٢٩٣ ، ٢٧٢ ، ٢٦١
أشر Iznajar ٢٢٩	أربونة Narbonne ٣٣٥ ، ١٢
أشطوريش Asturias ٣٢٣ ، ٣٢٢	الارض الكبيرة Europe ٢١٩ ، ٦٧
آصلا Arzila ١١٩ ، ٤٢	أرغون Aragon ٢٩٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢
أطبية Teba ٣٣٥ ، ٢٩٣	٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨
أغرناطة = غرناطة	الارك Alarcos ٣٣١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
أغمات ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ١٦٥ ، ١٦٤	أركش Arcos ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ١٤٢
افراغة Fraga ٢٥٩	أرملاط Guadimellato ٩٨ ، ٨٩
افرانسية France ٧٤	١١٣
افريقية ٢٢٨ ، ٨٩ ، ٦٥ ، ٣٢ ، ٨	أرنيط Arnedo ١٧٤
٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٠	أريولة Orihuela ٢١١ ، ١٩٤ ، ١٩٣
اقريطش Crête ١٦	٣٣٥ ، ٢٥٨
أقليج Uclés ١٣٦	استجة Ecija ٧٦ ، ٣٢ ، ٢٨ ، ٢٢
آلة Alava ٢١ ، ١٩	٢٦١ ، ٢٥٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٠
البيرة Elvira ٣١ ، ٣٠ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ٨	أسترق Astorga ٦٩ ، ١٢
١٤٠ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ٥٦ ، ٣٢	أسطبة Estepa ٢٨
٢٢٨ ، ٢١٢ ، ١٥٥	أسفي Safi ٢٧٩
أم سلمة ( رض ) بقرطبة ١٠٣	الاسكندرية Alexandrie ١٦
انتقيرة Antequera ٢٨٨ ، ٢٥٥	أشبونة Lisbonne ٢٠ ، ٢٩٣
أنتيشة Atienza ٢٩٣ ، ٦٥ ، ٦٣ ، ٦٢	سبيلية Séville ٣٢ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٠
انجش ٣٤	٣٤ ، ٥٩ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٢٩
اندرار Andarax ٣٣٥ ، ٢٩٦	١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢
أندوجر Andujar ٢٥٣	١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
أنيشة El Puig de Cebolla ٢٧٢	١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤
ايليا El Padron ٦٧	١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤
باب السدة بقرطبة ١١٩	٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١
باب موسى بالمرية ١٩٢	٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٣٣١ ، ٢٥٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥	يدير الدمري ٧٠
٢٧٢ ، ٢٧١	ابن يربوع السبي ١٢١
١٧١	يعقوب الخواري ٦٧
٢٥٩	يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المنصور ٣٣١ ، ٢٦٩
٨٠٧	أبو يعقوب السلطان المريني ٢٩١
٢٧١ ، ٢٦٩	ابن يعلى الزناتي ٩٧
٢٨٧	يعيش بن محمد بن يعيش ٥٦
٥٤	عين الفتي ١٠٤
٢٣٣	عين الدولة ( لقب محمد بن عبد الله بن قاسم ) ٢٠٨
٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠	يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر ٣٠٨ ، ٣٠٦ - ٣٠٤
٣٣١ ، ٢٣٠	يوسف بن بخت بن أبي عبدة ١٤٧
٢٣٣	يوسف البطروجي ( الثائر ) ٢٤٨
٣٣٦ ، ٣٣١	يوسف بن تاشفين ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣
٣٣٢ ، ٢٨٨	١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٣
٥٥	٢٠٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢

مكتبة جامعة القاهرة









## الفهرس الثالث

### في أسماء القبائل والعشائر والاجناس

الاباضية ٢٣٧	الجلالقة ٦٩
الادارة ٣، ٣٧، ٤٢، ١٢٨	جور ( بنو ) ١٤٥ النح
ارنيان ( بنو ) ٢٣٨، ٢٤٠	حجاج ( بنو ) ٣٢، ٣٤، ٣٥
ازداجة ٦٦، ١١٩، ٢٤٣	حفصون ( بنو ) ٣٢ - ٣٤
اشقبولة ( بنو ) ٢٨٧ - ٢٩١	الحكيم ( بنو ) ٣٤، ٢٩٢
الاغلطرة ٣٣٥	حمود ( بنو ) ٣، ١٢٨، النح، ١٤٠، ٢٩٠
الافرنجة ١٢، ٢٣، ١٩٦	خلدون ( بنو ) ٣٤
الافطس ( بنو ) ١٨٢	دمر ( بنو ) ٧٠، ١١٩، ٢٣٨
الالانيون ٢١٩	دنون ( بنو ) ١٧٦، ٢٠٩
الانقليش ٢٠	الدليم ٦٩
الانكثير ٢٠	ذي النون ( بنو ) = دنون ( بنو )
البربر والبرابرة ٧، ٣٦، ٦٣، ٧٠	رزين ( بنو ) ٢٠٦
٨٧، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦	الروم ١١، ١٢، ٤٢، ٥٨، ٨٧
١١٢ - ١٢٠، ١٢٧ - ١٣٥، ١٣٧	١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥ - ١٧٦
١٤١، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٣	زناتة ٣٧، ٦٦، ٨٦، ٩٧، ٢٢٨
١٥٥، ١٥٦، ١٧٦، ١٧٧، ٢٠٥	٢٣٠، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٣٣
٢١١، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٦	زيري ( بنو ) ١١٩، ٢٢٧
٢٣٨	السنة ( بنو ) ٢٥٠
برزال ( بنو ) ١١٩، ١٣٧، ٢٣٦	الشاذلية ٣٠٠
٢٣٧	الشعبة ٣٢
برغواطة ١٤١، ٢٤٣	الصقالبة ١٢، ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٧٧
البشكنش والبشكنش ١٢، ٦٣	١٠٢
نجيب ١٨٢، ١٨٩	صادح ( بنو ) ١٨٩
الترك ٣٠، ٣٦	صناهجة ٦٦، ١١٩، ١٤٠، ١٩٠
الجزيريون ٢٤٣	

٢١٢، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠	مردنيش ( بنو ) ٢٥٩ - ٢٧٤
٢٠١ ( بنو ) طاهر	مروان ( بنو ) ٧، ٩٠، ٩٣، ٩٥
٤٧، ٤٣، ٤٤، ٤٧	١٠٩، ٩٦
عبد ( بنو ) ٣٤، ١٥٢، ٢٠٩	المريدون ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
العباسيون ٧، ٢٧٢، ٢٧٩	مريخ ( بنو ) ٦٨
عبد الحق ( بنو ) ٣	مسلمة ( بنو ) ١٨٢ - ١٨٣
غومس ( بنو ) ٧٠	المعاهدون ١٥، ١٨، ٣٣
الفرس ٣٦	مقراوة ٦٦، ١١٩
الفرنجة ٢٠، ٧٤، ١١٤، ١١٥، ٢٢٠	مكناسة ١٨٢
قاسم ( بنو ) ٢٠٨	الموحدون ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥
قسطان ٩٢، ١٨٢	٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥ - ٢٧٧
قريش ٩، ٩١، ٩٣، ١١١	٢٧٧
لحم ١٥٢	هابيل ( بنو ) ٢٧
لتنوة ١٥٥، ١٧٣، ٢٩٣، ٢٩٥	هاشم ( بنو ) ١٢٨
المجوس ٢٠، ٤١	هود ( بنو ) ١٧٠، النح
المدراريون ٢٤٣	يحيى ( بنو ) ٢١٠
المرايطون ١٦٣، ١٧٦، ١٨٤، ١٨٥	يفرن ( بنو ) ١١٩، ٢٣٨
١٩٢، ٢٠٣، ٢٤١ - ٢٦٤، ٢٦٥	اليونان ٣٦

## الفهرس الرابع

في أسماء الكتب الواقعة في هذا الجزء

خطيب ٣٦	« الإحاطة » لابن الخطيب ٣٠٦ ، ٣١٠
« رسائل اخوان الصفا » ٢٤٩	« أخبار الدولة العائرية » لابن حيان ٩٨
« ربحانة الكتاب » لابن الخطيب ٣٠٦	« الإنشاف » لابن المنذر ٥١
« طبقات القضاة » للخشي ٣٨	« البطشة الكبرى » لابن حيان ١٥١
« فلائذ العقبان » للفتح ١٦٠ ، ١٨٥	« تأريخ » ابن خنيس ٢٥٤
٢٠٦٠ ٢٠١	« تأريخ الميزاني » ١٠٤
« اللمعة البدوية » لابن الخطيب ٣٠٦	« التهيد والاستذكار » لابي الوليد الباجي ٥٧
« الماخر الطيبة ، في الماخر الخطيبة » لابن الخطيب ٣١٠	« توجيه حديث الموطأ » ( كتاب في ) ٥٢
« المتين » لابن حيان ١٢٧ ، ٨٤	« خلع الرسن ، في التعريف بأحوال أبي الحسن » لابن الخطيب ٨٠
« المدارك » لابي الفضل عياض ٥٧	« خلع النعلين » لأبي القاسم بن قسي ٢٤٩
« المدونة » ٥٠	« الدلائل » ( مختصر ) لابن عبد ربه ٥٤
« المطمع » للفتح ٢٠٢	« الذخيرة » لابن بسم ٥٩
« المظفر » للمظفر ابن الأقطس ١٨٣	« ذكريات » عبد الله بن بلقين بن زيري ١٩٨
« المغرب » ١٨٩	« رسالة الفلك ، في سياسة الملك » لابن
« المغرب » ٢٠٠	
« الموطأ » ( شرح على ) لابن الخداه ٥٥	

## NOTE BIBLIOGRAPHIQUE

I. — Le **Kitâb A'mâl al-a'lâm** fait l'objet d'une mention des auteurs maggribins suivants :

al-Makkarî, **Nath at-tîb**, éd. du Caire, 1302-04 H., IV, p. 244 ;

al-Makkarî, **Azhâr ar-riyâd**, éd. de Tunis, 1322 H., I, p. 177 ;

al-lfrânî, **Nuzhat al-hâdî**, éd. Houdas, Paris 1888, p. 259 ;

al-Kattânî, **Salwat al-anfâs**, éd. de Fès, 1310 H., III, p. 189 ;

an-Nâsirî, **Kitâb al-istiksâ'**, éd. du Caire, 1312 H., II, p. 133 .

II. — **Description des manuscrits :**

Sur le ms. de la Bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn, cf. A. Bel et 'Abd al-Haiy al-Kattânî, **Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El-Qarouiîne à Fès**, Fès, 1918, p. 101 (no 1286) .

Sur le ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger (no 1617) et la copie faite pour Codera, cf. F. Codera, **Mision historica en Argelia y Tunez**, Madrid, 1892, p. 155 sqq., 177-178 ; E. Fagnan, dans la **Revue Africaine**, 1890, XXXIV, p. 259-292 ; le même, **Catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothèque-Musée d'Alger**, Paris, 1893, p. 449 .

Sur le ms. de la Bibliothèque de l'Académie d'Histoire de Madrid, cf. F. Codera, op. cit.

Sur les mss. de la Bibliothèque de la grande-mosquée az-Zaitûna à Tunis, cf. M. Roy, **Extrait du catalogue des manuscrits... de la Grande Mosquée de Tunis**, vol. I, Tunis, 1900, no 4936 et no 4937 .

III. — **Editions et traductions partielles :**

1o Chapitres sur Mujâhid de Dénia et son fils Ikbâl ad-dawla (présente édition, pp. 217-222), dans F. Codera, **Mochéhid, conquistador de Cerdana (Centenario Nichele Amari, Palerme, 1910, vol. II, pp. 130-133)** .

2o Liste des chapitres ; chapitres sur les 'Ubaidides et les Zirides d'Ifrikiya ; chapitres sur l'histoire de la Sicile, dans H. H. Abdul-

Wahab, **Contribution à l'histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile** (ibid., vol. II, pp. 427-482) .

3o Chapitres sur les révoltés de l'Algarve à la fin de la dynastie almoravide (présente édition, pp. 248-252), dans David Lopes, **Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano**, Lisbonne, 1911, pp. 130-137 .

4o Chapitre sur les rois chrétiens d'Espagne (présente édition, pp. 322-338), dans M. M. Antuna, **Una version arabe compendiada de la « Estoria de Espana » de Alfonso el Sabio (Al-Andalus, vol. I, 1933, Madrid-Grenade, pp. 105-154)** : cf. mon compte-rendu dans **Hespéris**, tome XVIII, 1934, p. 102 .

IV. — Cf. aussi Brockelmann, G.A.L., II, p. 262 (4) ; A. Prieto Vives, **Los Reyes de taifas**, Madrid, 1926 .

Le **Kitâb A'mâl al-a'lâm** n'est pas cité dans l'article consacré à Ibn al-Khatîb par C. F. Seybold, dans l'**Encyclopédie de l'Islam**, vol. II, p. 421 .

de composition du Kitâb A'mâl al-a'lâm, dont le titre lui-même explique le but que se proposait Ibn al-Khatîb en l'écrivant : pour le dédier à ses protecteurs, le sultan et son vizir régent, il désirait consacrer un ouvrage à la relation des règnes de tous les princes musulmans qui avaient reçu l'investiture avant d'avoir atteint l'âge de puberté. Ce n'était évidemment là qu'un artifice et un prétexte. Ce cadre historique étroit fut tout de suite rompu par Ibn al-Khatîb, qui se mit à l'œuvre pour grouper les éléments d'une grande histoire musulmane universelle, peut-être une sorte de pendant de celle de son contemporain Ibn Khaldûn, et dans laquelle le Maghrib et l'Espagne devaient certainement tenir la place la plus considérable.

\*  
\* \*

On pourra trouver dans la contribution de M. H. H. Abdul-Wahhab au Centenario de Michele Amari le détail des titres de chapitres de la première partie du Kitâb A'mâl al-a'lâm, consacrée à l'Orient, et de la troisième, consacrée à l'Afrique du Nord et à la Sicile. Cette dernière partie semble bien être demeurée inachevée : la dynastie almohade est loin d'y occuper la place qu'elle mérite, et l'histoire des Mérinides, des 'Abdalwâdides et des Hafsides n'y est même pas abordée. Tout y décèle, comme l'a très bien fait remarquer M. H. H. Abdul-Wahhab, la hâte de l'auteur, qui aurait rédigé l'une des parties de son livre, sinon l'ensemble, dans l'espace de quarante jours à peine, si l'on en croit du moins une indication portée sur un manuscrit.

Il n'en est pas de même de la seconde partie, qui traite de l'histoire de l'Espagne musulmane et forme l'essentiel de tout l'ouvrage. On s'en aperçoit au premier examen du contenu. Si Ibn al-Khatîb passe assez rapidement, en suivant d'ailleurs d'assez près le Kitâb al-Bayân al-mughrib d'Ibn 'Idârî al-Marrâkuchî, sur les événements d'Espagne antérieurs au X<sup>e</sup> siècle de J.-C., l'histoire postérieure est au contraire le plus souvent traitée avec une abondance et une précision auxquelles les chroniques publiées jusqu'ici ne nous avaient pas encore habitués.

Il y a d'ailleurs longtemps que l'importance de la partie espagnole du Kitâb A'mâl al-a'lâm avait été soulignée. Dès 1892, l'orientaliste F. Codera la signala au monde savant et forma le souhait qu'une édition en fût publiée. C'est ce vœu que nous

nous sommes attaché à réaliser, le jour où il nous a été possible d'utiliser le manuscrit qui se trouve à la bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn à Fès, et qui est sans conteste le meilleur de ceux dont on dispose actuellement. Il nous a été en effet facile de nous rendre compte que tous les manuscrits connus de l'histoire d'Ibn al-Khatîb (mss. d'al-Karawîyîn, d'Alger, de Tunis et de Madrid) appartiennent à la même famille et qu'ils présentent les mêmes lacunes, y compris l'arrêt brusque du récit marqué dans la présente édition à la page 286. L'abondance relative des copies n'a dans ces conditions pas rendu très aisé l'établissement d'un texte, qui, trop souvent, est d'une extrême concision et est rédigé dans une langue très littéraire, qui n'est point celle de la plupart des chroniqueurs occidentaux.

\*  
\* \*

Nous nous félicitons de l'initiative du Dar al-Makchouf de Beyrouth de publier une édition nouvelle du Kitâb A'mâl al-a'lâm, bien plus soignée que la précédente, qui est depuis longtemps épuisée, et pourvue des voyelles essentielles.

## INTRODUCTION

Le Kitâb A'mâl al-a'lâm fi-man bûyi'a kabl al-ihtilâm min mulûk al-Islâm, dont une grande partie, relative à l'histoire de l'Espagne musulmane, fait l'objet de la présente édition, est l'un des derniers en date parmi les nombreux ouvrages que composa, au cours de sa vie mouvementée, le célèbre homme d'État et littérateur grenadin du XIV<sup>e</sup> siècle, Lisân ad-dîn Muhammad Ibn al-Khatîb. Plusieurs orientalistes, F. Codera, E. Fagnan, H. H. Abdul-Wahhab, et, en dernier lieu, M. M. Antuna, qui ont décrit ce livre ou en ont publié des extraits, ont tour à tour indiqué dans quelles circonstances il fut composé. On se bornera, en renvoyant à leurs travaux, à rappeler brièvement ces circonstances.

Après avoir, pendant plusieurs années, joué un rôle considérable à la cour nasrite de Grenade auprès du sultan Muhammad V, dont il était le premier ministre, Ibn al-Khatîb dut, en 773 (1371), s'exiler d'Espagne à la suite d'accusations portées contre lui par ses détracteurs et passer au Magrib, où il se réfugia, à Tlemcen, auprès du sultan mérinide Abû Fâris 'Abdal-'Azîz. Celui-ci lui fit le meilleur accueil et refusa de le livrer au gouvernement de Grenade, comme ce dernier le pressait de le faire. Mais Abû Fâris mourut l'année suivante (774 – 1372), et son fils Abû Zaiyân Muhammad as-Sa'id, qui n'avait pas quatre ans, fut proclamé à sa place. Ibn al-Khatîb fit alors tous ses efforts pour se concilier les bonnes grâces du régent du royaume mérinide, le vizir Abû Bakr Ibn Ghâzî. Effectivement, pendant le court règne du prince-enfant, Ibn al-Khatîb jouit d'une entière immunité. Mais lorsque bientôt Abû Zaiyân fut déposé et qu'Abû 'Abbas al-Mustansir fut proclamé à sa place (776 – 1374), le malheureux exilé fut en proie, non sans raison, aux plus vives inquiétudes. On sait les conditions lamentables dans lesquelles, après avoir été emprisonné à Fès, il y fut étranglé une nuit par les émissaires de l'un de ses ennemis personnels les plus acharnés à sa perte.

C'est dans le court intervalle qui sépare la proclamation du petit souverain mérinide Abû Zaiyân et sa déposition, c'est-à-dire entre 774 et 776 (1372-1374), que se place exactement la date



LISAN AD-DIN IBN AL-KHATIB

HISTOIRE  
DE  
L'ESPAGNE MUSULMANE

(KITAB A'MAL AL-A'LAM)

TEXTE ARABE

PUBLIÉ AVEC INTRODUCTION ET INDEX

PAR

**E. LÉVI-PROVENÇAL**

Professeur à la Sorbonne  
Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques  
de l'Université de Paris

DAR AL-MAKCHOUF

BEYROUTH

1956